تاريخ (نقدي) لعقد التسعينيات

من نهاية كل شيء إلي بداية شيء ما



المركز القومى للترجمة

إشراف
فرانسوا كوسيه

مراجعة
رشا صالح

ترجمة
ناهد عبد الحميد إبراهيم

3203

فرانسوا كوسيه
تاريخ نقدي لعقد التسعينيات
3203

تاريخ (نقدى) لعقد التسعينيات

من نهاية كل شىء إلى بداية شىء ما

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: كرمة سامى

- العدد: 3203
- تاريخ (نقدى) لعقد التسعينيات: من نهاية كل شيء إلى بداية شيء ما
- فرانسوا كوسيه
- ناهد عبد الحميد إبراهيم
- رشا صالح
- الطبعة الأولى 2022
- التصحيح اللغوى: عثمان الدلنجاوى

هذه ترجمة كتاب:

Une Histoire (Critique) Des Années 1990
De la fin de tout au début de quelque Chose
Sous la direction de: François Cusset

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ (نقدى) لعقد التسعينيات

من نهاية كل شىء إلى بداية شىء ما

إشـــــراف: فرانـــــسوا كوســـــيه

ترجمـــــة: ناهد عبد الحميد إبراهيم

مراجعـــــة: رشـــــا صـــــالح

2022

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كوسية ، فرانسوا
تاريخ نقدى لعقد التسعينيات / ترجمة : ناهد عبد الحميد إبراهيم
القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠٢٢
٤١٢ ص، ٢٤ سم
١ – النقد
(أ) إبراهيم ، ناهد عبد الحميد (مترجم)
(ب) العنوان ٨٠١,٩٥

رقم الإيداع ٢٠١٨/٥٧٩٤
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977-97- 1389- 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

مقدمة: معرض وكتاب

أُعِد تصور هذا المؤلف بمناسبة إقامة معرض مركز بومبيدو – ميتــز بعنــوان "عقد: ١٩٨٤-١٩٩٩" الذي أُسند تنظيمه إلى ستيفاني موادنــو ودومينيــك جــونزالز فورستر في الفترة من ٢٤ مايو ٢٠١٤ إلى ٢ مارس ٢٠١٥ . لا يُعد هــذا المؤلــف تبويبًا للمعرض، ولا يقتصر على مضمون محتواه فحسب؛ إنما يشتمل علــى وصــف تاريخي أفقي، ومتعدد الاختصاصات، وملتزم للغاية، لحقبة لم تحظ حتى وقتنــا هــذا بدراسة تاريخية أحادية وافية، سواء باللغة الفرنسية أو الإنجليزية. أسهم العديــد مــن العوامل – التي يتمحور حولها الاثنا عشر فصلاً، والتي يحتوي كلٌ منها على وجهــة نظر قوية وفريدة – في إضفاء صبغة تاريخية على هذا العمل؛ معلوماتية بقدر ما هــي نقدية، وجماعية ومتوازية، حتى وإن لم تكن شاملة. ترتكز هذه الــصبغة علــى أطــر موضوعات تتعلق بالأحداث المهمة؛ وعلى ثلاثة وعشرين نصا استشهاديا حول هــذه الحقبة الزمنية، وعلى تسلسل تاريخي مفصل للأحــداث، وببليوجرافيــا انتقائيــة. وإذا كانت الظروف الأساسية التي ألهمت إعداد هذا المؤلف لا يظهر تأثيرها واضحًا بــين طياته، فقد كان له ثلاثة تأثيرات؛ التأثير الأول يتمثل في أنه عمــل سياســي وثقــافي صرف، بدءًا من الحقبة التي اتسمت بالتوافق (في الأفعال والأفكار على حــد ســواء) بين الصراعات الطبقية، والابتكارات الشكلية، والجدل السياسي، والمقترحــات الفنيــة، والانتصار الظاهري لديمقراطية السوق الحرة، والطفرات الثقافية بمعناهــا المــزدوج الذي يشتمل على الازدهار والتغير. التأثير الثاني، يتلخص في أن هذا الكتاب يــشتمل على الرأي المسبق للمعرض؛ لأن القائمين على تنظيمه وتنظــيم معــارض أخــرى، اعتقدوا أن هذا المؤلف يُعد بمثابة شبكة مقروءة وثمينة لفهم نهاية القرن العشرين، مــن

حيث ظهور بعض أشكال الاعتراضات الجوهرية، والتجاوزات الفنية الناقدة للمجتمع الجديد، التي أخفقت الواحدة تلو الأخرى – سواء لتعرضها لظروف معادية أو لمساوامات تفاوضية أو لفترات ضارة – وجميعها تجارب عابرة، لكن مثبتة؛ لذا وجب علينا التنويه لتأثيرها مادام أنها أثارت الرياح التي قد تثير العواصف في عصرنا الحالي. التأثير الثالث، يكمن في أن الكُتَّاب ومنظمي المعرض على حد سواء، اختاروا ألا يتم تناول الموضوع بطريقة فرنسية أوعالمية بحتة؛ واقترحوا صياغة هذه الحقبة بصيغة دولية تحتذي بقوة بالنموذج الفرنسي، وتكرر بصفة أساسية النماذج الغنية منه، والمليئة بالمتناقضات التي تتدرج في السياق الدولي. فيما يتعلق بالمرحلة العمرية للمؤلفين الذين يضمهم هذا الكتاب، حتى وإن لم تكن هناك إستراتيجية متعمدة أو أي سمات جيلية لاختيارهم، (إذ تعتمد في الأساس على المصادفة البحتة والعمل المشترك المتوافق)، فإنها تضمن على الأقل أن البعد النقدي المطلوب على الدوام في هذا العمل يزدهر على أرض واقعية، ومن خلال تجارب إن لم تكن مشتركة، فإنها على الأقل عصرية. والأمر ينطبق على الكتاب وعلى الفنانين المطروحين في هذا العمل؛ فقد كان لزامًا علينا التنويه لهذه النقطة حتى نتمكن من المرور من نهاية كل شيء إلى بداية كل شيء.

نتقدم بخالص الشكر لدومينيك جونزالز فورستر، الذي سيكون موضوع دراسة وافية في مركز بومبيدو عام ٢٠١٥؛ وهو الذي قام بإعداد المشاهد التصويرية لمعرض "عقد: ١٩٨٤– ١٩٩٩". كما أننا نعبر عن امتناننا لفرق العمل بمركز بومبيدو، ولبرنار بليستان، مدير المتحف الوطني للفن الحديث، ولأفريد باكمون، الذي تابع باكورة هذا العمل، وللفنانين كافة، وللممولين، وللكتاب، ولكل من أسهم في تنظيم المعرض وفي إعداد هذا المؤلف.

أخيرًا، نتوجه بالشكر لدار نشر La Découverte ومؤسسة Fundacion Almin Ruiz – Picasso para el Art التي يرجع الفضل إليها في إتمام هذا العمل ونشره.

آلان سيبان Alain Seban — **لوران لوبون Laurant Le Bon**

رئيس مركز بومبيدو – ميتز — **مدير مركز بومبيدو – ميتز**

ستيفان موادون Stéphane Moidson — **فرنسوا كوسيه François Cusset**

مبعوث المعرض

تمهيد

خارج الزمن

فرانسوا كوسيه **François Cusset**

إنه زمن دون لون، ولا وجه، ولا حاضر مُثقَل. إن معارض صوره وقوائم مآثره لا تنم عن شيء؛ هي مجرد بطاقات بريدية مستوحاة حديثًا من الماضي. إذا اصطبغ هذا الزمان بألوان محددة، زاهية كانت أم قاتمة، وإذا قام بتجسيد شيء ما، فهو ليس إلا أكذوبة لأمر انتهى في التخيلات الاجتهادية لمؤرخيه؛ حتى إذا حاولوا انتقاء أسراره، وكشف أموره المختلطة، ونسيان كل ما هو مهجور لوجود الأفضل منه، أو كل ما يعارض مجمل تماسكه؛ إنه زمان يعكس الصورة الواضحة لهذا العصر. فالزمن في حاضرنا هذا لا يماثله شيء؛ لأننا نتطور مع التيار وفقًا لمجراه، ودون بوصلة الأحداث الماضية؛ ووفقًا لزمان يتمتع ببراءة الأطفال، وسذاجة ألعاب فيديو "أسماك الزينة" التي يلهون بها، ويتسم بنضارة الأزمان الماضية القلقة، الفريدة في نوعها؛ ولأن أي استعادة للماضي وأي إتاحة لفرصة أخرى، ليس في مقدورها أن تعيد لهذا الإحساس المشوش والمندثر مع هذا الحاضر، سلامته مرة أخرى. في أعماق هوة الحاضر، وفي خضم الحياة، لا تستطيع أي نظرة شاملة أن تفصل بخطى ثابتة هذا الزمن عن أي زمن آخر، أو عن مجرى الزمن ذاته؛ لأنه عبارة عن بانوراما وهمية في حد ذاتها لا يمكننا الحصول عليها، في غفلة من الزمن، إلا بعد تجاوز حواجز الحاضر، ومعاودة الصعود إلى حافة الهاوية بعيدًا عن الأعماق والحرارة التي تتصاعد من أسفل إلى أعلى. الأمر يتطلب إذن – وهو أمر يعلمه الطفل وتتعلمه "سمكة الزينة" في لعبة الفيديو التي يلهو بها الطفل في كل لحظة – عودة زمان آخر يستطيع إزاحة الزمن الحالي ويتمكن من محو غموضه أو التظاهر بإدراك معناه. إنه

زمن يحتاج إلى ترك مساحة بين الفعل وأجهزة الذاكرة وحدودها الكامنة؛ لأننا توقفنا عند السرد الحيادي لأحداث المعارك التي مضى عليها ٢٥٠٠ عام؛ أي بعد أكثر من قرنين من السرد التعاقبي لروايات تدعي الموضوعية، وبعد مرور بضعة عقود بالكاد على طرح بعض المؤرخين مبدأ التاريخ الحديث. إن علينا الخضوع الآن وبصفة مستمرة لهذا الغموض؛ إذ نجد أنفسنا في مواجهة أحد الأوضاع التي تتلاشى بالفعل في علاقات القوى، وأمام دعوات بلا آراء، وروايات لا قيمة لها ولا يمكن توثيقها. إننا نواجه الآن فشلنا في استرجاع الحاضر الهارب؛ ندين أنفسنا، ونشعر بالندم على الوضع الحالي وعلى بريقه الذي اختفى؛ هذا الندم الذي يصنع القرون الأدبية والألفيات الدينية. إننا نتألم بالأحرى من عدم تمكننا من تحديد شكل الزمن الذي نحياه، والذي يكاد يتلاشى، لكنه لا يزال موجودًا منذ عهد قريب في حياتنا؛ لا يزال ينبض بصباح الأمس ويشعر بدوامة الحب، والحرب، والابتكار، والأوهام، ونضاله الموضوعي المتشابك، وشططه الذاتي الذي سريعًا ما يندثر. وتتلاشى من ذاكرتنا عرى كل تلك العلاقات، لكننا نثابر؛ إذ نستمر في السرد وفي الخداع والنفاق، ونسعى إلى تدوين الأحداث والأنماط الفنية كافة، بدءًا من المغامرات المثيرة وحتى الأحداث الحاسمة، ومن الرقص على أطراف الأصابع وحتى فن التمثيل الصامت، متفادين بحذر وصف فوهات البراكين والأدخنة المتصاعدة منها، وآثارها وأخاديدها، والأجسام المتحجرة والحمم المتجمدة التي تركن بحذر على فوهاتها الخامدة، في الجانب السليم منها، كما لو أنها تتأكد أنها سوف تتمكن في لحظة ما من الابتعاد عن ألسنة الحريق وإخمادها. إننا نتجاهل دائمًا وسط هذا الخضم بريق الحاضر؛ لقد قُضِي الأمر، وانتهى عهد جمع المعلومات، والحنين للوطن، والاستشهادات، والحوليات.

إن النسيان، هذا الفن القديم يتضح بصورة أكبر، عندما يتعلق الأمر باللازمن، وبالعصور المنسية والحقبات التأويلية، ويصبح أكثر تجردًا أمام الأزمنة التي تفتقر للسطحية والعمق، والتي تعد حقبة لنهاية شيء ما، ونهاية مؤكدة لفترة ما؛ هذه الأزمنة المتواضعة ودون هوية واضحة، والحريصة بوجه خاص على شحذ الجانب البارز الذي تميل إليه، والتي تميز - كيفما تشاء - بين عصر متقدم وعصر متأخر؛ تلك

الأزمنة على أتم استعداد للتضحية بثقل الحقبة النادرة كي تتمكن من عرض منعطف تتجاوزه هي، ومن خداع كل من يجرف إلي فوضاها حقيقة الحاضر. إن هذه الأزمنة، التي تطمس ذاكرتها، لا يمكن وصفها كذلك لأنها مقصورة على تحديد وتبرير وتمييز ما يتعلق بها دون غيرها، وتتفانى في الاختفاء وراء مصلحتها المتمثلة في تعريف حقبة انتقالية وهمية، أو استدعاء لحظات عابرة لوصفها بصورة انفعالية؛ وهي أزمنة – وفقًا لتعريف خلفائها وفكر العامة – تتقاسم نهاية بداية حقبة طويلة سبق بالفعل تعريفها ومن المفترض انتهاؤها، أو حقبة سبق وصفها وفي طريقها للظهور. إنها اختلاق ثلاثي الأبعاد بالتأكيد للماضي والحاضر والمستقبل بتتابعها المتدرج؛ وتلاعبها بالعصور السابقة، وخاصة الحقبة الانتقالية بألفاظها الكبيرة المرعبة المعبرة عن كل ما ينتهي وكل ما يبدأ؛ وبالحاضر المضمحل على الدوام وفترة وئامه المتواضعة. إنها نشوة تغيير مضلِلة؛ تغيير لألفاظها المتصنعة، ومضمونها المشوش الذي يتردد كثيرًا في الأحاديث، ويتكرر بصورة رتيبة، ويفرض نفسه كالعقيدة. ورغم ذلك فإن أسطورة الحقبة الانتقالية والعابرة، والأوهام المتعلقة بالبدايات والنهايات، لا توجد إلا لتخفي الأمور غير الزائلة، وتتستر على الأشياء المستدامة المخزية؛ كي تتمكن من إلغاء التفكير، على مدار الزمن، في التغيير الجماعي أو المحفز عليه، وفي احتمالية قبول أمور جديدة أو إنكار الذات؛ وكي تتمكن من استبدالها بالأمور المتعذر بلوغها على المدى الطويل، أو توجد في حقبة لا نهاية لها، مع تجميلها بسطح جديد لامع، ومع إشراكها في مساومة التحول الكبير. إنه زمان يصف نفسه، أو يصفه مؤرخوه الرسميون – مدونو تاريخ الطبقات الراقية أو العامة – بأنه عصر نهاية حقبة ما؛ وهو دائمًا زمان بلا مجد ولا حياء، له حاضر متناقض؛ زمان لا يعرف الحب، ويرغب في نسيان شبهاته الحزينة بعد أن يحول نفسه إلى خادم لقضية أكثر إلحاحًا؛ زاعمًا مساندة القوى العليا أو معتقدًا أنه يستطيع تحريك البيدق بنفسه على الساحة التاريخية. إن أقصى ما يستطيع تحقيقه هذا الزمان النرجسي، هو إبراز أحد الانعكاسات المواتية لذاته في مرآة المشهد التاريخي؛ أي المنعطف الكبير الذي يتجلى في سرداب المرايا. ويصبح التضليل كاملاً عندما نتحدث عن أكذوبة النهاية، وعن هذا

السراب أو هذا الضيق بالحقبة الانتقالية الكبرى؛ بالإضافة لخطر الأرقام والتحليل العددي الذي يتردد في الكلام الطنان عن العد التنازلي، والضجر الأزلي الذي يعود إلى آلاف السنين. وفي خضم هذا التشابك اللفظي للكلام والأرقام، والأحاديث المملة من جانب، والإفلاس الرنان المتكرر من جانب آخر، يضيق الخناق على الجسد ليشل حركته تدريجيًا، ويؤدي إلى خمول الأذرع، ويستهوي العقول، ويعرقل ردود الفعل الثائرة وأشكال الصمود المتذبذبة جميعها؛ عبر الغطاء الخفي لزمان متسلط، زمان أصبح هو السلطة الوحيدة لأحاديث مضجرة لا نعيرها اهتمامًا أبدًا؛ وعبر البرهان الفظ الذي لا نعلم كيف آمنا به جميعًا. وسوف ندرك قريبًا كيف حدث التقارب بين الوعود بسلام دائم، وأسوأ الأكاذيب الملفقة التي أطلقها الروائيون السابقون في عصور أكثر استبدادًا بطبيعة الحال. وسوف نستيقظ، لكن بعد فوات الأوان، من الغيبوبة الجماعية عندما يتمكن منا الشر، وعندما يفرض علينا بالغصب والإكراه، هذا التغيير الصاخب الذي سوف يظهر على الساحة بالفعل.

خلاصة القول، إن مثل هذا العصر سوف يضيف إلى الحواجز الحتمية لاستعادة الماضي، وإلى بُعد هذا الحاضر المفتقر للصفات، الحواجز التوجيهية الأكثر ضررًا؛ إذ سوف يفرض غطاء الانفعال اللين والكلام المنمق، على الساتر الواضح للنسيان. إنه عصر الخداع المضاعف، الذي يستلزم تملصًا مزدوجًا للإفلات منه، ويتطلب تصنُّعًا يليه انعطاف لتجنب السقوط فيه. إنه عصر مضلل، ومُدَلّس ومدع؛ تحجُب فيه الكلمات والأشياء، ويسير العالم خلاله في اتجاه معاكس، وتنقلب المؤخرة فيه على المقدمة. إنه عصر يؤدي تسارع الأشياء فيه إلى إخفاء الجمود الذي يصيب كل شيء؛ وعلى العكس من ذلك، نقبل خلاله ودون تردد – كما لو أن الذي سنقبله يعد تقدمًا للإنسانية– أن يكون هدفنا الوحيد هو الإسراع بكل شيء باعتباره وسيلة خضوع جديدة، وضمانًا لسلطة مستحدثة، وتحقيق انقسام لا يغتفر للمقهورين. إنه عصر يحجب خلاله العبث الشديد –بأساليبه الجديدة وقانونه المتعلق باللهو المبالغ فيه– والعنف المغالي للعلاقات الاجتماعية؛ وتختفي كذلك، وسط صخب اللهو والعمل، أصوات السلطة وضربات صد الطغيان والخضوع التي أصبحت غير مسموعة، مثلها

في ذلك مثل خطوات العملاق الثقيلة التي تخطو على الجليد؛ وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه القدرة على الحياة والموت غير ذات جدوى إذا حاول أيٌّ كان أن يلهو فعليا لتوضيحها. إلا أنه عصر ينتشر فيه العنف ، بعيدًا عن أي جدل، في اتجاهين واضحين؛ العنف المباشر للسلطات القديمة التي عادت إلينا مدججة بالسلاح في صحو النهار، والعنف الناجم عن الرقابة الجديدة؛ هذا العنف الباطني والرمزي الذي يعي جيدًا كيف يتشارك مع المقهور في قهره كي يتمكن سريعًا من الاستغناء عن الرقابة الخارجية له، التي سيتكفل بها بكل همة مساندًا في ذلك وهم رضائه؛ ذلك هو الوجه الآخر لخداع العصر. من جهة أخرى، إنه عصر تظهر لنا فيه العلاقات الطبقية – التي لم يصبها التغيير، والحانقة والغاضبة لاتساع الفجوة بين الأغنياء وحلم الطموحات الضائع – وكأنها طبقات مسالمة مؤازرة للجمال، تجمع بين المنافسة السوية وأنماط الحياة، والعادات التي لا يتحدث عنها مخترعوها الصامتون . إنه نهج تتخذ فيه انتفاضة الطبقات اتجاهًا عكسيا، وهو نمط آخر من الكبت يقضي على الطبقية والصراعات التي تمزقها؛ كما لو أن هذا النهج نشأ كي يخفي عن الأنظار لب صراع الحداثة لاستبداله بفضائل التنوع والمهادنة السلبية، وبحقبة ما بعد الحداثة. بالإضافة إلى ذلك، هو عصر يبدو خلاله الصراع الذي ينشب في جسد الإنسان كله، كما لو أنه لا يعارض الادعاء الكبير بالمصالحة؛ عصر يستقبل الأمور العارضة، والخطأ الحتمي بوجه عذب؛ إنه قدر موحش يغذي المؤرخين المكتئبين، ويحول الصراعات التاريخية إلى كوارث طبيعية. إنه عصر يبخس الأمور الكونية، ويعظم الأمور الدنيوية، المرادفة فيما بعد لسياق التطور الحيوي؛ هو عصر يعمد إلى خرق الأمور كافة، ويتخفى على مر الزمان في سمو تعظيمي، ويتباهى بتقليص كل شيء بصورة كبيرة واستعراضية؛ تقليص الرؤى الفردية والتطلعات الجماعية؛ تقليص الروابط بين المعاصرين قليلي الشأن والخاملين ومثيري الشفقة؛ تقليص الأصوات التي تنشد بلوغ الرفاهية بعيدة المنال والرضاء الحقيقي. إنه عصر تظل فيه عظمة البعض كامنة في طيات خسة الزمن، وفي ظل دناءة الصغائر، حتى الصحية منها، التي يطالب بها المتحمسون للديمقراطية التامة على حساب الأيديولوجيات القاتلة، لكن مع كبح أقل

إحساس بالنفور. إنه عصر تستسلم فيه العقول المختنقة - التي تعاني من ندرة الهــواء وأمل الارتقاء - لنزوات السقوط الدنيئة عند بحثها، على غير هدى، فى اللغط المنفر، وفي مستنقع الفضيحة، وفي مودة الأقوياء التي تدعو إلى الرثاء، ونسيان العالم للشعور بإحساس أفضل. إنه عصر لا يعرف الكياسة، ولا تجد فيه أجـساد الـشباب - التـي تُستَدعى وتُقوم وتُعظم وتُشَكل وتُحمى من كل شيء - أرضية مشتركة سـوى وسـيلة واحدة للتواصل، نظرًا لافتقارها لسياسة منظمة أو لرابط أكثر فتنة؛ ألا وهي الـرقص المروع ونشوته الخارقة. إنه شباب يُقصِر اللا زمن على إيقاع واحد، ويجتمـع علـى أرض بور أو على أطلال حرفة ما، ويسعى إلى الزج، وعلى مدار ثلاثة أيـام، بهـذا الكيان الجماعي داخل تصدعات الفوضى الممنهجة، ويعاني من الفـراغ القـانوني. إن أقصى ما يستطيع أن يفعله الشباب الهوائي؛ هو التجمع في أوقـات الحاجـة وخيبـة الأمل، وقصر رد فعله على التكيف مع الأمور القاتلة. بالإضافة إلى ذلك، هو عـصر استطاعت خلاله بالكاد أنواع عديدة من الرياء، والكذب، والنيات السيئة، والاختلافـات الودية، إيقاظ الأشباح الغافلة التي لا تزال تشعر بكل ما يحدث، والتي احتـسبناها مـن الأموات وأردنا القضاء عليها ، والأطياف الرصينة أو التافهة إلى حد ما؛ تلك الأشباح والأطياف التي لا تلتفت إليها النداءات البلهاء المطالبة بالعودة للواقع، والتي تنطلق من نشوتها بالواقع وبالواقع المفرط، ومن وعظها الـواقعي، ومـن خيبـة أملهـا المرنـة والوقحة، كي لا تصبح موضع شبهات. كلما قلَّ انخداعنا، فـي الواقـع، بتحريـضات الزمن، زاد أكثر اندساس الأشباح داخلنا واتـسع مـداها؛ لأن الأصـوات الجامحـة والهياكل الزاحفة تنجح في إيقاظ الذين يغطون في النوم؛ تمامًا كفـيلم خيـالي ينتهـي بتمرد نشط للأشباح الذين ينجحون بواسطة الرعب والسرور الذي يثيرونه، في سحب المعزولين من ثبات الرفض ومن نعاسهم العقائدي، الواحد تلو الآخر دون ترتيب لتلـك المعركة. إنه عصر الأمل؛ لأن نثار البارود أعاد إلى ذاكرتنا الأمـس المغـرد. لقـد ظهرت بارقة أمل، لا تزال مترددة بالتأكيد من أنماطها، بارقـة تنبثـق مـن بعـض التحصينات الفريدة في نوعها وشديدة التنافر؛ لكنها ظهرت كي تؤدي إلى نشأة صحوة فوضوية صائبة. غير أن تلك الفوضى وتلك الصحوة تخفق؛ إذ اعترضها ذات صـباح

انتفاضة أو حادث عارض تحت سماء صافية خالية من السحب؛ انتفاضة كانت مطلوبة لتعديل الأولويات رسميًا في مواجهة شعب ثار في نهاية المطاف؛ ومطلوبة كذلك لمنح السلطات اختلافًا محمودًا، وهدنة من الخداع المتمثل هذه المرة في إفك عاودت الحضارة خدمته بكآبة، وأزالت جموده بقذارة. إن هذا الزمان الجديد يمكن تعريفه على الأقل، بخلاف الأزمنة السابقة المضطربة؛ إذ تمكن – أكثر من الأزمنة الأخرى – من تجنب الانقسامات الرسمية، وتحول إلى رماد في عيون المنافقين الهواة. إنه عصر غازي تظهر في إحدى فقعاته الكاسحة، الأمور الغامضة التي ينبثق عنها في نهاية الأمر العبقريات، والعقول النيرة، والأحوال المتطورة؛ أو بمعنى آخر ثباتنا الداخلي الذي انتعش من جديد بصورة فجائية. خلاصة القول، هو عصر اضطررنا أثناءه – بعد أن غمرنا سواد الدخان – إلى تحرير عفاريت الانشقاق والعصيان من زجاجة الجني علاء الدين؛ تلك العفاريت التي أخبرونا آسفين أنها ماتت وتوارت في التراب.

إنه زمان يرفض الاقتناع بالواقع ، ويغطيه الدخان الأسود، ويحقد على نفسه ويكرهها، ويستخدم نبرة مبالغًا فيها كي ينتقل إلى زمن النهاية، وإلى نهاية زمان لا يرغب معاصروه لوجود فيه. هذا الزمان لا ولن يفتخر به على الإطلاق حتى عابر السبيل. وإذا كانت الفترات اللامأساوية تترك على بدن الإنسان علامة لا تُمحى، وإذا كانت فترات التمرد ترتعد لها الرغبات المحتملة؛ فإن فترات رفض الواقع تدفع أبناءها إلى الضيق من الزمن، وإلى الشعور بتعاسة الحياة، وإلى الإحساس بالتعارض بين الرغبة في الحياة والإشفاق عليها، وإلى العجز أمام المفارقة التي تولد الإحساس بأن كل شيء ظهر قبل أوانه، ووصل مبكرًا عن ميعاده. إنه زمان تتحول فيه الأناشيد الغنائية إلى أحاسيس معدومة، وإلى تجارب ناقصة تُنشد على أنغام الترانيم، وتعبر بصورة حتمية عن زمن يُولِد لدى معاصريه الرغبة في الوجود في زمان آخر، أينما وجد، وأينما كان. إنه زمان يحكم على أيتامه بعدم الوجود في أي مكان أو زمان، سواء كان هذا أو ذاك، أو في أحد تلك الأزمنة التي تتيح للفرد للمرة الأولى – بفضل الاكتشافات الجديدة الذاتية – حرية الاختيار. إنه زمان يفهمه إذن بصورة أفضل

الرافضون له والمسيطرون عليه، والراغبون في الوجود في زمان متغير، كي يتمكنوا من تجنب عواصفه ، التي تهب في توقيتات سيئة، وليدركوا فجأة في آخر عصرهم فرق توقيت هذا الزمان، والتغيرات التي يتعرض لها. لم يحدث قط أن يضطر زمان، مثل زماننا المعاصر، إلى حفر سراديب كي يبتعد عن أرض الواقع، وإلى اختراع عالم مضاد من المتناقضات، وإلى اكتشاف العديد من مخارج الهرب بعيدًا عن الخطوط المستقيمة للزمن. لم يسبق قط أن تكون النظرات الواثقة من نفسها، والفطنة، والقادرة على البقاء في مثل هذا العصر المغموم، هي نظرات المضللين، والمختلين من بين الكثيرين الذين يرفضون خزي وعار عصرهم، ويشمئزون منه، ولا يتحملونه.

إننا لم نتمكن من وضع أيدينا على هذا الزمان بصورة أفضل، إلا بعد ابتعادنا عنه، وفقداننا الإحساس بالوجود فيه، ورفضنا إحداثياته، أثناء وجودنا في كوخ إحدى الغابات، أو داخل نفق يحتوي على صوره المرفوضة. إن قبول الوجود في هذا الزمان، معناه قبول فكرة عدم الوجود، ومعارضة المواعظ المطالبة بالتصديق المُكره، ومحاسن الفكر البنَّاء، ومنطق الارتداد، وكآبة الانزلاق البطيء على منحدر هابط. يتطلب الأمر كذلك أن نواجه محاولات التعبئة الحمقاء والمستمرة، والرفض المكابر لمشاركة الزمن؛ وأن نواجه أيضًا ذكاءه المفرط عديم الجدوى، بجهل السلطات الأقل فطنة في مواجهة عصرها المتورطة فيه أكثر من غيرها. إن الشاهد الأكثر مصداقية على زمان يتصف بالبهتان، ويعيش خارج إطار الزمن هم أولئك الذين فهموه ولم يحركوا ساكنًا، والذين يفضلون حقيقة الفشل أو القدرة على الهرب، والذين يعارضون بكل قواهم، النجاح الحتمي، والافتتان الشديد، والبهجة الصاخبة، والالتزامات السوية لصالح شرود لا هدف له، وضعف مطلوب، ونضال شرس في بعض الحالات النادرة بأسلحة غير متكافئة ضد أقوياء ذلك الزمان؛ أي ضد كل من تلح عليه الفكرة الأكيدة- التي تكظم سريرة المفكر - بأن لا شيء في هذا الزمان يستحق أن نُبقي عليه، وأنه سبق أن خضنا التجارب كافة، والمحاولات جميعها في مواجهة خارج الزمن. وبالنظر إلى افتقارهم لأحداث مستقبلية، عبَّر العاطلون - وهم الوجوه البارزة والمتحفظة على عصر أدار ظهره لهم - بالكلمات، والمشاهد التصويرية، والطرب، والأفعال عن

إحساسهم بعدم الانتماء لهذا العصر، وعن عدم رغبتهم في الوجود فيه أو اتخاذ موقف منه؛ لأنه عصر لا ينم عن شيء، ولا يفعل شيئًا عندما يحتاج المرء للإيمان به أو اللجوء إليه،؛ إنه زمان ارتضى لنفسه أن يكون أقل ثرثرة، وأكثر ترهلاً، ومخيبًا للآمال ويأسف على حاله. يرغب أولئك العاطلون في حياة كريمة، وهو أمر ضروري، شريطة أن تكون خارج هذا الزمن؛ ولذلك قاموا بحفر الأخاديد، وقاموا بتطويق بعض المناطق المستقلة ذاتيًا، وارتجلوا الركائز والسواتر وليس الوسائل ليكونوا بمنأى عن هذا الزمان. وإذا كانوا قد شعروا بحدة رفضهم لهذا الزمان، وبإنكارهم لذواتهم داخل إطار هذا الزمن المرفوض؛ ذلك لأنهم أحسوا أنهم يعيشون بمفردهم، كلٌ منهم بمعزل عن الآخر، وفي فُرقة موحشة، وفي حرمان من التجمع الذي أصبح مستحيلاً؛ ولأن الأمور أصبحت تتم بصورة منفردة: الهرب، والتحاشي، ومعاداة العالم، والوعي، حتى التكتل الجماعي - الذي نجا بأعجوبة من التفكك وليس من العزلة - سواء لشعب مناضل أو لتجمع متواطئ. في هذا خارج الزمن، تشعر تلك التكتلات بتوحدها، والشعوب بغربتها، والتواطؤات بألفتها، والتجمعات المتشددة - رغم منافساتها الجوهرية - باتحادها في مواجهة كل شيء. لقد ورَّث عصرنا هذا، وهو على مشارف نهايته، خلفاءه والقوى المحركة في الحقبة المقبلة، التناقض الصعب بين عُزلة معمورة بالسكان ومجتمع متحير؛ كما ورثهم مفارقة التجمُع المشتت، ونزوح المناهضين للأمة، والتشرذم الكبير غير المتكيف مع مجتمعه؛ وهو تجمُع لا يحمل في طياته سوى الإحساس بالمعاصرة، والشعور بالاغتراب في عصر دون ملامح ومليء بالاضطرابات، والاستسلام والتفاني أحيانًا لهذا العصر بحكم العادة أو الرغبة في الاستقرار. وهكذا، يستطيع كل منا أن يُحدث نفسه - وهو يصف العصر الذي يحياه- بمقولة سوان Swann عندما كان يصف أوديت Odette، تلك المرأة التي "أفسدت حياته"، قائلاً: "إنها لا تعجبني، ليست من الطراز الذي أفضله".

السلطة / الصمود

التسعينيات كتلة واحدة: منظور سياسي

رازميج كوشيان **Razmig Keucheyan**

لا تقبل الستينيات الحلول الوسط. علينا أن ندافع عن هذا العقد أو نرفضه دفعة واحدة، دون السعي لانتقاء العلامات التي تميزه، ودون التفرقة بين أحداثه الإيجابية والسلبية. ذلك هو الموضوع الذي طرحه فريدريك جامسون، في مقال خصصه لهذه الفترة الزمنية بعنوان "حقبة الستينيات"، صدر ضمن عمل جماعي بعنوان The Sixties Without Apologies (1984), وهو عنوان نستطيع أن نترجمه بالآتي "الستينيات بلا تبرير"[١]. من المفترض، كي نفهم أحد الأوضاع التاريخية، أن نتناولها من وجهة نظر روادها البارزين وليس من خلال أحكام سابقة؛ لأن روادها لا يملكون حق الاختيار: وهم ملتزمون بهذه الأوضاع.

يطرح آلان باديو في كتابه "القرن" "Le siècle"، الفكرة عينها المتعلقة "بالتجربة الشيوعية" في القرن العشرين[٢]. يؤكد هذا الفيلسوف أن الشيوعية "كتلة واحدة"، مستلهمًا فكرته من جورج كليمنسو، الذي رفض في مقولة مشهورة له، عند الحديث عن صانعي الثورة الفرنسية، التمييز بين الثوريين "الصالحين" و"الطالحين". يأسف باديو بوجه خاص على "عودة المؤيدين لماركس"، بأعداد كبيرة بعد سقوط حائط برلين، والمقتدين بلينين أو ماو، والمتطلعين إلى إيجاد شيوعية "أصيلة" خالية من الكوارث الشيوعية "القائمة بالفعل". إن نقد باديو مهم بالتأكيد، لكن إن شاء أو أبى، فإن القرن العشرين أصبح حقيقة واقعة.

تناول جامسون عقد الستينيات، وباديو القرن العشرين؛ حقبتان تاريخيتان مختلفتان فيَ امتدادهما، لكن كثيفتان وثابتتان. إننا نعي تمامًا الفترات المتداخلة في الستينيات أو القرن العشرين؛ لكن ماذا عن التسعينيات؟ هل قدم هذا العقد "تجربة" نستطيع أن نحدد أبعادها ونرسم ملامحها؟ هل هو "كتلة واحدة" يستطيع "جيل" الاستناد إليها؟ إن هذا العقد يماثل، من حيث ثباته التاريخي، عهد الديمقراطية المسيحية أكثر من الإمبراطورية النابليونية؛ ووفقًا لما ذكره كلوديو ماجريس، فإن تسجيل "تاريخ إمبراطورية نابليون يبدو أطول من تسجيل عهد الديمقراطية المسيحية التي دامت في واقع الأمر فترة تاريخية أطول للغاية من الإمبراطوية النابليونية". على الصعيد السياسي، ربما يمكننا تعريف التسعينيات بطريقة سلبية؛ إذ ينحصر فشل القرن العشرين في هذه الأعوام. يحدد إريك هوبسام حدود "القرن العشرين القصير" بين ١٩١٤ و١٩٩١ في مؤلفه التاريخي المعاصر "عصر البدايات والنهايات "L'âge des extremes"[٣] ، الأوسع انتشارًا في العالم؛ فالحرب العالمية كانت سجل هذا القرن، والمسرحية التي شهدت في فصلها الأخير، أولى المذابح التي عجلت بسقوط الاتحاد السوفيتي. يمكننا بالتالي تعريف هذا العقد ليس من بدايته، لكن من نهايته؛ لأن علمه الأنطولوجي يتطور بطريقة سلبية.

كيف نتحدث إذن عن التسعينيات؟ كيف نصفها بأي حال من الأحوال لأول وهلة، بأنها ليست "تجربة" ولا "كتلة واحدة"؟ كما تعلمنا من جامسون، عندما تصبح الاستعانة بعلم الأنطولوجيا أمرًا مستحيلاً - لأنه علم لا يمكن إدراك ماهيته - يمكننا الاستعانة بعلم الخرائط. فالتسعينيات تشبه قارة لم تُكتشف بعد، ونجهل كل شيء عن مناطقها، وروابطها. وعندما نوجد على أرض مجهولة، علينا أن نبدأ برسم بعض الخرائط الجغرافية و"المعرفية" المتداخلة بطريقة يتعذر فصلها.

> **"تلك هي نقطة النهاية للتطور الأيديولوجي، وللإنسانية، ولتدويل الديمقراطية الغربية الليبرالية، كصيغة وحيدة لحكم الإنسان"**
>
> **François Fukuyama فرانسوا فوكوياما**

رسم خرائط التسعينيات

لنبدأ بالخرائط الأكثر شيوعًا: خريطة العالم. يختلف مفهوم التسعينيات، ونحن نشك في ذلك، وفقًا لرصدها من أوروبا أو آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية. ماذا عن الصين على سبيل المثال؟ لقد تحولت وأصبحت قوى عظمى صاعدة في أوائل القرن الحادي والعشرين، بعد انتهاء سيطرة "القرن الأمريكي"؛ إذ بلغت نسبة النمو في الصين في التسعينيات مستويات لا مثيل لها، وصلت إلى ٩% سنويًا؛ مما أدى إلى قلب هياكل المجتمع، والتوازنات الجيوسياسية.

وفقًا لوانج هيوي، أحد المفكرين الناقدين المعاصرين الأكثر تأثيرًا، تبدأ التسعينيات الصينية من النصف الثاني للثمانينيات حتى الوقت الحالي[٤]؛ فهي تمتد إذن لأكثر من عقدين، مما يبرهن على أن تسلسل الأحداث (الكمي)، والتاريخ (الكمي) أمران مختلفان للغاية. في نهاية السبعينيات، بدأ دانج زياوبنج التحول الرأسمالي للصين، وأُسدل الستار على القرن الثوري الصيني العاصف. عقب أحداث تيانمن عام ١٩٨٩، في الفترة التي تزعزعت فيها سلطاته، بدأ دانج "رحلة إلى الجنوب" عام ١٩٩٢، زار خلالها أكبر المراكز الحضرية المطلة على الساحل، ذات النمو المتسارع: شنغهاي، وشينزان، وكانتون... وأشاد بعمق " الإصلاحات"، وألقى بعض الكلمات الذائعة قائلا: " إن الثراء أمر رائع". وبدأ منذ ذلك الحين عصر نهاية "القيم الثورية"، وحل محله – وفقًا لمصطلح وانج هيوي – "الحماية الاستهلاكية الوطنية". وأدت الهجرة من الريف إلى ظهور "طبقة عمالية جديدة" اندمجت في القوى العاملة الشاملة. وعلى المستوى الفكري، بدأ تدفق بعض التيارات الفكرية الخارجية إلى الصين، وثار الجدل حول نظرية العدالة بدءًا من جون رولز، وصولاً "للدراسات الثقافية"، مرورًا بالطبع بالمتغيرات المختلفة لليبرالية الحديثة.

أطلق لوانج هيوي الفرضية الآتية: إن وضع نهاية للقرن الثوري الصيني، يسمح "للقرن الحادي والعشرين الطويل" بأن يستأنف مساره، بعد بضعة عقود من التوقف في القرن العشرين. تتوافق كثيرًا الرأسمالية الصينية، التي عاودت ظهورها في الثمانينيات والتسعينيات، مع الرأسمالية الغربية / الأوروبية في عصر الثورة

الصناعية؛ فقد بدأت البلاد في الانخراط في "التوافق الوطني"، واستمرت في الانفتاح الذي بدأ مع زيارة نيكسون لبكين عام ١٩٧٢؛ وتبدل الوضع بالتالي في الصين في التسعينيات، بعد أن جرفها القرن العشرون إلى مسار "الديمقراطية الطبيعية"؛ طبيعية لبلد يسيطر عليه المحيط الخارجي.

في التسعينيات، تفوقت اليابان على الصين وأصبحت قوة تجارية منافسة، ورئيسة للولايات المتحدة؛ نظرًا لعدم امتلاكها أسلحة تقليدية أو ذرية تسمح لها بأن تصبح قوة سياسية. وانطلق على قدم وساق الجدل، في البلدان مركز الرأسمالية، حول جدارة النموذج الإنتاجي الجماعي الياباني Toyotisme ونهاية نظام الإنتاج الرأسمالي التراكمي Fordisme، كما أدى الركود الاقتصادي الذي تعرضت له اليابان في العقدين التاليين إلى تغيير الأوضاع لصالح الصين؛ ففي صيف عام ١٩٩٧، ضربت أزمة مالية واسعة المدى جنوب شرق آسيا، وامتدت إلى عدة دول صاعدة وبصفة خاصة روسيا. أدت هذه الأزمة كذلك، من بين آثارها العديدة، إلى سقوط سوهارتو الإندونيسي، واحد من أقدم ديكتاتورات العالم وأكثرهم دموية، بضغط من الشارع بعد أن حكم البلاد لأكثر من ثلاثين عامًا.

بعد الديكتاتوريات

تعد التسعينيات في أمريكا اللاتينية كذلك فترة انتقالية. من جهة أخرى، يُعد لفظ "انتقالية" أحد المفاهيم الأساسية "للكلمات الجوهرية" المعبرة عن وقتنا الحالي وفقًا لريمون ويليامز؛ لدرجة أن العلوم السياسية أنشأت فرعًا أطلقت عليه "علم الفترات الانتقالية"، يتخذ من تحليل توكفيل المشهور عن الفترة الانتقالية بين النظام القديم والثورة مرجعًا له. تناول هذا الفرع جميع الأمور التي تتشابه من قريب أو من بعيد مع إحدى المراحل الانتقالية في الصين، وأمريكا اللاتينية، والاتحاد السوفيتي السابق، الذي خضع "للمداواة من الصدمة"، من قبل صندوق النقد الدولي الذي كان يعالج الأوضاع بدءًا من واشنطن، وحتى جمهورية جنوب أفريقيا التي كانت في طريقها للقضاء على التفرقة العنصرية؛ وسوف نتناول ذلك فيما بعد(٥).

يرتكز مفهوم "الفترة الانتقالية" على تواري الليبرالية الحديثة خلف هذا المفهوم؛ وأبرز مثال على ذلك أمريكا اللاتينية. لقد كانت التسعينيات في هذه القارة عقد التخلص من الديكتاتوريات: عام ١٩٨٣ في الأرجنتين – بعد حرب جزر فوكلاند، وعام ١٩٨٥ في البرازيل، وعام ١٩٩٠ في شيلي في عهد أوجستو بينوشيه، وتلى ذلك موجة من الرئاسات الليبرالية الحديثة، التي يجسدها على سبيل المثال، كارلوس منعم في الأرجنتين، وكارلوس ساليناس في المكسيك، وفرناندو هنريك كاردوسو في البرازيل، الذين لجأوا إلى تطبيق الخصخصة والليبرالية بكل ما أوتوا من قوة. ترجع، دون شك، الجذور القديمة لليبرالية الحديثة إلى أمريكا اللاتينية؛ إذ نتذكر، بوجه خاص، التحالف بين بينوشيه والمجموعة الاقتصادية الشيلية (الليبرالية الحديثة) Chicago boys منذ ١٩٧٠. وأدت خطط الإصلاحات الهيكلية لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، إلى ترسيخ جنون الليبرالية الحديثة؛ تلك الخطط التي ساندتها واشنطن عندما ربطت، في معجم الليبرالية الحديثة، منح القروض بالإصلاحات الهيكلية. إنه العصر الذي أصبحت فيه مسألة القروض الممنوحة للعالم الثالث- التي وصلت إلى ذروتها في عام ٢٠٠٠ – والمطالبة بإلغائها تتخذ أبعادًا غير مسبوقة.

أصبح التدخل المتزايد للمنظمات الدولية – الخاصة والحكومية، الاقتصادية والسياسية – في الشئون الداخلية للدول إحدى السمات الأساسية لهذا العصر؛ وقلبت القوى السياسية الجديدة التي ظهرت في التسعينيات، الموازين السياسية المهيمنة على الساحة القومية منذ القرن السابع عشر، واتجهت بها إلى المجال الذي يمكن أن نطلق عليه العولمة. لم تخرج هذه القوى عن نطاق الحدود القومية – المناطق أو العواصم، الغنية في الشمال والفقيرة في الجنوب – ولم تتخطها؛ مثل سوق ماركوسور MERCOSUR المشتركة لجنوب أمريكا التي أنشئت في التسعينيات وضمت الأرجنتين والبرازيل وباراجواي، أو الاتحاد الأوروبي.

أسرعت شعوب أمريكا اللاتينية إلى التفاعل مع هذا المجال، معتمدة على تراثها الثوري القديم، الذي جدده عقد التسعينيات بصورة عميقة. ففي الأول من يناير ١٩٩٤، تاريخ سريان اتفاقية "ألينا" ALENA (اتفاقية التجارة الحرة لشمال أمريكا التي تضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك)، ثارت انتفاضة جيش التحرير الوطني "الزاباتيست"

في شياباس، في الوقت الذي ظهر فيه نائب القائد ماركوس، أحد الوجـوه السياسية البارزة والعظمي لهذا العصر. ولقد أبدعت حركة زاباتيست في ثلاثة مجـالات علـى الأقل. في المجال الأول، قامت بتنفيذ إستراتيجية سياسية / عسكرية واضحة، متمثلـة في حروب العصابات السابقة اللاتينية / الأمريكية التي تضم الثائرين من أجل التحرر، أنصار أرنست جيفارا. وفي المجال الثاني، وضعت أهل البلاد الأصـليين علـى رأس المشهد السياسي، تلك الفئة المجتمعية التي ظلت في الظل؛ كما استلهم التحـالف بـين النزعة الانتمائية، ومناهضة التيار الليبرالي الحديث - الذي ذاع صيته مع حلول عـام ٢٠٠٠ في بوليفيا والإكوادور - أحد مصادره من حركة الزاباتيـست. وفـي المجـال الثالث، أصبحت الزاباتيست سريعًا، إحدى المرجعيات المؤسسة للحركـة المناهـضة للعالمية، التي ظهرت في النصف الثاني من التسعينيات؛ وبرزت على الـساحة أثنـاء مظاهرات سياتل ضد منظمة التجارة العالمية عام ١٩٩٩؛ وعقدت أول منتدى اجتماعًا عالميا لها في بورتو أليجرو عام ٢٠٠١. إننا لا نستطيع أن نقلـل مـن شـأن تـأثير الزاباتيست على الساحة السياسية المعاصرة، حتى لو تراجعـت عـن الـساحة منـذ عدة أعوام.

في نهاية العقد، اتخذت مناهضة الليبرالية الحديثة في أمريكا اللاتينيـة، شـكلاً مختلفًا ذا صبغة مؤسسية؛ فقد أصدر جون هولوواي[٦]، أحـد المفكـرين النظـاميين للزاباتيست، كتابًا بعنوان" غيروا العـالم دون المـساس بالـسلطة" "CHANGER LE MONDE SANS PRENDRE LE POUVOIR". وقد وصل بالفعل هوجو شافيز إلـى السلطة في فنزويلا عام ١٩٩٩ عن طريق صناديق الاقتراع، وكـان انتخابـه بمثابـة نقطة الانطلاق لظهور الحكومات اليسارية في القارة: لـولا فـي البرازيـل (٢٠٠٣)، نيستور كيرشنر في الأرجنتين (٢٠٠٣)، تباريه فسكيز في أوروجوي (٢٠٠٥)، إيـف مورالس في بوليفيا (٢٠٠٦)، ميشيل باشليه في شيلي (٢٠٠٦) ورافائيل كوريـه فـي الإيكوادور (٢٠٠٧). يمكننا تفسير تلك الموجة الانتخابية، التي كانت فيما بعـد نقطـة ارتكاز مهمة لليسار العالمي في العقد الأول من الألفية الثانية، بأنهـا القـوة المـضادة لليبرالية الحديثة التي نشأت في العقد السابق. وقبل أن تمتد الثورات إلى أرجاء العـالم العربي بدءًا من ٢٠١٠، كانت أمريكا اللاتينية القارة الوحيدة التـي لا تـزال تتمـسك بالتاريخ.

الإبادة الجماعية للتوتسي في رواندا

"منح مؤتمر برلين لألمانيا عام ١٨٨٥ حق الوصاية على رواندا، التي عهدت بها عام ١٩٢٤ عصبة الأمم المتحدة SDN، إلى بلجيكا، التي اكتشفت على أرض الواقع أن مملكة الظلام – في التخيل الواهم الأوروبي – هي دولة ذات هيكل اجتماعي معقد؛ فقامت الإدارة الاستعمارية البلجيكية بتبسيطه إلى أقصى حد، وذلك بتطبيق مبدأ العنصرية على المجتمع الرواندي. وبعد أن كان الروانديون يعتنقون دينًا واحدًا ويتكلمون لغة واحدة (الكينياروااندا التي تجهل لفظ "العرق")، قام المستعمر بتقسيمهم "عرقيا" ثم "جنسيا" إلى مجموعتين منفصلتين، لكن غير متعاديتين: التوتسي والهوتو. وبعد أن اعتمدت، لعدة عقود، السلطات السياسية والدينية البلجيكية على الملَكية التوتسية في حكم رواندا، قامت بإلغاء هذا التحالف بعد أن أدركت في نهاية عام ١٩٥٠، أن أعضاء النخبة التوتسية المؤثرة لديهم مطالب استقلالية؛ إذ يستنكرون اندماج مجمل التوتسيين في سلطة توتسية "طاغية " تنظر إليهم على أنهم أقلية عرقية أجنبية". وقد أسفرت سياسة التقسيم، القائمة على أيديولوجية عرقية، عن ارتكاب سلسلة من المذابح ضد التوتسيين – بدءًا من مذبحة "عيد القديسين الرواندي" عام ١٩٥٩، وحتى "المذبحة الصغيرة" في جيكوجورور عام ١٩٦٣، التي أجبرت عشرات التوتسيين على الفرار إلى البلاد المجاورة، واستيطان مناطق اغترابهم إثر استبعادهم من الجيش، والشرطة، والإدارة، والتعليم. في عام ١٩٧٣– عام جديد لمذابح التوتسي – قام جوفينال هبياريمانا، الذي تقلد السلطة إثر انقلاب عسكري، باستئناف السياسة العرقية لأسلافه. وشهدت الثمانينيات تأسيس الجبهة الوطنية الرواندية من الأحياء التوتسيين المنفيين. واندلعت الحرب في أكتوبر ١٩٩٠ بين الجبهة الوطنية الرواندية والقوات المسلحة الرواندية الموالية لهبياريمانا، التي ساندتها فرنسا ماليًا وعسكريًا. في أغسطس ١٩٩٣، لم تتمكن اتفاقيات أروشا، التي تنص على تشكيل حكومة انتقالية موسعة من الجبهة الوطنية الرواندية، من وضع حد لمذابح التوتسيين في رواندا.

في السادس من أبريل عام ١٩٩٤، أُسقِطت طائرة هبياريمانا، واغتيل قادة المعارضة الهوتو، وشُكلت حكومة مؤقتة، وبدأت مرحلة تنفيذ الإبادة الجماعية، التي تولاها إداريا بعض حكام المقاطعات، وشيوخ البلدات؛ وإعلاميا "الإذاعة والتليفزيون الحر للألف تل" RTLM عن طريق الاستغناء عن قوائم طويلة من العاملين التوتسيين. واستأنفت فرنسا مساندتها للحكومة

الانتقالية الرواندية أثناء حرب الإبادة، وتدخلت عسكريا من خلال عملية "الفيروز"، الأمر الذي أدى إلى فرار مرتكبي الإبادة إلى زائير. ومقتل ما يقرب من ثمانمائة ألف إلى مليون توتسي، بين رجال ونساء وأطفال (ما يتراوح بين ٨٠ و ٩٠% من التوتسيين الروانديين)، بالإضافة إلى آلاف الروانديين الهوتو المعارضين للإبادة الجماعية لذويهم".

شارلوت لاكوست Charlotte Lacoste

أفريقيا الشبح

يأتي الحديث عن أفريقيا بعد آسيا وأمريكا اللاتينية. فقد سجل عام ١٩٩١ حدثين مدويين في هذه القارة؛ أولهما، نهاية عصر الفصل العنصري في جمهورية جنوب أفريقيا، الذي تلاه إطلاق سراح نيلسون مانديلا وانتخابه رئيسًا للبلاد عام ١٩٩٤؛ ما يعد دليلاً على زوال آخر نظام من نظم الفصل العنصري وأكبرها في العالم؛ وذلك بعد أن وضعت الولايات المتحدة حدًا لنظامها بصدور ميثاق الحقوق المدنية بعد التصويت عليه عام ١٩٦٤. ولا تزال هناك بعض الدول التي تميز قضائيا بين رعاياها على أساس عرقي- لكن بصورة محدودة - مثل ماليزيا. هناك أيضًا فلسطين، التي تُمارس فيها التفرقة فعليا وليس قضائيا؛ إذ يحظر على العرب مؤخرًا، وفقًا لقرار وزير المواصلات، استخدام المركبات العامة. والتاريخ لا يسير بالطبع في اتجاه واحد؛ إن توقيع اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣ بين إسحاق رابين وياسر عرفات برعاية بيل كلينتون، واغتيال رابين عام ١٩٩٥ لم يمنع من تفاقم أوضاع الفلسطينيين منذ عشرين عامًا؛ بل أصبحت السلطات العليا الإسرائيلية تطبق في الوقت الحالي، علنيا وبصورة قاسية، الفصل العنصري، وأكبر مثال على ذلك رئيس الوزراء الأسبق إيهود إيلمورت(٧).

شهدت الجزائر الحدث الثاني البارز عام ١٩٩١، عند إلغاء الحكومة (والجيش) الانتخابات التشريعية إثر فوز جبهة السلام الإسلامية من الجولة الأولى؛ الأمر الذي أدى إلى اندلاع الحرب الأهلية، التي أودت بحياة ٥٠٠٠٠ شخص إن لم يكن ضعف هذا

العدد، واستمرارها طوال عقد التسعينيات. بعد اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، أصبحت هذه الحرب تجسيدًا "للحرب الشاملة ضد الإرهاب"، وضد الإسلام "الراديكالي" في أرجاء المعمورة؛ خاصة بعد توالي محاولات الاعتداء في التسعينيات للمرة الأولى، على مركز التجارة العالمي في نيويورك عام ١٩٩٣، وعلى السفارات الأمريكية في نيروبي ودار السلام عام ١٩٩٨.

في إطار الأحداث الماضية الأكثر حداثة – بعد مرور عشرين عامًا على إلغاء الانتخابات التشريعية في الجزائر – يمكننا الإشارة إلى اندلاع ثورات "الربيع العربي" التي لاقت استحسانًا غير مألوف. بعد نشوب الثورات عام ٢٠١١ في أهم دولتين، تونس ومصر، وصلت الأحزاب المسماة بالإسلام السياسي إلى السلطة باختيار شعبي بعد إجراء أول انتخابات حرة. وتقلد حزب النهضة في تونس السلطة لمدة عامين في ظل أجواء مشحونة بالتوتر السياسي المتصاعد؛ بينما أُطيح بالإخوان المسلمين في مصر – بعد مرور عام كارثي على حكمهم – بواسطة تحالف شعبي يتزعمه الجيش، مما أدى إلى سقوط مئات القتلى. والتاريخ يتذبذب؛ أو بمعنى آخر، علينا أن ننظر إلى التسعينيات على أنها تكرار عام لأحداث سياسية سبق وقوعها، لكنها تحدث من جديد على نطاق أوسع.

لقد كانت أفريقيا في هذا العقد، مسرحًا للإبادة الجماعية الرواندية عام ١٩٩٤، آخر الإبادات الجماعية التي ارتُكِبت في القرن العشرين، وتضم قائمة طويلة ومأساوية بدأت عام ١٩١٥ بإبادة الأرمن. إن نهاية "قرن البدايات والنهايات"، لا تستلزم بالتأكيد اختفاء الأحداث المتطرفة؛ لأننا نجهل ما إذا كانت الإبادة الجماعية الرواندية تجسد وقائع مشابهة سوف تحدث في القرن الحادي والعشرين. الأمر المؤكد ، هو أن هذه الوقائع تكرار لمآسٍ حدثت في القرن الماضي: عنف جماعي، وتمييز عنصري سياسي في عهد الاستعمار، واستغلال وسائل الإعلام لتحقيق الأهداف – إذاعة "الألف تل" – والمحاكم الدولية إلخ. إن تقسيم يوغوسلافيا السابقة على مدار العقد، مهد الطريق لأحداث "تطهير عرقي" مماثلة، سوف تظهر نهايتها في عصرنا الحالي.

اطـردوا الإمبـريـاليـة

سوف تعود مسرعة

الغُـربـة المقـلقـة

لننتقل الآن من أرباض النظام المسيطر – آسيا، وأمريكا اللاتينيـــة، وأفريقيـــا– إلى مركزه؛ أي الثقافة في التسعينيات. استخدم المفكــر مـــارتين جـــاي مـــصطلح " uncanny nineties" (٨)، وهو ترجمة إنجليزية لمصطلح ألماني استخدمه فرويـــد عـــام ١٩١٩ في دراسة مشهورة بعنوان "Das Unheimliche" (٩). لا يوجد مرادف في اللغـــة الفرنسية للفظ "unheimlich" ؛ غير أننا نستطيع ترجمة المـــصطلح "بالغُربـــة المقلقـــة" وفقًا للكناية المشهورة التي استخدمها المترجم، الذي أضاف مفسرًا ترجمته: "إن "الألفة الغريبة"، بل حتى "اللا ألفة"، مصطلحان يعبران جزئيًا عن هذا المفهوم؛ إذ أن مـــدلول لفظ "heim" باللغة الألمانية يُقصد به "في الديار"، وبالتالي فإنه يعنـــي وفقًـــا لمفهـــوم أشمل "الأمر المألوف".

وفقًا لفرويد فإن لفظ unheimlich يدل على "هـــذا التنـــوع الخـــاص المفـــزع، والمألوف منذ قديم الأزل" (١٠)؛ إذ لا يعبر أصل هذه الصيغة المرعبـــة عـــن الـــشيء المجهول أو الجديد، كما هو متبع، إنما عن الأمر العادي أو اليـــومي. ولقـــد ضـــرب فرويد مثالاً لذلك بالشخصية الطيِّعة، التي لا نستطيع أن نحدد سريعًا ما إذا كانت تُعبر أو لا تُعبر عن شخص حي؛ شخص يتنقل عدة مرات في مكان بعينه بإحدى المدن، أو يضل طريقه في إحدى الغابات، دون أن يتأكد من أنه تردد من قبل على المكان نفسه؛ أو شخص ينظر إلى نفسه في المرآة ويكتشف فجأة أن وجهه غير مـــألوف. يـــستخدم كثيرًا الأدب "وخاصة الخيالي" مصطلح "الغربة المقلقة"؛ فقد استرسل فرويد في دراسة المغامرة الخيالية "رجل الرمال" للأديب هوفمـــان. كمـــا يُعـــد التكـــرار فـــي مؤلـــف unheimlich من الأساليب الأساسية التي تُحوِّل المألوف إلى غريب. ويتخذ هذا البعـــد عند فرويد مرجعيته من "عودة المرفوض"، ومن "تاريخ تطور الإحساس بالذات"، الذي يتشكل من طبقات لا شعورية. يذكرنا تحليل فرويد بأولى عبارات كارل ماركس فـــي

مؤلفه "الضباب ١٨" - دون الخلط بين العبارتين أو الاستناد كمرجعية إلى عبارة ماركس - التي تتصور أن الأحداث التاريخية تُعرض مرتين؛ في المرة الأولى كمسرحية مأساوية، وفي الثانية كتمثيلية هزلية. يُعد التكرار بالنسبة لماركس وفرويد ونيتشه، أحد الأنماط التحليلية الحاسمة.

طبق مارتين جاي هذا المفهوم الفرويدي على ثقافة التسعينيات. وفي دراسات "ما بعد الحداثة" التي تسيطر على الفلسفة وعلى الفن، أصبحت الاستشهادات والاقتباسات من الأمور الأساسية. كما أصبح التحليل يشمل الأحداث السياسية لهذا العقد، وبصفة خاصة التي طرأت على النظام الرأسمالي؛ إذ كان من المفترض أن تؤدي نهاية الحرب الباردة إلى حقبة من السلام والرفاهية، أي إلى عصر ذهبي جديد. غير أن الولايات المتحدة الأمريكية امتدت، على العكس من ذلك، في توسعاتها الإمبريالية؛ فلم يسبق لأمريكا على مدار تاريخها التدخل عسكريا بهذا الشكل؛ فقد تدخلت في حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١ (التي كتب عنها جون برودريار أنها لم تحدث قط)، وفي الصومال (١٩٩٣ - ١٩٩٤)، وفي هاييتي (١٩٩٤)، وفي البوسنة (١٩٩٥)، وفي العراق للمرة الثانية (١٩٩٨)، وفي السودان (١٩٩٨)، وفي كوسوفو (١٩٩٩)، وفي أفغانستان (٢٠٠١)، وفي العراق مرة أخرى (٢٠٠٣)، وفي ليبيا (٢٠١١)؛ هذا بالإضافة للعمليات السرية العديدة التي اعترفت المخابرات الأمريكية فيما بعد بارتكابها، كالإطاحة بمصدق على سبيل المثال في إيران عام ١٩٥٣. ووفقًا للإحصاء الذي أجراه السياسي جون مارشيمر، فإن الولايات المتحدة - بعد انتهاء الحرب الباردة - تدخل حربًا مرتين كل ثلاثة أعوام؛ وبالنظر للتطورات التي تحدث في العالم العربي ليس من المتوقع أن ينحصر هذا التوجه[١١].

ارفضوا الإمبريالية، سوف تعود مسرعة دون أدنى شك؛ لأن التوسعات الإمبريالية في التسعينيات ترتكب باسم "حقوق الإنسان"، و"التدخل الإنساني"، وبمساندة اختيارية من "المجتمع الدولي". إننا نشاهد حاليًا ظهور "إنسانية عسكرية جديدة"، وفقًا للتعبير الثاقب لنعوم شومسكي[١٢]. فالوضع يختلف الآن كلية عن الإمبريالية الماضية،

وبخاصة عن حرب فيتنام – أحدث ما تعيه الذاكرة – التي لم تُستخدم خلالها تلك العبارات الرنانة. من هنا يأتي الطابع "المألوف بصورة غريبة" لتلك التوسعات؛ وهو ما يفسر لماذا لم تؤد تلك الحروب إلى إثارة نمط الاحتجاجات التي اندلعت إبان حرب فيتنام أو أثناء حرب الجزائر. إن مصطلح "الغُربة المقلقة"، الذي نستخدمه حاليًا في هذا السياق، يعبر عن السلبية السياسية، وعن "ديمقراطية الامتناع" الموجودة حاليًا، والتي تجمع بين الإحجام عن المشاركة الانتخابية وتقلص الحيز الشعبي(١٣).

شهدت الولايات المتحدة في تلك الفترة نفسها، تكرار أشكال أخرى من أحداث ماضية. ففي عام ١٩٩١، أوقف بعض ضباط شرطة لوس أنجلوس السائق الأسود، رودني كينج، وأوسعوه ضربًا، وحصلوا على حكم بالبراءة بعد أشهر قليلة؛ الأمر الذي أدى إلى اندلاع كبرى مظاهرات شهدتها البلاد منذ الستينيات. تُعد هذه الواقعة أيضًا من الأمور المألوفة والغريبة؛ إذ من المفترض تحسن أوضاع السود في العقود الماضية. في عام ١٩٩٣ وصل بيل كلينتون، الذي قدمه الكاتب توني موريسون "كأول رئيس أسود" – نظرًا لحصوله على أكبر تأييد شعبي أفريقي أمريكي... وأصوله الأنجلوساكسونية – إلى الرئاسة خلفًا لجورج بوش الأب، وانتُخِب بعد ذلك عام ١٩٩٨ باراك أوباما كأول رئيس أسود (حقيقي). غير أن هذا لم يمنع من تكرار الحوادث عينها في الوقت الراهن؛ ففي يوليو ٢٠١٣ برأت هيئة المحلفين، ذات الأغلبية البيضاء، قاتل شاب أسود، ولم تندلع المظاهرات في تلك المرة.

> **"إخواني، علينا أن نصنع الأمل الدولي وليس البيروقراطية الدولية، لمناهضة الرعب الدولي، ولتوحيد أولئك الذين يفضلون الإنسانية الحية."**
>
> **ماركوس نائب القائد Sous - Commandant Marcos**

في أوروبا، تتكرر الأحداث الماضية مع اليمين المتطرف؛ الذي أحرز نجاحًا مع الجبهة الوطنية الفرنسية في منتصف الثمانينيات (أثناء الانتخابات البلدية الجزئية عام ١٩٨٣)، ومع الأوروبيين عام ١٩٨٤ (عند دعوة جان ماري لوبان للبرنامج

التليفزيوني "ساعة الحقيقة"). ومنذ ١٩٨٩ وحتى ١٩٩٣، احتفظت ماري فرانس ستيربوا بمقعدها في الجمعية الوطنية، وظلت قوة الجبهة الوطنية تتعاظم حتى انفصال أنصار لوبان وبرونو ميجريه عنها، وفوزهم بعدة بلديات في انتخابات عام ١٩٩٥؛ حيث حصلت جان ماري لوبان على ١٥% من الأصوات في الانتخابات الرئاسية في شهر أبريل؛ وهو عام انقضاء فترتي رئاسة فرانسوا ميتران، الأربعة عشر عامًا، وتولي جاك شيراك رئاسة الدولة. وبعيدًا عن "تغيير الحياة"، كانت تلك الأعوام الأربعة عشر من نظام الحكم الاشتراكي هي أيضًا فترة "تمييز فكري".

في إيطاليا، شاركت الحركة الاشتراكية الإيطالية لجيافرانكو فيني، المعروفة بالتحالف الوطني، في تحالف السلطة الذي ترأسه سيلفيو برلسكوني عام ١٩٩٤. وقد كان من بين آثار عملية "الأيدي النظيفة"، القضاء على نظام الأحزاب القديم، وسيطرة الديمقراطية المسيحية على السياسة الإيطالية. وتوقف بين ليلة وضحاها نشاط الحزب الشيوعي الإيطالي، حزب دي بورديجا، وجرامسكي وتوجلياتي،؛ أكبر الأحزاب الشيوعية في شرق أوروبا – كان يضم مليونين ونصف المليون عضو – وأعظمها تأثيرًا في الحياة الثقافية في فترة ما بعد الحرب. وفي النمسا عقد ولفجانج شوسل، من أنصار المحافظين، اتفاقًا حكوميًا مع الحزب السياسي للجناح اليميني لجورج هيدر؛ الأمر الذي أدى إلى تعرضه لفترة من الزمن، لانتقادات المجتمع الأوروبي.

تتسم هذه التنظيمات اليمينية المتطرفة بالجمع بين رؤية لا تزال تنتمي لعالم العنصرية وبرامج اقتصادية ليبرالية حديثة؛ مما ساعدها على التقرب من الأحزاب الحكومية وتشكيل تحالف معها. من جهة أخرى، ساعدت الليبرالية الحديثة بطريقة واضحة على التفرقة بين اليمين المتطرف والفاشية القديمة، المؤيدة "للنظرية الحِرَفية" (نظرية اقتصادية اجتماعية تخول المؤسسات الحِرَفية سلطات اجتماعية واقتصادية وسياسية). بعد مرور عشرين عامًا، بينما كان الحزب النازي الجديد "الفجر الذهبي" ينشر الفزع في بعض أحياء أثينا في بلد تجتاحه الأزمة، برز هذا التحالف التاريخي غير المسبوق بين الفاشية والليبرالية الاقتصادية، وأصبح واضحًا للجميع. كما صدقت

اتفاقية ماستريخت، الموقعة عام ١٩٩٢، على إنشاء سوق أوروبية "حرة وغير مزيفة"، تتخلى أكثر فأكثر عن الهيمنة الشعبية؛ التي باتت لا تستطيع التهديد بعرقلة حركة رأس المال؛ نظرًا لتدخل النخب الخارجية لصالح هذه الحركة. وفي فترة التسعينيات، التي حققت فيها الولايات المتحدة ازدهارًا اقتصاديًا، تعرضت أوروبا للركود وتفاقمت نسبة البطالة.

عودة الطبقات الخطرة

بدأت المظاهرات تنطلق بالفعل في الثمانينيات؛ عندما نظم المتبارون في سباقات رعاة البقر Les rodéos، وفئات مدنية أخرى متدهورة الحال عام ١٩٨٣، مسيرة من أجل المساواة ومناهضة العنصرية، Marche des beurs ، تضم شباب ضواحي مارسيليا وليون (من أصل عربي) بعد مرور عامين على وصول اليسار إلى السلطة، وفي الفترة التي شهدت نجاحات الجبهة الوطنية. وتحولت "الثلاثون عامًا المجيدة" – التي لم يشهدها بالطبع العالم أجمع – إلى ذكرى قديمة، وتفاقم الشعور بالغضب من "الاستبعاد"، المتمثل في عدم تمثيل أي من المنظمات السياسية القائمة. وأصبحت المشكلة المسماة "بالضواحي"، تتبئ بما سيحدث في التسعينيات؛ إذ كانت تُعبِّر تمامًا عن مرحلة ما بعد الاستعمار، بما تشهده من إصرار المستعمر على البقاء – بصورة مختلفة بالطبع – داخل المجتمعات المعاصرة(١٤).

تعد مظاهرات فول أون فيلان Vaulx- en- Vein، وفال فوريه Val - Fourré، ومانت لا جولي Mantes- La- jolie في عامي ١٩٩٠ و ١٩٩١ نقطة تحول مهمة(١٥)؛ فقد أصبحت ضاحية ماس دي تورو في بلدة فول أون فيلان مثالاً، حتى يومنا هذا، للتجديد العمراني الناجح؛ بعد استيلاء المتظاهرين – تحت "شعار الجمهورية" ووفقًا لما نقلته وسائل الإعلام – على أحد العقارات المدنية المخصصة لهم (أو جزء منها على الأقل). والمشكلة ليست اقتصادية أو حضرية فحسب، حتى لو كانت كذلك، إنما تأخذ أبعادًا أخرى حاسمة تتعلق بالتسليم بالأمر؛ إذ تستخدم السلطات الحكومية والشرطة

مصطلح "العنف المدني" الذي أصبح من المصطلحات الشائعة، بعد أن توطد منطق تخصيص أحياء للفئات الفقيرة في فرنسا(١٦)؛ الوضع الذي كان يقتصر على البلدات الأصلية المستعمَرة في الولايات المتحدة. ولم تتمكن أهم الحركات الاجتماعية لهذا العقد، أي إضرابات نوفمبر وديسمبر ١٩٩٥ – أكبر الإضرابات التي شهدتها البلاد منذ أحداث مايو ٦٨ – من التواصل مع الأمور السياسية المثارة في الأحياء؛ فالوضع كان يتطلب، من بين عوامل أخرى، انضمام اليسار إلى تلك الإضرابات.

في عام ١٩٨٩، أُقيمت أول دعوى تتعلق "بالحجاب" وتبعتها عدة دعاوى أخرى. وقد طرح خبير علم الإنسان إيمانويل تيراي، مفهوم "الهيستريا السياسية" للتعبير عن عواقب هذا المناخ(١٧)، الذي لم نتخلص منه حتى الآن؛ نظرًا لتخلي بعض اليساريين عن نضالهم الطبقي، "للدفاع عن العلمانية" والعدالة الاجتماعية، وفقًا لمفهومهم عن القيم الجمهورية. واستمرت، على مدار التسعينيات: الحرب الأهلية الجزائرية، وأحداث الضواحي، ودعاوى الحجاب، ثم أحداث الحادي عشر من سبتمبر، واتخذ شيئًا فشيئًا أهالي البلاد الأصليون، من المسلمين المقيمين في البلاد أعداءً جددًا لهم.

معركة الأفكار

لننتقل الآن من الخرائط الجغرافية إلى الخرائط "المعرفية"؛ أي المعارك التي أثارت الحنق الشديد في نهاية القرن. تعد الليبرالية الحديثة من أهم الأيديولوجيات في التاريخ الحديث، وهو الموضوع الذي دافع عنه بيري أندرسون عام ٢٠٠٠، في ختام عقد التسعينيات، في إحدى المقالات الافتتاحية للدورية المؤثرة "نيو ليفت ريفيو" New left Review(١٨). يعلق أندرسون على ذلك المعتقد بقوله: إنه لم يسبق أن ساد أو انتشر نهج متفق عليه من الجميع مثل الليبرالية الحديثة منذ عهد الإصلاح في القرن السادس عشر؛ بل إنه تخطى في أهميته الديانات السماوية الموحدة – التي كان انتشارها دائمًا إقليميا وليس عالميا، حتى لو كان هذا هو اعتقاد معتنقيها – لأن أنصار الليبرالية

الحديثة ينتشرون في عواصم العالم كافة، من الأمريكتين حتى آسيا، مرورًا بأوروبا وأفريقيا. وإذا كانت هذه الأيديولوجية قد فقدت بريقها منذ الأزمة المالية عامي ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨، إلا أن السياسيين يستمرون في تطبيقها في أرجاء العالم كافة.

أصبحت الليبرالية الحديثة إذن في التسعينيات، العمود الفقري للساحة الفكرية الدولية. ولم يكن بالطبع انهيار الاتحاد السوفيتي هو الحدث الأهم في هذا العقد، والأمر ينطبق على الماركسية والكينيانية التي عفى عليها الدهر تمامًا. والكينيانية هي منهج طبقي وسطي، يؤيد "اقتسام القيمة المضافة" بين رأس المال والعمل؛ وأذكر ذلك لأننا نتناسى دائمًا أن هدف كينين من نظريته الاقتصادية، كان إنقاذ الرأسمالية من أمورها المخالفة للصواب. يدل انحسار هذا التيار في التسعينيات على أن الطبقات المسيطرة باتت، تدريجيا، أكثر عداءً لأي حل وسط، وأكثر تمسكًا بالعودة إلى نظام نسبة الربح دون أي تنازل، وذلك بعد تراجع الانتصارات الاجتماعية التي تحققت في العقود الماضية. لقد فقدت الساحة السياسية، في نهاية هذا القرن، بؤرتها المركزية، أو بالأحرى أصبحت على يمينها.

يتلخص عقد التسعينيات

فى لفظ النهاية

التطور السلبى للعقد

لا يقتصر الأمر على ذلك العمود الفقري للساحة الفكرية الدولية، فهناك عدة عوامل أخرى؛ لكنه كان - بكل بساطة - المحرك الأساسي الذي تتمحور حوله العوامل الأخرى، أو يحددها بصورة متضافرة. لقد شهدت التسعينيات ظهور تيار "الإرادة الاجتماعية / الديمقراطية" العابر؛ وهو "التيار الثالث"، وفقًا لنظرية عالم الاجتماع البريطاني، أنتوني جيدنز، الذي يميل إلى إدراج اليسار في مفهوم الليبرالية الحديثة[١٩]. لقد تقلد توني بلير السلطة عام ١٩٩٧، وخلفه بعد ذلك بعدة أشهر جيرهارد شرودر، وليونيل جوسبان، وقاموا بتشكيل "الترويكا الليبرالية الحديثة" troïka néolibéral، التي استنكرها بيار بورديو في مقال بجريدة لوموند في شهر أبريل ١٩٩٨، بعنوان "من أجل يسار يساري". وانضم فيما بعد إلى ذلك الثلاثي، بيل كلينتون في الولايات المتحدة الذي انتُخِب لفترتي رئاسة، الأولى عام ١٩٩٢، والثانية عام ١٩٩٦.

يرى جيدنز أن "التيار الثالث" يمكن أن نطلق عليه "نهاية المرحلة السياسية"، أو حقبة "ما بعد السياسة"، التي ترفض فكرة أن العالم الاجتماعي تعتريه العداءات وبصفة خاصة العداءات الطبقية؛ إذ سرعان ما أصبح التعارض بين اليسار واليمين، المنبثق عن الثورة الفرنسية، عقيمًا. لقد وعد أنصار التيار الثالث الأجيال المستقبلية الغنية بتنفيذ إستراتيجية انتخابية يُطلق عليها " الإستراتيجية الثلاثية"، التي تعتمد على الدخول إلى الساحة السياسية للخصم - اليمين في هذا السياق - واكتشاف الأفكار التي تشكل هويته السياسية؛ ولنضرب مثالاً على ذلك باقتباس اليسار، منذ ذلك الحين، لمصطلحات مثل " الأوضاع الأمنية" و "تحديث" الواقع الاجتماعي للدولة. لم تنجح هذه الإستراتيجية فى التمكن من جماعة الناخبين المناوئة فحسب، بل تفوقت على أنصارها المعارضين. يعد كلينتون ومستشاروه من أبرز المؤيدين لهذه الإستراتيجية، التي تلجأ إلى تطويع أي تمييز سياسي بهدف الوصول للحكم.

عودة الحراك الاجتماعي

"يُظهر النصف الثاني من التسعينيات على المستوى الاجتماعي، دون أدنى شك، العودة القوية للإضرابات الواسعة في فرنسا في شهري نوفمبر وديسمبر ١٩٩٥- وأهمها على الإطلاق منذ أحداث مايو ١٩٦٨- التي أصابت البلاد بالشلل ردًا على مشروع إصلاح الضمان الاجتماعي الذي نفذته حكومة آلان جوبيه. قبل بضعة أشهر من الاضطرابات الاجتماعية، قام العديد من منظميها - متجاهلين العلامات المنذرة لليبرالية الحديثة المتمثلة في "غياب البديل" و"نهاية التاريخ" - بتكوين جمعيات جديدة، والمطالبة بحلول جذرية في مجالات بعينها (حق المسكن في ربيع ١٩٩٠، والقضاء على البطالة في ربيع ١٩٩٤)؛ وتردد الحديث عن مناهضة الإمبريالية في بداية ١٩٩١، بعد رفض حرب الخليج الأولى. وانتشرت المظاهرات الجماعية في إيطاليا، وبريطانيا، وفرنسا (ضد عقود الإدماج المهني وخاصة في حكومة بالادور)، وأصبح عام ١٩٩٤ عامًا حاسمًا خاصة بعد صعود رمز عالمي جديد من رموز المقاومة الاجتماعية، ماركوس نائب القائد، وزعيم ثورة "الزاباتيست" zapatisteفي إقليم شياباس المكسيكي. ترتبط هذه الصحوة الاجتماعية بالتأييد الواضح لليسار الوسطي في بعض الحكومات الأوروبية بدءًا من منتصف التسعينيات، في محاولة منها لاستقطاب الحماسة الشعبية سياسيا، وعرقلة قواها المحركة؛ لقد استفاد كثيرًا كل من رومانو برودي وليونيل جوسبان من التجمعات الاحتجاجية في عامي ١٩٩٤ و ١٩٩٥؛ وارتبط تقلد السلطة لكل من جيرهارد شرودر في ألمانيا، وتوني بلير في بريطانيا، بضعف الزعماء السابقين. على أي حال، ساعد هذا "التيار الثالث"، الاجتماعي / الليبرالي على تعميق الهوة في أرجاء أوروبا بين اليسار الحكومي المتوافق مع السوق، والتحرك الاجتماعي غير المسبوق، وواسع المدى. فقد انتشرت في فرنسا، اضطرابات العاطلين عام ١٩٩٧، وانضم إليها العديد من المفكرين (أمثال بيار بورديو)، أملاً في إحياء اليسار المنغمس في انقساماته حتى ذلك الحين. من جهة أخرى، أسفرت هذه الصحوة الاجتماعية عن ظهور نمط آخر عالمي من

التوترات في نهاية العقد، في الشوارع وفي المؤسسات المناهضة الموجودة بصفة دائمة؛ نمط العالمية المغايرة، الذي يرفع شعار "عالم مختلف وجائز"، والمتوافق مع الثورة ضد المنظمات الاقتصادية الكبيرة عبر القومية (صندوق النقد الدولي، والبنـــك الـــدولي، ومنظمـــة التجـــارة العالمية، والاتحاد الأوروبي... إلخ)؛ الأمر الذي أدى إلى تكوين تكتلات عبر قومية مناهضة، ذات هياكل غير مسبوقة، مثل المنتدى الاجتماعي العالمي. في فرنسا، استمر نـــشاط رابطـــة "أتاك" ATTAC لفرض الضرائب على الصفقات المالية، وتقديم العون للمواطنين عام ١٩٩٨ – بعد صدور المقال الافتتاحي لجريدة لوموند الديبلوماسية، مطالبًا بالنضال من أجل الضريبة المقترحة من جيمس توبان– رمزًا لحركة اجتماعية عالمية، بلغت أوج ذروتها، بالتزامن مـــع بدايات نشاط الرابطة، في مظاهرات سياتل الواسعة في نوفمبر ١٩٩٩ ضـــد قمـــة منظمـــة التجارة العالمية. واندلع فجأة التحرك الاجتماعي في نهاية ٢٠٠١، الذي ظل في طي الكتمان لعدة أعوام عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، التي أكدت كثيرًا في بدايتها فيمـــا يبـــدو، ضـــرورة تكوين رؤية حضارية وملحة، واختفاء التحليلات الطبقية، بل النموذج الاجتماعي بأكمله."

ماتيو ريمي Mathieu Rémy

في هذه الحقبة، استمر الصراع في التصاعد أحيانا، وفي التراجع أحيانًا أخرى، واقتصر في أحيان كثيرة على المجالات الثقافية والأخلاقية. وأثارت "نظريـــة العدالـــة" "théorie de la justice" لجون رولز (تُرجم الكتاب إلى الفرنسية عـــام ١٩٨٧) الجـــدل الواسع في أرجاء العالم. يرتبط نجاح هذه النظرية بمناخ "ما بعد السياسة" العـــصري. ولقد طرح كل من شارلز تيلور، ومايكل وولزر، رؤية أخـــرى معارضـــة، "متعـــددة الثقافات"، أسفرت عن جدل مضجر بين "الليبراليين" والطائفيين" استمر لفترة طويلة في التسعينيات؛ وأصبح مصطلح "تعدد الثقافات"، كلمة سر هذا العصر. كما أدى انحـــسار الماركسية، ورفض الرؤى النقدية إلى ظهور الفلسفة الأخلاقية والسياسية مـــن جديـــد. وقد قام جيل ديلوز بنقد لاذع لهذه الفلسفة في مؤلفه "الألفباء"، عام ١٩٩٦، الذي صدر عن دار نشر "آرتى" بعد عام من انتحاره.

اندمجت الليبرالية الحديثة أيضًا، خلال هذه الحقبة، مع المحافظين الجدد في مجال العلاقات الدولية، وأصبح ثلث الكرة الأرضية يعيش في التسعينيات مع أنظمة غير رأسمالية، وتراجع العالم إلى ما أسماه شارلز كروثامير "آونة القطب الأحادي"[٢٠]. وامتد حلف شمال الأطلنطي إلى الشرق بعد التغلب على خصومه، وصدرت في الولايات المتحدة سلسلة من المؤلفات للعديد من المفكرين ، حققت نجاحًا كبيرًا، واجتهدت في فهم "النظام العالمي الجديد"، الذي نشأ في نهاية الحرب الباردة. يُعد فرانسيس فوكوياما، وصامويل هانيتينجتون من أبرز هؤلاء الكتاب بمؤلفيهما "نهاية التاريخ والرجل الأخير" La fin de l'histoire et le dernier Homme عام ١٩٩٢، و"صدام الحضارات" Le choc des civilizations عام ١٩٩٦. ولقد نشرت بعض المجلات قوية التأثير عدة مقالات قبل صدور تلك المؤلفات.

"إذا كان هناك موقع نازي على شبكة المعلومات في زمن جمهورية ويمار Weimar، فسوف ينتهي الأمر باشتعال ألسنة اللهب المحتملة للمعركة الكبيرة على الشبكة".

جارون لانييه Jaron Lanier

تتباعد، من الناحية الظاهرية، الموضوعات المطروحة في المؤلفين؛ فقد جدد فوكوياما المفهوم الهيجلي القديم (نسبة إلى هيجل) "نهاية التاريخ"، ودافع عن فكرة أن الديمقراطيين الليبراليين، هم أفضل التنظيمات السياسية في المجتمعات الإنسانية؛ كما صرح بأن التحدي الأكبر الذي تواجهه المجتمعات التي وصلت إلى تلك المرحلة، هو "السأم"، أو "قرون من السأم في نهاية التاريخ"، إذا استشهدنا بالتعبير الذي استخدمه. على الرغم من ذلك، فإن أقل ما يمكن أن يقال: إننا لم نسأم من صدور هذا المؤلف. وقد نخطئ الظن إذا أسأنا تقدير ظهور مؤثرات جديدة، وانفعالات سياسية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتطور المؤسسات الديمقراطية والحيز الشعبي. فيما يتعلق بهانتيجتون، فقد اعتقد أن الصراعات المستقبلية سوف تختلف طبيعتها عن الصراعات الماضية؛ لأن مكونها "الحضاري" – مع استمرار إلحاح عقد التسعينيات على مجالي الثقافة –

سوف يصبح المهيمن على الأوضاع. في واقع الأمر، طرح كل من فوكوياما وهانتيجتون فرضية أن سياسة القوى القديمة، والنظام الحديث للتبادلات بين الدول، الذي نشأ في أوروبا في حقبة معاهدة وستفاليا Westphalie عام ١٦٤٨ (التي وضعت حدًّا لحرب الثلاثين عامًا)، على وشك الزوال ليحل محلها أبعاد جيوسياسية جديدة. بناءً على ذلك، فإن عقد التسعينيات لا يعد الحقبة الفاشلة في القرن العشرين فحسب، بل العصر الشاهد على نهاية دورة تاريخية أطول منه بكثير.

في التسعينيات، تحولت الليبرالية الحديثة من عقيدة ذات بنية فكرية ثقافية، إلى أيديولوجية منتشرة في كل مكان ومترسخة في الشعور. ولنستشهد بأقوال لوك بولتانسكي، وإيف شيابلو، في مؤلفهما الصادر عام ١٩٩٩ "الفكر الجديد للرأسمالية" Le nouvel esprit du capitalisme، عندما وصفا الرأسمالية بتمتعها بفكر جديد[٢١] يتلخص مضمونه في تشكيل هيكل متشابك للتجارة، وحركة متزايدة لرأس المال (بصفة خاصة التمويل)، وسقف أعلى للأجور، ودعم "استقلال" العاملين و"إبداعاتهم"، والمخاطرة الفردية. وإذا كانت السياسات الليبرالية الحديثة، كما سبق ورأينا، تُطبق في كل أنحاء العالم اليوم، إلا أن هذا الفكر لم يعد فعالاً؛ نظرًا لفوضويته العقيمة؛ ففي نهاية العقد، عادت إلى الساحة الأنماط العدائية في مجال الأعمال، مثل التيلورية الحديثة (نسبة إلى فريدريك تيلور) التي تعمل على تطبيق الاقتصاد المعاصر على المجالين الاجتماعي والتقني. واقتصر تأثير آراء بولتانسكي وشيابلو، على الدول التي تشكل محور الرأسمالية. من جهة أخرى، نجد أن العمال الصينيين والمكسيكيين يعملون، وفقًا للفكر القديم، في مصانع تجميع الأجهزة المعلوماتية أربع عشرة ساعة يوميًا. تجمع الرأسمالية إذن، منذ نشأتها، بين القديم والحديث وفقًا لمتطلبات كل عصر؛ فإذا كان الفكر الحديث قد تصدر الساحة في التسعينيات، إلا أنه تعلق "بالأوضاع القديمة المتوارثة"، وفقًا لآراء ماركس عندما كتب " إن تراث الأجيال المندثرة يلقي بثقله على عقول الأحياء".

الطبقات المسيطرة تصبح من الآن فصاعداً
أكثر عداءً لكل أشكال الحلول الوسط

بـدايـات

صدر في فرنسا عام ١٩٩٥، كتاب فرانسوا فوريه "ماضـي الـوهم" Le passé d'une illusion، أكثر المؤلفات صيتًا في العقد، وقد استلهم كاتبه العنوان مـن مؤلـف فرويد "مستقبل الوهم" L'avenir d'une illusion (١٩٢٧). ظهر تأثير فوريه قبل ذلـك ببضعة أعوام، أثناء الاحتفال بالمئوية الثانية للثورة الفرنسية؛ وزادت حظوتـه آنـذاك عند المؤرخين وغيرهم بفضل مشاركته في تأسيس مؤسسة سانت – سـيمون، وفـي أعمالها التي كانت تهدف، وفقًا لأحد مؤسسيها بيير نورا، إلى "جمع شمل أصـحاب الآراء القادرين على التواصل مع الآخرين ذوي الحظوة". فـي عـام ١٩٩٧، صـدر المؤلف الجماعي "الكتاب الأسود للـشيوعية" Le livre noir du communisme، متوجًـا عقدًا مناهضًا بشدة للشيوعية. لقد أثار تمهيد الكتاب لستيفان كورتوا جدلاً، لأنـه كـان يجمع بين الإبادة الجماعية النازية والسيتالينية. وأصبحت الأحكام التاريخيـة اللاذعـة أحد الاتجاهات الأساسية لهذه الحقبة.

في الآونة التي بلغت معارضة الرأسمالية أدنى مستوى لهـا فـي التـسعينيات، تصاعدت جبهتان؛ أولاهما، جبهة وضع المرأة – الحركة الاجتماعية الوحيـدة التـي حققت معظم أهدافها – وثانيتهما، جبهة علم البيئة. في عام ١٩٩٢، عُقدت قمة الأرض في ريودي جانيرو، وفي عام ١٩٩٧ وُقعت اتفاقية الحد من انبعاثات الغـاز المـسببة للانحباس الحراري؛ وقد كانت الإحصائيات الصادرة بصدد هاتين الظاهرتين كارثيـة، ولم يحقق "المجتمع الدولي" في هذا السياق الأهداف المنـشودة. شـهدت التـسعينيات أيضا، توحيد أحزاب الخضر في أرجاء أوروبا؛ فانضم "الخـضر" أنـصار جوشـكا

فيشر إلى تحالف "الأحمر / الأخضر" الذي يرأسه جيرهارد شرودر في ألمانيا؛ وانفصلوا عن "الحركة السلمية"، أحد العناصر المؤسسة لهويتهم السياسية، بعد توريطهم لقوة الدفاع الفيدرالية في أولى حروبها عام ١٩٤٥ في كوسوفو (كان فيشر آنذاك وزيرًا للشئون الخارجية). غير أن ذلك لم يمنع تطور الأوضاع في أوقات سابقة؛ عندما ازدادت خطورة الأزمة البيئية بين شعوب العالم، وتهيأت الأجواء لتأسيس قاعدة صلبة للحشد المستقبلي.

كانت نهاية هذا القرن مواتية أيضًا لعودة النقد القديم الموجه للنظام القائم. فقد صدر عام ١٩٩٣ مؤلفان واعدان للأجيال القادمة، الواحد تلو الآخر؛ وهما "بؤس العالم" La misère du monde – عمل جماعي يرأسه بيار بورديو – و"أشباح ماركس" للكاتب جاك ديريدا. وازدهرت على الساحة الدولية الأفكار الراديكالية مثل: ما بعد الاستعمار، ونظريات النوع، والماركسية الحديثة، والبيئة السياسية[٢٢]... ولم يكن هناك إلا منظور واحد فرنسي – محوري يرى أن حقبة التسعينيات شهدت تراجعًا في مجال النظريات النقدية.

لقد كان غياب "العناصر البشرية المطالبة بالتحرر" من أكبر سمات التسعينيات؛ أو بمعنى آخر، اختفاء العناصر المحركة الجماعية، القادرة على تهيئة المناخ للتغيير الاجتماعي. لقد كانت الفئة العمالية هي الحافز الأساسي " للقوى المحركة للتاريخ"، ثم انحسر نشاطها الجماعي في الثلث الأخير من القرن، لأسباب ديموغرافية، وسياسية، وثقافية. وبدأت عملية البحث الطويل – التي لم تنته بعد – عن فئات أخرى جماعية قادرة على تحقيق التحرر، وتكون بديلاً لطبقة العمال. من هذا المنطلق، يمكننا القول إن التسعينيات، تماثل العقود السابقة لتشكيل الحركة العمالية الحديثة في بداية القرن الحادي والعشرين؛ تلك العقود التي نمت خلالها التطلعات السياسية، والمطالبة بالعدالة الاجتماعية.

ماركوس نائب القائد

"ليس ضروريًّا أن نستحوذ على العالم"

"إلى شعوب العالم والأشقاء،

في السنوات الأخيرة، كشفت سطوة المال عن وجهها القبيح في هيئة جديدة لا تميز، عبر الحدود، بين جنس ولون، وتُذل الكرامة، وتُهين الكبرياء، وتغتال الأمل، وتُعيد بعث الجريمة التاريخية، تحت مسمى "الليبرالية الحديثة" لتحتكر الامتيازات والثروات ، وتُعمم الفقر واليأس، وتفلت من القصاص.

سوف تندلع حرب عالمية جديدة، لكن ضد الإنسانية جمعاء؛ وكما هو الحال في الحروب العالمية، سوف يُقَسَّم العالم تقسيمًا جديدًا.

هذه الحرب الحديثة التي تغتال وتتناسى ما ارتكبته، تسمى "العولمة". والتقسيم الجديد سوف يركز على هيمنة النفوذ، وزيادة الفقر.

إن التقسيم الجديد للعالم، سوف يستبعد "الأقليات": أهل البلاد، والشباب، والنساء، والمثليين، والمثليات، والملونين، والمهاجرين، والعمال، والفلاحين؛ سوف يستبعد كذلك الأغلبية؛ لأنه يرى أنها فئة لا طائل منها، تعمل متسترة وفي الخفاء. سوف يدمر هذا التقسيم الجديد، الإنسانية، وسوف يتوسع نفوذ رأس المال التمويلي، وتحقق الحكومات الفاسدة انتصاراتها، بأسلوب التدمير القديم الذي لا تعرف سواه.

لا يعترف التقسيم الجديد إلا بالمال وعبيده؛ فالرجال والنساء والآلات سواسية، لأنهم مُستعبَدون ومُهملَون. سوف يطغى الرياء ويتخذ أشكالاً ووسائل جديدة.

إنهم يروجون لادعاء جديد، ويعدونه بمثابة التاريخ؛ ادعاء يهزم الأمل، والكبرياء، والإنسانية، ويعرض علينا في المقابل، أكذوبة الانتصار على الصلافة، والمذلة، وفوز الليبرالية الحديثة.

إنهم يعرضون علينا مؤشرات البورصة بديلاً عن الإنسانية، وعولمة الفقر بديلاً عن الكرامة، والفراغ بديلاً عن الأمل، وتدويل الفزع بديلاً عن الحياة.

علينا القضاء على تدويل الفزع، والعمل على تدويل الأمل بتوحيد الحدود، واللغة، واللون، والثقافة، والجنس، والإستراتيجيات، والأفكار، لتشمل أولئك الذين يفضلون الإنسانية الحية،. علينا تدويل الأمل ونبذ بيروقراطيته ، ورفض صورته المعكوسة التي تسعى إلى فنائنا.

علينا نبذ السلطة التي تتخذ شكلاً جديدًا وهيئة جديدة. علينا إحياء الكرامة، وزهرة الأمل، وأغنية الحياة.

إن الكرامة هي وطن بلا حدود، وألوان الطيف، وجسر العبور ، وهواجس القلب على اختلاف الدماء التي تجري بداخله، والتمرد الجسور الذي يسخر من الحدود، والجمارك، والحروب.

والأمل هو نبذ الخضوع الذي يرفض الامتثالية والهزيمة؛ والحياة هي حقنا في أن نَحكُم ونُحكم، وهي حرية التفكير والتصرف دون الإضرار بالآخرين، وهي حقنا في الأخذ والعطاء لكل ما هو عادل."

تلك هي كلمات نائب القائد ماركوس عام ١٩٩٥ الموجهة لأهل البلاد بدءًا من جبال جنوب شرق المكسيك؛ وللجنة السرية الثورية، وللقيادة العامة لجيش الزاباتيست للتحرر الوطني.

فرانسيس فوكوياما، "نهاية التاريخ"

"إذا تتبعنا تدفق الأحداث في العقد الأخير، فمن الصعب تجنب الانطباع الذي يتولد لدينا بأن ثمة أمرًا عميقًا قد أصاب التاريخ. لقد شهد عامه الأخير صدور سلسلة من المقالات تحتفل بنهاية الحرب الباردة، و"إقامة السلام" في ربوع كثيرة من العالم؛ غير أن غالبية تلك التحليلات تخلو من الإطار التصوري الشامل إلى حد ما، الذي يسمح بالتمييز بين الحدث الأساسي

والعارض أو الطارئ في تاريخ العالم؛ لأنها تحليلات سطحية؛ فإذا كانت قد ذكرت الإطاحة بجورباتشوف من الكرملين، أو إعلان آية الله ، من إحدى العواصم المقفرة في الشرق الأوسط ، بداية ألفية جديدة؛ فقد تدافعت هذه التحليلات نفسها لتعلن ميلاد عصر جديد من الصراعات.

مع ذلك، أدرك أولئك الكتاب أن لديهم شعورًا داخليًا بأن ثمة أحداثًا على قدر كبير من الأهمية سوف تبدأ، وتمنح الصحف العناوين العريضة؛ إذ شهد القرن العشرون تطورًا خطيرًا أدى إلى انغماس العالم في عنف أيديولوجي محتدم؛ بدأ بمحاربة الليبرالية للمعاقل الأخيرة لأنصار الحكم المطلق، ثم البلشفية والفاشية، والماركسية الحديثة التي عرضت العالم لخطر الانغماس في فوضى حرب نووية. وأصبح هذا القرن، المليء بالأمل في بدايته بانتصار الليبرالية الغربية، يدور في دائرة مغلقة ليعود إلى نقطة البداية؛ التي لم تكن تمثل "نهاية الأيديولوجيات" أو التوافق بين الرأسمالية والاشتراكية – كما كان متوقعًا في وقت سابق – إنما الفوز المدوي لليبرالية الاقتصادية والسياسية.

كانت أولى الأفكار الصاخبة المعبرة عن نجاح الغرب، مفادها أن كل نظام كان يعتقد أنه قادر على الاستمرار ويستطيع أن يحل محل الليبرالية الغربية، زالت حظوته تمامًا. في العقد الأخير، عاصرنا، في أكبر دولتين شيوعيتين في العالم، حدوث تحولات واضحة، ونشأة حركات إصلاحية مهمة، تخطت بكثير الأبعاد السياسية؛ ونستطيع أن نرصدها من خلال الانتشار الحتمي للثقافة الاستهلاكية الغربية: إقامة أسواق المنتجات الزراعية، وشراء تلفازات ملونة في كل أنحاء الصين، وإنشاء مطاعم تعاونية، وافتتاح متاجر للأزياء في موسكو العام الماضي، وانتشار موسيقى بيتهوفن في المحلات اليابانية، ناهيك عن موسيقى الروك في براج، ورانجون، وطهران. من المقدر إذن ألا تكون الأحداث التي نعاصرها تمثل نهاية الحرب الباردة أو إحدى مراحل ما بعد الحرب فحسب، إنما نهاية التاريخ كتاريخ؛ أي خاتمة التطور الأيديولوجي للإنسانية ولعولمة الديمقراطية الليبرالية الغربية، كأحد الأشكال النهائية للحكم البشري. غير أن هذا لا يمنع من توالي الأحداث التي يمكن أن تملأ صحف المجلات

المتخصصة للعلاقات الدولية؛ لأن نجاح الليبرالية بدأ في مجال الأفكار والـوعي، ولا يـزال غير مكتمل على أرض الواقع. وهناك أسبابٌ قوية تجعلنا نعتقد أن هذا النموذج هـو الـذي سوف يتحكم في العالم الواقعي لفترات طويلة."

فرانسيس فوكوياما، "نهاية التاريخ"
صيف ١٩٨٩، ترجمة فرنسية،
وتعليق، رقم ٤٧، خريف ١٩٨٩.

المراجع

1) Frédéric Jameson, "Periodizing the sixties",in Sohna Sayres et al.,The Sixties Without Apologies, Minneapolis,University of Minnesota Press,1984.

2) Alain Badiou,Le Siècle, Paris, Le Seuil,, 2005.

3) Eric Hobsbawm, L'âge des extrêmes. Histoire du court XX Siècle,Bruxelles, Complexe, 2003.

4) Wang Hui, The End Of Revolution, China and the limits of Modernity, Londres et New York, Verso, 2009, p. xi.

5) Sur la "transitologie", voir par exemple Michel Dobry, "Les voies incertaines de la transitologie. Choix stratégiques, Séquences historiques, bifurcations et processus de path dependence", Revue française de science politique, vol. 50. N 465, 2000.

6) John Holloway, Changer le monde sans prendre le pouvoir. Le sens de la révolution d'aujourd'hui, Paris, Syllepse, 2000.

7) Voir Sa tribune dans le quotidien Haaretz, 29 novembre 2007.

8) Martin Jay, "the uncanny nineties", Salmagundi, n 108, automne 1995.

9) Sigmund Freud, l'inquiétante étrangeté, et autres essais, Paris, Folio/ Gallimard, 1985.

10) Ibid. , p. 215.

11) John Mearsheimer, "imperial by design", The National Interest, n 111, janvier – février 2011, p. 16 – 17.

12) Noam Chomsky, Le nouvel Humanisme militaire, Lausanne, Page deux, 2000.

13) Voir Céline Braconnier et Jean Yves Dormagen, La Démocratie de l'abstention, Paris, Gallimard, 2007.

14) Achille Mbembe. "La république et sa bête", 7 novembre 2005, disponible sur le site de la revue Multitudes, à l'adresse: http://multitudes.Samizdat.net/La république - et - sa – bête.

15) Michel Kokoreff et Didier Lapeyronnie, Refaire La cité. L'avenir des banlieues, Paris, Le seuil, 2013, p. 22.

16) Didier Lapeyronnie, Ghetto urbain, Ségrégation, violence, pauvreté en France aujourd'hui, Paris, Robert Laffont, 2008.

17) Emmanuel Terray, " La question du voile. Une hystérie politique", Mouvements, N 32, 2 , 2004.

18) Perry Anderson, "Renewals", New left Review, vol. 1 (nouvelle série), janvier – février 2000.

19) Anthony Giddens et Tony Blair, La troisième voie. Le renouveau de la social – démocratie, préface de Jacques Delors, Paris, Le seuil, 2002.

20) Charles Krauthammer, "The Unipolar moment", Forein Affairs, hiver 1990 – 1991.

21) Luc Boltanski et Eve Chiapello, Le Nouvel Esprit du capitalisme, Paris, Gallimard, 1999.

22) Razmig Keucheyan, Hémisphère gauche. Une catégorie des nouvelles pensées critiques, Paris, La Découverte/ "zones", 2010 (rééd. 2013).

صمود السينما والتليفزيون

إمانويل بوردو Emmauel Burdeau

"بالومبيلا روسا" Palombella Rossa أو (الخصم الأحمر)، هو سادس فيلم روائي للسينمائي ناني موريتي، عُرض في إيطاليا في ١٥ سبتمبر ١٩٨٩، وفي فرنسا بعد ذلك بشهرين في ٢٩ نوفمبر. ثم عُرضت أولى حلقات المسلسل التليفزيوني سوبرانو Soprano، للمخرج دافيد شيز، على قناة فضائية خاصة "إتش بي أو" "وعُرضت في الولايات المتحدة في ١٠ يناير ١٩٩٩، وفي فرنسا على قناة "جيمي" في ٥ سبتمبر. نال فيلم بالومبيلا، منذ عرضه، استحسان مجموعة كبيرة من النقاد ومحبي السينما، لكنه يُحسب أيضًا لأولئك الذين ما زالوا يتمسكون بوجود السينما. إنه عمل شامل يسترجع الكارثة السياسية للعقد الذي ينتهي بمحاولته اليائسة للهرب من تلك الكارثة. لقد حقق أيضًا مسلسل سوبرانو نجاحًا فور عرضه، وزاد الإقبال عليه بعد توالي أحداثه الساخنة، والإخفاقات والضربات القاتلة، التي تلقاها زعيم المافيا في نيو جيرسي. بعد ثمانية أعوام من عرض مسلسل "الربان"، وبعد أن وصلت ليلة ١٠ يونيو ٢٠٠٧، نسبة المشاهدة للحلقة الأخيرة رقم ٨٦ من مسلسل "لا ساجا" (مسلسل أسطوري إسكندنافي) إلى اثني عشر مليون مشاهد أمريكي، محققًا بذلك الرقم القياسي للمشاهدة على إحدى القنوات الفضائية، وبعد مرور ستة أعوام على وفاة الممثل الذي لعب دور البطولة، جيمس جندولفيني في ١٩ يونيو ٢٠١٣،عن عمر يناهز ٥١ عامًا في روما إثر أزمة قلبية؛ أصبح توني سوبرانو البطل الأول في الثقافة الشعبية في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين؛ وأصبح مسلسل سوبرانو، إحدى الروائع التي يتعدى بريقها، أي عمل تليفزيوني ترفيهي.

انتهى عقد التسعينيات بالضبط، في الفترة بين عرض فيلم ناني موريتي ومسلسل دافيد شيس. وإذا كان فيلم بالومبيلا قد اختتم الثمانينيات، مسدلاً الستار على هذا العقد ومعلنًا بدء عقد جديد؛ فإن التسعينيات لم تشهد عرض السوبرانو وتصدره المسلسلات التليفزيونية، إلا في نهاية العقد وبداية الألفية الثانية؛ كما لو أن التسعينيات لم تكن سوى فترة فراغ لا تتمتع باستقلال ذاتي وصلابة ذاتية؛ وكما لو أنها لم تكن قط مرحلة انتقالية بين مرحلتين. ما العلاقة إذن بين هذا العمل وذاك، إن لم تكن علاقة عكسية أو ساخرة من القدر؟ ما العلاقة بين موريتي - الذي أنعش السينما الإيطالية المحتضرة، والمغلوبة على أمرها بمشاهد تليفزيونية مخلة - ومجرد مسلسل تليفزيوني؟ ما أوجه التشابه بين مخرج سينمائي خليفة روبرتو روسلليني، وشخص محنك في مسلسل أحرز نجاحًا بعد عرقلة انطلاقه لفترة طويلة؟ ما العلاقة بين كاتب وشخص استعراضي - تسمية لم تكن مستخدمة في ١٩٩٩ - إن لم يكن "حب كل ما هو إيطالي"، وتقاربًا بين طبائع الشخصين؛ فالأول سريع الغضب، والثاني عصبي المزاج؟ ما العلاقة بين فيلم ينهي حقبة، ومسلسل يبدأ أخرى؟

بالإضافة إلى السنوات العشر التي تفصل بين العملين، والتي تجعلنا نختارهما كمعلمين أساسيين في تاريخ الفن التمثيلي؛ نجد أن ثمة رابطة بينهما، وهي الفرضية التي سوف نتناولها في هذا السياق، ومفادها أنه من الجائز، أن نروي أحداث التسعينيات على الشاشتين: الكبيرة والصغيرة، من خلال بالومبيلا كنقطة انطلاق من جهة، وسوبرانو كنقطة وصول من جهة أخرى؛ إذ لدينا أحد أعمال القمة في السينما من ناحية، وإحدى روائع المشاهدة التليفزيونية المزدهرة من ناحية أخرى. والعمل الأول لم يقتصر علي أحداث الثمانينيات، والثاني تدور أحداثه حول بدايات الألفية الثانية؛ فالعملان قادران إذن، بفضل تماثلهما وتباعدهما، على وصف التسعينيات كحقبة تتمتع، رغم كل شيء، بتماسكها، وعلى اعتبارها بمثابة تاريخ يجري سرده من خلال تواريخ أخرى. تاريخ أقدم أحيانًا، وأحدث أحيانًا أخرى، ليشير إلينا بأحداث ماضية تارة، وأحداث مستقبلية تارة أخرى.

تبدأ أحداث بالومبيلا روسا بحادث سيارة ينجو منه ميشيل أبيسيلا – الشخصية التي يتكرر ظهورها، وتجسد ناني موريتي في أفلامه – ويفقد الذاكرة على إثره؛ وتتداخل المشاهد المشوشة لتروى لنا تارة مقاطع من ماضيه، ومشاعره، وقناعاته، وعدوله عن تمثيل الحزب الشيوعي الإيطالي؛ وتسرد لنا تارة أخرى منافسته ومنافسة فريقه أثناء مباراة كرة ماء، وهي اللعبة التي ثابر على ممارستها المخرج في شبابه أملاً في اتخاذها مهنة له. وفي خضم أحداث الفيلم، نشاهد السقم الشخصي والسياسي، وحوض السباحة، والسخط؛ سخط المخرج وشخصية الفيلم ضد عصرهما، وحنق إنسان يتمنى أن يصبح منسيا، وينتابه الإحساس بأن هذا السلام لا طاقة له به، بصورة أكبر من الحرب التي تندلع عادة ضد الجميع.

تتشابه أحداث الحلقة الرئيسة في سوبرانو مع الفيلم من حيث الديكور والدراما؛ فنجد حوض السباحة، الذي يسترخي بجانبه توني في ثوب النوم الأبيض؛ إحدى الإضافات التي ستصبح فيما بعد من اللقطات الأساسية. إنها المرة الأولى التي يتسكع فيها؛ لأنه أصبح عاطلاً عن العمل، ويعاني من الفراغ، إلا من إطعام زوج الأوز وذريته التي اتخذت من منزله مقرًا لإقامتها. إنه السقم، إذ ينتاب توني فجأة الشعور بأن شراب الليمون يسري في جمجمته؛ وهي الكلمات التي ما انفك يرددها: "إنني أشعر بشراب الليمون يجري في جمجمتي"، ثم يقع على ظهره مغشيا عليه. وقد شخص الأطباء حالته "بأزمة الهلع"، واضطر بعدها توني إلى التردد على الطبيب جنيفر ميلفي في عيادته مرة أسبوعيًا لإجراء فحص على الطريقة الأمريكية، أي وجهًا لوجه.

نظرًا لنشأته في وسط اجتماعي "ملتزم" ينتهج سياسة الكتمان، ويزدري كشف خبايا القلب؛ لم يسع العملاق – الذي يرتدي الزي الرياضي المزين بمربعات– إلا أن يكون صعب المراس أثناء التمرين. لقد صب توني سوبرانو غضبه على كل من حوله؛ ضد أمريكا التي لم تعد كما كانت، وضد عدم كفاءة ومكر "صبيانه"، وضد بلادة ابنه ودلال ابنته، وضد تكلف زوجته وخِسَّة والدته... ضد الجميع وضد نفسه في المقام الأول، لأنه في سن السابعة والثلاثين ولم يحقق مراده في أن يصبح الزعيم الكبير.

في واقع الأمر، كان ميشيل أبيكيلا يقاوم الغيبوبة؛ إذ سرعان ما تحول الفراغ – الذي عانى منه في بداية الأمر، والذي ظل يردد بداخله الجملة الساخرة "أنا أتذكر، أنا شيوعي بسيط" – إلى أحداث مفعمة بالنشاط؛ نشاط حول حوض السباحة حيث يتبارى فريقه، ذو الزي الأزرق، مع خصمه ذي الزي الأحمر بقيادة إيرمي بودافاري، الهداف المجري الخطير ذي الشارب؛ ونشاط حول المدرجات التي تحولت إلى اللون الأسود من حركة المشجعين التي انطلقت في بداية المباراة، واستمرت حتي خيم الليل؛ ونشاط حياته التي يسترجعها بصورة مشوشة متمثلة في طفولة ابنته، وزملائه السياسيين الذين يرددون فجأة، بعض الكلمات من حديث له أثناء برنامج توك شو؛ وقذف الأقداح والحلوى؛ والانقسام المحدود والرائع بين زملائه الذي أثارته مشاهدة فيلم دكتور زيفاجو (الذي أخرجه دافيد لين عام ١٩٦٥)، على شاشة تليفزيون على مقربة من حوض السباحة.

"هيا استيقظ، هيا استيقظ، هيا استيقظ يا ميشيل"؛ تردد مراراً هذا النداء، دون انقطاع أثناء عرض الفيلم، في صورة مناجاة أحيانًا، وهجوم أحيانًا أخرى. هل تتذكر ياميشيل؟ إذا كان البطل يعاني بعض القصور في الذاكرة، فقد كان من الضروري أن يتذكر أن العالم لم يتخل عنه، والماضي يناديه، وأصدقاءه والتزاماته كذلك، ولن يكف تاريخه عن إحياء الأحداث السعيدة والذكريات الحزينة. حصل توني سوبرانو على مساندة مماثلة؛ إذ كان يتطلع، على حافة حمام السباحة، إلى لحظة هدوء وسلام، وإلى السرور الذي تدخله عليه زراعة حديقته التي هي بمنأى عن خلافاته العابرة وتسوية الحسابات. لكنه لن يحقق ذلك على الإطلاق؛ إذ تقفز إلى ذاكرته، عن عمد، بعض الأحداث المرتبطة ببعض الأصدقاء، وتجبره على عدم النسيان، وتطوقه بالتقاليد. تلك هي قواعد المافيا الأخلاقية المعروفة، التي بموجبها، تحترم الأجيال الصاعدة الأكبر سناً منها. إن أكثر ما يجذبه أثناء تناوله المثلجات، مشاهدة الأفلام الوثائقية عن الحرب

والقادة العظماء، التي تعرض على قناة "الواقع التاريخي"؛ وأكثر ما يضجره، النقمة على رجال المافيا في الأفلام التي يشاهدها؛ مثل "الزعيم" لفرانسيس فورد كوبللو، و"الطلقاء" (١٩٩٠) لمارتين سكورسيس؛ الفيلم الذي لم تذكره قط شخصيات سوبرانو على الرغم من أنه مصدر الإلهام الأساسي، أي "الكتاب المقدس" لدافيد شيس.

"علينا الإبقاء على السينما، من أجل الحفاظ على الأقوال التي لا نستطيع التلفظ بها، ومن أجل نبش الحقيقة"

جون لوك جودار Jean Luc Godard

ميشيل وتوني، شخصان في غاية الحزن، ثائران وعلى قاب قوسين أو أدنى من الانفجار، بصورة غير مسبوقة في تلك الآونة. إنهما قوتان طبيعيتان، في دور النقاهة؛ شخصان شرهان، ومحترفان في تناول الحلويات، ومريضان يعانيان من الماضي. ذلك الماضي – الذي يدوي بإلحاح كاللعنة في ضمائرهما – هو الذي ساعدنا على سرد أحداث التسعينيات الماضية في السينما والتليفزيون؛ حيث إن التلاحم والانفصال بين مصالح ومستقبل الشاشتين الكبيرة والصغيرة، كانا أمرًا حتميًا في هذا العقد. وإذا كان كل من توني وميشيل، يقف على مقربة من حمام سباحة؛ فذلك لأن الماء، يمثل لهما في آن واحد ، الحيز الذي يتذكر ويصمد أمام كل شيء، ولا ينهزم؛ كما أنه الملجأ الذي يتمنيان أن تختفي بداخله، كل الذكريات، وتتبخر، وتستعيد صفاءها. الأول يبكي على ضياع مذاق أطعمة الطفولة من فمه، والثاني يحلم بعائلة منسجمة مثل الأوز الذي سوف يؤدي تحليقه إلى فقدان توني لوعيه. بالتالي، نجد أن ثمة استمرارية بين حمامي السباحة؛ استمرارية متناقضة لأن عودة التاريخ وارتداده، في السينما أولاً، وفي التليفزيون بعد ذلك، لم تمكنه من بلوغ أهدفه. ذلك هو عقد التسعينيات، الذي تختفي أحداثه وتعود؛ عقد نهاية التاريخ، الذي ما انفك يعود بدلاً من اختفائه المفترض.

ازدهار برامج الشو الواقعي

"ظهرت في التسعينيات لأول مرة برامج الشو الواقعي في الولايات المتحدة، بعرض "رجال الشرطة" عام ١٩٨٩، الذي يروي لحظة بلحظة التفاصيل اليومية لمهام رجال الشرطة الأمريكية. والفكرة بسيطة، ومستوحاة من الأفلام الوثائقية والتحقيقات الصحفية، التي استعان بها كذلك التليفزيون لإمداد هذا الفيض من البرامج بمادته الإعلامية. ولقد انتهج التليفزيون نهجًا مخالفًا للمبدأ المتبع آنذاك، عندما حول الحياة الشخصية اليومية لأولئك الأفراد العاديين إلى شو إعلامي، وعندما كشف عن مختلف خبايا حياتهم، وسخرها لتحقيق أهدافه. تكررت الفكرة نفسها في فرنسا علم ١٩٩٠ في برنامج "الاختفاء عن الأنظار" من إعداد جاك برادل، وجان ماري بيرتوي، عندما استضاف البرنامج أشخاصًا غرباء يبحثون عن ذويهم المفقودين، واستعان بمحققين وصحفيين لتحقيق التواصل المباشر بين الطرفين. حقق البرنامج نجاحًا مدويًا، مما حفز جاك برادل على التعاون مع باتريك ميني لإعداد برنامج يتمحور حول الفكرة نفسها القائمة على استضافة الجماهير؛ لكن هذه المرة بغرض الحصول على المعلومات التي تساعد في تحقيقات الشرطة. حقق برنامج "الشاهد الأول" في الفترة بين١٩٩٣ و١٩٩٦ نسبة مشاهدة تصل إلى ما يقرب من ثمانية ملايين مشاهد شهريًا؛ الأمر الذي أثار قلق العديد من القضاة، الذين رأوا أن هذا الإجراء – حتى لو كان برضاء أهالي الضحايا – يندرج في إطار التشهير. ظهرت أنماط أخرى من البرامج في التسعينيات، في العالم أجمع، مستخدمة "رجل الشارع" لتحقيق أعلى نسب مشاهدة (مثل الاحتفال بالشجاعة العادية في "مسيرة المجد"، وتسوية النزاعات في "بلا أدنى شك"). ونظرًا لاستغلال هذه المادة الإعلامية، بدأت تلك البرامج في التراجع بالتدريج ليحل محلها، برامج "الواقع التليفزيوني" بدءًا من عام ١٩٩٩ عندما أنتجت شركة إيندمول في هولندا برنامج لعبة "الأخ الأكبر". لم يقتصر الإعداد هذه المرة على استضافة أشخاص مجهولين لإضفاء قيمة على اكتشافاتهم، أو على إيثارهم للآخر، أو لمساعدتهم على تعاطف أقربائهم معهم؛ إنما لجأ إلى استضافة البعض منهم في مكان مغلق

لتصويرهم على مدار الأربع والعشرين ساعة، مع منح المشاهدين حق استبعادهم أسبوعيا من "اللعبة". هذا النموذج، الذي انحسر في العالم أجمع، لاقى نجاحًا وظل على القمة في العقد الأول من الألفية الثانية، لدرجة تصل إلى أن برنامج "العالم الحقيقي" لقناة "إم تي في" – الذي استعاد منظور برامج ١٩٩٢– أتاح للمشاهدين الأمريكيين متابعة مغامرات بعض الشباب الذين وقع عليهم الاختيار ليتشاركوا السكن في شقة أو عربة تخييم. وفي فرنسا، أثار برنامج "لوفت" الجدل حول نصه، وطيش المشاركين فيه الذين أضحكوا المجتمع عام ٢٠٠٠ بأكمله.

ماتيو ريمي Mathieu Remy

في ٢٩ ديسمبر ١٩٨٩، وقبل بدء عام ١٩٩٠ بأربع وعشرين ساعة، نشر سيرج داني مقالاً بعنوان "السينما وذاكرة المياه"، في مجلة "ليبيراسيون" Libération التي يشرف من خلالها على باب "قفزات"[١]. قارن سيرج في نقده بين "بالومبيلا روسا"، و"المياه الزرقاء الرحبة" Grand Bleu ؛ الفيلم الذي أخرجه لوك بوسون قبل بالومبيلا بعام ونصف العام، وجذب الجماهير، خاصة الشباب، وبلغت نسبة مشاهدته أكثر من ٩ ملايين مشاهد. كانت المياه الزرقاء تخلب لب داني؛ تلك المياه التي لا يحبها، لكنه يعود إليها بانتظام، وبإصرار شديد لدرجة أزعجت أصدقاءه. لماذا تناول داني هذا الفيلم؟ لأن أحداثه تدور حول الموت، والرغبة في الغطس تحت الماء وعدم الرغبة في الصعود مرة أخرى؛ وللنجاح الجماهيري الذي حققه على الرغم من نظرته السوداوية؛ ولأن داني يرى أن هذا الفيلم يمثل نهاية حقبة انجذاب الجماهير للأفلام السينمائية الفظة، التي طال عرضها على مدار عقد الثمانينيات. إن الفن الجماهيري، هو فن الإعداد وليس الإنتاج؛ لأن تلك السينما لا تخترع المناظر، إنما تلجأ لمناظر سبق إعدادها وتنهل منها مصدرها مرة واحدة. ففي هذا الفيلم، كان مصدر الإلهام بطاقة بريدية للمحيط تبرز ألوان قوس قزح، وغروب الشمس في الأفق. والمياه الزرقاء للفيلم، مياه هادئة، يغطس فيها جاك مايول، الذي يلعب دوره الممثل جون

مارك بار، بمفرده ويرغب في البقاء تحتها ليسبح مع الدلافين، رافضًا الصعود إلى السطح للتواصل مع أصدقائه من جديد. يقتصر هذا الفيلم أيضًا على عرض المناظر المُعدَة، والثابتة التي لا تتغير، ويقتصر كذلك على عرض مقتطفات عن شخصيات؛ بمعنى آخر، لا يعرض أشخاصًا إنما نماذج موحدة للجنس البشري.

والتناقض مع بالومبيلا واضح، وجلي للغاية بحيث يمكننا تلخيص حال المجازفات الحاسمة في التصوير السينمائي – عند التقاء الثمانينيات بالتسعينيات – في مياه بحر بيسون الساكنة، ومياه حوض سباحة موريتي المتحركة؛ حيث تسبح في كلتيهما السياسة، والمجتمع، والسينما في آن واحد، جنبًا إلى جنب وضد بعضها بعضًا. يمكننا تلخيصها كذلك، في التعارض بين أعماق مياه بيسون، التي تدعو إلى الغطس للتمتع بالانسيابية الذاتية دون غيرها؛ وأعماق مياه موريتي، التي تحث كل شخصية على النضال لإبقاء رأسها خارج المياه. ولنتأمل كيف استطاع ميشيل، عندما قرر عدم احتساء الكأس، التشبث برأيه للغناء، والجدال مع بودافاري، وتحديه، والتعارك معه... إنها مداعبة السينما للجماهير والتليفزيون، في مواجهة غضب موريتي من وسائل الإعلام، وبشاعة لغتها المستحدثة. فقد صفع ذات مرة ميشيل، وبكل هدوء، أحد الصحفيين في إحدى المقابلات التليفزيونية؛ وأطلق صرخة مذهلة، وردد بعض الكلمات مثل "ابتذال"، و"انحطاط"، و"نزعة سلبية". والكلمات تُحسب على قائلها ! فبعد مرور أربعة أعوام على تلك الواقعة، وصفت مجلة "جورنال آنتيم"، موريتي وهو على فراش المرض، بالناقد الآثم، لدفاعه عن الأفلام الهابطة ذات اللغة المبتذلة؛ فصرح بعدها بأن كل من يظهر، ولو مرة واحدة، في برنامج أسبوعي يصبح آثمًا للأبد. وأصبحت تلك الكلمات وسابقتها، كلمة السر لمحبي السينما، الناقمين على التليفزيون والفظاظة الإعلامية. ولم تتراجع بالتأكيد، قوة وسائل الإعلام؛ إذ ظهر أحد المفكرين، المبتعدين عن الساحة، في "جورنال آنتيم" وعبر بصورة قاسية ومعبرة عن كرهه للتليفزيون، مثله في ذلك مثل الناقد السينمائي جون لويس كوموللي، الذي صرح "بأنه

بلغ الحد الذي يُمكنه من ابتلاع منحدرات جزيرة ســالينا الهوائيــة"، وصــاح قــائلاً: "التليفزيون! ذلك الوجه الطيب والملهم، بطريقة ما، في ضلاله المتأصــل، كمــا فــي انحرافه المفرط."

لم تفقد السينما مكانتها، بالنسبة لسيرجي داني وآخرين، عندما أوشــكت علــى التراجع في التسعينيات؛ لأن ذلك الناقد العبقري لم يدرك إلا بوادر هذا التراجع، حيــث توفي يوم ١٢يونيو ١٩٩٢ بعد إصابته بالإيدز عن عمر يناهز ٤٨ عامًا. يتــشابه كــل من بيسون وموريتي في الحلم الذي يداعبهما، بالطفو على سطح المياه والسباحة علــى الظهر. عند عرض الفيلم التسجيلي "السينما وذكرى المياه" La cinéma et la mémoire de l'eau، أشار داني إلى أن الصور البلاغية المائية شغلت التسعينيات لوقــت طويــل. لقد تلاعب بنفسه كثيرًا بالمصطلح المجازي "اقذف المولود بماء الحمام"، فــي مقــالتين بارزتين في "ليبيراسيون" بعدديها الصادرين في ٣٠ سبتمبر، وفي الأول مــن أكتــوبر ١٩٩١، والمخصصين لحملة عن المصور الإعلاني الإيطــالي أوليفيــرو توســكاني ودعايته لماركة بينتون، التي تُظهر رضيعًا ينطلق في فراغ عميق وناصــع البيــاض، دون أية خلفية: سواء شعار أو منتج. إنه نموذج مثالي، جديد وغير مــسبوق فــي آن واحد؛ يبرز انفراد الصورة المتجردة من كــل شــيء، الأمــر الــذي وصــفه دانــي بـــ "الدعاية البصرية". إنها صورة تعبر عن نفسها، ولا شيء غيرها، وتصلح للــشاشة وليس للدعاية.

ما العلاقة بين فيلم ينهي حقبة ومسلسل يبدأ أخرى؟

استمر استخدام الصور البلاغية المائية طوال عقد التسعينيات، وصاحبها مشروع تحرر السينما من الأمور المادية والمؤثرة، الذي بلغ ذروته في يونيو ١٩٩٩، عندما عرض فيلم "المصفوفة" Matrix وجعل "المختار" يتسامى على قضايا البشر، ويُقصر المظهر الخداع للعالم على بعض اللقطات التصويرية الرمزية. أبرزت بعد ذلك ثلاثية "الإخوة فاكوفيسكي، وآندي، ولاري" – التي تحولت فيما بعد إلى "لانا" – العودة إلى "الواقعية". لكن كيف لا نُشكك في ذلك؟ يكفي بكل بساطة تذكر درس فيلم "تايتانيك" المرير. في خضم اللقطات المجازية، يذكرنا جيمس كاميرون في الواقع، منذ ١٩٩٧، كيف أصبح البحر قبرًا مرعبًا، وملاذًا يحتفظ بمجتمع القرن العشرين، بتقسيماته الطبقية الصارمة. لقد كانت تختفي أحيانًا بعض الأحداث المؤثرة، ثم تعود مرة أخرى بصورة مفاجئة وتشاؤمية، بعد أن بدأت السفينة تغرق رأسيا وتدفع الأجساد للسقوط بشكل فظيع.

في أوائل التسعينيات ظلت السينما تقاوم للبقاء، وتناضل بكل الأسلحة غير المتكافئة التي تمتلكها، ضد قوى الإعلام والتليفزيون. لم يكن مستساغًا لأي كاتب سيناريو في تلك الحقبة، أن يغفل في كل فيلم له عن توجيه النقد اللاذع، للبرنامج التليفزيوني "الأخ الأكبر" big brother؛ فكل منهم يعتقد أن كل جهاز تكنولوجي يخفي وراءه مكيدة، وكل كاميرا أصبحت تتلصص وتراقب؛ وفي داخل كل سينمائي يقطن مجرم، وفي كل مجرم – وهو من أسوأ الأمور – يتخفى صحفي يبحث عن سبق صحفي. وإذا أراد أي شخص أن يتحقق من أبرز مثال على ذلك وأكثرها خداعًا، فعليه أن يتسلح بقليل من الشجاعة، ويذهب لإلقاء نظرة على حفل السعفة الذهبية لعام ١٩٨٩، الذي أطلق عليه الأمريكي ستيفن سوديربرج "الجنس، والأكاذيب، والفيديو".

لقد كانت السينما لا تزال صامدة في تلك الأعوام. وإذا أعددنا إحصاءً لما تبقى منها، مثل فيلم موريتي وأحداثه في حوض سباحة بالومبيلا روسا، فسوف نضع بعض

الأعمال على قائمة تلك الإحصائية قبل طيها نهائيًا. في تلك الحقبة، كانت السينما لا تزال تهتم كثيرًا ببقائها وفقًا لاتجاهين أساسيين؛ الأول يمثله النمط الساخر الذي يسترجع الماضي، بصورة خاطفة، ويعيد اقتباس الأعمال للمرة الثانية أو للمرة الألف. يمكننا أن نطلق على أنصار هذا الاتجاه كُنية "الماكرين الضعفاء"، وهو تعبير غير دارج في عصرنا الحالي. إن الظهور المفاجئ لكانتين تارانتينو بفيلم "مستودع الكلاب" Reservoir dogs عام ١٩٩٢، ثم "لب الخيال" pulp Fiction عام ١٩٩٥، يبرز ذروة هذا الإخفاق؛ غير أننا بدأنا ندرك مع فيلمه "جاكي براون" Jackie Brown عام ١٩٩٧، كيف أضفت النماذج السينمائية، والسياسية، والتاريخية التي أحياها، مثل "أوغاد مجهولون" Inglorious Basterds (2009)، و"جانغو الحر" Django Unchained (2013) الجدية والمهنية على أعمال ذلك السيناريست، تارانتينو موظف الأرشيف السابق. الاتجاه الثاني، الأكثر جدية من الناحية الفنية، يتمثل في نمط المحاكاة، الذي يقتبس ويحور الموضوعات السينمائية القديمة؛ وكان يضم برايان دي بالما، وفرانسيس فورد كوبللو، وجيم جارموخ، وويم واندرز وآخرين. لا يرتبط موريتي بأي من هذين الاتجاهين، إلا إذا اعتبرنا بالومبيلا روسا متحفًا يزخر بجميع الأمور: رياضة كرة الماء، وفرانكو باتياتو، وراؤول رويز، والحلوى، ودكتور زيفاجو على شاشة التليفزيون.

إن الشعور بأن بالومبيلا روسا ترك علامة في تاريخ السينما، وأنه فيلم محوري أبرز بعض الشخصيات قبل اختفائها نهائيًا، لا يزال قائمًا؛ فقد صمد الفيلم على الرغم من عرضه النادر، وتخزينه لفترة طويلة على القرص الرقمي دي في دي. لقد صمد أيضًا أمام تراجع المسيرة المهنية لموريتي، بعد رائعته "جورنال آنتيم" journal intime. لكن هل كان في مقدوره تغيير مساره المهني بعد إخراج فيلم ، يُعد بقوة، وبصورة حاسمة نهاية حقبة؟ لقد ظل بالومبيلا روسا مَعلمًا، بل نقطة فارقة في تاريخ السينما. في نهاية عام ٢٠١١، وعند صدور العدد ٨٠ لمجلة "ترافيك" Trafic احتفالاً بالعيد العشرين لتأسيسها، طلب رئيس التحرير من بعض المعاونين الدائمين، اختيار فيلم لسيرجي داني تزامن عرضه مع صدور المجلة، أي عام ١٩٩١؛ فوقع

الاختيار على بالومبيلا روسا دون منازع. يمكننا أن ندرك أن هذه الحظوة تعد دليلاً على الحنين المستمر لهذا الفيلم في الوسط الفني. نستطيع كذلك أن نتبنى وجهة نظر أخرى، مفادها أن بالومبيلا روسا يعد الفيلم الذي يختم التسعينيات، ويعبر عن الوضع الذي كان من المفترض أن تكون عليه حقبة الثمانينيات، وليس الوضع الذي كانت عليه؛ كما أنه يعد عملاً نقديًا للإرث السياسي للسبعينيات، أكثر من كونه محاولة للتخلص منه؛ لأن الفيلم يسخر ويهاجم الحال الذي كان عليه عقد الثمانينيات؛ أي سنوات التليفزيون والدعاية لكل ما هو براق ومادي، ولكل ما يقضي على المجتمع والفرد؛ لكنه أيضاً شيء آخر، إنه دليل التسعينيات.

لقد بدأنا بالفعل التحدث عن المرونة، وعن الرغبة الدائمة في إنقاذ السينما من الاحتضار؛ لكننا لم نحقق أي إنجاز يذكر. لقد سقط سور برلين في الفترة بين العرض الإيطالي، والعرض الفرنسي لفيلم موريتي، في ١٦ نوفمبر ١٩٨٩. نما الأمل بعد ذلك، في التسعينيات وفي بداية الألفية الثانية، في ظهور سينما تهدم كل الحواجز مثل سور برلين؛ وتزيل جميع الحدود الجغرافية، وتلغي جميع التقسيمات المادية. لقد احتل فيلم "المصفوفة" آنذاك مكانة متميزة في التاريخ؛ غير أن أهم الأعمال – وأفضلها في هذا العقد من حيث النوعية – كان العمل المقتبس من المسلسل التليفزيوني "المهمة المستحيلة"، الذي عرض في الولايات المتحدة يوم ٢٢ مايو ١٩٩٦، وفي فرنسا يوم ٢٣ أكتوبر من العام نفسه. وبدأ برايان دي بالما يتحمس لتدفق العولمة، بعد انتهاء الحرب الباردة، فأتاح لنا التحليق بسهولة من براج إلى لانجلي، مقر المخابرات المركزية الأمريكية؛ ثم من لانجلي إلى لندن وإلى باريس، عبر القمر الصناعي الأوروبي، والهليكوبتر التي تذلل العقبات وتلغي الحواجز بلمسة من الأصابع ؛ كما أتاح لنا مشاهدة اللقطة الباهرة في مستهل فيلم "المهمة المستحيلة"، التي يؤديها للمرة الألف الممثل إيثان هانت بصورة هزلية تشتمل على لقطات مزيفة من التنكر، والأقنعة المقلدة، والتخفي. إنها نشوة العولمة التي تجعلنا نتصل عن بعد، كما لو أننا نهمس في أذن بعضنا؛ عولمة تنقل إلينا القريب والبعيد، واليسير، والمشوق. إنها اللحظات الأولى من الفيلم، التي تتطور بعدها الأحداث، وتعود إلى الانسيابية، وينتهي التشويق. لقد قام

البطل، بعد لقطة المقدمة، بخطوتين للعودة إلى المواقف المثيرة؛ ونظرًا لافتقاره لحمام سباحة، لجأ صديقنا توم كروز إلى حوض أسماك، شبيه بحوض مطعم في براج يقع في ميدان وينسلاس ويسمى "أكفاريوم" Akvarium، وتمكن صديقنا من الهرب وتفادي الخطر، بعد استخدامه عجينة متفجرة لكسر زجاج الحوض، مخلفًا وراءه شظايا الزجاج، والأسماك النافقة. لقد سقطت الحوائط بالتأكيد، لكن سقوطها تطلب الجسارة، وظهور العالم الجديد؛ غير أن أنقاضه لا تزال تذكرنا بالعالم القديم. في هذا المشهد، يمكننا القول: إنها محاكاة لموسى عندما شق طريقه في البحر الأحمر. وتطورت الأحداث، وتحول مشهد البسالة إلى مشهد سرقة تقليدي، لأسطوانة مدمجة من غرفة محصنة في لانجلي. بعد أن استعاد دي بالما في أفلامه لقطات ألفريد هيتشكوك بكل أبعادها، استرجع في عام ٢٠٠١ "ملحمة الفضاء" L'odyssé de l'espace (١٩٦٨) لستانلي كوبريك. لقد شاهدنا في ذلك الفيلم، إيثان هانت متدليًا من حبل، في ديكور أبيض وأسود، ساكنًا كالملاك قبل أن يتحامق، مرفرفًا بجناحيه كالحشرة ليتجنب السقوط؛ ويبلغ التشويق أقصى مداه في اللحظة التي تساقطت منه نقطة عرق؛ أو منى وفقًا لتعليقات بعض المشاهدين المتمرسين عند خروجهم من الفيلم. نعم، يمكننا التطلع لبلوغ الفضاء؛ لكن مع المجازفة بالتسلق، والتحطم، والتحول من إنسان إلى حيوان. بالتأكيد يمكننا التحليق، لكن مع تجسيد بعض الشخصيات، بشحمها ولحمها. علينا أن نتذكر ، أن على بعد خطوتين من ذلك الفيلم، ظهرت إيمانويل بيار - التي أجرت عملية تجميل لفمها، والتي وصفها بمكر، لويس سكوريكي في عموده اليومي بمجلة "ليبيراسيون"، "بذات الشفاه الغليظة" - وسط احتفال صغير يعج بالحقارة، والضجر، والأمعاء المتقلبة، والقيء المتكرر في الحمامات. في عام ١٩٩٩، أخرج عابل فيرارا فيلمه الرائع "الفندق الوردي الجديد"، وفي العام التالي، وقع برايان دي بالما عقد الفيلم المزري "مهمة إلى كوكب مارس"، ووقع نايت شايمالان فيلم " الذي لا يقهر" مع بروس ويلي، عن الإنسان المثالي المكره، بعدما أجرى تغييرات كثيرة على "إيكاروس"- الأسطوري الذي تخلص من سجنه بصنع جناحين والطير بهما - تبرز الرغبة في التحليق، والهلع من انعدام الجاذبية.

لقد أصبحت الاستعانة "بالجسد" واستغلال تلك الكلمة من عادات هذا العقد، بعد أن مهد لها ناني موريتي، في بالومبيلا روسا، من خلال التطلع السياسي المسمى بالشيوعية، وبداية تجاهل السياسة لصالح السيرة الذاتية. لم يطلق موريتي على فيلمه عنوان "مذكرات شخصية" هباءً، بل ليصبح نقطة انطلاق للسيرة الذاتية، التي لم نكد ننتهي منها، حتى ظهرت الأفلام الرقمية "بكاميراتها الصغيرة"، في السنوات الأخيرة من العقد، فوضعت حدًا لانتشار هذا النمط من الأفلام. في تلك الأعوام، استخدم السينمائيون الجسد في الأعمال كافة، ووطدت النزعة الطبيعية مكانتها تمامًا، وتمت ملاحقة ذلك الإصرار على استخدام الجسد وجنونه في السينما الفرنسية مع الجيل الصاعد، وخاصة الدفعات الأخيرة التي تخرجت في معهد الدراسات العليا السينمائية IDHEC، وبعد تأسيس المؤسسة الأوروبية للمهن التصويرية والصوتية FEMIS عام ١٩٨٦، بدعم فعال من موريس بيالا. واختلط الحابل بالنابل في أوائل أفلام سيدريك خان "حانة السكك الحديدية" Bar des rails (١٩٩١)، وجزافيي بوفوا "الشمال" Nord (١٩٩١)، وآرنو ديسبليشين "الترصد" La sentinelle (١٩٩٢) ، وباسكال فيرون "إجراءات بسيطة مع الأموات" Petits arrangements avec les morts (١٩٩٤)، ونعيمي لوفسكي "لا تذكرني" oublie moi (١٩٩٤)؛ وفي المرحلة السابقة لها مع أفلام كلير دينيس "شيكولاتة" chocolat (١٩٨٨)، و" لا أكترث من الموت" S'en fout la mort (١٩٩٠)، و"لا أنام" J'ai pas sommeil (١٩٩٤)، و"تينت وبوني" Nénette et Boni(١٩٩٦)؛ وفي المرحلة اللاحقة مع أفلام لاتيتيا ماسون "أملك أو لا أملك" En avoir ou pas(١٩٩٥)، وإريك زونكا "الحياة الحالمة للملائكة" La vie rêvée des anges (١٩٩٩). ثم ظهرت الموجة المسماة بأفلام الجسد، مع الأفلام الجنسية الجريئة لكاترين برييا "الحب الكامل" Parfait amour (١٩٩٦)، و"العاطفة" Romance (١٩٩٩)، التي حققت نجاحًا كبيرًا لكن لفترة وجيزة. الأمر الذي ساعد السينمائي لارس فون ترييه- الذي ألغى اللجوء إلى الحيل المزيفة - على جذب انتباه الجماهير بفيلمه "البلهاء" Les Idiots (١٩٩٧)؛ الذي أثار الجدل في ربيع ١٩٩٨، وأضفى غموضًا على عمل لم نستكمل دراسة تأثيره الإيجابي أو السلبي.

الصورة المنفردة

المنفصلة عن كل شيء

الأمر يختلف قليلاً مع موريتي فيما يتعلق باستخدام الجسد؛ لأنه يرتبط بـــالتوافق بين الالتزام الجسدي، والالتزام السياسي؛ وبالواقعية التي لا تقاوم، والواضـــحة بقـــوة عندما شاهدنا ميشيل يضع يده على فخذه؛ لأنه لا يتمكن من إيقاف الاهتـــزاز المنـــتظم لساقه، عندما كان يشاهد فيلم "أنا أحترق" لبروس سبرينجـــستين. يُعـــد أيـــضًا جـــسد موريتي أحد المؤشرات لعلاقة أخرى مختلفة مع تاريخ السينما، وعلامة ترشـــدنا إلـــى مسار عقد التسعينيات؛ إنها العلاقة الطبيعية بين كتّاب السيناريو والممثلـــين، الطويلـــة، والمميزة، التي تعاقبت فيها أسماء شارلي شابلن، وبوســـتر كيتـــون، وجـــاك تـــاتي، وأورسون ويلز، وجيري لويس... وتعد التسعينيات من أقـــوى العقـــود – الـــسابقة أو اللاحقة – التي تبرز تلك العلاقة؛ فقد شاهدنا الأحاسيس الجنسية المرهفة لجاو ســـيزار مونتيرو، بدءًا من "ذكريات البيت الأصـــفر" Souvenirs de la maison jaune (١٩٨٩)، حتـــى "ثلاثيـــة الإلـــه" Triologie de Dieu، و"كوميـــديا الإلـــه" La comédie de Dieu (١٩٩٥)، و"أفراح الإلـــه" Les noces de Dieu (١٩٩٩)، و"الـــذهاب والإيـــاب" va et vient (٢٠٠٣)؛ ذلك العمل الضخم الذي توقف بعد وفـــاة المخـــرج البرتغـــالي عـــام ٢٠٠٣، بعد بداية تصوير الفيلم بوقت قصير. برزت تلك العلاقة أيضًا، مـــع البهجـــة الغريبة، شبه الألماسوشية، التي جعلت كلينت استوود يشاهد نفسه وهو يظهر ويختفي، ويتقدم في السن، وخائر القوى خاصة فـــي ثلاثيـــة الغـــرب "القاســـي" Impitoyable (١٩٩٢)، وفي الفيلم الحركـــي "العـــالم الكامـــل" un monde parfait (١٩٩٣)، وفـــي ميلودراما "على طريق ماديسون" sur la route de Madison (١٩٩٥). كمـــا بـــرزت أيضًا في أعمال تاكيشي كيتانو – الفتي المميز في التليفزيون، والنجم السينمائي الدولي – عندما أعاد إحياء الرواية البوليسية والقصة الساخرة، لجون بيار ميلفيـــل، وبوســـتر كيتون؛ وبرزت أيضًا في أفلام "سوناتين" Sonatine(١٩٩٣)، و"هانـــا – بـــي" Hana - Bi(١٩٩٧)، والشرطي العنيف" violent cop (١٩٨٩)، و"هل حصلت علـــى شـــيء؟"

Getting Any? (١٩٩٥)؛ وكذلك في أعمال جون لــوك جــودار (١٩٩٤) وودي آلان الذي جدد أداءه في "أزواج وزوجات" Mari et femmes (١٩٩٢)، وجزافييــه بوفــوا الذي ضحى بنفسه في المحرقة في "لا تنس أنك ســتموت" N'oublie pas que tu vas mourir (١٩٩٥).

لم يكن يتخيل دافيد شيس أن الجمهور ســوف يــتحمس لآلام الإشــبين ســريع الغضب، والمحاصر بالأسئلة المتعلقة بحالته النفسية، وتأنيب والدتــه التــي جــسدت دورها نورما شيس؛ كما أن الفيلم سيرة ذاتية تتعارض مع التيار السائد؛ ودافيد شــيس نفسه لم يكن متفائلاً به. ثم حقق "سوبرانو"، في موسمه الأول، نجاحًا جماهيريًا، ونــال استحسانًا نقديًا. لم يكن العمل قويًا للدرجة التي تجعلنا ندرك أن ثمة تغييرًا قويًا علــى وشك الحدوث؛ ألا وهو انهيار العلاقة، بهذه الدرجة، بين السينما والتليفزيــون، علــى امتداد عقود طويلة وخاصة في التسعينيات. ثم حققت المواسم الستة المتكاملة للمسلسل نجاحًا شبيهًا بنجاح مجموعة أجزاء مسلسل "مو ما" Mo Ma في نيويورك. لقــد كــان من المحتمل أن ينقضى وقت طويل بعد ذلك النجاح؛ غير أن قناة "إتش بي أو" أنتجــت عام ٢٠٠٢ – فور انتهاء سوبرانو – "ستة أقدام تحت السطح" Six feet Under للمخرج آلان بول، ثم "البرقية" The Wire للمخرج دافيد سيمون عام ٢٠٠٢، ثم "الغابة المميتة" Deadwood للمخرج دافيد ميلش عام ٢٠٠٤. ثم أنتج السينمائي القــديم مــاتيو وينــر، خريج أكاديمية شيس الصارمة، على قناة "إيه إم سي" "الرجــال الحمقــى" Mad Men، وأتبعه "بالانفصال السيئ" Breaking Bad للمخرج فينس جيليجــان عــام ٢٠٠٨. ثــم عرض جيمس مانوس على قناة شوتايم عــام ٢٠٠٦ "الحــذق" Dexter، وفــي عــام ٢٠١١، أخرج كــل مــن هــاورد جــوردن و ألــيكس جــانزا "الحنــين للــوطن" Homelandالمقتبس من المسلسل الإسرائيلي "المختطفون" Hatufim. عرف التليفزيــون آنذاك، وفقًا لآراء المؤرخين الوسطيين، عصره الذهبي الثالث – حيــث كــان يمثــل اختراعه عصره الأول، والثاني كان في بداية الثمانينيات – عنــدما راهنــت بعــض شبكات الإنترنت المستقلة على تفوق مهنة السيناريست، التي كانت حتى آنــذاك مــن المهن التي لا يعتد بها.

لا يزال هذا العصر الذهبي مستمرا حتى الوقت الحالي؛ غير أننا نستكمل، في سياقنا هذا، تاريخ التسعينيات. لقد ظهرت في تلك الحقبة بعض المسلسلات التي حاولت أن تحتل مكانة مؤثرة مثل السوبرانو. ففي عام ١٩٩٧، أخرج توم فانتانا على قناة "إتش بي أو" الدراما البوليسية " أوز" التي اتفقت الآراء على أنها تعد من الأعمال الرائدة. وفي عام ١٩٩٤، أخرج لارس فون ترييه للتليفزيون الدنمركي ثماني حلقات من مسلسل "المملكة" The Kingdom الذي يستحق بجدارة الإشادة به؛ لأن نجاحه لا يقارن بالعمل السينمائي الذي تتعارض أحداثه، وتتناقض، وفقًا لبعض الآراء. ولقد اعتقد البعض أن مقتضيات المشاهدة التليفزيونية، هي التي أتاحت للسيناريست تنقيح عمله الفني، على غرار بعض السابقين: مثل موريس بيالا في مسلسل" بيت الغابات" La maison des bois عام ١٩٧١، أو رينر وورنر فاسبيندر عام ١٩٨٠، في الثلاث عشرة حلقة "لميدان ألكسندر في برلين" Berlin Alexanderplatz. إننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط، التطور العام للعلاقة بين السينما والتليفزبون؛ غير أن الأمر المؤكد، أن بداية التسعينيات تألقت بمسلسل "القمتين التوأمتين" Twin Peaks ، الذي عرض على قناة إيه بي سي للمخرج دافيد لينش، الذي انطلق مؤخرًا في هذا المجال، وفجر ثورة واضحة على القنوات الاجتماعية. غير أن هذا لايمثل سوى جانب واحد من "القمتين التوأمتين"؛ لأن دافيد لينش كان كاتبًا سينمائيًا متخصصًا أكثر من لارس فون ترييه، بأعماله المتتالية: "الرأس الطاغية" Eraserhead (١٩٩٧)، و"الرجل الفيل" Elephant man(١٩٨٠)، و"المخمل الأزرق" Blue Velvet (١٩٨٦)؛ وحصل على جائزة السعفة الذهبية عام ١٩٩٠ عن "البحّار ولولا" Sailor & Lula. إن مشاهدة هذا العمل الأخير، بعد مرور عشرين عامًا على إخراجه، تعد بالفعل تجربة فريدة؛ نظرًا للعنف الممزوج بموسيقى الروك من جانب، والعاطفة الجياشة من جانب آخر. لقد تحولت هذه التجربة إلى عمل فذ – خاصة فيما يتعلق بالشطط الذي يتلاءم مع العصر آنذاك – وإلى علامة فارقة في تاريخ السينما. لقد كان مقدرًا لتلك العاطفة وذلك الشطط، الاستمرار على الدوام لولا عذوبة الحب في "القمتين التوأمتين". لم نتناول أيضًا في هذا العمل الأخير، إحدى السمات الأساسية التي تربطه بمسلسل سوبرانو؛ أي النقد الموضوعي للعلاقة بين السينما والتليفزيون.

بدأت السينما، عند عرض سوبرانو، في الابتعاد عن هوس القصص الخيالية العالمية، وظهر نوع جديد من الأفلام المنزلية بفضل الأجهزة الرقمية. وأصبح الجمهور بالتالي مهيًأ لمشاهدة أحداث يقتصر ديكورها على المناظر المألوفة في نيو جيرسي باستثناء بعض الحالات. لقد مهد كل من "القمتين التوأمتين"، و"المملكة" الطريق، كي يدرك المشاهد أن الشاشة الصغيرة ليست قادرة على عرض كل ما هو جديد فحسب، بل في مقدورها الكثير. ولننظر مرة أخرى بصورة خاطفة إلى"بالومبيلا روسا"؛ فيلم موريتي الذي خرج في عصر "احتضار السينما" - المصطلح الذي أصبح الفحوى المتسلط على الكتابة السينمائية، خاصة عند داني - عصر عرف جيداً العناصر الآثمة المتسببة في هذا الوضع؛ أي وسائل الإعلام، والتليفزيون، والكليب، وألعاب الفيديو؛ تلك القائمة الطويلة من العوامل المريبة المألوفة، والتي تتطابق مع عوامل العصر الحالي مع استبدال الكليب بالإنترنت. لقد ظل هذا الوضع سائدًا حتى عام ١٩٩٥؛ تاريخ الاحتفال بمئوية السينما. وما زلنا نخشى أن يؤدي ثقل السينما ذاته إلى احتضارها مرة أخرى - إذا صدقت مخاوفنا- وسحقها بالمهرجانات والاحتفالات التذكارية الباذخة، والمؤثرات الموسيقية للأفلام الصامتة، وإعادة معالجة الأعمال الضخمة، والألوان المتضاربة وغير الملائمة إلى حد ما، ومعارض تراثها الكئيبة .

العدالة الشاملة

"في فرنسا، مع بداية التسعينيات، وعلى خلفية فضيحة العمولة المتعلقة بمصرف كريدي ليونيه، وقضايا الفساد،، وانتشار التعدي على الأملاك العامة، المتورط فيها مستشار قصر الإليزيه آلان بوبليل عام ١٩٩١، وعمدة ليون ميشيل نوار وصهره بيار بوتون عام ١٩٩٢، والنائب باتريك بوافر دارفور، أحد المقربين إليهم، والوزير الأسبق كريستيان نوسي، ومدير مكتبه إيف شالييه، وعمدة جرونوبل آلان كارينيو عام ١٩٩٤، وبرنار تابي الذي تعرض للاستجواب والتحقيق في العام نفسه، بسبب شُبهة الفساد في مباراة كرة القدم المعروفة بقضية "أوم فالنسيان"؛ وقرض صديق الرئيس الثري، روجر باتريس بيلا، الممنوح لبيار

بيريجوفي رئيس الوزراء الأسبق، والذي ثار حوله الجدل لدرجة دفعته للانتحار بعد الملاحقة الإعلامية التي تعرض لها؛ على خلفية تلك الأحداث، لم يقنع التليفزيون بعرض مسلسلات متتابعة تضم قضاة تحقيق شبابًا يلعبون أدوار بطولة فردية، أو عرض برامج حية عن الأوساط القضائية؛ بل منح نفسه الحق في أن يكون المدعي العام والقاضي في برامج جديدة مثل "العدالة في فرنسا" الذي بدأ عام ١٩٩١ (الذي كان يسلط الضوء على القضايا الجنائية)، و"استدعي المتهم" الذي بدأ عرضه عام ١٩٩٩. لم تقف برامج الشو الواقعية التليفزيونية عند هذا الحد، بل تعدته بكثير عند عرض برنامج "ليلة الأبطال"؛ لأن الدولة، والقضاة، وعُمَد البلدات لم يتدخلوا، وأصبحت الشاشة الصغيرة هي المنوطة بإصلاح العدالة، وعقد المصالحات بين القرى التي تنشأ بينها خلافات شديدة. ثم تلى ذلك عرض برنامج "حق المعرفة" على القناة الأولى الفرنسية TF1 المشحون بالعنف الأيديولوجي، ودعوات الثأر؛ وهو أحد البرامج الجماهيرية التي تبرز التحالف الجديد والمقدس بين القانون والمشاهد. بدأت بعد ذلك مرحلة عرض البرامج التي ترفع نسبة المشاهدة، والتي تعتمد على مونتاج الأعمال البوليسية الحقيقية، مثل عملية دس الحشيش "لكريم" من قبل بعض المحتالين ، التي عُرضت على القناة الخامسة. في الولايات المتحدة، توطدت العلاقة بين المشاهد والتليفزيون بعد تخصيص قناة فضائية – أطلق عليها محكمة التليفزيون – للشئون القضائية؛ القناة التي حققت أعلى نسبة مشاهدة في التسعينيات، عندما عرضت قضايا تحقيقات فيدرالية مُدَوية، مثل قضية التحرش الجنسي لبيل كلينتون ولفنسكي، وذلك قبل فتح التحقيق في أعوام ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩. وأصبحت العدالة المادة الخصبة التي جعلت الشاشة الصغيرة تلاحق الأحداث في العالم أجمع؛ ولدينا على سبيل المثال الكاميرات التي تلاحق على الطريق السريع، وعلى الهواء مباشرة، مطاردة الشرطة للاعب الكرة الأمريكي سيمبسون المشتبه به (في جريمة قتل)، قبل إدانة القضاء له. وعلى الجانب الآخر من تلك النماذج، عُرضت قضايا كبرى في فرنسا في التسعينيات، لتفتح صفحة مشينة في حياة كل من فيشي، وبول توفييه، (١٩٩٢ – ١٩٩٤)، وموريس بابون (١٩٩٧ – ١٩٩٨)".

فرنسوا كوسيه François Cusset

الرياء الصِّرْف لمشاهد التنكُّر،

وللأقنعة المزيفة المُقَلَّدة،

ولمقاطع التخفي

في الواقع، هناك العديد من الأسباب التي تجعلنا نتشكك في مثل تلك المنية التي لحقت بالسينما، والناجمة عن تخمتها الذاتية. كما أن هناك العديد من الأسباب التي تجعلنا لا نهتم بهذه الأقاويل، والالتفات إلى أمور أخرى. فقد ظهرت في فرنسا منذ عام ١٩٩٥، السينما الآسيوية الجديدة، مع الفيلم التايواني "يحيا الحب" Vive l'amour للبطل تساي مينج ليانج، وفيلم "القطار السريع المكتظ" Chungking Express لبطل هونج كونج ونج كار واي. كما اكتشفنا الأفلام التايوانية لهو هيسياو سيان بدءًا من "مدينة الآلام" La cité des douleurs (١٩٨٩)، و"رجال صالحين ونساء صالحات" Good men good women (١٩٩٥)، وحتى "وداعًا الجنوب وداعًا" Goodbye south goodbye (١٩٩٦). ثم تعرفنا على أفلام جون هو ، البطل الصيني، بدءًا من "القاتل" The Killer (١٩٨٩)، و"في كل المحن" A toute épreuve (١٩٩٢)، و"الوجه المتخفي" Face off (١٩٩٧). وفي منتصف ذلك العقد، لمع نجم الممثل الإيراني عباس كياروستامي، خليفة روبرتو روسلليني، في فيلم "أين منزل صديقي؟" Où est la maison de mon ami?(١٩٨٧)، و"حياة موجزة" Close Up (١٩٩٠)، و"تستمر الحياة" Et la vie continue (١٩٩٤)، و"مذاق الكريز" Le gout de la cerise (١٩٩٧).

لماذا هذا القلق إذن؟ لأن سلامة الفن لا ترتبط بكثرة الأعمال فحسب، إنما بالفكرة وبالصورة التي يظهر عليها ذلك الفن، وبالطريقة التي نعرض بها أعماله. نستطيع أن نشير، في هذا الصدد، لأفلام مثل "ملك نيويورك" King of New York (١٩٩٠)، و"الفندق الوردي الجديد" New Rose hotel (١٩٩٩) لآبل فريرا، و"دراكولا" Dracula (١٩٩٣) لفرانسيس فورد كابللو، و"موجة جديدة" Nouvelle Vague (١٩٩٠) لجون لوك جودار، و"الحفلة" La cérémonie (١٩٩٥) لكلود شابرول، و"سيسيليا" Sicilia (١٩٩٩) لجان ماري ستروب ودانيال هيليه؛ وإلى الأفلام الأخيرة لستانلي كوبرك "النوم العميق" Eyes wide Shut (١٩٩٩)، وموريس بيالا "الصبي"

Le Gaerçu (١٩٩٥)؛ تلك المجموعة من الروائع التي لم تستمر، ولا نستطيع أن نحكم من خلالها على الحال الذي كانت ستصبح عليه السينما في تلك السنوات.

لم تحتضر السينما في التسعينيات كما تنبأ البعض؛ فقد وصفها السينمائي بينوا جاك، في مجلة "سجلات السينما" Cahiers du cinéma في عددها الصادر في يناير ٢٠٠٠، بعقد "انتهاء احتضار السينما"[٢]. وفي عام ١٩٩٦، نشر أنطوان بيك وتيري جوس، كتيبًا بعنوان "عودة السينما" Le retour du cinéma ، ثم أصدر تيري جوس، رئيس التحرير السابق لمجلة "سجلات السينما"، كتابًا بعنوان "ما بعد احتضار السينما"[٣]، واستشهد بأفلام الإخوة كوين، وأوليفر ستون، وتاكيشي كيتانو، ودافيد كروننبرج، وجيم جارموش، وآلان ريسنايس، وجون ماك تيرنان في فيلمه "حركة البطل الأخيرة" Last Action Hero (١٩٩٣)، الذي ظل يتصدر الأفلام القوية؛ وهارولد راميس في فيلمه "يوم بلا نهاية" Un jour sans fin (١٩٩٣)، أحد الأفلام التليفزيونية القصيرة والقوية. استخلص جوس مما سبق انتهاء حقبة التكلف، وبداية عهد جديد للسينما، خاصة بعد تجديد نوعية أفلامها. اعتقد ويم ويندورز، أحد الرواد الواعدين – مثل جارموش وجودار وآخرين – أن "احتضار السينما" لم يكن واقعًا حقيقيًا، بل حافز فني، وحقبة كانت وشيكة الحدوث؛ وهو الواقع الذي أدركناه فيما بعد. إن "عدم الاحتضار" لا يتعلق بصعود جيل جديد من السينمائيين فحسب، ولا باستخدام الأساليب التقنية الحديثة المتمثلة في الأجهزة الرقمية، حتى وإن كان لها بالفعل بعض التأثير. ولنطرح ذلك الأمر بصيغة أخرى: ونقول إن السينما لم تحتضر، بل غيرت من مظهرها؛ ويتضح هذا التغيير في بالومبيلا روسا وفي سوبرانو؛ فالعمل الأول كان في طور الإعداد، والثاني أُخرِج بالفعل.

"هل الصلافة هي الوجه غير المتوقع للبراءة التي لا نستطيع تحقيقها حتى الآن؟ (...) إن التهديد الحقيقي يكمن بالفعل في الأعمال الجديدة، الهابطة والتافهة."

سيرجي داني Serge Dany

يُعد ميشيل أبيسيلا أحد قـدامى الـسينمائيين، المتمـسكين بالـصالة الممتلئـة، والمتفرجين الجدد، المتآلفين حول حمام سباحة؛ كما يعـد بـالومبيلا روسـا تجـسيدًا لموريتي ذاته، ولعاداته، ولأفكاره الملحة، ولذكرياته التي لا يتمكن من نـسيانها. إنـه فيلم جماعي وانعزالي في آن واحد، تزهو فيـه كـل شخـصية ثانويـة "باحترافهـا" و"بمهنتها"، وتتجول بصحبة مرشدها الذي تستمد منه شجاعتها ، وتتبع نصائحه؛ ذلـك المرشد الذي يصبح في بعض الأحيان المدرب المهيمن. وتوني سوبرانو هـو أيـضًا شخصية سينمائية، إلا أن علاقاته مع الشخصيات الأخرى تختلف عن بالومبيلا؛ حيـث حصل توني على الخصوصية التي ظهرت بوادرها في بالومبيلا روسا. لقد عثر دافيد شيس من خلال مارتين سيكورسيس، بطل فيلم "الطلقاء" الذي أخرجه في بداية العقـد، على الإلهام الذي كان يراوده، وجعله يحقق حلمه القديم في إعـداد عمـل تليفزيـوني يتناول التحليل النفسي وعلاقته المتوترة بأمه. لقد وضع فيلم "الطلقـاء" - بكـل مـا يحتويه من أدوات شي اللحم، وتدافع الأجسام، والشعر المستعار، واللغة الفظة - نهاية لشغف كابللو بالمافيا. إنه أول فيلم تليفزيوني مبتـذل لدافيـد شـيس، يمهـد الطريـق لمجموعة أخرى من هذه النوعية من الأفلام؛ إذ بعد أن ترعرع توني سـوبرانو مـع "الزعيم"، استمر مشواره التمثيلي مع العديد من الأفلام مثل "القتلة المأجورين"، و"العدو المعروف"، و"القطار يصفر ثلاث مرات"، و"الثور الهائج"، و"المرة الأخيرة التـي أرى فيها باريس"، و"الرعب من الحياة"، و"كيف تفكر المرأة"... وعلى الرغم من هذا، فلـم نره يذهب ولو مرة واحدة إلى السينما. لقد وصف تيري جوس ذلك التطـور للـسينما البديلة، بأنه تحقق بفضل انتشار القنوات الفضائية، وصالونات الاسـتقبال، والقاعـات المظلمة؛ ويعتقد أنها حقبة جديدة "للتأنق"، وأنها تسترجع "الحب المحرم" الخاص بـالفن السينمائي في الخمسينيات؛ تلك السينما البديلة التي اعتزلها نهائيـا دافيـد شـوريكي، ووصفها بصورة واضحة في قصيدته الهجائية الأخيرة "ضد السينما الجديدة"[٤]. لقد بدأ هذا الفن المنزلي فى التسعينيات مع مسلسل "الحلم المستمر" (١٩٩٠) للمخـرج جـون لانديس، و"الأصدقاء البائسين" (١٩٨٠)، و"مقعد لشخصين" (١٩٨٣)، الذي لم يحقـق نجاحًا مماثلاً "للقمتين التوأمتين"، أو "المملكة"، على الرغم من أنه عمل يستحق الإشادة

به؛ فقد تميز بطل الفيلم، الناشر مارتين توبيه، بترجمة رغباته، وتطلعاته، وثوراته، إلى مشاهد مرئية ولقطات تقفز بتلقائية إلى الشاشة كما تقفز، على ما أعتقد، في وجدانه. لقد تقبلنا هذا الأمر بصعوبة، لكن هذا النوع من الإبداع ترك بصمة في السينما. إننا نشاهد في مقدمة الفيلم، الطفل الصغير مارتين، جالسًا أمام جهاز التلفاز، ينمو ويتقدم في العمر وهو جالس في الوضع ذاته. وإذا عقدنا مقارنة بين فيلم "الحلم المستمر" و"الحنين للوطن" سوف ندرك جيدًا أن اللقطات الأولى في هذين الفيلمين تتطابق مع أفلام التسعينيات. وظل الحال على ما هو عليه، حتى ظهور كاري ماتيسون عام ٢٠١١، تلك الجاسوسة المزدوجة، التي يركز عليها كلير دان وهي جالسة تشاهد أحداث الساعة العالمية - التي وصلت ذروتها مع أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ - وليس أفلام الغرب الأمريكية، أو مقتطفات من القناة الثانية.

وتطور الوضع من سينما معادية للتليفزيون، إلى تليفزيون يقتبس من السينما، في مراحلة الأولى، ثم يتحول إلى تليفزيون يكتفي ذاتيًا، زاعمًا بأنه يتمتع باستقلالية فنية ومعبرة؛ غير أن الأمر كان يتطلب منا توثيق المرحلتين، التي تبدأ أولاهما في نهاية الثمانينيات وتستمر حتى نهاية التسعينيات، وتبدأ الثانية من نهاية التسعينيات وحتى بداية ٢٠١٠. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن مسلسل التسعينيات السوبرانو، ، ظل يمثل علامة فارقة في الازدهار الحالي للأعمال الروائية المنزلية؛ لأنه مسلسل يبرز في آن واحد الاستقلالية الذاتية للفن المنزلي والفن السينمائي. إن ظهور الأفلام المنزلية، لا يعني الاكتفاء بالمشاهدة المنزلية وعدم الذهاب للسينما؛ بل يعني التعبير عن نوع معين من المشاهدين، المشابهين لتوني سوبرانو، ولأمثاله المتفقين على إطلاق حرية التذوق الفني، الذي بدأ مع دافيد شيس على المستوى الشخصي وليس مع شخصيات أفلامه، المرتبطين بمصير السينما. ولقد صرح ويليام بوروج عن رأيه المميت، في بداية الموسم الأخير، بمقالة نقدية غريبة عنوانها "الأرواح السبعة": قال فيها: إن "كلمة السر للروح الأولى والأساسية التي تقودك إلى لحظة الموت، هي "ران" "Ren"؛ ولكن من هي ران؟ إنها تشبه مخرج فيلمي، فهي تدير فيلم حياتك من بدايته حتى نهايته".

نعم فيلم حياتك... لأن التطور الذي أحدثه فيلم سوبرانو يتلخص في أنه كان شاهدًا على انتهاء حقبة كانت تُعد السينما فيها مجرد مجال ثقافي أو ترفيهي، تحول إلى أرقام في حياتنا. إن السينما روحنا؛ الروح التي تلتقي قيمتها الفنية مع خبرتها، بل إن الخبرة قد تطغى على الفن، وقد يدرك تلك الحقيقة كل من يتمتع بالبصيرة، عند مشاهدته بالومبيلا روسا. لم يُصنف فيلم دكتور زيفاجو من بين الروائع التاريخية، وهو في كل الأحوال، لم يكن كذلك؛ لكنه يعرض مشاهد مؤثرة وعظيمة قد يتفق عليها المجتمع؛ ويتفاعل معها كل فرد على حدة لتحقيق مآربه الشخصية، والتعامل مع الهلع الذي يصيبه. ففي اللحظة التي يقفز فيها عمر الشريف من الترام يُصاب بأزمة قلبية، ولا يتمكن من اللحاق بجولي كريستي. يشتمل كذلك فيلم دافيد لين على مزيج من مشاعر تلك الأمسية، والهتافات، والمصالح، والأغاني، والحلوى.

فيما يتعلق بتوني، هل أحب أفلام "الزعيم" Parrain، و"القطار يصفر ثلاث مرات" Le train sifflera trios fois، و"العدو العام" Ennemi public؟ مهما يكن، فإن الأمر الأساسي يتعلق بالفيلمين الأولين (١٩٧١ – ١٩٧٤)، من ثلاثية كوبولا؛ فقد رأى توني فيهما المثال النموذجي للمافيا في منجى منه؛ إذ أظهر إعجابه في وقت سابق بأفلام الغرب الأمريكية وبطلها ويلي كان، الذي لعب دوره جاري كوبر؛ ذلك البطل الذي لم يكترث لأي تعليق من الانتقادات العامة الموجهة له. لقد أبرز أيضًا فيلم "القطار يصفر ثلاث مرات" حملات التشهير، ومطاردة الخصوم. وكان أكثر ما جذب توني لهذا النوع من الأفلام ولعه بالممثل ويلي كان، الذي يعكس الصورة المخالفة لحاضر أمريكا، تلك الأمة المتحذلقة، التي تجعل أصوات المُنتَحبين تتصاعد بصورة حادة في مجالسهم. في عام ١٩٣١، أُخرِج ويليام ويلمان فيلمًا جسد فيه توم باورز (الذي لعب دور جيمس كاني) شخصية الإنسان التافه – من وجهة نظر توني– والأبله، والمتشدق، والولد الطيب الذي دللته أمه حتى لحظة موته.

يكمن التغيير الذي حدث للسينما في إعادة اقتباس أفلامها، وتعايش المشاهد معها، وتذكر أحداثها كمقتطفات من حياته. لقد اندمجت السينما مع المشاهد، ولم تعد

بمثابة عمل تقني، بل تجربة يمكن الاقتداء بها، وأصبحت في متناول يده. وتواصلت الأحاديث التي تعبر عن الثمانينيات، والتسعينيات ولم تنقطع، وتحولت إلى أحاديث مباشرة ذات أهمية كبرى، وإلى لغة المشاهد الأساسية. إن هذا التغيير يكتنفه الغموض بالتأكيد؛ فازدهار مثل هذا النوع من السينما، تحقق على حساب ازدراء الفن، والحد من أعمال السيرة الذاتية، واستبدالها بالشغف الجديد للأعمال التوثيقية. إن تاريخ السينما جزء لا يتجزأ من التاريخ العام، الذي يعاني بدوره من الازدواجية، ومن التوثيق الذي يلاحق الأحداث خاصة المتعلقة بالألفية الثانية. لقد سُجل تاريخ السينما وفقًا لوجهتي نظر؛ الأولى، لم تعترف بالاحتضار المجازي للسينما؛ والثانية، تناولت العلاقة المتذبذبة بين التليفزيون والسينما؛ وإذا كنا نغتبط من مشاهدة الأعمال التي كانت تُعرض منذ عشرين عامًا مثل "الأخ الأكبر"، ونرفضه كعمل تليفزيوني، فقد أصبحنا نغتبط أيضا بعد أن سارت المسلسلات التليفزيونية على درب السينما؛ غير أن هذا الرأي لا يمثل إلا جانبًا واحدًا فقط من اتجاهات التليفزيون الذي استمر في عرض الإغراء، والفجور، وهو الاتجاه الذي نفر منه سيرجي داني بعد أن خاطر به طويلاً. على أي حال، فقد تخلص التليفزيون من هذا الاتجاه المشين بعد عرض مسلسل سوبرانو في إحدى أمسيات يناير ١٩٩٩.

كيف نربط بين وجهتي النظر القائلتين بعدم احتضار السينما، والعلاقة المتذبذبة مع التليفزيون؟ هل يمكننا إدراج عقد التسعينيات في الرأي القائل باندماج الشاشتين الصغيرة والكبيرة؟ لقد صمدت السينما، وقاومت التليفزيون، وتصدت لهجماته؛ صمدت بفضل الأفلام التي اقتبسها التليفزيون، أي في عقر دار هذا الأخير. صمدت كذلك بفضل مسلسلات مثل، "سوبرانو"، و"الانفصال المشين"، و"ستة أقدام تحت السطح"، و"الحنين للوطن"، التي استلهمت موضوعاتها من الأحزان، والصراع من أجل البقاء على قيد الحياة. لقد شاهدنا أبطالاً مرضى، لكن يقاومون، ويدافعون عن قوى خارج إرادتهم؛ وكان ذلك هو الباعث لبقائهم على قيد الحياة. تلك هي العلاقة المتقلبة التي تتجه تارة من السينما إلى التليفزيون، وتارة أخرى من التليفزيون إلى السينما.

جون لوك جودار "السينما باقية"

"أردت أن أصبح مهندسًا
لكنني لا أعرف
إذا كنت نجحت في أن أكون ماهرًا.

إن التجديد في السيناريو
ساعد على رصد أعمال المافيا.
لقد كان من الضروري
فرض النظام على الفوضى؛
تلك هي إبداعات ماك سينيت
وفريدريك مورنو، وكارل فروند،
الذين سلطوا الضوء على نورمبرج
في الوقت الذي كان فيه هتلر
لا يمتلك ثمن كوب من الشراب
في مقاهي ميونيخ.
وسواء امتلك هتلر أم لم يمتلك
فإن يديه ملوثتان.

في أمريكا، اتسم الاتجاه السائد

بالتركيز على محيط الخصر،

أي جزء حمل السلاح

والجنس عند الرجال؛

وعلى أعلى الصدر،

أي منطقة الجنس عند النساء.

وامتزجت نهاية

كل رواية حب،

بقصة مع المربية.

(...)

نعم لقد أدبر الليل

وأقبل عالم جديد؛

كما لو أننا محونا الأفق

وطمسنا نقطة الهرب.

والأمر الغريب أن الأحياء / الموتى

في هذا العالم

يحيون على هيكل العالم القديم،

وعلى آرائه، وأحاسيسه.

لم تعد الأشياء تُسمى الآن بالمسميات

وبالأسماء التي أطلقتها عليها؛

لقد اختفت ألبرتين طويلاً

وآويت أنا إلى فراشي مبكرًا.

أقول قولي هذا،

لأنني استعدت الزمن

وأصبح الروائي هو الذي يتحدث الآن.

إذا كان لرجل السينما

أن يتحدث،

وإذا وجب عليه التعبير

دون الإفصاح المباشر،

وإذا استيقظ متألمًا،

فعليه أن يقول إن "السينما صامدة"،

للتعبير عن الكلمات التي تقف في حلق البعض،

ولموازاة الحقيقة.

(...)

لقد أصبحت السينما

هي السلعة المتداولة.

علينا حرق الأفلام؛

لكن حذار

فإن نار الفن الداخلية،

أي المحتوى والذاكرة،

تشتعل من رماد حريقها.

(...)

لم أصرح إلا بالأشياء

التي تعبر عن هذا التنوع،

لأنني لست سوى فنان متنوع."

جون لوك جودار، "تاريخ السينما"؛ "السينما، الجمال الحتمي"، باريس، ١٩٩٨، دار نشر جاليمار – جومون، ص ١٣٣ – ٢٠١.

سيرجي داني،"رضيع يبحث عن مياه للاستحمام"

"بديع هذا المشهد الذي يتطور؛ مشهد الرضيع في الدعاية لماركة بينتون الذي يطرح سؤالاً ملحًا مفاده: لماذا لا نتقبل واقع أن احتضار الفن في مجتمعاتنا (لصالح الثقافة، والسياحة الثقافية، والسياحة القصيرة) أدى إلى عملية تواصل اجتماعي فعالة ومرنة، تحمل شعلة "التنفيس" الجماعي، وتظهر نوعين أو ثلاثة أنواع من الحب الطاهر، وتجنب المفكرين الضعفاء الإدارة العلنية "للجدل الفكري". في نهاية المطاف، تفوقت الموهبة، في إعلان بينتون، على مضمونه الساخر وأصبح تدريجيًا، يحتل الصفحات الأولى للإصدارات الأسبوعية. ماذا لو كانت هذه السخرية هي الوجه غير المتوقع للبراءة التي ما زلنا نتمتع بها؟ لقد علق باسوليني عام ١٩٧٣ على إعلان لماركة جينز جوناس، فأثار سخرية أخبار الوقائع

آنذاك، قائلاً: "تشتمل السخرية في هذا الإعلان على قوة وبراءة نموذج جديد تمامًا". لقد كـــان باسوليني هو المحفز لهذا الإعلان، غير أنه كان يحمل توقيع توسكاني وبيريلا.

لقد ثار صخب جديد مفاده أن"الإعلان من أجل الإعلان"، وحل محل الصخب القــديم الأسوأ منه "الفن من أجل الفن" (...). إنهم يتلاعبون بنا، ويحفزوننا، ويجعلوننا نتهافت علـــى الأشياء التافهة، ويستخفون بنا، ويختبروننا، ويستطلعون آراءنا؛ خلاصة القول، إنهم ينتشلوننا من الملل الذي جعلنا نهجر الساحة الدعائية تقريبًا في الثمانينيات.

هل علينا إذن طيّ الصفحة، وقبول فكرة أن الإفصاح عن حقيقة مجتمع مثل مجتمعنـــا (بنصيبه من الفضائح، إذا صح القول)، قد يؤدي إلى استبدال التواصل الاجتماعي الجماهيري بالفن الحديث الهرِم ؟ ماذا لو كانت الإجابة "نعم"؟.

هناك تاريخ آخر يرتبط، في الواقع، بفترات الفراغ؛ ألا وهو تاريخ الدعاية والإعلان، أو بمعنى آخر الحقبة التي استبدلت "الخاص" "بالعام". وسواء كانت الدعاية عامة أم خاصـــة، فإنها تحدد بقوة الإطار الجمالي للأشياء التي تستحق أن نُبرزها، ونُطورها، ونُـــسوقها. لقــد اتسم تاريخ "الدعاية" الخلابة للعالم بعد دماره الأخير (في الحرب العالمية الثانية) بالخـــضوع التام له؛ مثله في ذلك مثل السمكة، أو الطائر الذي يحط على الحيوان ويُثني عليه. إنه عـــصر ولى وانتهى، اقتصر فيه دور الدعاية على التسويق للمنتج، وعلى تصور المنظر الذي يعبـــر عن الماركة؛ عصر الأغاني الشعبية التي أدت، دون قصد، إلى نشر بعض "الأيـــديولوجيات؛ عصر مثير للشفقة، ومنهك.

كيف سيكون الوضع، في نهاية الثلاثين عامًا المجيدة التي دعمت هذا العصر، عنـــدما يصبح الحيوان – أي اقتصاد السوق – هو الحقيقة الوحيدة القابلة للتفكيـــر، والأفـــق الوحيـــد الجدير بأن نتطلع إليه على المستوى العالمي؟ كيف سيكون الوضع عندما تتلاشى الأوهام في وجود نمط لمجتمع جديد، ومختلف؟ سوف ينتصر السوق على الدعايـــة ولـــيس العكـــس؛ أو بمعنى أدق، سوف يتحول السوق إلى وسيلة تتسلق عليها الدعاية، كي تطل على مشهد أوسع يُمكنها من التحكم، والغلبة.

مشهد خارق، وغير مسبوق؛ تتغلب فيه رغباتنا على احتياجاتنا، ونزواتنا على متعنـــا، وتخيلاتنا على أحلامنا. سوف تعبر الدعاية في السوق المقبل عن الـــسلع غيـــر الماديـــة؛ أي النفسية والروحانية؛ وسوف تنتشر الأشياء الزهيدة والبالية. هذا هو المشهد، الذي دفع الإعلان فائق الحداثة لماركة بينتون، إلى استخدام الطائر الذي يحلق وينظر من أعلى ومن بعيد."

سيرجي داني، "رضيع يبحث عن مياه للاستحمام [١١]"، في ســـينما المنـــزل والعالم، ١٩٨٦ – ١٩٩١، ٢٠١٢، ص ٦٧١- ٦٧٢.

المراجع

1- Serge Daney, "Le cinéma et la mémoire de l'eau", Libération, 29 décembre 1989.

2- Propos de Benoit Jacquot en reponse à un questionnaire sur la décennie, cahiers du cinéma, n 542, Janvier 2000.

3- Thierry Jousse,"Après la mort du cinéma", in Antoine De Baecque et Thierry Jousse, Le Retour du cinéma, Paris, Hachette,1996.

4- Louis Skorecki, "contre la nouvelle cinéphilie", Cahiers du cinéma, n 293, octobre 1978, repris dans Vacarme, n 4 – 5, automne 1997.

موسيقى / البوب

تاريخ الفرق الموسيقية

ميشكا أساياس Michka Assayas

لقد أصابنا الإحباط كثيرًا في بداية الأمر؛ حيث كانت تعاني الساحة الموسيقية في عقد التسعينيات التفكك، وكانت الصورة غامضة؛ بل يمكن القول إنها كادت تكون مختفية تمامًا. هل لأن التسعينيات تعرضت لتيارات وحركات متضاربة؟ ينطبق الوضع نفسه على الستينيات، والسبعينيات، والثمانينيات؛ غير أن هذا لم يمنع الوعي الجماعي من تحديد معالم تلك العقود تلقائيًا بحيث تشتمل على الألحان والأنماط التي نستطيع (أو نعتقد أننا نستطيع) التمييز بينها بكل وضوح. لقد حدث ذلك ببساطة ويسر؛ بل إن بعضهم يستطيع القول، بطريقة ملتوية. مهما يكن، فقد طغت على الستينيات، ألحان موسيقى "الجاز" Jazz، لبيرت باشاراش، وفرق "البيتلز" Beattles و"الرولينج ستون" rolling stones . أما السبعينيات، فقد غلبت عليها فرق "الجينيسيس"، و"الريجا" Le reggae، و"الجاز / روك" jazz- rock، وأنغام الموسيقيين البرازيليين "ليد زيبلين"، و"بينك فلويد". وعرفت الثمانينيات الأسطوانات الرائجة لفرق "توتو" Toto، و"تيرز فور تيرز" Tears for tears، التي قل انتقادها في الوقت الحالي، ومايكل جاكسون، ومادونا، وموسيقى "الهيب هوب" Hip- hop الصاعدة. لماذا لم نتمكن إذن من تحديد ملامح حقبة التسعينيات؟ لماذا قاومت كل محاولة لعرضها بكل يسر؟

لقد اتسمت العقود السابقة بخاصية مشتركة: ألا وهي تنافس الفرق الموسيقية، ونضالها من أجل إثبات وجودها وترك بصمتها على الساحة. كما تنافس الهواة، بحدة في بعض الأحيان، على غَلَبَة الموسيقى الشعبية بوجه عام والروك بصفة خاصة،

وعلى الطريقة التي يجب أن تكون عليها. في الستينيات، فرضت إحدى الفئات الشبابية - ذات الميول المختلفة - نفسها على الساحة؛ الأمر الذي أثار الصراع والمواجهات ليس فقط مع البالغين، إنما مع فئات شبابية أخرى. ولنتذكر الواقعة التي حدثت في جنوب شرق الولايات المتحدة - تلك المنطقة ذات الطبيعة السكانية الشبابية، المعروفة بتزمتها وعنصريتها - عندما حُرقت أسطوانات "البيتلز"، بعد إذاعة مقابلة مع جون لينون سب فيها تلك الأسطوانات، ووصفها بالنزوة التي تنجرف إليها الأمور آنذاك، وادعى أن البيتلز أصبحت "أكثر شعبية من المسيح". لقد تحدث بعض المعاصرين لعقد الستينيات، عن أملهم في تحويل عصرهم من النقيض إلى النقيض. وفي السبعينيات، نشب جدل عنيف لتعريف فرقتي "أندرجراوند" Underground أو "كومرشيال" commercial فرقتان تحتقر كل منهما الأخرى - حتى يضمن الرواد الراديكاليون لموسيقى "البانك" punk و"نيو ويف" new wave استمرار الخلافات بين الفرقتين؛ لأنهم يرفضون، في آن واحد، ممارسات البهجة الهادئة، والأوهام اليسارية العقائدية (أو ما تبقى منها). فيما يتعلق بالثمانينيات، ظهر على التوالي في سنواتها الأولى، الرواد الذين قاموا بتعريف "الموسيقى الحديثة" ، وانتهى بهم الأمر إلى التعثر، بل الانهيار العام، واستسلم المتعاركون، واتفقوا على العودة إلى القديم وإلى جذورهم، وإلى "الأصالة"، ونشأت فرقة "يو تو " U2 ، وعلى رأسها ليني جرافيتز. خلاصة القول، إن التنافس بين الفرق المختلفة على ساحة مشتركة، هو الذي مكن هذه العقود الموسيقية من الحفاظ على هويتها وتعريفها.

" لقد قتلنا مجازيًا كورت كوبان حتى تشرق الشمس من جديد؛ ولم يحدث ذلك... لقد انتهي عصر النجوم"

باكوم ثيلومان Pacome Thiellement

بادئ ذي بدء، يمكننا القول إن صعوبة التحدث عن عقد التسعينيات، ترجع لعدم سعي معاصريه إلى تعريفه. إن ظاهرة الموسيقى الشعبية في حقبة ما بعد الحرب لا مثيل لها؛ إذ أحجمت كل الفرق الموسيقية عن الاندفاع إلى الميدان، وفرض رؤيتها

الموسيقية على مجتمع مناهض، أو معاد. واختفت المواجهات لاختفاء ساحة المعركـــة، بعد أن اتفق الجميع على تحويلها إلى معرض تجاري تُباع فيه السلع الموســيقية. ولـــم يسع ممثلو تيار الأقلية إلى استنكار الوضع الفني أو الأخلاقي الذي يمثله تيار الأغلبية؛ بل سعوا إلى البحث عن مكان، ووسيلة للانتشار. هنا بدأ ميلاد عقد التسعينيات، بعــد تصاعد الطلب التجاري على مختلف التيارات الموسيقية "للروك المستقل"، التي نبــذت القرارات الباطلة لروادها، الذين أصبحوا يمثلون اتجاهًا باليًا. لقد عاصــرنا فـــي تلــك الحقبة، التعايش بين الاتجاه ونقيضه، بنوع من المبالاة، بل بحسن نية متبادلة. لقد كـــان هذا الوضع جديدًا وغير متوقع. فقد ظهرت فرقة "نيرفانا" Nirvana وتيـــار موســـيقى "الجرانج" grunge، ومبتكرو "التريب / هوب" trip hop في بريستول، و"ماسيف أتـــاك" massive attack، و"بورتيس هيـــد" portishead، ورمـــوز "البريـــت بـــوب" Britpop، و"بلور" Blur، و"أوازيس" Oasis، والرواد الجدد المهووسون بموسيقى "راديـــو هيـــد" Radiohead، وأنصار الدمج بين "روك / هيب / هـــوب فانـــك" Rock-hip-hop-funk، و"ريد هوت شيلي بيبارس" Red Hot Chili Peppers، أو "راج أجينيـــست ذا ماشـــين" Rage Against Machine، ورواد الموسيقى الحزينة، وموسيقى الـــروك الإلكترونيـــة، و"ناين إينش نيلز" Nine Inch Nails، وماريلين مايسون Marilyn Manson، وعـــشرات الآلاف غيرهم من المؤلفين والملحنين، والمحبطين، والمعبرين عـــن موســـيقى "نيـــو كانتري"، أو "فولك"، المستوحاة من نيل يانج، والتي انتشرت فـــي المنـــاطق الريفيـــة بالولايات المتحدة، وفي مدن الجزر البريطانية الممطرة، مثل فـــرق "ســـموج" Smog، و"سباركيل هورس" Sparklehorse، و"تيندرستيكس" Tindersticks، ورواد موسيقى مـــا بعد الروك post - rock، لفرقة "تورتواز" Tortoise، و"جاستر ديل ســـول" Gaster del Sol، ومحبي "الفرينش تاتش" French touch، و"إير" Air، ودافـــت بانـــك" Daft Punk، وأسطوانات ال "دي جي" DJ، و"هـــاوس" House، و"درام إن بـــاس" drum'n bass... ظهرت هذه التيارت جميعها، ولم يسع أي منها إلى تحديد شكل الغناء في التسعينيات؛ إذ ظل كل منها منغمسًا في أعماله الخاصة. لقد كان هناك بالطبع بعض أوجه التعاون، والكثير من التآلف، والتجاهل المتبادل (الذي قل عن ذي قبل، لانتهاء مبدأ العـــداءات)،

والمواجهات لتعريف الهوية "الغنائية" للتسعينيات؛ غير أن شيئًا لـم يحـدث. إن هـذا التساهل بين الاتجاهات المختلفة، سواء كان عن حسن نية أو ريبة، كان بأي حال مـن الأحوال، بمثابة "نهاية التاريخ"، كما وصفه البعض، إن لم يكن نهايـة حقبـة وبدايـة أخرى. خلاصة القول، إننا لا نعرف الفائز من الخاسر في حقبة التسعينيات؛ لأنه لـم تكن هناك معركة بين التيارات. وللوهلة الأولى، نرى أن أكثر ما يؤثر في مشهد تلـك الأعوام، ربما تكون الرغبة في وضع حد لتلك المعارك، والحاجة المتزايدة إلي منـاخ سلمي ووهمي، كان يمثل أحد عوامل جمال تلك الحقبة.

التلاحم

مفهوم يطوق التسعينيات

بنوع من الضباب الكثيف

حفل الشركاء

نستطيع أن نبدأ سرد الأحداث منذ عام ١٩٨٣ في مانشستر، حيث ابتكرت فرقة "أوردر"Order – على أطلال جوي ديفيجن – مخترع تيار موسيقى "ما بعد البانك" postpunk الآلية، بألحانه الهادئة والصاخبة في آن واحد، وأنغامه الإلكترونية الأكثر تطورًا. لقد تطلعت الفرقة إلى تجربة نوع جديد من الإيقاع؛ فألفت على عجل، أغنية "بلو مانداي" Blue Monday التي تُعد ثورة في عالم الغناء، لأنها كانت المرة الأولى التي تتخلى فيها فرقة روك – لا تقل شأنًا عن الفرق الأخرى – عن المعامل المتداعية لموسيقى الروك الآلية، وعن آلاتها العتيقة، والمندثرة وذات الأنغام الكئيبة؛ كما هجرت الفرقة الأجواء المتاخمة، والخانقة المحيطة بها، كي تتجه إلى فجر جديد مليء بالبهجة المشعة. لقد تفوقت آخر صيحة في الأنغام الآلية الكهروصوتية – المبهرة، والمألوفة، وفقًا للبعض، ومحددة المعالم، والمليئة بالألوان الصارخة مثل المنتشرة في الديسكو والحفلات – على موسيقى البوب "كرافويرك" Kraftwerk الإلكترونية عديمة القيمة، وعلى الأسلوب الحديث البالي الذي مهد له جوي ديفيجن. غير أن هناك بعض التناقضات في ذلك التيار؛ فالكآبة الممزوجة "بالموجة الهادئة" cold wave، وفقًا للتسمية الفرنسية، لم تختف ولكنها اتخذت اتجاهًا آخر نحو عالم يمكنها الانصهار فيه؛ كما أنه لم يكن متوقعًا أن تُستخدم هذه الرقصة الآلية الممتعة لتجميل كلمات أغنية حزينة، وموحشة؛ وأصبح بارني – بعد انتحار إيان كورتيس – عازف الجيتار الأول، وفرض إلى حد ما طابعه العابس على الفرقة. وتُعد "بلو مانداي" من الناحية التاريخية – وفقًا لأقوال بارني – أول أغنية "راقصة" واقعية؛ فهو لم يزعُم أن تأليف الكلمات مقنن تقنينًا جيدًا، وأن الفتيات أجمل من ماريلين، وأن الحفلة ستستمر طوال الليل. لقد أثار حديثه لدينا الانطباع بأننا سوف نستمع إلى كلمات أغنية تُعبر عن نموذج لشخص ضائع، يجلس على البار، ويُظهر سخطه وهو يتجرع مشروب البيرة، في

الوقت الذي يلهو فيه الآخرون بمنأى عنه؛ وبينما كانت الحفلة في أوج صخبها، نسمع مناجاته الذاتية قائلاً: "لماذا تعاملينني بهذه الطريقة؟ بعد أن وضعت يديك علي، وأخبرتني من أنت". لقد كانت المرة الأولى التي نرى فيها شخصًا انطوائيًا وكئيبًا، وغير قادر على التواصل الاجتماعي مع الآخرين، يندمج مع أنغام الحفل، وينصهر مع جموع الراقصين المجهولين، الذي كان يشعر بالغربة بينهم. إن الأغنية تعبر عن وحدته، وحزنه، ورغبته في الاحتفال على الرغم من كل شيء. إن "بلو مونداي" لم تكن مجرد أغنية رائجة وليدة اللحظة؛ فأسطوانة "ماكسي سينجل" كانت تُباع في المملكة المتحدة، بعد صدورها بأقل من عام، بصورة منتظمة، وبكميات صغيرة، و"بطريقة غير متوقعة"، وفقًا للمصطلحات التجارية، وأدى هذا النجاح إلى إحداث تغيير بطيء، وتدريجي في جمهور هذه الفرقة. في مرحلة لاحقة، فطن هاوي "الروك المستقل" – الذي طوع فنه بأسلوب فرقة "ذا كلاش" The Clash، وبقراءاته "لنيو ميوزيكال إكسبريس" New musical express، والمزدري لما نطلق عليه بكل اشمئزاز "الهرب من الواقع بالاستغراق في الوهم أو الخيال" (الذي اتسمت به التسعينيات)، والرافض للتربُح من الغناء والأعمال السهلة – في مرحلة لاحقة إلى أن هذا الاتجاه النقي، والقوي لن يصمد في حقبة ما بعد الألحان الآلية، والأعمال الفردية، التي كانت "في مجملها" اتجاهًا يشمل الوطن بكامله. لقد أدرك أن المكابرة أمام هذا الرفض لن تقوده إلا إلى الفشل، والهذيان، وثار، بعد عدة أعوام، على حنقه ونفوره، واتخاذه قرارات صارمة، وتوجيهه النقد اللاذع للمعتقدات السائدة؛ إذ شعر آنذاك، أن هذا الاتجاه الراديكالي الذي تمكن منه حتى النخاع، أصبح أمرًا مستحيلاً. وعندما قرر إحراز تقدم على أرض العدو، أعلن فشل غضبه المسالم، ورغبته في تأسيس مجتمع جديد. إن هذا المزيج المتناقض، كان بمثابة شهادة ميلاد التسعينيات، التي اتسمت بالدمج بين عوامل ثلاثة في المجالات جميعها. لقد سقطت كل الحواجز بين "الروك المستقل" والرقص الجماهيري، وتلاحمت جميع الاتجاهات، بدءًا من "نيو أوردر"، و"هيفي ميتال"، و"هيب هوب"، و"هاوس ميوزيك"، و"راف بارتيز".

عالم الموسيقى

"لقد أطلق الباحثون في تراث الموسيقى الوطنية عام ١٩٦٠، مصطلح "عالم الموسيقى" على الأغاني التي تعبر عن عادات وتقاليد الشعوب في كل منطقة ثقافية، ثم تغير هذا الاتجاه في الثمانينيات بفضل الموسيقى الآلية، وأصبح المزج بين الموسيقى القديمة المسماة "تراثيـــة"، والتيارات الغربية المسيطرة (البوب، والروك، والجاز، وغيرها)، هو الاتجاه السائد. ولقد ساد الاعتقاد طويلاً أن بيتر جابرييل هو الذي أضفى الصبغة التجارية التي لا مناص منها، علـــى ذلك الاتجاه، عندما أسس عام ١٩٨٩ شركة الإنتاج الموسيقية "العالم الواقعي"؛ تلك الـــشركة التي مكنته من تعريف الجمهور العريض بأحد جوانـــب "الموســـيقى العالميـــة" الممزوجـــة بالعروض الغربية، والمنتجة وفقًا لمعايير ثقافة "البوب" الخاصة بالـــشركات الكبـــرى، عـــن طريق إجراء التسجيلات، وإدارة أعمال الفنانين مثل الباكستاني نوسترات فاتح علـــي خـــان، والأوغندي جوفري أوريما. وأصبحت شركة "الموسيقى العالمية"، منذ ذلـــك الحـــين، الاســـم المعروف لدى موزعي الأسطوانات في العالم أجمع، الذين لم يرحبوا بهذه الفئة الجديدة مـــن الفنانين الذين يمزجون تراث الموسيقي الوطني بالألحان العصرية فحسب، بل شجعوا إعـــادة توزيع الأغاني البراقة المهملة حتى ذلك الوقت من موســـيقى الجـــاز الإثيوبيـــة، والأنغـــام الأندونيسية. ونجحت شركة "الموسيقى العالمية" – بفضل طابعها الجامع للاتجاهـــات كافـــة، وانتشارها الجريء – في تسليط الأضواء الإعلامية في الثمانينيات على العديد مـــن الفنـــانين الذين لم يجذبوا انتباه الجمهور الغربي. وفي عام ١٩٩١، أتاح صـــدور مجلـــة "فيبراســـيون" Vibrations الفرنسية / السويسرية، اللقاء المثمر لتلك الفئة الجديـــدة مـــن الفنـــانين بـــبعض الصحفيين الفضوليين، وجاء تتويجًا لعملهم في مجال الموســـيقى العالميـــة الـــذي بـــدأ فـــي السبعينيات؛ لأن اكتشاف هذه الأقلام الرائدة لتلك الأنماط الموسيقية، التي كانـــت فـــي بدايـــة مشوارها الفني، كانت ستنتظر خمسة عشر أو عشرين عامًا ليعرفها الجمهور بصورة أكبـــر، بل إن بعضهم لم يكن ليتمكن من إصدار أسطواناته. وأصبحت مجلة "راديـــو نوفـــا" Radio Nova– التي أصدرها جون فرانسوا بيزو عام ١٩٨١ في فرنسا على نهج مجلـــة " أكتـــوال" Actuel– أوسع المجلات انتشارًا، والمعبرة عن "الأنغام العالمية". كما أصـــبح العديـــد مـــن

الموسيقيين المناصرين لتيار "الموسيقى العالمية"، أمثال فيلا آنيكولابو كوتي (المتــوفي فــي ١٩٩٧) أو المغنية البرتغالية سيزاريا إيفورا، نجومًا عالمية، منذ منتصف التسعينيات بفــضل الانفتاح التقليدي لوسائل الإعلام على مفهوم "الموسيقى العالميــة" (المفــضلة علــى "عــالم الموسيقى")؛ والاهتمام المتزايد بالتراث الموسيقي القديم والمخالف للمعايير الغربية؛ والــضجة الإعلامية المنتظمة لاستمالة الجمهور العريض للنجاح الكبير لأعمال شــركة "بوينــا فيــستا سوسيال كلاب"، التي حولت الموسيقى المحلية لحفنة من المغنيين العاطفيين الكــوبيين، إلــى ألبومات عالمية في نهاية العقد."

ماتيو ريمي Mathieu Rémy

في عام ١٩٨٤، أحيت فرقة أخرى من مانشستر، "السميث" Les Smiths- التــي تضم المغني الخلاب موريسي، وعازف الجيتار الفريد جوني مــار – حفــل زفــاف مخالفًا لطابعها المثمر، بأغنية "هاو سون إذ ناو" How son is now ، التي أعلنت ميلاد عصر موسيقي جديد. لقد خالفت هذه الأغنية، بمقاطعها المتكررة، والمليئــة بالــشجن، اتجاهات الفرقة القوية والواضحة التي تُؤثر، مثل كل اتجاهات "الروك المستقل"، غلبــة الحزن والاكتئاب الشخصي على المحيط الجماعي. لقد اتبعت أيضًا هذه الأغنية اتجاهًا مغايرًا للنجاحات المستقبلية التي حققتها الفرقة في ألبومها "بانيك" Panic، الذي طالبــت كلماته "بإعدام موسيقى ال "دي جي"؛ لأن أسطواناتها المعروضة لا تعبر عن حياتنــا". إن أغنية "سون إذ ناو"، أغنية راقصة بشرت بظهور فرقة "آسيد هــاوس" acid House ذات الألحان الرتيبة والشهوانية إلى حد ما. في تلك الأغنية، تكررت جملة "أنا إنــسان وأحتاج إلى الحب كغيري من البشر"، وأصبحت طوق النجاة للشخص الغارق في بحر هائج. لقد أشار موريسي إلى أنه ليس إنسانًا فريدًا، ولا معاديًا للشخص الــصامد، ولا ثائرًا ضد مجتمع مجرد من الإنسانية؛ كما أنه لا ينتمي لأولئك المراهقين المجهــولين، والمنغمسين في موسيقى "راف بارتيز" rave parties، لأنهم في حاجــة إلــى الــشعور بحرارة الحب الجماعي. إذا صدرت هذه الكلمات من أحد أعضاء فرقــة آلــت علــى

نفسها مواساة الغرباء، وغير القادرين على الاندماج مع الجموع، فإنهـا تعـد اعترافًـا استثنائيًا. لقد أوحى إلينا موريسي أيضًا، أنه من الجائز إعداد أغانٍ تعبر عن احتفالات ومجتمعات مغايرة تضم العاطلين، والمنحرفين، وغريبي الأطوار، والمستهترين، الذين يتمتعون بحق الاحتفال، والتجمع دون التظاهر بأنهم أشـخاص أسـوياء، وطبيعيـون، وإيجابيون. إنها رؤية رائدة، تنبئ بالوضع الذي أصبح عليه عقد التـسعينيات؛ حيـث سادت الموسيقى المعبرة عن الأقليات، والمقهورين المجتمعين في نـوع مـن النـشوة الجماعية، وفي احتفالات مغايرة لطبيعتهم النافرة. بعد مرور عـدة أعـوام، تراجعـت فرقة شباب "مانشستر" المهمشة، واختلطت موسيقى الديسكوتيك ذات الفن المحـدود، "الهاسيندا" Haçienda– التي اخترعها توني ويلسون، مؤسس شركة الإنتاج راعية فرقة نيو أوردر – بأغنية "هاو سون إذ ناو"؛ كما امتزجت موسـيقى "هـاوس إليكترونيـك" و"الراف بارتي" بموسيقى "الروك المستقل"، وتكونت فرقتـا "هـابي مانـدايز" happy Mondays، و"ستون روزس" Stone roses المجسدتان في نهاية الثمانينيات، لبزوغ عقد التسعينيات، الذي غلبت عليه النشوة الغامرة، " والانخداع"، والسيطرة، وأغانٍ بلا بداية أو نهاية، وعدم الاكتراث بالمستقبل، والاستسلام لفكرة أن العزلة والمعاناة من الحيـاة، وانعدام الأمل، تعد من الأمور واجبة النسيان؛ وأننا نستطيع الحياة في سعادة، وبساطة، والاحتفال من أجل كل تلك الأمور، وليس لتحقيقها.

تأتي فرقة "نيرفانا" التي تأسست عام ١٩٩١على رأس الظواهر الموسيقية فـي التسعينيات. اندمج هذا الثلاثي الغنائي في تيار موسيقي "الميتال" Le métal، الذي كـان يجهله الجمهور العريض، ويحتقره النقاد. هل كانت الفرقة الأولى والوحيدة؟ لقد كانـت رائدة الغناء في التسعينيات، وتضم أعضاء من أنحاء البلاد، وكانت منبوذة ومهمـشة. لم يحظ كورت كوبان بحياة رغدة، فقد ترعرع في أبردين، المدينـة الـساحلية غيـر الساحرة في شمال ولاية واشنطن، التي يعيش سكانها على الكفاف من صيد الأسـماك واستغلال الغابات، وهجره والده – الذي كان مـن هـواة "الهـارد روك" hard rock، وموظفًا في إحدى محطات الصيانة – في طفولته؛ فلم يجـد سـبيلاً يـسلكه سـوى

الالتحاق بالبحرية الأمريكية. وبعد أن عاش مع والدته حتى عمر السابعة عشرة، رحل نهائيًا ولم يعد؛ نام في الشوارع على أوراق كرتون، أو في إحدى قاعات الملاجئ، كان بالكاد يكسب قوت يومه من مهنة حارس في أحد المطاعم، أو كعامل صيانة في أحد الفنادق. عندما بلغ عشرين عامًا، أقام في مدينة أوليمبيا المجاورة، على بعد ما يقرب من مائة كيلو متر من جنوب سياتل - أحد مراكز الروك البديلة للروك الأمريكي - التي بدأ فيها، العديد من المنبوذين أمثاله، بعد مرور عشرين عامًا على ظهوره، نشاطهم الموسيقي مثل بيث ديتو وفرقته "جوسيب". تحمس كوبان في تلك المدينة، لفرقة "ملفين" الموسيقية البديلة للروك، وتبعها أينما ذهبت، وأكمل دراسته الموسيقية. وفي عام ١٩٨٧، أسس فرقه "نيرفانا"، وفي العام التالي سجلت الفرقة في ثلاثة أيام ألبومها الأول "بليتش" Bleach بمبلغ قدره ٦٠٠ دولار. وصدرت الأسطوانة عام ١٩٨٩، لكنها لم تحظ بأي اهتمام، ولم تحقق لها شركة "ساب بوب" النجاح، ففسخت الفرقة عقدها معها بعد أن استعانت بأحد المحامين المهرة، وتعاقدت مع شركة "جيفين الوطنية". بعد أن أجرت الفرقة بروفاتها في أحد المستودعات القريبة من أوليمبيا، سجلت ألبومها الثاني "نيفر مايند" Never Mind في لوس أنجلوس، بعد أن قامت بـ٤٥ جولة، ثم أصدرت في خريف ١٩٩١، ألبومها التالي "سمالز لايك تين سبيريتس" Smells like Teen Spirit؛ تلك التسمية (المستوحاة من شعار مزيل رائحة شبابي) التي واءمت بين الفتور، والثورة، والميل نحو تدمير الذات. لقد ردد كوبان في إحدى أغنيات هذا الألبوم، مقطعًا يمزج بين الانهيار وتدمير النفس قائلاً: "إنني أسوأ شخص يحاول فعل الأمثل، وأشعر أنني مبارك بفضل هذه الموهبة التي اكتشفتها بصعوبة؛ ولكن بعد كل شيء، فلنتجاهل الأمر". لقد خلطت هذه الأغنية بين الأنين الهادئ، والثورة العارمة؛ ذلك النمط الذي اخترعته فرقة "بيكسيس" قبل ذلك بعدة أعوام، وتحول إلى نشيد عالمي مليء بالمفارقات. حققت فرقة "نيرفانا" وتيار الجرانج (مصطلح يعني "الحثالة") نجاحًا جماهيريًا عريضًا، وغير متوقع على الإطلاق. وإذا كان كوبان يسعى إلى كسب عيشه من الموسيقى، فإن النجاح العالمي والجماهيري لم يشكل قط جزءًا من تطلعاته؛ بل كان يعد من الأمور الحقيرة أخلاقيًا. لقد فسر ديف جروهل، قارع الطبول في الفرقة، ذلك الوضع بأن "نيرفانا" لديها نظرة متواضعة عن

النجاح، وصرح قائلاً: "إننا فرقة موسيقية تضم سبعمائة وخمسين فردًا، وكنا ملتزمون بتوفير الوقود اللازم لتنقلاتهم، ومع قليل من الحظ، كنت أتمكن من حجز غرفة لي أنا فقط في أحد الفنادق ، وتوفير ثمن علبتين من السجائر يوميًا". يُعد هذا النجاح البسيط لموسيقى البوب عند جمهور المستمعين، نوعًا من التخلي عن موسيقى "الروك المستقلة"، والمهمشة، والمزهوة بحالها؛ الأمر الذي أصاب كوبان بالقلق الدائم، المتوافق مع شجنه. وتحول هذا الموسيقي، في غضون بضعة أشهر، إلى البطل الثائر، وخلاب العقول؛ وأصبح الناطق بلسان "الجيل التائه"، وفقًا لأحد كتب الكاتب الكندي دوجلاس كوبلاند الصادرعام ١٩٩١، والذي يروي فيه تسكع ثلاثة من الشباب دون أمل أو تطلع. كان ذلك هو الانقلاب الأول في عقد التسعينيات، أو ربما ميلاده الحقيقي؛ إذ أصبح في مقدورالمهمشين، والمحبطين، والمنبوذين، إبهار الشباب في العالم أجمع.

موسيقى الراب والفزع الواهن

انطلق التيار الموسيقي "الجانستا راب"gangsta rap – المختلف تمامًا عن غيره – بالمعتقدات المقدسة نفسها، المتمثلة في تحويل المنبوذين إلى أبطال، والهائمين إلى منتصرين حقيقيين. ظهرت بوادر هذا التيار بأفكاره التي تفوق الواقعية، في نهاية الثمانينيات مع فرقتي "ران دي أم سي" .Run D.M.C، و"بابليك إنيمي" Public enemy في نيويورك، ثم حقق بعد ذلك بعدة أعوام نجاحًا مدويًا في لوس أنجلوس، بفضل فرق "الراب" مثل "آيس تي" Ice T، ونيجاز ويت أتيتيود"، Niggaz wit Attitudes وباك ٢ pacc 2. وأصبح هو الاتجاه السائد في موسيقى الراب الفرنسية، وخاصة لفرقة "إن تي إم" NTM؛ كما كان مصدرًا ملهمًا لجمهور عريض من الشباب. في فرنسا، كان تأثير الروك سطحيًا على الموسيقى، باستثناء بعض الحالات، واقتصر امتداده على الفرق التي تستهدف بعض الأجيال؛ فسرعان ما فشلت فرقة "تليفون" Téléphone، ولم تتمكن فرقة "تراست" Trust من الحفاظ على صدارتها، ولم تتغلب فرقة "إندوشين" Indochine، التي تعود أصولها إلى بداية الثمانينيات، على تجاهلها لفترات طويلة، ولم

تؤثر فرقة "نوار ديزير" Noir Désir إلا في فئة محدودة من الشباب. وعلى الجانب الآخر، فرضت موسيقى"الراب" نفسها كلغة عالمية ضربت جذورها أيضًا في المجتمع الفرنسي، بين الفئات غير المتأثرة بالغضب الجماعي، أو التي تعاني من خيبة الأمل. وأصبح التحريض على الغضب ضعيفًا، وبات من الصعب أن يؤثر الاحتقان على فئة معينة لفترة طويلة، وبدأ ينكمش ويتحول إلى اتجاه مشوش لا نهاية له، مثله مثل الإضراب العام الطويل في شتاء ١٩٩٥، الذي كان تأثيره ضعيفًا للغاية. وبدأت موسيقى "الراب"، بألفاظها الثائرة، وتمردها غير المباشر، تتجاوز الإطار الشعبي المهمش الذي نشأت فيه، وانخرطت بقوة في شعور الاستياء الضعيف الذي كان يعم المجتمع. ونظرًا لأننا نتمسك بتراث أغانينا الملتزم، فإن "الراب" لم تؤثر إلا في الفئة الشبابية (والأصغر عمرًا منها)، التي كانت تبحث عن متنفس للكبت الذي تعانيه. وأصبح مشجع "الراب" بطلاً ثائرًا، وبالطبع مهمشًا، ومرفوضًا من المجتمع؛ كما أنه كان الشخص المفضل بامتياز. إن بُغضَه لرجال الشرطة والقضاة، أدى إلى انتفاضته، في براءة الطفولة، التي تعارض جميع أنواع الظلم. وأصبحت لغته البذيئة، ورغبته في إشباع مختلف نزواته حتى الأكثر دناءة، مصدر دخله غير الشرعي، ولم يتعارض كل ذلك مع الفضيلة التي اكتسبها؛ لأنه الورقة "الرابحة" في ذلك المجتمع المتداخل، والمشحون بالنفاق، والمتعطش قليلاً للإخلاص كما في لعبة "الألف حد". وسرعان ما أصبحت موسيقى "الراب" الجائزة الكبرى للضائعين، والديانة غير الرسمية، والتجارة التي تجعل مروجيها ملوكًا؛ لأن المجتمع لا يستطيع أن يرفض لهم طلبًا. إنهم خاسرون ولكنهم قادرون وحدهم على ممارسة لعبة السلطة الرمزية، لأنهم يفتقدون السلطة الفعلية.

غروب "البوب"؟

"لقد كانت التسعينيات، دون أدنى شك، عقدًا مواتيًا لموسيقى "البوب"، ذلك التيار الموسيقي الجامع /الشامل، والذي تمكن، من خلاله، محترفو الغناء من تعريف الجمهور العريض بإنتاجهم، في محاولة للاستفادة في الوقت المناسب من الاتجاه السائد في العصر. لقد

أدى انتشار الحجم الجديد للأسطوانة (القرص المدمج) إلى التفـوق علـى جميـع الأحجـام الأخرى، وأجبر المستهلك، بطريقة ماكرة، إلى استبدال مجموعة أسطواناته الأصلية بـالمنتج الجديد، وتمكن بذلك منتجو الأسطوانات من تحقيق أرباح هائلة ، وغير مـسبوقة فـي تلـك الصناعة. وُبدأت شيئًا فشيئًا الشركات، التي كانت تعرف في أوائل التـسعينيات "بالـشركات الكبرى"، التغلب على كل محاولة من شأنها منع شراء ذلك المنتج الاقتصادي الجديد، بعـد أن سارعت إلى احتكاره بوضع اليد على التوزيع والتسويق لتجار التجزئة. وأصبح هذا الانتصار يمثل، من وجهات نظر عديدة، نقطة اللا عودة، أو مرحلة الصعود التي تسبق الانهيار. ومع انتشار الإنترنت في نهاية العقد، ونقل المعلومات بواسطة الشبكة العالمية، والتـداول الـسهل للأجهزة الرقمية، وظهور أنواع جديدة لأجهزة المحمول والشاحن اللاسـلكي مثـل الجهـاز الموسيقي الرقمي MP3، بدأت صناعة الأسطوانات المزدهرة تواجه الكساد في التسعينيات، بعد أن أصبحت مهددة بالوسائل السمعية الحديثة، والقرصنة المنظمـة. فـي ربيـع ١٩٩٩، تأسست شركة "نابستر" للموسيقى الإلكترونية، فازداد هلـع العـاملين فـي مجـال الإنتـاج الموسيقي، خاصة بعد أن أتاح الإنترنت لعامة الناس التداول الجمـاعي للبطاقـات الرقميـة المضغوطة، التي سهلت على الجميع تبادل الأسطوانات المستوردة والمدمجة، عبـر أجهـزة الكمبيوتر. ومع بداية الألفية الثانية، أدى غياب التشريعات، التي تفـرض العقوبـات علـى القراصنة العشوائيين أو الدائمين، إلى فشل المقترحات الخاصة ببيع الأغـاني، والألبومـات الرقمية، وأدى هذا التراجع في موسيقى "البوب"، إلى تراجع لا مثيل له في ثقافة "البوب"؛ كما أدت أعمال المزج بين الحديث والقديم، التي لم يكن في الإمكان السيطرة عليها، إلـى "عـودة الروك" لساحة الغناء في بداية الألفية الثانية، من خلال الفـرق التـي تـستخدم مـضخمات الصوت، لتقليد النجوم اللامعين في تاريخ "الروك". في نهايـة العقـد، تعرضـت صـناعة الموسيقى لعملية إعادة تدوير شاملة، كان من أبرزها انتشار الأسطوانات المدمجـة المقلـدة، التي تسمح لشركات الأسطوانات، وللموزعين الموسيقيين، بحق الاستغلال الأقصى لألبوماتهم الناجحة والهابطة على حد سواء. وبدأ الانطباع المرير لمحبي الفن الحديث، يخيم على ساحة "البوب"؛ "اختراع القرن العشرين".

ماتيو ريمي Mathieu Rémy

تفاعُل موسيقى "الراب" مع الغضب
والإحساس بالعجز المهيمن على المجتمع

في منتصف التسعينيات تقريبًا، تبادلــت الفــرق الموســيقية الأدوار؛ فعبــرت موسيقى "الراب" عن الوعي الاجتماعي والأحاديث المتمردة؛ أمــا موســيقى"الــروك"، المستقلة أو المُهمَشة، فقد تحولت – سبق ورأينا ذلك مع فرقة نيرفانــا – إلــى نخبــة مستقلة ذاتيًا تساير الاتجاه الثقافي السائد. وأصبحت مجلــة الــروك الأســبوعية " les Inrockuptibles" منذ ١٩٩٥، الرائدة في هذا المجال؛ إذ كانت تطــرح الأســبوع تلــو الآخر – على غرار الصحافة البريطانية – أسماء المغنين الجدد، والفرق، والتيــارات الموسيقية، وتعمل على تسويقها بأسلوب المنتجات الطازجة سريعة التجهيــز، وأفــلام الأربعاء الأسبوعية، والكتب التي تباع على العامود بالقرب من ماكينة الــصرافة فــي المكتبات. وأصبحت صور "ذا ديفين كوميدي" The Divine Comedy، و"ســوبرجراس" Supergrass، و"ذا فرف" The Verve... تحتل غلاف المجلة للإعلان عــن موســيقى "البريتبوب". وبرزت المواجهة المسماة "بلور أوازيــس" Blur - OASIS بــين الاتجــاه الفردي والديناميكي الذي حول التخلي عن الموسيقى الآلية إلى ورقته الرابحة، والــذي تمثله فرقة "دامون ألبرن" Damon Albarn الهابطة والفاشلة، في جنوب إنجلتــرا مــن جانب؛ وتيار الشمال من جانب آخر، مكتسح الساحة، والذي تناصره فرقــة "الإخــوة جالاجير" Frères Gallagher ، التي يتكون أعضاؤها من مشاغبين، ومجرمين ســابقين. لقد كان الإقبال ضعيفًا على المجموعتين في فرنسا (خاصة فرقة أوازيــس)، وتنــاول الإعلام الحديث عنهما وكأنهما مطعمان يتنافسان على تقديم أفضل أنــواع الطعــام؛ إذ كانت موسيقاهما تدخل السرور والفتنة على مستمعيهما. وأصــبحت فرقــة "إينــروك" Inrocks تحتل قائمة التذوق الغنائي، وغيرت من طريقة تناول "الــروك" فــي وســائل الإعلام، بدءًا من مجلات المرأة وحتى جريدة "تي جي في" TGV.

منذ بداية التسعينيات، ظهر على الساحة اتجاه ضعيف حاول أن يسترجع التأثير الاجتماعي، والسياسي للروك، المتمثل في فرقة "راج أجينست ذا ماشين"، التي واعمت

بين موسيقى "بانك روك"، و"راب"، و"ميتال"`، المعبرة عن فزع المجتمع. لقد سعى أبرز أعضائها، المغني جاك دى لا روشا، وعازف الجيتار توم موريللو - المنتميان إلى أصل عائلي مناضل ضد الاستعمار والتمييز العنصري - إلى البدء من حيث انتهت موسيقى "الفولك" لفرقة "البروتست سينجرز" في بداية الستينيات، وإلى تكرار مقاطع الكلمات الهجومية لفرقة "ذا كلاش". لقد اعتزما إيقاظ ضمير مستمعيهم، وتشجيع المجتمع على التغيير؛ إذ أثارت حرب الخليج الأولى، ١٩٩٠ - ١٩٩١، فزعهما خاصة مع انتشار العناصر المحرضة، مثل فلاحي شياباس في المكسيك، والآثار المقلقة لليبرالية الاقتصادية المتطرفة، والكارثة التي أصابت نظام التعليم الأمريكي، وغيرها. على الرغم من هذا فقد تفككت الفرقة في بداية الألفية الثانية، لماذا؟ إنه تاريخ قديم، يشرحه زاك دى لا روشا قائلاً: إن فرقة "راج أجينست ذا ماشين" لم تحقق الأهداف السياسية المنشودة، وهي الأسباب عينها التي أدت إلى تفكك فرقة "ذا كلاش" عام ١٩٨٣، بعد ستة أعوام من وجودها على الساحة (إذا تغاضينا عن السقطة الكارثية في ١٩٨٥). في منتصف التسعينيات، برز التيار المعروف بالتلاحم بين موسيقى "الراب" و"هارد كور" في فرق مثل "نو وان إيز إينوسنت" No one is innocent؛ غير أن علينا القبول بأن ألبومها الصادر في لوس أنجلوس "ريد هوت شيلى بيبرس" Red Hot Chili Peppers، هو الذي حقق لها الانتشار في العالم أجمع. في كل الأحوال، أصبح الاستماع إلى النماذج الثائرة، نوعًا من الترفيه الثانوي، كما سبق وأوضحنا عن موسيقى "الراب".

"التلاحم"، إنه المصطلح الذي يحيط التسعينيات بنوع من الضباب الكثيف؛ فموسيقى "الريترو" ظلت على الساحة مع فرق مثل "بلاك كراوس" التي تحيي "الروك" الجنوبي، و"ليد زيبلين" التي تمثل الجيل الصاعد. وأصبحت الجولات التي أعادت إحياء "رولينج ستون"، كبرى فرق الروك في العالم، ترمز إلى توطيد موسيقى "الروك الكلاسيكية" التي تغلبت على شطط "البوست بانك"، و"بوست ديسكو" في الثمانينيات. واستمرت "الروك" منذ ذلك الحين، في تكرار أعمالها؛ ذلك الاتجاه السائد الذي انطلق في العقد السابق، والمتمثل في المزج (الكلمة الرائجة في الثمانينيات) بين الأعمال

القديمة الناجحة، والحديثة وفقًا لذوق العصر، في تيار لا نهاية له. لم تكتف التيارات المتعارضة في وقت سابق، بالتعايش مع غيرها، لكنها امتزجت مع بعضها بعضا، وتداخلت الأنغام الإلكترونية "للبوب البسيط" مع الموسيقى الآلية الباردة، ومع العنف الثوري "لميتال"، بطريقة غير متوقعة مع "تاين إينش نيلز"؛ الاسم الذي اختاره ترنت ريزنور الموسيقي القادم من منطقة نائية في بنسلفانيا للتعبير عن الغضب اليائس، والاستقلال الذاتي. في بريستول في الجنوب الغربي لإنجلترا، لجأ فنانون "التريب هوب"، بعد تفكك فرق "نيو أوردر" و"السميث"، إلى الاستعانة بالأنغام المدوية "للهيب هوب"، و"ريجا داب"، و"نيو جاز"، من أجل عمل ألحان حزينة وموحشة، برزت فيها الأصوات اليائسة والهزيلة؛ مثل "بيث جيبونز دى بورتيسهيد". ولقد حققت الفرقة النازحة من أوكسفورد مسيرة مهنية غير متوقعة، بإطلاقها موسيقى"الروك" الممزوجة "بالجرانج"، ثم اختفت عن الأضواء بعد ابتكار الأنغام الإلكترونية، والبحث عن أنغام جديدة يصاحبها نوع من الأنين المحبط. إنها أيضًا الحقبة التي بدأ خلالها الحديث عن "البوست روك" لفرق "تورتواز"، و"جاستر ديل سول"؛ الرواد الجدد للموسيقى الهابطة في بداية السبعينيات. واختفت تلك الأصوات، وبدأت تنتهج نوعًا آخر من الشعر الأجوف، المليء بالأسى. في فرنسا، تعاطف مع هذا التيار بعض المتشددين بالتذوق الفني، هواة الجاز والموسيقى المعاصرة، الرافضون "للروك"، باعتباره تيارًا مجددًا يتغنى بالأغاني الشعبية، ويؤلف موسيقى زخرفية، مكتوبة بعبارات رنانة تعبر عن أحلامهم. ابتعد تيار "الفرينش تاتش" لفرقة "إير" عن الرفاهية الغنائية، وقدم النوع الجاذب للجمهور العريض من خلال "الإلكترو بوب"، لفرقة "دافت بانك"، والمتنوعات، المرحة والطفولية. ثم بدأت الأعوام الأولى للألفية الثانية بتيار "النوجتيس"؛ الذي حول الموسيقى إلى ديكور ومناخ للتواصل المباشر، ومتداول في جميع الشبكات المحترفة والهاوية على حد سواء. في نهاية الأمر، علينا التحدث عن الرغبة القوية في تحديد الحاجة الداخلية، والحياتية، بل الجماعية والسياسية لسماع الموسيقى؛ وفي عودة القوة بعد الضعف؛ إنها رغبة أقوى من أي وقت مضى، ظهرت بعد عقدين، في منتصف ٢٠١٠.

باكوم ثيلومانت، "مستحيل أن تكون إنسانًا أمينًا"

"إن التخلص من الصلافة الوبائية للثمانينيات كانت أولى "مهام" كورت كوبان؛ مهام مماثلة لما قام به هرقل. إن ألبوم "نيفرمايند" يُعد حدثًا عالميًا، والأحداث العالمية الآن ليست سوى كارثية. لقد غزونا العالم بأجهزة تفوق إمكانياتنا، حتى بلغنا المرحلة التي إذا أشعلنا فيها شمعة سوف يثور بركان، وإذا أعلنا في أحد المسارح أن الاحتياطي المالي لبلد ما قد هبط، فستنهار البورصة. في الستينيات، واءمت فرقة "البيتلز" بأغنيتها "أول يو نيد إز لاف" بين العمل الفني والتوقعات الجماهيرية؛ والأمر ينطبق على أغنية "عام ١" للمغني جي بي، وكلماتها: "لقد أوقفنا كل شيء، للتفكير، والأمر ليس حزينًا". في التسعينيات، كانت أغنية "هيت سينجل" أشبه بالمذبحة، أو بهزة أرضية، وأسفر ألبوم "نيفر مايند" عن العديد من الضحايا؛ كان أولهم، الشابة التي اغتصبها شخصان دنيئان، طبقًا حرفيًا أغنية "بولي"؛ وآخرهم، شهرة كوبان الذي دمرته شخصيًا؛ وهو أسوأ ما يمكن أن يحدث لشخص متواضع ومتماسك مثله.

إن ألبوم "نيفرمايند"، يُعبرعن الشباب المغلوبين على أمرهم، المدركين أنهم بلا مستقبل في هذا العالم، لأنهم أذكى من الذين يتحكمون فيه، الرافضين إطلاق أيديهم. إنهم شباب واقعون بين شقي رحى الأهل – الراغبين في توقف العمر – والأشقاء الأصغر سنًا المعرضين في المستقبل القريب للأزمات الاقتصادية، والكوارث البيئية، والثورات شبه الجماعية، التي سوف تُخرج من جعبتها الموبقات التي تعرقل سيطرة الشباب. إن "نيفرمايند" يجسد الحقيقة غير المحتملة التي مفادها أن الإنسان كي يصبح أمينًا، عليه إنجاز مهمة صعبة للغاية، تتعدى كل حدود البطولة؛ لأن الأمانة أصبحت على محك الحدود الشرعية؛ ولأن العالم لا يقبل إلا الفساد، والغطرسة، والحماقة. (...) من المستحيل إذن أن تصبح إنسانًا أمينًا؛ لأننا تمسكنا طويلاً بهذا المستحيل. إن قسوة عالم اليوم، كقسوة شهر نوفمبر الذي قد يدوم طوال العام. (...) وإذا كانت الأمانة تظهر بجلاء على أصحابها، فما علينا سوى مقارنة الوجوه الأمينة بالوجوه الدنيئة، كي ندرك أيًا منها يعيش حياة مقبولة، حتى لو كان مرفوضًا

أينما ذهب. علينا أن نشاهد وجه كورت كوبان، المشرق بالطيبة، والذكاء، والاحترام، كي ندرك أننا لا نريد أن نشبه العالم الدنيء، المستمر في طغيانه.

لقد تألق نجم البوب كوبان قبل تغيير مظهره بفترة قصيرة، فالصلة مختلفة تمامًا بين الصورة التي رسمناها له، والواقع الذي ظهر عليه، مثله مثل هندريكس، والفيس، ومايكل جاكسون. لم يلعب كوبان دور الرجل الاستثنائي، ولم يخط أولى خطوات تقديسه أو التضحية به. لم يكن أمامه سوى التقدم نحو عالم "البوب"، ولم يرغب في تغيير هيئته، وتمسك بملابسه الأصلية، لقد جاء إلينا "كما هو" مرتديًا ملابس "الجرانج"، فصممنا له الثياب الرثة، واغتلناه رمزيًا حتى تشرق الشمس من جديد؛ لأن "النجومية يجب أن تندثر"، كما في أغنية "كيلينج أوف كينجز" لفرقة "سيكرت شيفز". لقد ولى عصر النجوم."

باكوم ثيلومانت، "الرجل الذي باعته الأرض"، بوب يوجا، باريس، سوناتين، ٢٠١٣، ص ٢٣٥ – ٢٣٩.

فرقة "تاس"؛ أغنية "زنجي يمشي وإصبعه على الزناد"

كنت أحلم بأني قاطع طريق، أشرب الخمر، وأتجرع الكئوس

أتأكد أينما ذهبت من جمع الفلوس

أستثمر في البورصة، وأستولي على الأموال

أبيع الألماس، وأهزم رجال الشرطة الأشداء

أضغط بإصبعي على الزناد فتخرج الطلقات

أتأكد من إصابة الوجوه حتى تمتلئ جيوب الثياب

انا لست الأخ الذي أتى لتختبره في الضغط على الزناد

أعطني بندقية سميث أو سان وسأجرد المارة من الثياب

أحلم بتدفق المال، وآل كابوني وملاذ

أشعر بالإحباط فأسطو في كل مكان

أستمع إلى شريطي المشوش، فتتناثر الطلقات

أصيب الذئاب فتهرب إلى المتاهات

المليئة بالفئران الواقعة في الشراك

أستمع إلى قصص الأهل القادمين من الأوطان

على جزيرة تتحسر من كل اتجاه

يقطنها البارعون في سماع الطلقات

أعيش في ظلمات الليل الحالك، لأن بشرتي سوداء

أنا أحلم، وأهذي، ولا أستطيع العودة إلى الوراء

أعيش حياة رغدة، وأنعم مثل كابوني بالمخدرات

أحيا في رفاهية، أمتلك المنازل، والخواتم المرصعة بالألماس

أغير نمط الحياة، أهذي، وأرى أن الحياة والجحيم متوازيان

لكن يجب أن أصمد وأنجح، برغم الأخطار

وتهديدات رجال الشرطة، التي تعتقلنا في الزنزانات

لقد أتيت إلى الدنيا كي أستخدم المسدسات

وأكتب الكلمات التي تخلب الأذهان

لقد نقلت هواة الراب إلى موسيقى هادئة الألحان

فأنغامي غذاء الروح، وجحيم دون موارات

إن قرع المجرم على الطبول يغير نمط الحياة

لا تغلق الصندوق على أنغامى ، حتى لو بليت الألحان

فالمدينة لا تنام، لأنها مليئة باللصوص والأشرار

تعلمت هناك كيف أخادع وأواجه الأخطار

أنا أهوي مدمني المخدرات، وأحب بودا، وأخادع مروجي الإعلانات

أظهر في الشارع على الملأ، وأتعامل مع متبلدي الأذهان

أستغرق في الزفير، وتتصاعد أنفاسي مع الكلمات

لا أنام على الإطلاق، فالنوم حليف الموت والنسيان

سأنبذ الغموض، وأعود إلى سابق العهد والأوان

لا شيء في عقلي يضاهي ولاية نيويورك في الأزمان.

فرقة "ناس"؛ أغنية "نيويورك ستيت أوف مايند"، إيلماتيك، ١٩٩٤.

الفنــون المـرئيــة

الجيل الأول

ستيفان موادون Stéphan Moisdon

في عام ١٩٩١، أشارت رواية دوجلاس كوبلاند "الجيل X، إلى قصص للثقافة السريعة" Generation x. Tales for an Accelerated Culture، إلى جيل جديد؛ عبر عنه في صورة مجموعة من الهائمين الرحالة المولودين في الفترة بين ١٩٦٥ و١٩٧٧؛ وعقد مقاربة بين أولئك "الأطفال المنشقين" baby busts عن واقعهم، وأطفال الحقبة السابقة "المؤثرين" baby Boomers في جيلهم. يشير حرف ال "x " إلى جيل اجتماعي / ثقافي، جديد ومجهول؛ جيل يعي واقع انطلاقه ، ويدرك نهاية حقبة الروايات البطولية؛ جيل يرغب في الخروج من دائرة "القيود والمال والمظاهر الاجتماعية"، المعبرة عن الحياة الحديثة؛ جيل سيطرت على حياته وروحه، أغنية نيرفانا "سمالز لايك تين سبيريتز" Smells like Teen Spirit. في عام ١٩٩١، ابتكر كذلك كل من ويليام ستروس، ونيل هاو في مؤلفهما "الأجيال: تاريخ مستقبل أمريكا من ١٥٨٤ إلى ٢٠٦٩" Generations. The History of America's Future, 1584 to 2069، مصطلح "الجيل الـ ١٣"؛ أي الجيل الثالث عشر الذي عاصر العلم الأمريكي بشكله الحالي. لقد تحدثا في ذلك المؤلف عن عدة أجيال؛ وعن نشأة عالم جديد من العلاقات، يتميز بتطور العلوم التكنولوجية، والإنترنت، ونهاية المواجهات، والانتقال من عصر إعادة الإنتاج إلى عصر الانطلاق؛ وعن الجيل الثالث عشر الذي يُعد أول جيل يُعيد إلى أذهاننا، رواد الفن، والاكتشافات الكبيرة، وتأثير روجرز رابيت، ومشهد الخطوات

الأولى على القمر، وصوت أرمسترونج. لقد كان أيضًا أول أو ربما آخر جيل، يعتمد على أساسيات العروض الفنية؛ جيل يدرك أن العمل الأساسي - المنظم، والجامع، والشامل، والتام - لم يتم إنجازه حتى الآن؛ وأن عليه البحث عن وجهة النظر المعبرة عنه، والتحريف الذي أصابه، والحذف الذي اقتطع بعض أجزائه، والمتغيرات الخارجية المؤثرة فيه.

ماذا بعد الشطط ومخالفة المألوف؟

"إذا كان من الضروري تعريف الوضع الحالي للأمور، فسوف أقول إنه عصر ما بعد الشطط". بدأ جون بودريلار عقد التسعينيات بكتابه "الضرر الواضح La transparence du mal" الصادر عام ١٩٩٠، وبهذه المُسلمَة الحزينة التي تصف ضآلة العالم الذي أطلق العنان للمجالات جميعها؛ إذ بعد التحرر الذي طال جميع النواحي الهدامة والبناءة على حد سواء، وبعد تنظيم المعارض والمعارض المضادة بأشكالها المختلفة، وبعد إشباع الساحة بالإنتاج المضمر ذي الرسائل المعبرة، والإشارات ذات المغزى، والأيديولوجيات، والأعمال المبهجة؛ أُضطُرِرنا إلى التظاهر بالشطط والتحرر المستمر، والمزايدة في عالم يعاني الفراغ: "إننا نحيا الحقبة المكتظة بالأيديولوجيات، والأوهام، والتخيلات، والأحلام، التي سبق وتخلينا عنها؛ وعلينا الآن التحلي باللا مبالاة الحتمية لإنتاج أعمال جديدة". على الرغم من المغالاة الأسلوبية في هذا النص، ومقارناته التشبيهية، فإنه كان له تأثيره البالغ على الفن في الحقبة التي سبقت الاختفاء النهائي لبوديلار عام ١٩٩٦، عندما بدأ الهذيان "بمؤامرة الفن"؛ الفن الحديث الباطل من وجهة نظره. من جانب آخر، يعتقد الفنانون والنقاد أن هذه الصلافة الحادة كانت تخفي وراءها الرغبة في رفض الصلة بالتاريخ الحديث، والتشريعات المهمة، وأنماط التفكير المخالفة لمضمونها الرمزي أو السياسي، والتخلي عن الأعمال التي تطور نفسها، ونبذ الرغبة في القول أو العمل؛ أي هجر الأمر برمته، وإطلاق العنان للتصريحات.

بعد وصف حقبة التسعينيات بالحقبة المفلسة، والمليئة بالأزمات المؤسسية والأيديولوجية، بدأ عصر جديد ومريب للانفتاح؛ عصر لا يلتزم بأساسيات الإنتاج، ويبيح جميع الأنماط، والخبرات الذاتية. لقد فقد الفن في منعطف التسعينيات، قدرته على الرفض؛ فتحولت أساليب الشجب إلى طقوس متكررة، والاعتراضات إلى تصرفات، والنقد إلى بلاغة، والانتهاكات إلى تقاليد رسمية. ولم يعد الرفض بالأمر الجديد؛ لأننا أصبحنا لا نؤمن بفكرة نهاية عصر الفن، إنما بنهاية الفن الحديث، وبأن الفن لم يعد مقصورًا على صناعة الدعاية، والإعلانات، والتليفزيون، والسينما، والموسيقى؛ بل أصبح جزءًا لا يتجزأ منها، وتعتمد قدرته ومصداقيته على التجارة العالمية، والثقافة، والسياحة. وإذا كانت الثمانينيات قد شهدت انتشار الأنماط الفنية المتنوعة، والمشاهد التصويرية، ومعدات الإنتاج المتعددة – فأفلتت بذلك من النقد السلبي لها – فإن مثل تلك الفظاظة الثقافية، وصلت إلى ذروتها في التسعينيات مع التحول الكبير نحو الثقافة الترفيهية والمرئية. وأسهم انتشار المهرجانات والمعارض الفنية "البينالي"، وانطلاق سوق الفن، والمضاربات الاستثمارية، في تدعيم الإحساس بالضياع؛ ولم يعد الفن المجال المثالي، بل مجرد إحدى أدوات صناعة العولمة الثقافية.

نحن نعيش فكرة نهاية

الفن الحديث

أدرك الفنان جوناسيس أوريدج منذ فترة طويلة، مثله مثل بطل فيلم "المُخنَّث"، أنه لم يعد قادرًا على التجديد، وأن الابتكار أصبح نمطًا غير قادر على جذب الجماهير. وبعد أن ساد العالم التناقض بين مسلمتي "الازدراء الفاتر" لوارهول، و"جمال اللا مبالاة" لديشان - أبرز وجهين في القرن العشرين - انضم جوناسيس إلى مشروعهما التخريبي، فقام على مضض بتشويه مفهوم الكاتب، لكن بطريقة مختلفة خالية من الجفاء، ولا تسلب تعاطفه مع الكاتب. يندرج هذا المشروع في جوهر التناقض الجماعي: لقد حقق جوناسيس كل ما في وسعه كي يبقى على مسافة (من حيث النقد الفني أو المهني) من أعماله سواء التي يعتز بها أو التي يفضلها، وظل مصرًا على حياده تجاهها، وتقبل المخاطرة بتقييم فنه بصورة سلبية، ورديئة حتى لو أدى ذلك إلى خسارته المادية وإفلاسه. إن آلية تحول هذه القيم أو تغيرها ليست جديدة، لكنها تهدف هذه المرة إلى دعم الأعمال التي يصعب الدفاع عنها، مثل أعمال بول ماكارثي أو روبرت جوبير - التي تمزج القديم بالحديث أو تعيد معالجة القديم - وتُعد متنفسًا عن العنف ومجالاً للقضاء على اليأس. إن إنتاج هذا الفن لم يعد نشاطًا نوعيًا، لكنه يتواءم مع نمط الحياة؛ فإعادة معالجة القديم، كنموذج للنشاط الإنتاجي، أصبح واقعًا وأمرًا مألوفًا؛ كما أنه يُعد سببًا من أسباب خيبة أمل المجتمعات الرأسمالية التي تعتمد على المجال الفني. لم يؤمن أولئك الفنانون، على الرغم من استخدامهم التكنولوجيا الحديثة، بالإنتاج الآلي؛ وهو الموقف الذي يماثل موقف "أصحاب رأس المال" الأمريكيين في الثمانينيات، أمثال شيري ليفين، وريتشارد برينس، ولويس لوار، الذين نشروا تقريرًا ناقدًا لمجال الإنتاج، أكدته إلين ستورتيفان قبل ذلك بعشرين عامًا، في أواخر الستينيات، عندما أعادت إنتاج أعمال مشهورة لمارسيل دي شون، وجوزيف بويز، وآندي وارهول، وجاسبر جونز. لقد أبرزت ستورتيفان آنذاك للمرة الأولى مسألة استقلال الفن، والقوة المؤثرة للمشهد التصويري، وإعادة المعالجة الدرامية، وفن التعامل مع الآلة، والثورة الرقمية؛ وأكدت أن أكثر ما يهم الفنان في تعامله مع الآلة، ليس قدرة الآلة على التعامل التقني مع العمل، إنما عدم تقييدها لقدرة الفنان على الإبداع، وعدم إعاقة محفزات إرادته.

نظرًا لتعارض مسلمة النفعية الفردية مع نظرية حماية المستهلك، أصبح مبدأ "السطو"، النهج الوحيد الذي يستطيع في آن واحد – ودون وقوع أضرار خطيرة – إشباع الموهبة الشخصية، والتمسك بالعمل الأصلي؛ لدرجة لا تمكننا من التمييز– أثناء ارتكاب تلك الجريمة – بين المستفيد وسالب الحق، أواستخلاص الدروس المستفادة من عملية السطو وانتقال الملكية؛ خاصة عندما تتذبذب العلاقة المتبادلة بين العمل الأصلي والمقتبس، وبين النجاح والفشل، والجمال والقبح، والواقع والزيف. في هذا العالم المعكوس حقيقة، برزت مقولة ديبور "إن الواقع ما هو إلا لحظة مزيفة"، تلك المقولة التي تناقض نفسها.

تتسم تلك الحقبة بنوع من الفراغ يجعلنا عاجزين عن تحديد التعارض بين العمل العظيم والتافه، وبين العصور وأنواع العمل؛ ويخلق نوعًا من الانزلاق نحو نقطة اللاعودة التي تقضي على الإدراك الحسي والتمييز الذاتي. كما يؤدي إلى كبت فني يتأرجح بين منطقين: الانسحاب أو الاستمرار، ويندرج بذلك في إطار مصطلح "شرج" الفن، حيث يختلط القذر بالنظيف؛ أي المكان الاستراتيجي الذي تتشكل بداخله التناقضات المتدرجة للأخلاق والدين. إن عودة الأعمال التي تحتوي على مشاهد التغوط الكئيبة، في الفن الأمريكي في أواخر الثمانينيات – مع بروس نيومان ومايك كيلي – تعرض مشاهد التبرز، والتثاؤب، والإسهال، والسيلان، وعسر الهضم، والتلبك المعوي. لقد خاض أيضًا كل من دى شون، وبيارو مانزوني، ولوسيو فونتانا، في تلك المشاهد الفنية الكئيبة، المعبرة عن الطبيعة الإنسانية. وسار جيل التسعينيات على الدرب نفسه، معبرًا عن أزمة هويته الذاتية والفنية التي خاب مسعاها، وتعثرت عند عرض صورة الآخر، وعجزت عن التعبير عن تجارب جذرية أخرى في ذلك العصر؛ تلك التجارب التي خاضها الفنانون بأقصى مدى لهم.

"إذا كانت الإباحية المحيطة بنا قد أفقدتنا وهم الرغبة، فإن الفن الحديث قد قضى على رغبة الوهم... إنه يزعم أنه باطل، وهو بالفعل باطل"

جون بودريلار Jean Baudillard

أدركت الساحة الفنية بصورة قاطعة أن عليها تصغير حيز العمل، وتطبيق الحداثة؛ الأمر الذي استلزم تغيير ممارساتها، والتحرر من الشكليات، واعتناق منطق مغاير يرتبط مباشرة بالصناعة، والتزود بصورة مطلقة بالأجهزة، وبمستلزمات الإنتاج والتصوير المتطورة، واستبدال "الصندوق الأبيض" بالمعدات التي تعالج مشاكل التحميل الزائد، وعدم نقاء الصورة، ووضع حد لتكدس المستلزمات مجهولة المصدر وعديمة الفائدة. أدركت الساحة الفنية أيضًا أنه آن أوان "التجديد"؛ بدمج القديم في الحديث، وإعادة معالجة القديم في صورة إنتاج حديث. يتطلب الوضع كذلك إجراء تحول تاريخي في الإعداد، والوسائط، وأجهزة التصوير، والفيديو التي كانت تشكل الركيزة الأساسية للعمل الفني، وتحل المشاكل التقليدية المتعلقة بطبيعة العمل، وتسويقه، وتخزينه. استغرقت التسعينيات تمامًا على ما يبدو، في الحديث عن الوسائط المستحدثة، والدعاية، والشاشة، والخدع التصويرية لدان جراهام، وتفسير الأحاديث المبهمة والتحركات الغامضة لبروس نيومان أو فيتو أكونسي - الوجوه الصاعدة بعد جيل الطلائع - المهتمين بإبراز الإمكانات المجهولة للتليفزيون. في خضم هذه الإستراتيجيات المتعددة المتمثلة في إعادة معالجة العمل الفني (عرض مشاهد مقتبسة بخلفية غير معروفة، في التليفزيون، والسينما، والشارع)، أوتحريفه (انتحال وسرقة)، أو دمجه، تردد الحديث عن المفهوم الجديد للتصوير، وعن معايشة المشاهد التصويرية.

الشباب، الضائع والثائر

لم يعد الفن يعتمد على الأيديولوجيات الأساسية للسبعينيات؛ إذ لجأت شركات التوزيع، والوسائل الاقتصادية الليبرالية الجامحة في نهاية القرن العشرين، إلى تغيير المفاهيم المتعلقة بالسلوكيات السابقة المفرطة والمتجاوزة للحدود، ووصفها بالسلع الترفيهية. لم تعد تلك الشركات تستخدم لفظ "التقدم" والممارسات الملازمة له، التي حققت النجاح لطلائع تلك الحقبة، وشجعت على الممارسات غير القانونية. وأصبح

النهج الرئيس للفن الحديث، ولأصحاب القرار المؤثرين، لا يعتمد على ذلك التاريخ صانع الأمجاد، بل على كشف حقيقة تلك التجاوزات المؤكدة. وعلى غرار دعوات التطرف والتحرر، والحركات النسائية التي ثارت في النصف الثاني من القرن العشرين، رفع الفن في التسعينيات شعار الفضيلة، وأصبحت المفارقة المتعلقة بالانتهاكات (القوانين الأخلاقية وحقوق الملكية) حديثًا مألوفًا، ومثيرًا للسخرية، والاتجاه السائد الذي يستوجب قواعد مغايرة ووسائل مختلفة. وشرع الفن، انطلاقًا من تلك المسلمة، في وضع حد لتلك الفوضى، وفتح المجال للموهبة.

أصبح كل من يمارس التمثيل في تلك الحقبة فنانًا، أو بمعنى آخر "مخادعًا"، وانطبق ذلك الأمر علي جوانب الفن المعاصر جميعها؛ ومن بينها أعمال مارتين كيبنبرجر الغامضة والثائرة، التي تنكر القيم الأخلاقية، وتحرر الفرد من كل سلطة، وتتجاهل العلاقة المتفاوتة بين العمل الفني والجوانب الأخرى؛ الأمر الذي وضعنا في مأزق حقيقي جعلنا عاجزين عن تقييم توجهاته المهنية. ينطبق الوضع أيضًا على أعمال بيير جوزيف الذي تلاعب بخدع الفيديو لاختلاق حيل لشخصيات متشوقة للإثارة؛ ومايك كيلي الذي استخدم خدع العنف المألوفة، والشهوانية، والإباحية، وتلاعب بالرموز الدينية المتنوعة والمتناقضة، وبالسريانية، وحركات الهيبيز والبانك، والفولكلور الأمريكي، والأيقونات الشعبية، وجميع المعالم الثقافية وغير الثقافية والمحلية. لقد تعمد كيلي – المعارض لمصطلح "مخالفة المألوف" – ترجمة الواقع الانطوائي، والعليل، وغير المتدين الذي وجد ملاذه في الأمور "الشاذة"؛ أي الوضع الثوري الذي كان نقطة التحول الحقيقية عام ١٩٩٣. لقد تمكن كيلي، بفضل ذلك الوضع، من إرساء القواعد الأساسية التي تدعو إلى التدبر في فن النحت (المجازي، والرمزي، والواقعي، والواقعي المفرط) من حيث الأساليب الموضوعية للأشياء المتضاربة والمستوحاة من تاريخ الفن، والعلم، والفولكلور. انطلاقًا من مقولة فرويد "القلق الغريب"، وضع كيلي نظرية جديدة عن القلق، والحرمان، والخوف، والعجز الجنسي؛ أي المفاهيم السائدة في أعمال الفنانين في تلك الحقبة، أمثال جيم شاو، وتوني أورسلر، وريمون بيتيبون، ومارين ويبر. كما عرض كيلي في "مندوب الأحد" مزيجًا

من الشعارات، والمشاعر المحتدمة، والمشاهد الشعبية، واللقطات الإباحية، والعديد من الأشياء لعصور مختلفة غامضة تجمع بين الأحياء والأموات، مثل تماثيل عروض الأزياء، وتماثيل الشمع، والعرائس الناطقة، والإنسان الآلي.؛ كل تلك الأشياء الجامدة أو الميتة التي تحركها قوة خارجية تدفعها إلى الرعب، والرغبة، والطفولة الفاسدة. لقد أشار كيلي في مقدمة العمل إلى أن هذا "الحرمان الشره يجسد عدم إيماننا بالأمر الحتمي. إننا نواجه أصنامًا، وبيئة خاوية تعج بالشعارات الجوفاء، على أمل أن نشعر بسذاجة الطفولة. إن هذا الإحساس يولد لدينا البهجة العظيمة التي تشبع رغباتنا؛ غير أن حشد تلك العناصر لن يُغني عن النموذج الأصلي للعمل الفني" [1].

أبرزت هذه الطريقة - التي تمزج بين قطاعات الفن التقليدية وتوائم بين القيم - اتجاه التيار المبدع في التسعينيات، وأدخلت على لغة الفن مصطلحات الازدواجية، والتعددية، والتنسيق الجماعي المتشابك، والتنقلات اللا نهائية التي لا تعرف "الأماكن المغلقة" أو القيود. إنه عالم "الترحال"، كما وصفه كل من جيل دي لوز، وفيليكس جاتاري في "ألف بلاتوه"؛ ذلك العالم الواقع بين حالتين: الحالة الشيطانية، والحالة الإلهية؛ لأن الشياطين تمثل الحالة الوسط بين الإنسان والآلهة، وتحتل الحيز الواقع بين الخيال والواقع؛ فقد كان من أبرز الشخصيات التي طُرحت في التسعينيات وتكررت باستمرار، وفرضت نفسها على الساحة، مصاص الدماء والمراهق، التي توافقت مع الموضوعات المتسلطة على الساحة مثل الشباب المُخلَّد، والتجديد المستحيل.

من هذا المنطلق، تشكلت دون أدنى شك أخلاقيات ذلك الجيل، التي اتسمت بظاهرة الهروب، وعمليات تغيير المظهر، واختراع الأنماط المستقبلية اقتداءً بأفكار الفيلسوف والناقد السينمائي جيل دولوز المتعلقة بتغيير المرأة، والحيوان، والنبات، والأشياء؛ والمؤيدة "لمنطق زينون"، الذي نادى بأن يكون الفرد على مستوى الحدث، وأن يتحمل نتائج تصرفاته، وأن يُبدِع للدواب، والمعتوهين، وغيرهم، وأن يفكر "للحيوان الذي يموت".

الأجهزة التي تعالج عدم نقاء الصورة
والتحميل الزائد وتكدس المستلزمات

الملائكة المضللون

نستطيع القول إن شباب التسعينيات تعرض لكبوة مزدوجة؛ لأنه ظهر بعد فترة طويلة جدًا من الأجيال المتحررة. لقد كتب جيووم دوستون عام ١٩٩٦ "لن أبلغ أبدًا سن الشيوخ"، تمامًا مثل مصاب الإيدز، في روايته الثانية "سأرحل هذا المساء" Je sors ce soir؛ وهو ما يُعد انقلابًا جذريًا لمفاهيم الجسد المبهجة، وللرموز التحررية السياسية.

في نهاية الثمانينيات، أصبحت مكافحة مرض الإيدز في نيويورك من أفضل المجالات التي تناولها الفنانون / الناشطون للربط بين الأمور النظرية والعملية(٢). وأدت الإستراتيجيات الجماعية لشركات التضامن مثل "ديفا تي في" Diva TV، و"جنرال أيديا" General Idea، و"جران فوري" Gran Fury، و"جروب ماتيريال" Group Material، و"تيستينج ذا ليميتس" Testing The Limits إلى تسليط الضوء على الدور الذي يمكن أن يلعبه الإعلام، والمؤسسات الفنية؛ فلجأت تلك التجمعات المختلطة، ذات الأهداف السياسية الجوهرية، إلى مؤسسات التواصل الفنية لتحقيق أهدافها. وفي التسعينيات، نبذت تلك الجمعيات منطق التطرف الثقافي في الدعاية التقليدية، والنقد الإعلامي، وبحثت عن أنماط فعالة، وأكثر تأثيرًا من الأنماط الموجودة مع تجنب تقليد الأنماط المجتمعية السائدة. لقد سعت الحملات التي شنتها مجموعة "جران فوري" (أحد فروع شركة "أكت أب" Act Up) إلى تحقيق منفعة فورية عن طريق تكرار فن الدعاية، وسرقة المطبوعات الفنية للماركات، وتطبيق القيمة المضافة للفن لتحقيق هدف أوسع وأكبر. لقد كان مرض الإيدز المحرك الأساسي للمشروع التجريبي لشركة التضامن الكندية "جنرال أيديا"، التي ظهرت أول مرة عام ١٩٨٧ على حوائط نيويورك مستخدمة موضوع "الحب" Love لروبرت إنديانا؛ الأمر الذي أدى إلى انتشار واسع لتلك الكلمة، وأصبح الإيدز معركتها الفنية والسياسية؛ وأنجزت بذلك أكثر من ستين مشروعًا في ذلك العقد ما بين معارض، وإعلانات عامة،

وتجهيزات وأدوات دعائية. لقد تركت شركة "جنرال أيديا" انطباعًا قويًا في فرنسا عندما قامت عام ١٩٩٤ بإعداد التجهيزات اللازمة لمعرض "شتاء الحب" الذي نظمته مجلة "بوربيل" Purple في متحف الفن الحديث بباريس. يُعد هذا المعرض الرمزي والمؤسسي، بديلاً ترفيهيًا للوضع السائد في نهاية تلك الحقبة السياسية؛ إذ استخدم لوحة بلاستيكية بوليسترية وكأنها جزء من الجليد الساحلي يقف عليه ثلاثة من صغار عجول البحر. وإننا نستطيع تأويل تلك الرؤية وفقًا لثلاث زوايا: الأولى، ترمز للسخرية من الأيديولوجية البيئية؛ والثانية، تُعد تشبيهًا مجازيًا للفنانين الثلاثة (الرجال الثلاثة الذين استمروا في الظهور على هيئة أطفال، ومهندسين معماريين، أو كلاب بطباطة في اللوحات الدعائية)؛ والثالثة تعبر عن وصف حال الشركة نفسها قبل اختفائها من على الساحة؛ إذ أبرز معرض "ختام القرن" النهاية المأساوية لتلك الشركة التي أصابها الكساد والهزال، بعد إصابة اثنين من أعضائها بالمرض ذلك العام.

لقد كانت مجموعة "ماتيريال" Material التي أسسها جولي أولت، ودوج آشفورد، وفيليكس جونزاليس توريس، وتيم رولينز، بفضل مشروعها المتنقل "إيدز تاملاين" Aids Timeline(١٩٨٩ – ١٩٩١)، الخيار الحقيقي لبداية تقنين الفن الملتزم؛ إذ كان في مقدورنا قراءة المشهد السياسي والاجتماعي داخل ساحة المعرض من خلال النظام المتشعب للأجهزة التي تلاحق عرض الصور والمعلومة. ولقد ظهر تأثير تلك الشركة على أعمال آخرين مثل ولفجانج تيلمانز الذي استوحى من "ماتيريال" أسلوبها المتشابك عند استخدامه للرموز التجريدية والتأويلية؛ الأمر الذي مكنه من تحويل فكرة التناسل إلى تشبيه مجازي حي للفيروس. في بداية التسعينيات، اقتصر الهدف السياسي "لتيلمان" على عرض نموذج لشباب بلا ضمير أو ذاكرة، شباب مخلد لا يعرف سوى لغة الجنس الخاوية والسوداوية؛ نموذج توافقت مشاهده التصويرية مع "واقع الشباب القذر" المندفع، والعاطل، والمتسكع، المقاوم لنماذج المحاكاة الجميلة. إن عرض أجساد أولئك الشباب في ذلك التوقيت، يعد بمثابة تذكير دائم لحالات فردية، تنتشي بالنسيان، والفراغ، والغموض، وتتوقع الكآبة المفاجئة.

قد يكون من السهل تحديد أهداف "جنرال أيديا"، وولفجانج تيلمانز في مناهضة الشذوذ الجنسي؛ وهو الاتجاه نفسه الذي سلكه فيليكس جونزاليز تورز - أحد أكبر الفنانين في نهاية القرن - عندما جسد هذه الرؤية الجريئة والمخزية؛ لأنه ترك لنا إثر إصابته بالمرض وقبل وفاته عام ١٩٩٦، أكثر من عمل معبر عن حالة الضياع والفراق؛ وهي أعمال تتميز بالنقل، وتبرز جوهر الفن المعاصر، وعلاقاتنا مع الأمور. لقد منحتنا أعماله، في الواقع، الكثير من الملامح التي نستطيع أن نتمسك بها، والمتمثلة في الأمور الجميلة، وفي الانطباعات التي نستطيع محوها عن ذلك المرض، الذي تحول معه من ساحة مأساوية إلى فرصة لتبادل مشاعر الحب. لقد آثر جونزاليز تورز، منذ البداية وحتى النهاية، وصف أحداث لا تتعلق بفرد واحد - قد يكون هو - أو مجتمع بعينه، بل عرض نموذجًا لزوجين يعبران عن رباط أشمل للزوجية الأبدية. لقد وصف لقاء وارتباط "الزوجين"، وتعارف كل طرف بالآخر بواسطة "الملامح" المميزة له وصفًا مبهجًا؛ وحول معاناتهما إلى لحظات سعيدة؛ كما حول أنابيب الحقن، وأساليب الرحيل إلى منتخبات شعرية؛ واستخدم الشرائط السوداء على إعلانات بيضاء للتعبير عن الفراق والمرض، ورثاء الموت. لقد أرست أعمال جونزاليز تورز المتصلة والمتكاملة، قواعد لغة جديدة تعتمد على التواصل بين شخصين وفترات انفصالهما، واستمرت مع أعمال الفنانين الآخرين في عقد التسعينيات، وبصفة خاصة مع دومينيك جونزاليز فورستر الذي تتميز أعماله بالسرد التخيلي للسير الذاتية، والبنيات الزمنية، والأنماط الواضحة والمجردة.

فرنسا: مقت الفن المعاصر

"في دراسة بعنوان "أزمة الفن المعاصر" (التي تحمل عنوانًا فرعيًا "وهم الديمقراطية والكوميديا")، الصادرة عام ١٩٩٧ عن دور نشر PUF، عرض الناقد الفني والفيلسوف إيف ميشو الحالة التشاؤمية "لأزمة الإدراك"، التي تعرضت لها نهاية القرن والألفية المنتهية، والمتمثلة في أن "المثل الأعلى الجميل" أصبح من آثار الماضي؛ لأن التحولات التي أصابت

ثقافة ما بعد الحداثة والعولمة زعزعت، وفقًا له، مفاهيم العمل الفني. لقد استرجع ميشو بالتفصيل في دراسته، الجدل العنيف الذي بدأ في فرنسا في بداية التسعينيات، وبصفة خاصة في صحافة اليسار في أحد أعداد "تيليراما" عام ١٩٩٢، بعنوان "البزار الكبير"، الذي حصر الفن المعاصر فى الفن الحزين. وسارت مجلة "الفكر"، والمجلة الأسبوعية "حدث الخميس" على الدرب نفسه، وتبعتهما "كرايزيس"، مجلة اليمين الجديد. اعتمد النقد الحاد آنذاك على ركيزتين: الأولى تبرز خداع المحاولة، بمعنى "عدم الاكتراث بعمل ما هو أفضل من ذلك"؛ والثانية تلقي اللوم على التأويل المتشكك الذي "يستهزئ بفهم المشاهد". بدأ الجدل عام ١٩٨٨، بقلم الناقد الفني جون فيليب دوماك، الذي أقر في مقال له بمجلة "الفكر" بعنوان " الرءوس الصغيرة والأقنعة الكبيرة" بعنف الجدل القادم. واعتقد فيليب أن الفن المعاصر سوف ينحصر بين مجموعتين من الأكاديميين؛ أنصار المقاطعة، ومؤيدي التجديد. كما شبه عالم الفن بنظام فاسد، يرتكب المخالفات، ويتمحور حول ثلاث دوائر واضحة، ومتشابكة؛ ألا وهي سوق الفن، والمؤسسات الفنية، والنقد. ثم سار على نهج دوماك العديد من المفكرين السوداويين، والمتشائمين من أمثال جون كلير، وأوليفيه سينا، وجون لويس برادل؛ وبعض الكتاب البارزين أمثال لوك فيري، ومارك فومارولي، وجون بودريلا، الذين استخدموا الحجج نفسها مثل: "إفلاس مسيرة الفن"، و"أثر مؤامرة الدولة والشبكات العالمية"، و"عدم تطابق أي معيار فني على هذا الفن المبتذل"، و"بشائر الرعب"، و"إعلام تحصيلي"، و"تعليم فني ضعيف"، و"فنان مشعوذ يجهل الفن"، و"دي شان رائد الأجيال الكارثية" إلخ. وفي مجلة "نظرات"، عبر جون كلير عن أحاسيسه بحزن شديد قائلاً: "لقد اختفى فن التصوير اليوم، كما اختفت من حولنا المساعي الأخيرة. إلى كل من يحب الوطن الذي افتقدناه في لوحاتنا، سوف يظل الفن حبيس المتاحف، تمامًا كمحب الطبيعة، الذي يعشق أسوار الحدائق (...) إن تقوقع الفن المعاصر، واكتفاءه الذاتي، وزهوه بحاله، يُعد كارثة ثقافية". لقد اتسع مجال النقد الإعلامي عندما أطلق جون بوديلار عام ١٩٩٦على الجدل الدائر مصطلح "مؤامرة الفن"؛ إذ اعتقد أن "ازدواجية الفن المعاصر تكمن في المطالبة بالعدم، واللا معقول، واللا معنى؛ لأننا بالفعل نحيا العدم، ونعايش اللا معقول، ونؤمن بالأفكار السطحية". في ظل هذا الشعور بالانزواء

القائم على الجدل بين الأسلاف والخلفاء، جاء الرد من الناقد الفني نيكولاس بوريلار الذي استنكر بشدة هذه الجبهة الرجعية في مجلة "إنروكتابول" قائلاً: "لا طائل من الآراء التي يصرحون بها؛ لأن كلير، ودوماك، أو فومارولي، من أفضل أصدقاء جبهة العدم"؛ الأمر الذي عرضه للمقاضاة، وكسب قضية تشهير رفعها ضده جون كلير.

ستيفان مواسون Stéphan Moidson

مرحبًا في "توين بيكس Twin Peaks"

في مجتمع التسعينيات – غير واضح المعالم والمرتاب بطبيعة الحال من خليط الأجيال – يجمعنا عالم مشترك مفكك، ومؤقت، ومفتقد المرجعيات التسلسلية؛ بدءًا من إيف كلين في "إم تي في"، ومرورًا بالهمجية الباردة لبريت إيتون إيليس، والتحرر شديد البرودة لجي جي بالار، وذُهان فيليب ديك، والجمال الفصامي لديفيد لينش، والإباحية الفنية لدافيد كروننبيرج، والرعب الهادئ لمصاصي دماء كاترين بيجلو، وانتهاءً بالتسجيلات الصوتية التي أظهرت جميع الاتجاهات دون أي ترتيب بدءًا من فرقة "برينس" Prince أو "ستينكي تويز" Stinky Toys، و"بافمنت" Pavement، و"سونيك يوث" Sonic Youth أو "كريستوف" Christophe... لا طائل في هذا السياق من البحث عن الترتيب، أو النوع، أو التسلسل الزمني.

في أوروبا، وبصفة خاصة في فرنسا، بدأت تتضح خصائص بعض الاتجاهات في بداية التسعينيات، وكانت بمثابة فترة انتقالية لبعض العواصم والمؤسسات الكبيرة؛ فترة ضبابية ومؤقتة، تأسست خلالها مختلف الشركات غير الرسمية التي ضمت بعض الفنانين (فيليب بارينو، وفيليكس جونزاليز تورز، ودومينيك جونزاليز فورستر، وبيار جوزيف، وبيار هوجو)، وحفنة من وكلاء الفنانين والنقاد المستقلين (نيكولاس بوريو، وهانز أولريش أوبريست، وإيؤيك ترونسي). نُظِمت أيضًا في تلك الحقبة المعارض (إير دي باريس Air de Parisفي مدينة نيس، وإيستر شيبر Esther Schipper في مدينة

كولونيا)؛ وتأسست المراكز الفنية (لو ماجازان Le Magasin في مدينة جرونوبل، ولو كاب Le Capc في مدينة بوردو، وكونسورتيوم le consortium في مدينة ديجون) ومدارس الفن (لافيلا أرسون La villa Arson في مدينة نيس، ومعهد الدراسات العليا Institut des hautes Etudes بباريس)؛ وصدرت المجلات ذات المحتوى الشامل للتكتلات الجماعية (بوربل Purple، ووثائق عن الفن Documents sur l'art، وبلوك نوت Bloc Notes). اجتمعت تلك الشركات والتكتلات المتواطئة على فكر واحد؛ ألا وهو عرض تلك الحقبة وكأنها عالم مؤقت أو غير مستقر؛ كما أنها أعادت عرض معظم الرموز الواقعية والنشاط الفني بصورة مُضلِّلة.

ابتكرت بعض المؤسسات الفنية التنظيمية، مفردات لغوية غير مسبوقة لعناوين المعارض مثل "معارض الجنة" Ateliers du Paradise (١٩٨٩، قاعة إير دي باريس، نيس)، و"القبلة الفرنسية" French Kiss (١٩٩٠، قاعة هول سود، جنيف)، و"يجب بناء هاسيندا" (أبراج ccc ١٩٩٢)، و"المساحات الترميمية" Surfaces de réparation(مدينة فراك دي بورجوني، وديجون، ١٩٩٤)، و"شتاء الحب" L'hiver de l'amour(باريس ١٩٩٤)، و"الارتباك الأخلاقي" Moral Maze (١٩٩٥، كونسورتيوم، ديجون)، و"المرور" Traffic (١٩٩٦، بوردو)... أطلقت تلك المؤسسات هذه العناوين تعبيرًا عن "المعاصرة" الفنية (بمفهومها الشامل عن التفكير بطريقة عصرية ومشتركة)، واستخدمت أساليب غير مقننة، ومارست أنشطة بينية غير فعالة، وكونت تكتلات لا نهائية، ونظمت المعارض في مناطق مفتوحة، وعرضت أفلامًا واقعية عن الحدث، وأنشأت تجمعات تحررية، في حقبة تحررت من قيود الإنتاج.

ابتكر معرض "نو مانز تايم" No Man's Time، المقام في قاعة لا فيلا آرسون بمدينة نيس عام ١٩٩١، نوعًا جديدًا من المعارض لا تتقيد بنظرية معينة، أو موضوع محدد، أو برنامج خاص. صرح إريك ترونسي، أحد الوكلاء الإعلانيين، في كتالوج المعرض أنه لم "يكن رهانًا على المستقبل، ولا رصدًا لأحداث الساعة، إنما عرض مسرحي". لقد عرض المعرض على غرار المسرح العبثي، الشخصيات المختلفة،

والمشاهد المنفصلة عن بعضها، والأعمال غير المبهرة بل المتواضعة، وتجاهل في تصميمه ومنشآته التجميعية، أصول القواعد التقنية، ولم يراع كذلك القواعد المعرفية. إننا نجد على سبيل المثال، في حديقة المعرض أحد أيقونات فيليب بارينو "مرحبًا في توين بيكس"؛ أي اللوحة الدعائية التي تحمل عنوان مسلسل دافيد لينش، ويُذَكِرنا بهيمنة فن السرد، واللغة السينمائية في تلك الحقبة. لقد أبرز المعرض أيضًا الرفض الصريح لفن الكيتش Kitsch في الثمانينيات، وسلط الضوء على الأعمال التي تعبر بطريقة أخرى عن أزمات الفن الرديء، وأصداء ظاهرة اللا معقول، وتتخذ من السذاجة والحماقة مصدر إلهامها للتعبير عن ثورات المراهقين، والتسلطات الطفولية .

كتب إيريك ترونسي عام ١٩٩٧: "لقد ثار بعض الفنانين بشكل قطعي على المفهوم الضعيف والخاطئ لترتيب الأعمال داخل المعرض الجماعي؛ وطالب بيار جوزيف، وفيليب بارينو، وبرنار جوستين، ودومينيك جونزاليز فورستر عبر شركاتهم المتضامنة (أوزون، سيبريا، هايبر / هايبر) "بتدنيس" الأعمال فيما بينها. لم يعد المعرض عملاً مستقلاً، بل أمرٌ منتجٌ، لا يكترث باستقلاليته الذاتية، ويسعى للاندماج في العالم" (٣). بعد مرور عقد من الزمان، وبعد الأخذ في الحسبان الحقبة التي تفصل هذه الابتكارات عن الحقبات الأخرى، وصف إيريك ترونسي التغيير المحتوم للمناخ الفني، الذي أصبح أحد منتجات الصناعة الثقافية العالمية قائلاً: "فقد المعرض الجماعي أهميته في مجال الفن التجاري الجشع. لقد كان أمرًا مستساغًا فيما مضى، لأن الشك كان يساور صاحب العمل في إمكانية تسويقه؛ أما الآن، فالعمل الفني يُباع قبل عرضه، فأصبح تسويقه غير ذي جدوى. وتحولت المعارض الجماعية، ذات الموضوعات المحددة، إلى مشروعات تصنيعية تربوية تجعل الناس يعتقدون أن علاقة العمل معهم لا تكتمل إلا بإدراك الدور الخداع الذي يلعبه المعرض في هذا الصدد" (٤).

حاولت بعض المعارض والمطبوعات الدعائية، منذ عدة أعوام، عمل رصد شامل لتلك الحقبة، وأشارت إلى الجدل المحتدم والغاضب في الولايات المتحدة في مجال النقد الفني بين مجلة "أكتوبر" ونيكولاس بوريو حول ترجمة مختاراته "علم

الجمال النسبي" L'Esthétique relationelle [٥]. لقد وضع بوريو في هذا المؤلف، الذي أثار الجدل والتعبئة الواضحة ضده، "نظرية جمالية" مفادها أن الحكم على الأعمال الفنية يتم وفقًا لعلاقاتها مع البشر المعنيين، والمشار إليهم في تلك الأعمال. واستنادًا لأعمال الفنانين من جيله، وخوفًا من الانزلاق نحو المنطق التفاؤلي المجتمعي، المتعلق بالرأسمالية الحديثة "المترابطة"، وصف بوريو حالة التوافق والإلحاح الجماعي الذي سيطر على أنواع النشاطات جميعها، ونمط التفكير المتعلق بالمسائل الفنية، بمنأى عن اللامادية التي اتسمت بها الحقبة السابقة. كما حلل المجازفات الجديدة التي تعتبر المعرض العمل الرابط بين أساليب التعاون التي تسعى إلى خلق أجواء من الحركة الدائمة، وإلى امتداد الأبعاد المادية والزمنية للمعرض أو المتحف. يعتقد كل من ريركريت، وكارستن هولر، وليام جيليك، وبيار هوجو، وفانيسا بيكروفت، أن المعرض ساحة مفتوحة يجوز أن تكون على هيئة فيلم، أو نص، أو وجبة طعام، أو ساحة اجتماعية، أو عمل مبتكر، أو مشهد لسيرة ذاتية، أو رحلة. وانطلاقًا من هذا المفهوم المتنوع تطور منطق جديد للمعرض، يرتكز أساسًا على النشاط النقدي: في مجال الكتابة، والمحادثة، واستخدام أدوات التواصل مع جميع الأجهزة الإعلامية، والإعلانات الاسترشادية، والشركات العاملة، والنصوص التي لا تخاطب "الجمهور" المجهول، بل تخيلات الطفل، "المشاهد" الوحيد، والحبيب المنعزل.

"المعرض ليس أمرًا مستقلاً، بل عملٌ ابتكاريٌ..."

إريك ترونسي Eric Troncy

لقد نفذ جون فرانسوا ليوتار مشروعه الهادف القائم على الفكرة نفسها، بأن المعرض يُعد بمثابة ساحة، أو مسرحية، أو مكان جامع للأحاسيس، وليس للتعليم عندما نظم معرض مركز بومبيدو بعنوان "التجريديين" عام ١٩٨٥؛ ذلك المعرض الفلسفي والمجهز بطريقة توحي للزائر بأفكار تقدمية، لا تعوق الهدف من هذا الصرح الفني، وأبعاد تنظيمه التي تعبر عن عصر ما بعد الحداثة. لم يكن هذا المعرض علميًا، ولا فنيًا أو متلاعبًا بأساليبه الاندماجية، والرموز المستخدمة، والمعرفة، والقوة؛ بل

كان معبرًا عن نمط جديد يتيح للجيل الصاعد من الفنانين ووكلاء الفنانين، آفاقًا جديدة متشابكة وغير مسبوقة في التنظيم. لقد استقرت في الأذهان ذكرى هذا الصرح الواسع، والمتاهي، وظلال الأضواء، والشخصيات المعروضة، والأصوات غير المتزامنة، والإحساس الدائم بالريبة من التقنية المستخدمة، والمادة والفن والأشياء؛ خلاصة القول، إن مجمل تلك العوامل ظل يتكرر في تنظيم المعارض التالية، التي أرادت بدورها، إنشاء مساحات خاصة بها، وبالمشاهد، وبالمصير المباشر للمعرض.

لقد برز ذلك المصير، الذي كان إحدى المجازفات الكبرى لمعرض "التجريديين"، في النقش البارز المعروض في البهو لإلهة مصرية؛ ذلك الوجه رمز الحياة المصحوب بترددات صوتية حديثة. لقد كان السؤال المطروح آنذاك : "توهب الحياة، والعقل والروح للبشر، وعليهم أن يسلموها صالحة وخالية من العيوب. ما مصير أولئك البشر في الوقت الحالي؟" (٦).

جيل شاتليه، " كن ترحالاً وسلسًا!"

"أيها الشباب الرحالة، إننا نحبكم! فلتكونوا أكثر حداثة، وأكثر ترحالاً، وأكثر سلاسة إذا لم تكونوا تريدون أن تنتهوا مثل أسلافكم في وحل حقول مدينة فردان. إنكم تتطلعون إلى السوق الكبير! فلتتميزوا بالخفة، والغموض، والأعمال اللحظية؛ ولتكونوا مثل قطرات الماء أو فقاعات الصابون؛ ولتكن أعمالكم مثل ملهى الحياة الكبير! إذا لم تتصفوا بالانسيابية، وإذا تأججتم كسعير النار، فسوف يرفضكم الازدهار المفاجئ للسوق الكبير... اتصفوا بالحداثة – مثل الأديب رامبو– والترحال، والسلاسة، أو انفجروا مثل اللهب المستعر! لقد تحكم بالفعل النظام التجاري الجشع في السوق! من المفترض إذن أن يجسد ذلك "الشاب المليء بالحيوية"، الحداثة ويضرب المثال في مواجهة "الغاضبين"، و"المحافظين المتشددين" غير المتحمسين للانسيابية، التي تُقيدها بالأحكام العليا لأصحاب القرار الذين يتناوبون المناصب الإدارية الواحد تلو الآخر.

السلاسة: إننا نضع أيدينا على جوهر استقرار مفهوم ديمقراطيات / السوق. إننا لا نستطيع تطبيق تلك السلاسة، إلا من خلال تفاعلات اجتماعية قادرة على ممارسة الضغط الدائم على كل الأنحاء والمجالات، كالشرطي العنيد المصر على ملاحقة روبنسون كظله."

جيل شاتليه، الحياة والتفكير كالخنازير. من التحريض إلى الرغبة وإلى الضجر، في ديمقراطيات / السوق، باريس، ١٩٩٨، ص ٧١، ٧٢.

فيليب بارينو، "صورة من التحرر"

"إنه ملعب كرة قدم، وساحة ألعاب قوى، وبعض الأدوات سابقة التجهيز، ومدرسة، ونجيلة خضراء ممتدة. إنها الساعة السادسة مساءً، يوم السبت، وقد غابت أشعة الشمس الساطعة، وأقبل الغروب. إنه أفق الدعاية الأزرق القاتم، الذي يغطي محل الإقامة بمنازله المرسومة بأقلام الباستل، والمحفوفة بالأشجار. تظهر من بعيد السحب الفوسفورية في السماء، وتصطف السيارات فى طريق ضيق بطول الإستاد. تتلألأ أضواء المصابيح العالية في نهاية حلبة سباق القفز. يرتدي المتسابقون الملابس الحمراء، ويقتصر جمهور المتفرجين على عائلات المتنافسين. يتم الإعداد لحفلة في المبنيين سابقي التجهيز داخل المجمع، تضم أعضاء النادي من الجيل الثالث. تتسكع بعض المجموعات هنا وهناك. تركض بعض الفتيات المرتديات للألبسة الرياضية في ساحة تارتان ماجينتا المحيطة بملعب كرة القدم الفارغ. يظهر ملعب الهوكي بأسفلته الأسود، على الجانب الآخر من الإستاد. تصطف الدراجات الجبلية على العشب الأخضر. أضاء النور فجأة، وانطلقت جميع الكشافات الفلورنسية، وظهرت لوحات الإعلانات الرمادية التي تحيط ملعب الهوكي بشرائطها اللاصقة البرتقالية، ونُصبت خيمة كبيرة بيضاء وبداخلها منضدتان من الميلامين تحمل إحداهما مكبرًا صوتيًا، والأخرى مشروبات غازية متنوعة لم يلمسها أحد. يطوق جانبي الخيمة سياجان منصوبان على الأرض الخضراء، يعكسان صدى الصوت القوي الذي يدوي الآن. يتنافس على الملعب في الوقت الحالي فريقان من شباب المجمع، ويشجعهما شباب من أعمار مماثلة. تنطلق صافرة الحكم،

وتطيش الضربات الخاسرة التي تلحق بالكرة البلاستيكية الحمراء. ينادي اللاعبون بعضهم بعضا، ويطلق الحكم صافرة نهاية المباراة. يركض اللاعبون حاملين مزلاجاتهم إلى داخل الملعب، ويصافح بعضهم بعضًا بصورة تلقائية، ويقف شباب المشجعين حول الملعب للتصفيق. أتذكر إحدى عبارات دان جراهام في "روك ماي روليجيان" التي تصف طبائع شباب الروك بالملائكية، ونشوة التجارب الجنسية الأولي. ينتهي تذكري لتلك القراءات مع تصاعد أصوات هتافات "نحن أبطال العالم"، و"نحن المنتصرون" في صمت الليل، وسماع بعض الأصوات الخافتة على الجانب الآخر من الملعب. خرج اللاعبون سريعًا من الملعب ، وخلعوا ملابسهم، وارتدوا الثياب المدنية. هرع أحد اللاعبين باكيًا، بعد أن خلع ملابسه الرياضية، إلى خارج الملعب. ثم دخل أحد الصبية ليلهو وحيدًا ويقذف بالكرة كبيرة الحجم داخل الشباك الفارغة. بدأ عزف موسيقى تكنو بعد عزف إحدى المقطوعات الهادئة لفرقة" كوينز". عاد اللاعبون إلى الملعب لالتقاط صورة جماعية قبل مساعدة الأكبر سنًا منهم، على مضض، في فك الخيمة. ركب البعض الآخر دراجتهم، وابتعد كل في طريقه. كان هناك دراجة جبلية جديدة تركن على العشب، وكان عاكس النور الخلفي يتراقص على أنغام الموسيقى."

فيليب بارينو، "صورة من التحرر"، في سبيش بابليس، ديجون، صحافة الواقع، ٢٠٠١، ص ٦٥،٦٦.

جون بروديلار، "مؤامرة الفن"

"إذا كنا قد فقدنا وهم الرغبة في خضم الإباحية المحيطة بنا، فإننا فقدنا أيضًا رغبة التخيل في الفن المعاصر؛ لأن الإباحية لم تترك لنا شيئًا نرغبه. بعد انتشار الابتذال، وإطلاق الحريات للرغبات كافة، أصبحنا نعيش عالم ما بعد الجنس؛ أي الإباحية التي تستخدم الرموز والمشاهد وتكشف عن أسرار الأمور الجنسية وتزيل غموضها، وتؤدي إلى الاختفاء التام لوهم الرغبة، نظرًا لمشاهدها المفرطة. والحال نفسه ينطبق على الفن، الذي فقد هو الآخر

رغبة التخيل لصالح الابتذال الجمالي الذي تعدى كل شيء، وأصبح يتخطى حدود الجمال. تعتمد إباحية الحداثة في مجال الفن، على الاستخفاف بالأشياء وبأنماط العرض. في هذه الفترة، كان التخيل لا يزال قويًا في مجال الجمال، تمامًا مثل وهم الرغبة بالنسبة للجنس. إن الطاقة الجنسية، التي عرفت كل أشكال الرغبة، كان يقابلها في الفن طاقة الانفصام عن الواقع (المذهب التكعيبي، والتجريدي، والتعبيري)، وكان كل منهما تتوافر لديه الإرادة في الكشف عن أسرار الأشياء. واستمر الحال حتى اندثار هذين المظهرين القويين – الرغبة والتخيل – لصالح الفجور الجنسي، وما بعد الجنسي، أي الفحش الحتمي المرئي، والفاضح لكل الأمور (...) هل يكتنف هذه الإباحية غير الواقعية، وهذه الحقارة الفنية غموضٌ سلبيٌ أو سرٌ خفيٌ؟ من يعرف. هل تعبر عن مظهر ساخر لقدرنا؟ إذا كان كل شيء قد أصبح واضحًا وتحول إلى حقيقة، هل هناك فرصة للتخيل؟ ما الذي يخفيه هذا العالم الفاضح والمخادع؟ هل هو نوع جديد من الذكاء أم غسيل مخ نهائي؟ لقد نجح الفن (الحديث) في أن يكون جزءًا من الجانب الكريه من الفن، لكونه بديلاً دراميًا عن الواقع، ومعبرًا عن تداخل اللاواقعية في الواقعية. لكن ما معنى الفن في عالم يعي مسبقًا اللاواقعية، والفتور، والإباحية، والعلنية؟ ما المقصود بالإباحية في عالم إباحي بالفعل؟ إن لم يكن غض البصر عن الواقع الذي يسخر من نفسه من خلال اللا واقعية، وعن الجنس الذي يستهزئ من ذاته بنزعاته المرضية الاستعرائية؟ إنه الفن الذي يسخر من اندثاره نظرًا لصورته الأكثر تصنعًا، أي الساخرة. في كل الأحوال، فإن ديكتاتورية الصورة، هي ديكتاتورية ساخرة؛ غير أن هذه السخرية لا تشكل جزءًا من الجانب المكروه في الفن، بل هي جانبٌ من المعرفة الإجرامية لهذا التواطؤ الخفي والمشين الذي يربط الفنان الذي يتلاعب، بواسطة سخريته، بالجماهير المبهورة والساذجة. إن السخرية تعد أيضًا جزءًا من مؤامرة الفن.

إن تلاعب الفن باختفائه، وبزوال ماهيته، يعد أيضًا أمرًا جسيمًا. لكن هل يحاول الفن بصورة مستمرة تجديد نفسه عن طريق نهب الواقع؟ إن غالبية الفن المعاصر يتجه فعليًا إلى اختزال قِيَمِه وأيديولوجياته في الابتذال، والرذيلة، والوضاعة. في خضم هذا الأداء، وهذه

الاستعدادات، كان لابد من تسوية الأمور مع واقع الحال، ومع الأنماط السابقة لتاريخ الفـــن. يجب إذن أن يعترف الفن بعدم تميزه، وابتذاله، وعدم أهليته، وإعلائه قيم الجمال الفاســـد. إن هذه الوضاعة تزعم، بكل تأكيد، أنها تسمو لأنها قبلت أن تكون في المرتبة الثانية والـــساخرة للفن. غير أن هذا الترتيب لا معنى له، سواء احتلت الوضاعة المستوى الأول أو الثاني؛ ولأن بلوغها مستوى الجمال لا يغير من الوضع شيئًا، بل العكس صحيح؛ لأنهـــا أرادت أن تكـــون باطلة : "أنا باطلة ! أنا باطلة !"؛ وفي واقع الأمر هي بالفعل باطلة.

مجلة "ليبيراسيون" Libération، ٢٠ مايو ١٩٩٦

المراجع

1)Mike Kelly, "playing with dead things", in the uncanny. Catalogue, Ainhem, Sonsbeek, 1993.

2) Aids Riot: collectives d'artistes face au sida, new York, 1987 – 1994, Grenoble, éditions Le Magasin, 2003.

3)Documents sur l'art, n 3, 1997.

4)Eric Troncy, entretien dans Magazine, février – mars, 2008.

5)Dijon, Presses du réel, 1998.

6)Les Immatériaux, catalogue de l'exposition, Paris, éditions du centre Georges – Pompidou, 1985.

الزمن المخالف لعصره

تجربة مجلة الأدب العام

فرانسوا كوسيه في لقاء مع
أوليفييه كاديو Olivier Cadiot
وبيار ألفيري Pierre Alferi

في التسعينيات العجاف، فقد الأدب مكانته لأنه كان يتأهل لخوض المجالات كافة، من خلال الاغتراب المكاني. في نهاية العقد، انكمش الإنتاج الأدبي بعد أن وقع بين قبضتي الثورة المضادة للمذهب الطبيعي في الثمانينيات، وحالة ما بعد الحداثة التي شملت المجالات الثقافية جميعها في الألفية الثانية؛ كما وقع أيضًا بين شقي رحى الثورات الخفية، وصناعة الكتاب التي أصبحت أكثر تركيزًا وانتشارًا. وبعد أن فقد الأدب مكانته، استمر في حالة عدم الاكتراث بالأحداث التي تدور حوله، وباللآلئ التي تلألأت في عالم الأدب؛ وأبرز مثال على ذلك، تجاهُل أفضل مؤلفات دافيد فوستر والاس "السخرية المطلقة" Infinite Jest، الذي كان يُعد ثورة في عالم السرد الروائي عند صدوره عام ١٩٩٦، وعدم المبالاة بأغلفة كتب دانيال ستيل البارزة وألوانها المميزة، التي لم تحقق هامش الربح المتوقع في ظل حقبة تفاوت الأسعار. اختفت المنافسة الأدبية من الساحة، وسادها الخمول؛ ثم بدأ صعود جيل جديد من الأدباء على قائمة المبيعات الرابحة، أمثال إيميلي نوتومب، وفريدريك بيكبيدر، وانطلق فجأة بعض الأدباء في عالم الشهرة العالمية مثل بريت إيستون إيليس بأعماله عن الممارسة السيكوباتية، وهاروكي موراكامي بتناوله لموضوع حنين الطالب لوطنه، وجي بي سيبالد بإنتاجه الأدبي عن المهاجر من الرايخ الألماني، ومايكل أونداتجي بمؤلفه عن

المريض الإنجليزي. كما تكللت بالنجاح في نهاية ذلك العقد، أعمال كل من أرونداتي روي، وأورهام باموك، وجي إم كوتزي، وجوزيه سراماجو كوافيه. وفي فرنسا الكاسدة، صعد نجم سوتييه فيليب ديليرم نصير مذهب المتعة للجميع، وميشيل هوليبيك روائي عامة الشعب. وفي تلك السنوات العجاف، ظهرت أسماء من الزمن الماضي أمثال إيف بونيفوي، وميشيل بيتور، ولويس رينيه دي فوريه، ولويس جالافيرتي، وفيليب سوليه، وباتريك جرانفيل، وجي ديبور، وراؤول فاتيجام. فيما يتعلق بالأقلام الأكثر هدوءًا من الأسماء السابقة، يمكننا رصد كل من ديريك ويلكوت الفائز بجائزة نوبل، وباتريك شاموازو الحائز جائزة جونكور، والكاتبين الكاريبيين المشهورين اللذين طالبا إله الأدب بالعفو عن كريستوفر كولومبس (في الذكرى الخمسمائة لاكتشاف القارات)، وعن المستعمرين كافة؛ وذلك قبل موجة التدفق في حقبة ما بعد الاستعمار. بمعنى آخر، يمكننا القول إن التيار الأدبي تعرض لموجة من المد والجزر في منتصف العقد، شهدت انطلاق هاري بوتيه، ووفاة مارجريت دوراس، وتكريم أندريه ماكين عن مؤلفه "العهد الفرنسي" Testament Français (١٩٩٥) الذي جسد الاندماج الأدبي. غير أن هذا الوضع لم يستمر، وأصبحت الحياة الأدبية أكثر مأساوية، بل أكثر كسادًا في فرنسا، وخيمت عليها ظلال الركود. كما تلبدت سماء الخريطة الأدبية العالمية بالسحب المتحركة أحيانًا، والمتنوعة أحيانًا أخرى. لقد وقعت الرواية الفرنسية في شرك سيكولوجية العُقد البرجوازية، والنزعة الطبيعية القديمة، التي قامت بوصف سكان المدن أو الريفيين الجدد، في الوقت الذي تفوقت فيه، أكثر فأكثر، الواقعية السيكولوجية، وانتقلت الأعمال الإبداعية الذاتية من أرفف الجامعة المزدهرة، إلى المكتبات المتوائمة مع الاتجاه الأدبي الحديث، أي "الواقعية التليفزيونية" السلبية، ومع التواصل السياسي الذي أصبح مؤخرًا مطلبًا شعبيًا.

لقد كان الطريق محصورًا بين الانجذاب للنزعة الطبيعية والانفتاح على المُخَيلة الذاتية، فلم يتمكن الأدباء من العثور على مخرج للهروب بعيدًا عن هذين الاتجاهين. كان هذا المشهد المشوش يمثل بالنسبة لبيار ألفريد "أدب الأحاسيس المحضة"، ووصفه

أوليفييه كاديو بالأدب المُمِل. الأول، كان يبلغ من العمـــر ٣٢ عامًـــا ويهـــتم بالأغـــاني والسينما الجريئة، وأعد أربعة دووابن شعرية لم يدرجها في إنتاجـــه (الـــذي أصـــدرته مجلة بي أو إل)، وأعد دراسة عن جييوم دوكهام لم يستكملها كعمـــل فلـــسفي ثابـــت. والثاني، كان يبلغ ٣٩ عامًا ويتعثر في إعداد مشروعات غريبة مع المخـــرج باســـكال دي سابان، والموسيقي رودولف بورجر؛ فقام بتأليف كتابٍ تجريبـــي - الأول مـــن نوعه – عن المغامرات "الشعرية"، ألقى فيه على عاتق علم النحو والصرف، العواقـــب السلبية للاتجاه الشعري السائد المستخدِم أسلوب القص واللصق (cut up)، كمـــا أعـــد كتيبًا أوبراليًا بعنوان "روميو وجولييت". ارتبط الأديبان بصداقة واضحة، واشتركا فـــي إعداد مجلة "زينكس" في شمال شرق باريس، وخالطا شخصيات محبطـــة أكبـــر ســـنًا منهما، وأخرى ضئيلة أصغر سنًا، وبصفة خاصة الكُتاب الذين ضمهم كتـــالوج بيـــار ألفريد، الذي أعده بول أوتشاكوفسكي لورنس لمجلة "بي أو إل" (POL). لقد كانا علـــى اطلاع دائم بالكتاب المعاصرين، وألفا الأعمال الغريبة، وناقشا النظريات، وأدركـــا أن العصر لا يقتصر على تلك النزوات الثلاث، فسعيا إلى الاستفادة مـــن حقبـــة الكبـــوة الأدبية، أو الزمن المخالف لعصره، لإعداد تصور يصبح ركيزة عمل ثـــوري خـــاص بهما؛ فشرعا في إعداد الحبكة الفنية "لمجلة الأدب العام" RLG ، التي لا مثيل لهل فـــي تلك الحقبة المتفاوتة، أو المغايرة لعصرها، وتساءلا عام ١٩٩٥، عن جـــدوى إعـــداد مجلة، تنتمي إلى المجال القديم الراقي؟ اعتمد تصورهما على أن تكون "مجلـــة الأدب العام" بمثابة البطل الإبداعي، والركيزة التاريخية لهوس وهزل الـــشعراء المنبـــوذين، والتكنولوجيا الفكرية للقرن العشرين الكبير؛ ذلك القرن الذي لا يتماشى مـــع التفكيـــر العصري، لأنه يفتقد السمو وربما الجوهر. لقد تـــصورا إذن أن تكـــون تلـــك المجلـــة الأدبية بمثابة العمل الغريب، بل الشاذ؛ لأن في عام ١٩٩٥، كانت الساحة الفنيـــة قـــد بدأت تخلو من المجلات الهزلية، بعد أن احتلت مجلة "لانفيني" L'infini مكانة "تل كال" Tel Quel؛ ونظمت كل من"ترافيك" Trafic، أو"تي إكـــس تـــي" TXT ورش العمـــل النقدية موضع الثقـــة؛ وســـعى بعـــض زمـــلاء الدراســـة الثانويـــة لإعـــداد مجلـــة "برباندیکولار"عام ١٩٩٦، لتكون بمثابة المعبر نحو الفن المعاصر، والحقـــل المناســـب

لإعداد سيرة مهنية مختلفة في العقد التالي. في تلك الآونة، كانت مجلة "ليـو شـير" لا تزال تصدر بالمسمى الهزلي NRF وليس "المجلة الأدبية". شـرع بعـد ذلـك كـاديو وألفيري في إعداد مجلتهما "مكانة الأدب" في منتصف العقد، وكانت المجلـة الوحيـدة آنذاك التي لا تتفق وذوق العصر. لقد قررا أن تكون المجلـة بمثابـة الـشرارة التـي تشتعل لتهب في اتجاه مخالف للاتجاه السائد للمجلات المبهرة وذات الشأن؛ أي مختلفة من حيث التقنية والتنظيم، والإعداد الذي يلجأ إلى الإيماءات، والتصميمات الغريبة. لقد اقتبسا، على سبيل المثال، نصًا كتبه فيلسوف التقنيات برنار ستيجلر عن سيمودون، ثم قاما بمحو لفظ "تقني" وكتبا يدويًا بدلاً منه لفظ "الأدب" للتركيز على الجوانـب الأدبيـة في هذا العالم الفريد. في محاولة أخرى منهما، استشهدا بـنص ضـعيف للأديـب آن بورتوجال، وصمما الصفحة بحيث تحتوي على بعض الرسومات والأجهزة المنزليـة التي توحي ببعض الإيماءات الخاصة. في تجربـة أخـرى، اقتبـسا نـصًا للأديـب الكلاسيكي الرائد بوسويه، وألحقا بـه بعـض التعليقـات والتـصحيحات مـن أحـد المعاصرين. لقد ذكرت ثلاث تجارب فقط من بين عشرات المحاولات التـي اقترحهـا كاديو وألفيري في عامي ١٩٩٤ و١٩٩٥، على نخبة من الكتاب والفنانين، المعاصرين أو القدامى، يطالبونهم بالتعاون معهما في إعداد الإبداعات الخاصـة بالـصفحة التـي تتحدث عنهم، أو الإحصاء الذي يشملهم، أو العمود الذي يتحدث عنهم؛ كما تعاونا مـع رسامي الجرافيك أمثال جيرار سيجار، وسيدويك سكانديلا، مـصممين "مجلـة الأدب العام". لقد ضم العدد الأول من المجلة عـام ١٩٩٥، أسـماء مثـل فـالير نوفارينـا، وإيمانويل كارار، وجون شارل ماسيرا، والفنان جون جيورنو، والفلاسفة جـون لـوك نانسي، وجيورجيو أجامبين، والروائي جون إيكنوز الذي أجاب عن سؤال طرح عليـه ذات مرة "لماذا لم تصبح شاعرًا؟ قائلاً: "كنت سأفعل لو لم يخض شعراء عصرنا هـذا في ميدان الرواية السوداوية". شمل العدد الثاني من المجلـة، التـي تـضمن غلافهـا الابتسامات الساخرة والمريبة للتوأمين جريس وفيرجينيا كينيدي (طفلتان صغيرتان من سان دييجو انتحلتا أسماء بوتو وكابنجو واخترعتا لغة خاصة بهما)، وشريطًا مـصورًا لوجوه متنافرة، وعلى النقيض من بعضها، أمثال: ناتالي كيتان، أو كريستيان برينجان؛

والمُنَظِرين مايكل باختين وأرمو شميث، المقرونين على الغلاف رغمًا عنهما؛ والشاعرين لويس وولفسن وشارل بريستن، الأمريكيين المتناقضين؛ والشاعر عالم الرياضيات جاك روبو، وعالم الاجتماع باسكال كازانوفا، ورسام الطبيعة جيل كليمون، والناقد الفني جيل تيبرجيان؛ كما ضم الغلاف أيضًا أطياف الأدباء الثائرين أمثال فولكنر، وفلوبير، وفرويد، وبروست.

نستنتج من هذا الخليط المزدوج، رؤية تقنية ونظرية تُحَولِ الأدب إلى حقل تجارب ذي طابع خاص، وإلى كيان متداخل ومتنافر في آن واحد. نستخلص أيضًا- من خلال مقتضيات الأساليب المستخدمة - الرفض الواضح للتصالح مع العصر؛ كما نستنتج نوعًا من أنواع التنفيس بالرجوع إلى الماضي من خلال التفسيرات المتعلقة بالأساتذة العظماء السابقين، وصورهم المعروضة. نستخلص كذلك إدراكًا غير مسبوق لإبراز الإنتاج المتواضع، والثاقب للأدب، الذي يعتمد على بعض قصاصات من الماضي، أو يرتكز على العدم. إن الإنجاز الذي حققه العددان الصادران لتلك المجلة، يتلخص في أنه يُعَد بمثابة العدسة التي توضح صورة الأدب، والعلاج لبعض الأمراض الأدبية، والنسيج الذي يحتوي على نماذج من نصوص قديمة (توضح الأدب البارز)؛ كما أنه يُعد، وفقًا لأقوال كاديو وألفيري- خاصة فيما يتعلق بالإيماءات المعقدة المستخدمة في تلك المجلة - نوعًا من أنواع العروض، التي تعرض الأشياء فتبرز مساوئها الفظيعة؛ أو علم أثريات، أو بعثة استكشافية، أو نظامًا دقيقًا للحواس من أجل إعادة التركيز على الأدب. نستخلص من ذلك الوضع في مجمله، أن المجلة تم تصميمها في شكل غربال يحتوي على جدائل من التجارب والعبارات، والفراغات، والنصوص المفضلة؛ أو رسم تخطيطي يبرز المضمون الثابت، والمؤثر للأدب. ومع هذا، لم يظهر جيل يستكمل مسيرة تلك المجلة، ولم يصدر أي ملحق لها، ولم تنشأ عنها أية مدرسة أو جماعة أدبية تابعة لها؛ على الرغم من النجاح الذي حققه بعض مساهميها بعملهم في مجلات أخرى، وعلى الرغم من انتشار المجلة في بعض الدوائر الأدبية، وفي أوساط بعض الفنانين، والقراء، والأدباء المحترفين المعارضين لها؛ وعلى الرغم أيضًا من صدور عددين متتاليين وناجحين لها، حققا نسبة توزيع عالية

تتراوح بين ٤٥٠٠ و ٦٠٠ نسخة. لقد اقتنع المحفزون علـى إنـشاء المجلـة، بعـدم إمكانية تآلفها مع مجلات فرعية أخرى لتكوين عمل جماعي؛ كما أدركوا أنها نجحـت على الأقل، قبل استكمال التحول الأدبي في فرنسا (في الفترة بـين صـدور المجلـة الثقافية النقدية "إنروكابتيبل" وكتيبات التوك شو)، في تمكين بعض الأدباء مـن التأكيـد على المنطق الأدبي المخالف لعصره، وعلى الظاهرة المعروفة بالثعثعـة، والفقاعـة، والحيز الأدبي المستقل، أو الحقبة اللازمنية. وعلى الرغم من أجواء ما بعـد الحداثـة وانتصار الرأسمالية، فقد نجحت المجلة في تمكين فئة من الأدباء مـن التعبيـر علـى صفحات المجلة عن الحداثة الجديدة والقديمة في آن واحد، عن طريق ضخ جرعـات من أعمالهم المشبعة بالحداثة بمعناها السابق السياسي والفني (على مر القـرن الثـائر بدءًا من بودلير وحتى وارهول)؛ حيث كان يصعُب آنذاك على تلك الفئة مـن الأدبـاء السباحة عكس التيار، لأن الزورق الأدبي لم يكن يمتلك عوامة، أوطوق نجـاة، وكـان أشبه بالفلك الذي يدور حول ناتئة بحرية عملاقة، كي يتمكن مـن القفـز مـن علـى حوافها، لتجنب التيار. لقد خاطرت المجلة بالسباحة عكس التيار، وبـاللجوء "لقنـوات النهر الفرعية" المكدسة في الأرشيف؛ كما لو أن الساحة كانت تقتصر علـى الأنمـاط الحديثة، وكما لو أن الانقسامات العقائدية للستينيات، وعودة النزعة الطبيعية والفكريـة المناهضة للثمانينيات، قد اختفت من الوجود؛ وكما لو أن في خضم هذا العصر، الـذي لا وجود له، يمكن أن تدوي تلك النصوص بفضل التجارب القوية التي لم يمض عليها وقت طويل، لجون كاج أو جون لوك جودار وغيرهما. في كل الأحوال، لقـد افتقـدنا ظهور جيل جديد من تلك المجلات، أو مجلات أخرى متوسطة أو (ضعيفة) الثقل.

اعتقد أيضًا مؤسسا المجلة؛ ألفريد وأوليفييه، أن السبب في عدم توافقهمـا مـع المعاصرين، يرجع إلى أنهما كانا يتوقعان ظهور أسلوب إنتاج مغاير تمامًـا، أو نمـط أكثر تنافرًا، أو شَرك يلتقط جزءًا من العالم الأدبي ويعمل على غربلة بقايـاه. ونظـرًا لأن رؤية المجلة مستقبلية، ولأن العصر يفتقر للتـراث القـديم، ويعـج بالمعاصـرين المُضلَّلين، فقد قررت المجلة عدم استعادة الماضي حتى في مرجعياتها، أو الرسـومات التي كانت تمحو بعض كلماتها لاستبدالها بأخرى؛ لقد صممت على إعداد منهج حقيقي

خاص بها، يعتمد على تجميع النصوص المندمجة مع بعضها البعض كي "تخترع وتستشف القراءات المرغوبة بعد مرور ثلاثين عامًا". تلك هي السياسة التنفيذية للمجلة، التي اعتمدت على إعداد عمل جماعي، وعلى توجيه خطاب موحد وجامع، والاهتمام بالممارسات الفعلية للأدب وليست المستقبلية المحتملة أوالمرغوبة؛ كما أنها كانت تهدف إلى "طرح الاحتمالات العديدة والمتناقضة التي تحدد مكونات النصوص التي يرغب القراء في قراءتها". لقد اعتقد أيضًا ألفريد وأوليفييه، أن الانفتاح على المستقبل يستلزم إجراء تغيير مباشر، وحشو الصفحة الواحدة، وإدراج السياقات التطورية بمساراتها القديمة والمستقبلية، بدلاً من عرض الإنتاج المعاصر المكتمل؛ الأمر الذي دفعهما إلى تنفيذ بعض الخطوات النوعية، وإدراج العديد من الاستشهادات، والاتجاهات الثانوية على هامش النصوص، وإلى جانبها كي يملأ الفراغات التي تعزلها عن بعضها، والمتمثلة في الحياة الاجتماعية، والعمل التقني، والمؤثرات المساعدة، والعمل الفكري. لقد اعتمدت تلك المجلة الأدبية، الأولى في نوعها، على إبراز أساليب العالم كافة، المحاكة بخيوط متنافرة، وبمعلومات متدفقة، من أجل دمجها، ومزجها، وخلطها في بعضها؛ الأمر الذي أسفر عن "نص أفقي مفرط"، ومتعدد، ومرن، وفعال؛ وعن تبادل للآراء بين مقتطفات النصوص أو مجالاتها. لقد أبرز مجمل إنتاج المجلة بصورة مبهرة، من الناحية الظاهرية، فروع "الموسوعة"، والفنون التخطيطية لروايات الكاتب الساخر لورانس ستيرن، وفن الخط للكاتب مالارميه؛ كما مهدت لفن زخارف الغلاف الأبيض والأسود لسيبالد، ولنمط التحقيقات متعددة النصوص، والمبدعة ، التي أصبحت فيما بعد أسلوب الفيلسوف برونو لاتور وفريقه. لقد كان يرتكز إذن أسلوب إعداد المجلة على إمدادها بفيض من النصوص في صورة "استشهادات كلامية غير معروفة" للتأكد من فهم القراء لها، والاستفادة منها، والتكيف معها.

تعد المجلة رمزًا للأديب القابع في محرابه، الذي يُبدع ويُجدد، ليتغير من كاتب يقدس إلهامه المجازي إلى أديب هاوٍ، ومنطلق يتناول المجالات الخلابة جميعها. تعتمد منهجية المجلة أيضًا – نظرًا للكياسة الأدبية السائدة، والغموض المسيطر على الساحة

في نهاية القرن العشرين – على إظهار نمــط الكاتــب المتأهــب كــالقوس المــشدود للانطلاق، كي ينسجم بطريقة فريدة ولا مثيل لها مـــع أفكـــاره، وتعبيراتـــه الخاصـــة الرزينة، على عكس ما هو متوقع أو منتظر. تلك هي منهجية "مجلة الأدب العام" التـــي أسفرت عن إنشاء النادي الإسباني للمنظرين غير المعـــروفين، والفلاســـفة المنبـــوذين الذين "تضافروا لإنتاج أعمال أدبية وفكرية"، عن طريق التعامل مع مفهوم الأدب بكـــل مستوياته، والاستخدام المطلق لحق الإبداع، والعودة للأدب التأملي، والفكر المنطلـــق، والاندماج الأمثل بين الأمور النظرية والجمالية، ومفهوم الروايـــة، ومناهـــضة القيـــود الحمقاء التي فُرِضت في ظل سياسة "مطاردة الخصوم" في الثمانينيات، التـــي شـــملت مطاردة النظرية للأدب، والفكرة للسرد؛ تلك القيود التي شُيدَت لضمان العجز الفكري، والإبقاء على الأدب التافه. لقد سعى كاديو وألفيري إلى إنجاز ذلـــك العمـــل الفكـــري، لأنهما كانا قُراء مداومين لفلسفة ليوري جورهان، ودي لـــوز، وســـبينوزا، وفوكـــول، ومتخوفين من كبح الأصوات في المغارة الخاوية للأدب الجميل، ومنجـــذبين للنظريـــة الحديثة المسماة "الحماسية والفجائية". لقد كانت تلك المجلة بمثابـــة الفرصـــة المهيـــأة لرصد الأدب الذي في طور التكوين، والعلاقة التي تربط ثوابته بالفراغ الأدبي. لقـــد تجاوز طموح مؤسسيها الحدود، على الأقل لأنهما لم يؤسسا مدرسة تمثلهما بعـــد تلـــك التجربة الطويلة والمستمرة طوال عامي ١٩٩٥ – ١٩٩٦. لقد كانا يرغبان في تعريف الأدب كتاريخ يضم الاتجاهات جميعها، وتمييز علاقاته بـــالآراء المتبادلـــة، والحـــوار المسيطر، والزمن الضائع. لقد أرادا تحويل الأدب إلى عملية فكرية، بدلاً من حـــصره في المعضلة الكئيبة للسوق، المتعلقة ببائعي الكتب (أو علماء الاجتمـــاع المحتـــالين)، وغلبة زخرفة الغلاف على العناصر التقليدية ، هذا من جانب؛ ومن جانب آخـــر، لقـــد اجتهدا للتغلب على قرارات السوق الاستبدادية السابقة، والرواج الذي تحققه المبيعـــات في عطلات نهاية الأسبوع. لقد اعتقدا أن التفكير في إصدار مجلة أدبية تعتمـــد علـــى "نظرية وهمية ومرفوضة" بكاملها، سوف يجذب مع مرور الوقت عددًا أكبر من علماء علم السلالات البشرية، والموسيقيين، والمعماريين، والمؤرخين، والفلاســـفة بـــالمعنى الحرفي للكلمة، والمنظرين الأدبيين؛ تلك النماذج التي اختفت من فرنـــسا، منـــذ عهـــد

قريب، لتنعم بالسلام. لقد سبق وطالب دي لوز "بإدخال الفلسفة الخارجية"، وإدراجها في مفاهيم الجغرافيين، والموسيقيين وعلماء الرياضة التي يفتقدها أساتذة الفلسفة، وتعرضها الآن المجلة بالصورة الأكثر جدية في العالم؛ وتلحق بها الأفكار الوليدة، وتحث في صفحاتها على تدفق الأفكار جميعها.

يتبقى العنصر الأخير الذي تناولته "مجلة الأدب العام" بصورة مخالفة للواقع، المتمثل في الاقتراح الخاص "بالآلية الوجدانية" التي تشتمل على مخطط تحضيري لنظرية أدبية جديدة وعملية، تحقق انفراجة مزدوجة لإلغاء الحدود الثابتة بين الأجناس الأدبية، وتتوسع في المفهوم الخاص بهيمنة فن الكتابة؛ ذلك المفهوم الذي أثار شغف كل من بارت وداريدا، وتمسك به الأدباء باستثناء البعض منهم. فإذا كان الأدباء قد تخلوا عن مفهوم الأجناس، وقاموا بتحديث النظريات، وهاجموا تقليد الرومانسية، وأحسوا بمرارة الأضرار التي لحقت بالمخيلة الذاتية؛ إلا أنهم تمسكوا بفن الكتابة، وتطويره، وبلوغه أبعد الحدود؛ الأمر الذي أصاب كاديو وأفيري بالدهشة حتى يومنا هذا، وأثار لديهما الحمية على الإيمان المغلوط، بفن الكتابة المهيمن على الساحة، وحثهما على التمسك بنظريتهما البناءة، والتجسيدية، والجريئة، والمتنوعة التي تستخدم أسلوب القص واللصق، والنماذج المحلية، والرموز الغامضة في إعداد النصوص. غير أن تلك النظرية أثبتت، على عكس المتوقع، الطابع القوي لفن الكتابة ومصدره غير النضب، وطبيعته المادية والمؤثرة والمتغيرة. بالطبع، لم يكن الأمر يتعلق بإعلاء شأن الكتابة، أو تعظيم أسلوبها، إنما بتخليصها من العوامل السابق ذكرها، وتحريرها من أساليبها المجيدة، كي تتمكن من الانطلاق بصورة أكثر تحررًا.

في نهاية المطاف، وعلى الرغم من انحسار المجلة في فقاعة الزمن / العصر، فقد ظهر تأثيرها على الساحة، ليس في صورة انتصار، أو معركة تخوضها في ميدان آخر، إنما في تراجع النموذج التقليدي للأدب، بقوته الذاتية واستقلاله الرمزي، وتحوله إلى أدب شامل، يتعدى الحدود، ويكتسح كل شيء أمامه، ويعيد تجديد نفسه ليصبح مبدأً للتطور، ومنطقًا جامعًا لتحقيق الأفضل والأسوأ في آن واحد. لقد كانت المجلة

نقطة انطلاق الأدب، والعامل المحفز لعبوره الحدود كافة، والتغلب على القيود الإلزامية، واندماج الأقلية النشطة أو الأجنبية بفتنتها التعليمية، في الفن المعاصر، والفلسفة، والعلوم، والسياسة. وبدأ الأدب يتهيأ للتحول الجديد "كعاشق للاحتفالات"، فاحتل أرفف المعارض، وساحات المهرجانات، وأصبح في متناول القراء، من خلال صفحات المجلة الأربعمائة في العددين الصادرين؛ كما تحول إلى عملية فكرية، ونموذجًا مجسدًا لجنس أدبي ينبذ الرواية المضجرة، والمُخَيِلة الذاتية التي سيطرت على الساحة الأدبية في التسعينيات. لقد سعت المجلة – في ظل حالة اللا مبلاة السائدة، ونبذ الأجناس الأدبية، والمفاهيم الغامضة، والاعتراف بالكتابة كعملية أدبية – إلى إبراز دور القراءة والقراء؛ القراءة التي يحررها الفنانون والكتاب المشتركون في المجلة، والقراءة التي تستشف تطلعات القراء المعاصرين والمستقبليين القابلين للزيادة في العشرين سنة المقبلة. لقد طرحت المجلة، منذ إصدارها الأول، سياستها الخاصة بمفهوم الآلية الوجدانية، والموضوعات التي تحث على التفكير، والنصوص السابقة لعصرها، ومقترحاتها المخالفة للحقبات السابقة والتالية، وخاطبت المهتمين بوضع الأدب.

الجنس / النوع

سنوات التعدي على الصفات الجنسية

بيتريز بريسيادو Beatriz Preciado

في ذكرى المُتعَدين للحدود
جوزيه مونوز ، جيساب كامبوزانو

ما المقصود بالتسعينيات؟ إننا نتحدث عنها كما لو أن الزمن يمر في اتجاه واحد، وبصورة واضحة تُمكننا من تقسيمه من أجل تحليله. يرصد المؤرخ في الفترة بين ٣١ ديسمبر ١٩٨٩، و٣١ ديسمبر ١٩٩٩، شريحة من الزمن يمكن اقتطاعها بسهولة كالخيط الذي يمر في الزبد؛ ولنكن أكثر وضوحًا ونقول إن الزمن يمر، في نظر المؤرخ الثاقب، كالزبدة التي تسيح؛ أو بمعنى آخر، فإن الزمن غير ثابت، ولا يعادل نفسه، بل دائم التغيير المستقبلي.

ينطبق هذا التشبيه بالضبط على الأحداث الجارية في التسعينيات، عندما انعطفت أوروبا وأمريكا الشمالية على حافة قرن كان من المحتمل أن يكون قرنًا مميزًا لها؛ حافة "زمن الهلع" Time Panic أو الذعر من التاريخ، أو تاريخ المنتصرين مثيري الهلع من أمثال آبي وربرج، وجورج ديدي هوبرمان، اللذين أتاحا لنا، من خلال سردهما، اكتشاف الألفية وفق رؤية جديدة، تشبه الثعبان الملتف حول ذاكرة الغرب، ومتغير الأشكال كي لا نتمكن من الإمساك به. أو بالأصح، يمكننا القول إن الألفية قد ماتت بالفعل مع أورشيز وهيروشيما، وإن الوجه المتغير للتسعينيات الذي يحاول المؤرخ أن يحدده، قد أصبح طيفًا.

يتغير الزمن ويتبدل سواء كان ثعبانًا أو طيفًا. في عام ١٩٩١، أشارت المؤرخة ساندي ستون في مؤلفها "إمبراطورية الهجوم المضاد" The Empire Strikes

Back إلى أن الشذوذ الجنسي – الدراسة الأولى من نوعها – سوف يصبح سمة أساسية للخطاب في نهاية الألفية [١]. وفي عام ١٩٩٦، توسعت ريتا فيلسكي في هذه الفرضية وصرحت بأن الشذوذ الجنسي سوف يصبح من أكثر الاستعارات المستخدمة في التسعينيات، وسيتحول إلى واقع ملموس في نهاية القرن، ويصبح إحدى سمات الفترة الانتقالية للألفية، والكناية المعبرة عن التحول التاريخي، وشكلاً من أشكال التغيير التي تضم بين طياتها بلاغة التغيير. لقد تعددت بالفعل التشبيهات المعبرة عن الشذوذ الجنسي في مؤلفات الرواد المتنبئين بالمستقبل، وفي الأعمال السردية للمبشرين بنهاية الغرب واندثار التاريخ على حد سواء. تعتقد فيلسكي أن الحديث عن "نهاية التاريخ"، أو عن التحول التاريخي في نهاية الألفية، الذي يدق ناقوس الخطر للانتقال إلى الحداثة وما بعد الحداثة، يتوافق مع الفكر الفلسفي الذي يرى أن الشذوذ الجنسي، يُعد كارثة على الغيرية (صفة الآخر) والتميز النوعي[٢]. إن الذعر الذي أصاب المفكرين في التسعينيات، كان يتجسد في أن الزمن، سواء كان ثعبانًا أو طيفًا، سوف يستمر في تغيير الجنس.

افترض فرانسيس فوكوياما، في مؤلفيه "نهاية التاريخ" La fin de L'histoire، و"الرجل الأخير" Le Dernier Homme، أن التسعينيات ونهاية القرن بدأت بسقوط حائط برلين عام ١٩٨٩، وزوال التوترات الجيوسياسية للحرب الباردة، وانهيار النظم الشيوعية الأوروبية؛ الأمر الذي أدى إلي نهاية التاريخ بمعناه المقصود كصراعات أيديولوجية متتابعة. غير أن مفارقة نهاية التاريخ تكمن، وفقًا لفوكوياما، في التوسع العالمي لليبرالية الحديثة التي أسفرت من جانب، عن ازدهار الديمقراطية على المستوى العالمي، وانتهاء العداءات السياسية التي أشعلت الحروب العظمى في القرن العشرين؛ وهددت، من جانب آخر، المخاطر الجديدة المنبثقة عن غزو التكنولوجيا الحيوية، من خلال منظومة إعادة تدوير الحياة، والنظامين الاجتماعي والسياسي. يعتقد فوكوياما أن التكنولوجيا الحيوية قادرة على إسقاط حائط "الطبيعة" الذي يفصل بين الأجناس [٣]، مثلما أدى نجاح الليبرالية الحديثة إلى الإسراع بانهيار الحائط الذى كان يقسم العالم إلى كتلتين أيديولوجيتين؛ كما يعتقد أن نهاية التاريخ تكمن في انهيار تنوع الأجناس، الذي قد يمهد الطريق أمام القضاء على تجنس الروابط بين الأنماط الأدبية.

استعارة "الشذوذ الجنسي" والخوف من التحول الذكري

على الجانب الآخر من الأطلنطي، وبعيدًا عن افتراضات فوكوياما، أصدر جون بودريلار عام ١٩٩٠ مؤلفه "الضرر الواضح" La Transparence du Mal، وخصص الفصل الثالث "للشذوذ الجنسي" مستشهدًا بملخص لفودفيل (قد ينتمي في عصرنا هذا إلى نمط الخيال العلمي المرجعي)، وتناول "التدابير الوقائية" وأجهزة "زيروكس" جنبًا إلى جنب. يعتقد بودريلار أن ظاهرة "الشذوذ الجنسي" تُعد السبب الرئيس لنهاية القرن. إن النقلة النوعية التي أحدثتها تلك الظاهرة، أدت إلى الانتقال من السياسة إلى "السياسة العابرة"، ومن الاقتصاد إلى "الاقتصاد العابر". كما وصف بودريلار الشذوذ الجنسي بالخلل الوظيفي للصفات النوعية، مؤكداً أن استخدام التكنولوجيا، وتكاثر "الانطباعات الذهنية"، أحدث خللاً في العلاقة بين الجنس وصفاته. في ظل تلك الظروف، عانى الغرب من وباء سيميولوجي (دلالات الأمراض) أكثر منه جنسيًا؛ لأنه لم يعد يميز بين الصفة النوعية والحال الواقعي، وبين الرغبة والجسم. أكد بودريلار، "أن الجسد التناسلي، تحول في عصرنا الحالي إلى مسخ، بكل ما يحمل المصطلح من معنى شامل للفظ التنكر، والتلاعب بالصفات النوعية، والاختلافات الجنسية" [٤]. لقد كانت المرأة، وفقًا لبودريلار، أول من جسد هذه الظاهرة المرضية، التي بلغت ذروتها في المظهر الخداع للصفات الأنثوية.

يعتقد بودريلار أن وسائل الإعلام، وعلم التحكم في الأشياء، والتدابير الوقائية، وانتشار النُسَخ المُقلَدة... تغير "الواقع"، بالطريقة عينها التي يغير بها الجسد المتحول، الطبيعة الجنسية للمرء. إن الجسد المتعدي على الطبيعة، يُعد بالنسبة لبودريلار، مسخاً منفرًا، يتنكر بصفات متناقضة لا تحترم قط "الاختلافات الجنسية الطبيعية"، ووصفه بالعمل الثقافي "الرديء" لنهاية الألفية؛ لأن الشذوذ الجنسي يحمل بين طياته الدلائل الساخرة للنسخة المقلدة التي ترغب في أن تتطابق مع "النسخة الأصلية" في سوق الجنس المحتدم؛ ولأن هذه النسخة المقلدة سوف تحصل في نهاية المطاف على الهيئة التي تحقق لها الإغراء الجنسي، إنما بصورة مغايرة للجنس الأصلي.

ألقى بودريلار مسئولية الأعراض المرضية - التي تسببت في وضع نهاية للصفات الحقيقية للجنس - على عاتق الشذوذ الجنسي. إن نهاية التاريخ التي أعلنها فوكوياما تقضي، في رأي بودريلار، على الغيرية الجنسية (يعتقد بودريلار أن الغيرية الأنطولوجية تتعارض مع الاختلافات القادرة على الخداع)، وعلى الصفات التي تمكننا من التمييز بين "الرجل" و"المرأة" (٥). أبرز كذلك بودريلار أسباب هذه الفوضى السيميولوجية / الجنسية، وأرجعها إلى تصاعد هيمنة الجنس الأنثوي الذي عرض للخطر الاختلافات الأنطولوجية للجنسين. إن نهاية التاريخ، بالنسبة لبودريلار، تكمن في "تأنيث الرجل" و"تذكير الأنثى": "لقد تأنثت العادات الرجولية جميعها، من حيث الجسم، والمظهر، والسلوك، و"الشعور العام" بصورة كبيرة، وتطبعت المرأة بالطبائع الذكرية على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، وسيطر المشهد الرجولي على الساحة؛ وإلى هنا، ينتهي الحديث" (٦). لقد أُسدل الستار، وبرز الطابع الرجولي من خلف الضرر الواضح. إن الخلل الجنسي الجامح الذي أبرزه بودريلار، ما هو إلا وهم لأنه يتعلق بسياسات جنسية محدودة. لقد اعتقد أن نهاية الألفية شهدت هيمنة الشذوذ الجنسي، والمخنثين، والمثليين، واللوطيين، والسحاقيات... نستطيع أن نقرأ نص بودريلار اليوم، وكأنه رسالة هجاء للألفية المتنافرة جنسيًا، في مواجهة التغير الذي لحق بالنمو النوعي، والنظام البيولوجي السائد.

في عام ١٩٨٤، وصف فريدريك جيمسون - قارئ ماركس والأقرب لمدرسة فرانكفورت في تحليلاته الخاصة بالصناعة الثقافية - "جسد ما بعد الحداثة بالمنطق الثقافي للرأسمالية الحديثة" (٧)، ثم طور ذلك الوصف عام ١٩٩٠. يمثل هذا الجسد، وفقًا لفريدريك، الهياكل المفرطة لمجتمعات ما بعد الصناعة، ذات التكنولوجيا العالية والتي يسيطر عليها الاقتصاد الحر الحديث. إن الصيغة الثقافية والجمالية الأكثر وضوحًا لجسم ما بعد الحداثة، التي تسمح بقراءة دلالات الإنتاج الرأسمالي، تماثل معمار ما بعد الحداثة (حيث إن المعمار هو الفن الأقرب للاقتصاد، وفقًا لجيمسون) لأنه يتميز بالقدرة على تأويل مختلف الشفرات التاريخية، ولأن تلك القدرة التأويلية هي التي تتحكم الآن في تكوين جسم المرء ومظهره. وإذا كان جيمسون قد امتنع عن التحدث صراحة عن

الشذوذ الجنسي، فإنه وصف جسم ما بعد الحداثة بالمتعدي على الصفات الجنسية، لأنه جسد مفرط التقنية، واصطناعي، وشبيه بالملصقات العضوية التي تضم تركيبات متنافرة للدلالات الثقافية. إن ذلك الجسد، مثله مثل معمار ما بعد الحداثة، يُعد تجسيدًا للرأسمالية، لأنه "يخضع لزرع أعضاء جديدة، ويتوسع في المظهر المغاير للطبيعة، ويتمتع بمخيلة جديدة، بل مستحيلة" (٨). إن تشكيل هذا الجسد، لايمكن تنفيذه بالطبع في جسم الذكر، إنما في جسم الأنثى، أو الرجل المتأنث، أو المرأة مفرطة الأنوثة. من ناحية أخرى، شبه جيمسون الجسم الجديد المتنافر للمرء، الذي يبدل الطبيعة البشرية بعد إجراء بعض التغييرات، بالسلعة الاستهلاكية، والتقمص المصطنع.

> **"إن العالم المفتقد النوع الجنسي، هو بالتأكيد عالم بلا بداية، أو نهاية (...) وسوف يعيد تشكيل ثقافته وطبيعته"**
>
> **دونا هاراواي Donna Haraway**

من أجل إبراز الفرق بين "الحداثة الراقية" و"ما بعد الحداثة السوقية"، عقد جيمسون مقارنة بين حذاء الفلاح الذي عرضه فان جوخ، ومجوهرات الحذاء المُعَفَر لآندي وورهول، وقام بتشبيه وجه الرجل في النموذج الأول بالعامل الكادح المعاصر؛ ووجه الرجل المتأنث في النموذج الثاني، بمستهلك ما بعد الحداثة. نستطيع أن نستشف من تلك المقارنة، مقاربة أيديولوجية بين الحداثة وما بعد الحداثة، والرجولة والأنوثة، والتنافر الجنسي والشذوذ الجنسي. يعتقد جيمسون – وفقًا لجوديث، وجاك هالبرستام، وماندي ميرك – أن الوضع الحديث يتسم بالطابع الذكري والمتنافر، واستنكر نشأة جنس ما بعد الحداثة، والرأسمالية المتأنثة؛ لأن الجوانب الجمالية تظهر بجلاء في أجسام المخنثين، والمثليين (٩). إن الجنس الذكري، الذي يقع على أعتاب الحداثة، يواجه الزحف الحتمي لطيف ما بعد الحداثة، أي المرأة مفرطة الأنوثة.

في مجمل تلك الأقاويل، أصبح الشذوذ الجنسي محور الأحاديث السريعة والرمزية، التي تشتمل على صور بلاغية (مخيفة ومغرية) تعبر عن الوضع الثقافي المتغير، والنوع والهوية الجنسية. لقد شبه الأديب فوكولت المرأة مفرطة الأنوثة –

التي تجسد الشذوذ والتوثيق المادي لمتغيرات العصر، من خلال هذا الحديث أو ذاك - بالوحش البشري" (١٠). لقد اهتم أيضًا المجال "القانوني / البيولوجي" لعلم الباثولوجي، بموضوع الشذوذ الجنسي، وتناولته الأحاديث جميعها، على أنه "انتهاك لقوانين المجتمع، والطبيعة"، ووضعته خارج إطار تاريخ الغرب، الذي يشكل فيه الرجال الأغلبية الحاكمة، ونظرت إليه على أنه جسم يحمل الأوصاف الأنثوية؛ لكنه مسخ قبيح وخرافة ثقافية، وليس واقعًا خاصًا.

الحروب الإباحية

"شهدت التسعينيات ازدهارًا قويًا في إنتاج الأفلام والمشاهد الإباحية، بسبب انتشار الفيديو كاسيت، وظهور أقراص ال دي في دي ، وعولمة الإنتاج (عرض الأفلام في أوروبا الشرقية وآسيا، وتدويل ترددات البث)؛ كما شهدت نهاية الحقبة انطلاق الإنترنت الذي سجل عام ١٩٩٨ أكثر من ١٠٠٠٠٠ موقع إباحي. في الوقت نفسه، أغلقت قاعات العرض في الجادات، أبوابها خاصة في نيويورك وباريس، وتعرض قطاع صناعة السينما بثِقَله، للتهميش بالكامل. وانفجر الجدل في التسعينيات بين المؤيدين والرافضين للأفلام الإباحية، الذي أسفر عن انقسام واضح، في البلاد الغربية ليس فقط في مجتمع الممثلين (المفتقدين الحماية، والمطالبين في نهاية الحقبة، برفع المعارضة ضدهم)، بل أيضًا بين صفوف النساء، على جانبي الأطلنطي. واشتعلت في النصف الأول من الثمانينيات في الولايات المتحدة، "الحروب الجنسية" أو "الحروب الإباحية"' بين الحركات النسائية، وتحولت الجامعة الجاذبة لهم إلى ساحة حرب، خاصة بعد أن نجحت القاضيتان المناهضتان للإباحية أندريا دوركين، وكاترين ماكينون - من خلال الجمعية التي أسساها "نساء مناهضات للإباحية" - في إصدار تشريع في ولاية مينوبوليس عام ١٩٨٣، يتيح للممثلات، والمرأة المُستغَلة، أن تقيم دعوى في المحكمة لملاحقة شركات الإنتاج. وفي مواجهة الأفلام التي أصبحت تركز أكثر فأكثر، على الأعضاء التناسلية للمرأة والمشاهد الإباحية، أعلنت الحركات النسائية، المناهضة للإباحية - على غرار الناشطة الأمريكية من نيويورك دورشين ليدولت - الحرب على جميع الجبهات ضد إهانة

المرأة، والدعارة، والإباحية،. واحتدم الجدل بين مؤيد لحق الدفاع عن المرأة، ومؤيد لاستقلالها؛ وبين مؤيد لحق المرأة في تقرير مصيرها، ومناهض للتمييز و"استغلال المرأة (بما فيها جسدها)، وازدراء القانون. في المقابل، صعد نجم الحركات النسائية الأمريكية، المسماة "الجنس الإيجابي"، والمؤيدة للإباحية، من أمثال المنظرة جيل روبين التي استشهد بها عام ١٩٨٤، المقال الديني "التفكير في الجنس" (الذي استنكر العواقب الوخيمة "للضغط النفسي"، وهوالاتجاه عينه الذي تبناه ويلهام ريتش)؛ والشخصيات المؤسسة للثقافة النسائية، "المؤيدة للجنس"، مثل الكاتبة إريك جونج؛ والشخصيات الجدلية الرائدة مثل المحررة سوزي برايت، التي كانت تتباهى بأنها أول امرأة تكتب نقدًا عن الأفلام الإباحية. ولقد أثار المقال الذي أعدته الكاتبة الكندية الثائرة، ويندي ماكالروي، "حق المرأة في الإباحية" A Woman's Right to Pornography، جدلاً كبيرًا عام ١٩٩٥؛ كما أثار فيلم ميلوس فورمان، الذي عرض في العام التالي للمقال، ضجة كبيرة غير متوقعة، لأنه تناول السيرة المهنية الفاضحة للاري فلينت (الإباحي الذي أصدر قبل ذلك بعشرين عامًا مجلة هيستلر). وعلى خلفية قضية كلينتون / ليفنسكي، اشتعلت الجامعات الأمريكية بسبب "الآثار" المترتبة على الإباحية، والعروض المرئية التي تتناولها، بعد مرور عشرين عامًا على إنشاء أول معهد للدراسات النسائية، وبضعة أعوام قبل أن تضع ليندا ويليامز أساسيات الدراسات الإباحية. وظلت صناعة الإباحية النسائية، التي تناولتها المرأة لصالح المرأة، مقصورة على بعض المحاولات غير المؤثرة مثل محاولة كانديدا رويال عام ١٩٩٣، لإنشاء شركة إنتاج نسائية، في نيويورك تكون نواة لطفرة في عالم الإباحية، لكنها لم تحقق مبتغاها."

François Cusset فرانسوا كوسيه

الشذوذ الجنسي كارثة على الغيرية
نخشى أن يكون الزمن في طور الحقبة
التي تغير الجنس

لقد وصف الخطاب الفلسفي / السياسي – الذي اتفق عليه لأول مرة الليبراليون الجدد، والماركسيون – الشذوذ الجنسي بالعلامة الدالة على نهاية التاريخ (فوكوياما)، وزوال منطق الواقع الحقيقي (بروديلار)، ونهاية الحداثة (جيمسون). من جانب آخر، وضعت الأعمال البلاغية المتنوعة، عند تناولها الشذوذ الجنسي، حدًا فاصلاً بين الأنوثة الجوهرية، والأنوثة المصطنعة. لقد أثر مؤلف جانيس ريموند "إمبراطورية الشذوذ الجنسي: صناعة الذكورة – الأنثوية" The Transsexuel Empire. Making of the She- Male، الصادر عام ١٩٧٩، في جيل نسائي بأكمله، وخاصة في الماركسيات اللاتي استنكرن التغيير الخلقي بواسطة "الطب الراعي" " لجنس "المرأة المصطنعة" التي لا تسعى لتغيير صفاتها البيولوجية فحسب، بل القضاء عليها [11]. ردًا على جيمسون وبودريلار، فيما يتعلق بالإخلال بالطبيعة الذكرية، أكدت جانيس أن المرأة الشاذة جنسيًا، تُعد الوجه الآخر للذكر الذي يسعى للتسلل داخل المحيط النسائي لانتهاكه، وتدميره ذاتيًا بصورة أفضل. من جهة أخرى، استخدمت المنظرات – اللاتي أطلق عليهن عقد التسعينيات لقب "المنحرفات جنسيًا" – الشذوذ الجنسي كوسيلة تأويلية لشرح الوضع البايوتكنولوجي، التنافسي والثقافي الذي تمخض عن التغيرات النوعية للجنس. واستخدمت كل من جوديث بوتلر، ودونا هاراواي مصطلحات مثل "التحكم الكاسح"، و"علم التحكم" لشرح المفاهيم العلمية القادرة على دحض الازدواجية الميتافيزيقية (التي تميز بين الطبيعة والثقافة؛ الذكر والأنثى؛ الجسد والعقل)، وتجاوز الصفات الجنسية للنوع [12].

الأنوثة وتفاعل الجزئيات

كيف نفسر تعدُد التعبيرات البلاغية المتعلقة بالشذوذ الجنسي في نهاية القرن؟ ولماذا أُطلِق مسمى الشذوذ الجنسي على هذه الظاهرة؟ لأن الجسد الشاذ أصبح، في تلك الآونة شعار الاندماج الثقافي والتحولات البيوتكنولوجية، والسياسية التي حدثت

بعد الحرب العالمية الثانية. بالإضافة إلى ذلك، فإن احتمالية تجاوز الحدود النوعية للجنس – التي من المفترض أن تكون طبيعية إن لم تكن ميتافيزيقية- بدت كما لو أنها ترمز للخلل، أو لوَهم التوجيه القوي للأنظمة الراعية والواقعية (نظام التحكم البيولوجي، والتنافر الجنسي، والمعيار النوعي). إن الشذوذ الجنسي الأنثوي، ليس نموذجًا للانتقال من قرن إلى آخر، ومن ألفية إلى أخرى فحسب، إنما هو نموذج للتعبير عن تحول أشكال السلطة؛ إنه عملية حتمية "لتأنيث" التاريخ، أو "تفاعل جزئياته"، إذا ما استخدمنا أسلوب دي لوز، وجاتاري.

إن تطور النظم المعلوماتية والبيوكيمائية في النصف الثاني من القرن العشرين، غيرت جذريًا أجهزة التحكم البيولوجية، والصفات الجنسية، وفتحت مجالات عديدة للصمود، والعمل على المستوى الفردي. وإذا كانت الخمسينيات قد نجحت، في ظل الشركات الكبرى مثل مونساتو، ودي بون، وتوتال، وفايزر، وسيرل، في تحويل تقنيات المعركة (مجال البيوكيمياء، ونقل المعلومة وتشفيرها) إلى تقنيات استهلاكية جماعية، بعد استعمال التليفزيون والتليفون في الحياة اليومية المنزلية؛ فقد تميزت التسعينيات بالمعلومات الرقمية، والاستخدام الدولي للنظم التكنولوجية التحكمية، بفضل الإنترنت. إن الانتقال من الاقتصاد المنتج إلى الاقتصاد اللا مادي، كان يستلزم تغيير "الأجهزة المستهلكة للطاقة"؛ فقد انتقلنا، وفقًا لأسلوب دي لوز، وجاتاري، من سيارة الخمسينيات إلى الكمبيوتر المحمول، ومن التوصيلات الخارجية التي تتحكم في العلاقة بين الإنسان والآلة، إلى شاشات العرض، والكابلات المشتركة، والبرمجة، والربط الكهربائي والمرئي. وإذا كانت الخمسينيات تتميز بالأجهزة التليفزيونية المرئية، فقد انتهت التسعينيات بارتباط الوعي الشخصي بمنطق التواصل العالمي. إن الانتقال من عصر نظام الفيديو المنزلي "في إتش إس" إلى الإنترنت، ومن شبكات الاتصال الرأسية إلى الشبكات الأفقية، يُعد تطورًا خارقًا لتقنيات التحكم والاستخدام الشخصي. وإذا استخدمنا المصطلحات الخاصة بعلم علاج الأمراض لتفسير ذلك الوضع، يمكننا القول إن ظهور العلاج متعدد المفعول، يرفع المقاومة الإيجابية للشخص، ويفتح مجالاً جديدًا

لمواجهة صناعة الدواء. ثم حقق بعد ذلك الإنتاج التقني، الذي وصفه والتر بينجامين بمرحلة ما قبل الثورة، انطلاقة جديدة في عالم الصحة الإنجابية؛ إذ انتقلنا من حبوب منع الحمل في السبعينيات، إلى جزيئات البروتينات. وفي الثمانينيات والتسعينيات، تحققت طفرة في "سوق الصحة الإنجابية"، بفضل الاستخدامات التقنية الحديثة للتلقيح الصناعي؛ إذ تتم عملية التلقيح في "حضانة زجاجية"، ثم يتم حقن البويضة حاملة الجنين في رحم الأم. ولأول مرة في التاريخ تتكفل العيادات الخاصة بمسئولية سحب، وتخزين، وتسويق السائل المنوي، والحيوانات المنوية، والبويضات، والأجنة. ثم انطلق مشروع "جينوم البشري" في عام ١٩٩٠، بفضل التعاون العلمي الدولي الذي كان يهدف إلى التقسيم التام للكروموزونات الثلاثة والعشرين للحمض النووي. لقد أصبحنا نتحكم في جينات الحمض النووي – سواء كانت طيفًا أو ثعبانًا – وكائنات أخرى حية على كوكب الأرض؛ أو بمعنى آخر، لقد وقعت في قبضة يد الشركات متعددة الجنسيات البيوتكنولوجية. موجز القول، يرتبط تطور الشذوذ الجنسي، القائم على الأوهام الخاصة بالتحول الثقافي، والتكنولوجي، والبيولوجي للجسد، بالتطورات التكنولوجية المعلنة.

بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح الشذوذ الجنسي محور الاهتمامات التقنية، والدعائية، والعلوم الصيدلانية والجراحية، بطريقة غير مسبوقة. في عام ١٩٥١، نجح لورانس ميشيل ديلون، في سابقة الأولى من نوعها، في تغيير هويته الجنسية، بعد حصوله على الموافقة القانونية والطبية. وفي الدنمارك عام ١٩٥٢، حققت كريستين جورجنسن شهرة واسعة بعد إجرائها عملية "تغيير جنس". وفي فرنسا عام ١٩٥٣، بدأ كوسينال العمل متنكرًا في ملهى عند مدام آرتور، ثم قام بعد مرور ثلاثة أعوام بتغيير جنسه في عيادة بالدار البيضاء، وحصل على هوية جديدة من السجل المدني. وفي العام نفسه، وصف الطبيب هاري بنيامين الشذوذ الجنسي "بالمرض الذي يمنح الشعور بالانتماء للجنس الآخر"؛ وهو المرض الذي يمكن علاجه بنجاح ببعض المستحضرات الجنسية.

لا تكتفي النساء باستخدام التقنيات الهرمونية والجراحية المتطورة، بل يلجأن أيضًا لإجراء عمليات تجميلية لزراعة الصدر، وتناول الهرمونات الجنسية للحصول على الدورة الشهرية (١٣). وأصبحنا نعاصر الاكتشافات التجارية والدعائية الخاصة بتقنيات تغيير الجنس التي تهدف إلى تكثيف (أو تقليد) الصفات البيوثقافية للاختلافات الجنسية. نستطيع أن نتحدث كذلك عن عملية تحول في التقنيات "الصيدلانية الإباحية" (البيوكيمائية والتقنيات الدلالية)، لتخليق النوع والجنس (١٤). في نهاية القرن، ظهرت بعض النماذج التي تجسد التطور المحتوم للتنافر الجنسي التقني المتوقع في الألفية الثالثة، أمثال باميلا أندرسون، نجمة غلاف مجلة بلاي بوي الصادرة في فبراير ١٩٩٠، والمحارب الآلي الذي أنتجته شركة "أومني كونسيومر بروداكتس" ليصبح الجندي الآلي الوحيد الذي يذهب للقتال في حرب الخليج الأولى. لقد أسفرت أيضًا الأوضاع الجديدة لتخليق وتشكيل الجسد، عن تغيير في الممارسات الشخصية، والصفات الجمالية للجنس. في السبعينيات، تصدرت الساحة العامة، مشاهد المواجهة بين الشواذ والشرطة خاصة في مدن سان فرانسيسكو، ونيويورك، وباريس؛ وشن الشواذ حرب العصابات المدنية الجديدة للجنس، في شارع كريستوفر بمانتهاتن، وفي مقهى كونتون بسان فرانسيسكو، وفي حي دي هال بباريس (١٥).

"علينا أن نكرر القول، إنه لم يعد هناك وجود لعلم يختص بالكائنات، في ظل الإخلال الجذري بالصفات النوعية للجنس"

جوديث بوتلر Judith Butler

من الناحية الفعلية، سعى الشواذ للدفاع عن حقهم منذ السبعينيات، من خلال بعض الحركات التي تضم المخنثين. في فرنسا، كانت مجموعة "الجازولين"، و"جبهة الجنوسة الثائرة"، و"البغاء الأحمر"من أشد الحركات العدائية؛ وفي الولايات المتحدة، وإنجلترا، تكتلت في الستينيات بعض الحركات (التي تضم المخنثين، والمثليين) مع

بعضها، مثل "هيلز كلاب"، و"فيرجينيا برينسيس هوز"، و"بومون سوسايتي". غير أن هذه التكتلات لم تكتسب المسميات والممارسات الخاصة بها، إلا في التسعينيات، أي عقد الشذوذ. في المقابل، نشأت بعض السياسات الخاصة بالشذوذ الجنسي والنوعي، لمواجهة الأوهام المرضية لتلك الظاهرة، وانتشرت أيضًا في تلك الآونة، في مفترق السياسات المتعلقة بالجنس والنوع، بعض الحركات "البينية الجنسية" (١٦)، التي كافحت من أجل الحفاظ على التنوع الوظيفي، وصدر العديد من التشريعات الخاصة بالجنس في العمل، التي تميزت بتمسكها بالصفات الجنسية والنوع. وأكد النشطاء، والنقاد الشواذ، أن الجسد الشاذ ليس استعارة مكنية لما بعد الحداثة، أو أثرًا فنيًا ثقافيًا رديئًا، أو وهمًا متعلقًا بالألفية؛ بل واقع مادي واجتماعي، وظاهرة ثانوية أبرزتها الفئة الشاذة بعيدًا عن السياسة، والأحكام الطبية والقانونية والإعلامية من أجل تحويلها إلى ظاهرة طبيعية.

باميلا أندرسون والجندي الآلي

يشكلان عنصري التنافر

الجنسي التقني أو الألفية الثالثة

نشأت نظرية "الشذوذ"، وتبلور نقد "الانحراف" في ظروف مماثلة كان أبرزهـا اختلاط الخطاب المتعلق بحقبة ما بعد الحداثة، وحرب الخليج، والتحول إلى الاقتـصاد الليبرالي الحديث في عهد ريجان وبوش الأب، والسياسات المعادية للشذوذ التي فجرها تفاقم الإيدز. في ظل تلك الظروف المغايرة، لم تعد سياسات الهوية الخاصة بـاللوطيين والسحاقيات – التي فرضت نفسها في الثمانينيات – تلائم العصر. ففي عـام ١٩٩١، طُرِدَت نانسي بوركولدر، المرأة الشاذة، من مهرجان موسيقى المرأة بمدينة ميـشيجان – أحد أهم مهرجانات النساء الشاذات – بعد إتهامها "بأنها رجل متنكر في هيئة امرأة"، ويرغب في انتهاك ساحة الأجناس غير المختلطة؛ وذلك تمشيًا مع معطيـات جـانيس ريموند المتعلقة بالفصل بين الأجناس(١٧). ولقد روت نانسي بوركولـدر عـام ١٩٩٣، تلك الواقعة في صحيفة "الأخوات الشاذات" TransSisters، أولى الصحف التي تناولت موضوعات المرأة الشاذة. ثم تحولت بعض المجلات مثـل "جنـدر تـراش" Gender Trash، و"ورايت أوف باسدج" Rites of passage، أو "تي إن تي" TNT إلـى معامـل لغوية للشواذ تبتكر المفردات الناقدة، وعكفت على تكوين رابطة فعالة، وقادرة علـى اتخاذ مواقف بشأن طرد الشاذات من التجمعات النسائية.

في عام ١٩٩٣، تحولت رابطة المساعدة المحلية "تحول النوع الجنسي" FTM– التي أسستها لو سوليفان وجاميسون جرين، في سان فرانسيسكو – إلى جمعيـة دوليـة مناضلة، وأصبحت مجلة الجمعية وسيلة الاتصال بين آلاف الشواذ في العـالم. وفـي عام ١٩٩١، أصدرت ساندي ستون مجلتها "بوست ترانسيكسوال مانيفيستو" كرد فعـل صاخب على المجلة النسائية المعادية للشذوذ "ذا ترانسيكسوال إمباير" لجيمس ريموند، وعلى الخطاب النفسي الذي يُعرف الشذوذ آنذاك. وفـي عـام ١٩٧٢، طالـب جـي هوكنجهام، في دراسته المشهورة "الرغبة الجنوسية" Le désir Homosexuel، بـرفض "التحليلات النفسية للجنوسة"؛ كما أسست ساندي ستون حركة سياسـية تطالـب "بنبـذ التحليلات النفسية للشذوذ الجنسي". وتأسست، قبل حلول عقد التسعينيات، أكبر رابطـة للشواذ، رابطة هاري بنيامين: "الجمعية الدوليـة للخلـل الجنـسي" ، التـي ضـمت

المحترفين في مجال الصحة، و"المرضى" العازمين على توفير المعلومة والخدمة الطبية "للأفراد الذين يعانون أمراضًا نفسية باثولوجية". في التسعينيات، حقق المنظرون والنشطاء الشواذ تقدمًا تدريجيًا على أرض الواقع تجاه التصريحات الرسمية والمؤسسات الطبية، لدرجة أنهم حولوا نضالهم ضد المجتمع الرافض لهم، إلى أهداف شخصية عظمى تصب في صالح حركة الشذوذ.

في عام ١٩٩٢، نشأ أول تجمع للنشطاء الشواذ في سان فرانسيسكو، كفرع "لحركة الشذوذ الوطنية" التي طالبت في حملتها الأولى بإلغاء مصطلح "خلل الهوية الجنسية" من كتيب "التشخيص والإحصاء" Diagnostic and Statistical Manual الصادر عن الجمعية النفسية الأمريكية. وهكذا، شهدت التسعينيات ثورة في مبحث العلوم، خاصة بعد التغير الجذري من الوضع النظري إلى العملي، وبعد أن تحول الأشخاص المنبوذون في الأحاديث الطبية / القانونية إلى شخصيات ماهرة وقادرة على إنشاء عالم معرفي خاص بهم. وتأسست أول شبكة أكاديمية أثناء انعقاد مؤتمر جامعة إيوا عام ١٩٩٢ عن الدراسات المتعلقة بالشذوذ. وفي عام ١٩٩٥، نظمت جامعة كاليفورنيا الحكومية في نورثريدج، أول مؤتمر عن "الملبس المتضارب، والجنس والنوع". وفي العام نفسه، قاطعت الناقدة الشاذة سوزان سترايكر مؤتمر مركز دراسات اللوطيين والسحاقيات، المنعقد بالمدينة الجامعية بنيويورك، لتطالب بتناول الشذوذ الجنسي والنوعي "ليس بصفته عارضًا مرضيًا" أو فئة استثنائية في الجنسية المثلية. وأكدت سترايكر أن الشذوذ "تجاوز المجال الطبي، ووصل إلى الشارع، واختلط بالواقع" (١٨).

فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية، انتقلنا من مصطلح "الشذوذ الجنسي" إلى "التحول الجنسي"؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور نمط جديد من الدلالات العرضية، وأساليب بديلة للتعبير الذاتي. وفقًا للناشطة الشاذة فرجينيا برينس، لقد استخدم مصطلح "التحول الجنسي" في بداية الأمر، للاعتراض على مصطلح "الشذوذ الجنسي"؛ وليُقصَد به "المتحولون كليًا"، الذين لم تتوفر لديهم نية إجراء عملية جراحية تناسلية؛ وقد كان ذلك بداية تحول المجال النقدي. تعتقد برينس أن لفظ التحول الجنسي لا يعبر عن وضع مرضي، إنما عن سلوك اجتماعي لا يتواءم مع المعايير التقنية لتغيير الجنس

التي اقترحتها المؤسسات الطبية والقانونية. وعلى مر التسعينيات، غيرت كل من ليسلي فينبرج، وكيت بورنستين، وساندي ستون، وديل لاجرراس فولكانو، استخدامات لفظ "التحول الجنسي" من مصطلح مساعد، إلى جملة اسمية، بل فعلية. وفي عام ١٩٩١، أصدر دي لاجراس فولكانو - المصور البيجنسوي الذي كان لا يزال يحتفظ في تلك الآونة بالجنس الأنثوي وبلقب "ديلا" - كتابه "شغف الخداع" (في دار نشر GMP بلندن)، الذي يعد أرشيفًا مصورًا للمجتمع السحاقي يعرض من خلاله، ولأول مرة بنظرة مرجعية ذاتية، ممارسات المنحرفين جنسيًا، والسحاقيات الساديات. وفي عام ١٩٩٢، اكتسب لفظ "التحول" مدلولاً سياسيًا ولغويًا مختلفًا مع صدور مؤلف ليسلي فينبرج "حركة آن آوانها"، و"الجنس الخارج على القانون" عام ١٩٩٤؛ ومؤلف كيت بورستين "عن الرجال، والنساء، وعموم الناس في الولايات المتحدة" [١٩]. تعتقد فينبرج أن مفهوم التحول الجنسي ليس طبيًا، أو مرضيًا؛ إنما برنامجٌ للتحول الذاتي والثقافي، ونموذجٌ جديد لفكر التغير الجنسي - الذي ابتكرته فينبرج - ونداء لتشكيل حركة تحرر يسارية متطرفة، لصالح التحول. يتلخص فكر فينبرج الماركسي والسحاقي الصرف، في إمكانية إنشاء "المدينة الفاضلة العالمية " المنفتحة، بل المنحرفة جنسيًا. فإذا كان الوهم الماركسي يطالب بإلغاء الفوارق الاجتماعية والتفاوتات الاقتصادية، فإن خيال فينبرج المنحرف جنسيًا، ينادي بإلغاء الفواصل بين الجنسين. لقد أسفرت الممارسة الجنسية المنحرفة – في سابقة الأولى من نوعها – عن ظهور نظام جديد للبيانات الشخصية، لا يفصل بين الرجل والمرأة.

تحول مجرى خريطة الأدوية الإباحية

في الستينيات، ناضلت حركات السحاقيات والمثليين من أجل تحديد الهوية الخاصة بهم، بينما في التسعينيات، ابتكرت حركات "الشواذ"، على العكس من ذلك، إستراتيجيات ما بعد الهوية؛ بمعنى آخر لم تكتف حركات "الشواذ" بمطالب الحركات المثلية والسحاقية السابقة المقصورة على عدم تحديد الهوية (الجنس أو النوع)، بل طالبت "بتعدد" الممارسات الشاذة [٢٠]. إن الانتقال من الممارسات المثلية إلى "الشاذة"،

أو "المنحرفة" في التسعينيات، أسفر عن تغيير أساليب الممارسة البيولوجية، وأنماط الصمود. وبينما كانت ممارسات الهوية المثلية تُعد شكلاً من أشكال الصمود للتأقلم مع الجسد المثلي، فإن التقنيات الصيدلانية، التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية وتتحكم في تغيير الجسم البشري، أدت إلى نشأة الممارسات الشاذة والمنحرفة. لقد انتهجت الممارسات المنحرفة، نهج سياسات أزمة الإيدز، للاستفادة من التحالفات الجديدة القائمة ليس على الهوية، بل على الصفات المميزة للجنس والنوع.

اعتمدت الدراسات المتعلقة بالممارسات الجنسية المنحرفة، على نقد التأنث، وسرد تاريخ المثليين، مع التوسع وتعديل التعريفات الخاصة بالنوع التي أعدها منظرو حركة المنحرفين قبل ذلك بعدة أعوام. ارتكز نقد تلك الدراسات على التنسيق المزدوج الذي يقضي على سلسلة التعارضات التي دار حولها جدل الممارسات الجنسية في السبعينيات والثمانينيات (المساواة /التمييز، الاعتراف / العدالة، الجوهر/ التحول). عند تناولها للتسلسل النقدي لأساليب التعامل مع الجسد، اعترضت تلك الدراسات على أحد مبادئ النظرية النسائية القائلة إن النوع البشري ما هو إلا كائن اجتماعي وثقافي، والجنس هو الحقيقة الجسدية. وإذا كانت نظرية "الشذوذ" قد انتقدت "افتراض التنافر الجنسي" الذي أيدته الحركة النسائية؛ فقد استنكرت نظرية "الانحراف"، قرينة المساواة بين الجسد، والنوع، والجنس. إن المعضلة الرئيسة لذلك الموضوع لا تكمن في الاختلافات القائمة بين التجانس أو التنافر الجنسي، إنما في التعامل مع بيولوجية الجسد وصفاته الخِلقية.

خلاصة القول، أبرزت الممارسات الشاذة أن الجسد ليس حيزًا طبيعيًا، أو ساحة للعمليات الثقافية؛ إنما نظام قوي تتخلله عوامل بيولوجية ذاتية، وتناقضات، ومتغيرات لا تنم عن التحولات المستقبلية، وتشكل الساحة الداخلية التي تساعد الجسم على البقاء بداخلها. إن الممارسات الشاذة لا ترى جميعها في الازدواجية الجنسية، الخلاص الذي يساعدها على الهرب من البنية المجتمعية السائدة. لقد أصبح متاحًا في الوقت الحاضر، بفضل التدخلات الجراحية وعلم الغدد الصماء، تغيير محور الذكر / الأنثى، والأنماط الثقافية المقننة للنوع. كما أصبح من المحتمل رفض البنية الطبيعية،

والسعي للحصول على أجسام بديلة للنوع. لقد ساد الاقتناع بأن تعاطي هرمونات الأستروجين أو التستوسترون، لا يخالف الطبيعة، بل يتفاعل مع جزيئات الجسم من أجل توجيهه بيولوجيًا وثقافيًا لإخراج شكل مجسد جديد. تُستخدم الهرمونات الجنسية الآن كأسلوب مناهض لعمليات "القرصنة الجنسية"، المصطلح الذي ابتكرته كيت بورنستين، وساندي ستون، ودي لاجراس فولكانو في التسعينيات. كما تعد الهرمونات، في ثقافة "التحول الجنسي"، بمثابة عملية إعادة تملك أو إعادة تعبير عن الذات؛ ولا تُستخدم لمجرد تغيير الجنس إلى ذكر أو أنثى، بل بوصفها عوامل لإنهاء التطابق في الأساليب النقدية.

إن ممارسات الانحراف الجنسي تجسد مسبقًا، توزيعًا جديدا ومتغيرًا لواقع الحال؛ إذ لم يعد الأمر يقتصر على التفكير في موضوع يتعلق بالجنس أو النوع سبق تناوله، ويستطيع أن يشكل أساسًا بيولوجيًا أو نفسيًا للهوية الذاتية؛ بل على تعدد العمليات التحويلية للفرد. واستنادًا لأقوال جيل ديلوز، وفيليكس جاتاري، فإن النقد الخاص بالانحراف الجنسي يمثل "نهاية الجدل المتعلق بتعدد تلك العمليات" (٢١). من هذا المنطلق، فإن الممارسات الخاصة بالانحراف الجنسي أو الشذوذ، تختلف عن ممارسات اللوطيين أو السحاقيات؛ لأنها ممارسات بلا هدف بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ولأن المنطق يرفض تفضيل المظهر الجسدي أو الهوية على حساب نظم التفاعل والتخليق الأخرى. إن النوع ليس مادة، لكنه قوى مستدامة التغيير. إن رفض التحول نحو الذاتية – بغض النظر عن المجازفة بموضوع الممارسات – سوف يفتح آفاقًا جديدة لتناول التاريخ كمسخ يغير صفة الإنسان ومظهره.

دونا هاراواي: "أفضل أن أكون عضوًا مستنسخًا عن أن أكون إلهة"

"لقد وصلنا إلى نهاية القرن، ذلك العصر الخيالي الذي تحولنا فيه إلى أوهام، وأعضاء مستنسخة نظريًا وعمليًا؛ باختصار، لقد تحولنا إلى أعضاء تخليقية. لقد أصبح تخليق الأعضاء ركيزة علم الكائنات الذي يحدد كياننا؛ والصورة التي تجمع بين الخيال والواقع المادي؛ والأساس الذي يجمع بين المستحيل والتحول التاريخي. في التراث الغربي للعلوم والسياسة –

تراث الرأسمالية، والعنصرية، والهيمنة الذكرية؛ تراث التقدم، والسيطرة على الطبيعة لتصبح مصدرًا للإنتاج الثقافي؛ تراث تخليق الذات من وجهة نظر الآخرين – كانت المعركة بين الجسد والآلة محددة المعالم؛ وتعي مخاطر تعدي الحدود في مجالي التجديد والخيال. يُعد هذا النص مرافعة، أدافع بها عن المزج بين متعة اختلاط الحدود الجنسية، والمسئولية التي نتحملها لإنشاء تلك الحدود. إنه أيضًا محاولة للإسهام في الثقافة، والنظريات المجتمعية النسائية بأسلوب "ما بعد الحداثة"، الذي لا يستند إلى التراث "الطبيعي" للعالم الفاضل، الذي لا يعترف بالتمييز بين الأجناس، والذي أصبح بالتالي، عالمًا بلا بداية أونهاية. إن خلاص البشرية ليس في تخليق الأعضاء، كما أنه لا يندرج في التاريخ الخاص بالعقد النفسية؛ لأنه لا يسعى لتضميد جراح الخلل الجنسي، من خلال الأوهام النظرية التي تحقق الكمال الجسدي، وتقضي بفظاعة على العقد النفسية (...)

إن تخليق الأعضاء، مظهر من مظاهر العالم الخاص بجنس ما بعد حداثة؛ أي لا تربطه أية صلة بالعالم البيجنسي، وبتعايش متعاضدين غير متشابهين في المرحلة التي تسبق علاجهما نفسيًا، وبعدم القدرة على العمل، أو بأية محاولة أخرى لبلوغ الكمال العضوي من خلال حق المرء المطلق في تملك أجزاء جسده، وإضافة عضو لها. يفتقر تخليق الأعضاء لتعريف حقيقي في اللغة الغربية؛ إنه المرحلة الأخيرة من التهكم، حيث إنه يمثل المحصلة الفظيعة، والنهاية الحتمية لامتداد الهيمنة الفردية المجردة، وتسلط "الأنا"، التي تحررت من كل تبعية؛ أي مرحلة تخليق الإنسان الهائم بلا هوية. لقد كان الإنسان البدائي، بالمفهوم الغربي للفظ، يرتكز على أسطورة الاتحاد الجنسي، والإشباع الغريزي، والنشوة أو الخوف من العضو الذكري؛ تلك الأسطورة التي تحقق التطور الإنساني، والتاريخي، وفقًا للمعتقدات الماركسية والنفسية على حد سواء (...). لقد تعدى التخليق العضوي مرحلة الاتحاد بمفهومه الأصلي القائم على التأقلم مع الطبيعة، بالمعنى الغربي للفظ. ذلك هو العهد غير القانوني لزرع الأعضاء، الذي قد يقودنا نحو دحض معتقده الخاص بحرب الكواكب. يشجع التخليق العضوي بالتأكيد، على التحيز، والتهكم، والألفة، والتضليل؛ إذ يتعارض مع فكرة المثالية، لأنه يفتقر للبراءة في أبسط صورها، وللاستقطاب على المستويين العام والخاص. إن تخليق

الأعضاء يُعد بمثابة المرجعية التكنولوجية التي أسستها ثورة العلاقات المجتمعية داخل المجتمع الواحد. لقد تم إعادة تشكيل الطبيعة والثقافة؛ لأن كلاً منهما لا يقبل أن يكون المصدر الذي يمتلكه أو يستوعبه الطرف الآخر."

دونا هاراواي: ظاهرة تخليق الأعضاء ومحاولات أخرى؛ علوم، تخيلات، حركات نسائية؛ باريس، دار نشر إيجزيل، ٢٠٠٧، الطبعة الأولى ١٩٨٨، ص ٣٢ – ٣٢.

جوديث بوتلر، "تشويه الجنس الشري"

"لقد كان لزامًا علينا، إعادة النظر في تعريف الجسد ككائن أبكم، لم يدرك عصر الثقافة، وينتظر التعريف الذي يحدده. يتطابق ذلك التوصيف، مع وضع المرأة التي تنتظر إدراجها في عالم اللغة والثقافة، باعتبارها الشق الآخر للرجل. لقد كان من الضروري أيضًا، في إطار التحليل الخاص بالتنافر الجنسي الحتمي، إثارة التساؤل المتعلق بالتكوين الجنسي، باعتباره سلالة ثنائية (ذكرًا وأنثى)، ونتاجًا جينيًا، وهوية ذاتية ثابتة تُبرزها الاختلافات "الشكلية" الظاهرية. لقد سبق ورأينا كيف تنشأ الرغبة الفطرية المختلفة بين الجنسين، في الفترة التي استندنا فيها إلى التسليم بوجود نوعين.

والمسألة لا تتعلق بالمحاكاة أو عدمها، إنما بطريقة تنفيذها. إننا نستطيع محاكاة المظهر مع الحفاظ، بصورة جذرية، على التكاثر النوعي، ودحض المعايير التي تدعم المحاكاة. لقد تلاشى علم الكائنات الذي يحدد الصفات الجنسية؛ لأنه يعمل وفقًا لروابط معيارية، وفي إطار الممارسات المُثبَتة، التي تصف النوع ، وتوثق القيود التناسلية الملزمة لكل جنس، ويفرض الضوابط التي تساعد الجسم على التأقلم الثقافي. بالتالي، فإن علم الكائنات ليس ركيزة لتحديد الجنس، إنما محفز معياري يعمل بطريقة غير مباشرة، كي يتحول إلى ركيزة في الخطاب المتعلق بالممارسات.

إن طمس الهوية لا يستلزم تغيير الممارسة، بل تحديد مدلول لفظ الممارسة، الذي يحدد بدوره الهوية. إن مثل هذا النمط النقدي يزعزع الإطار المؤسسي الذي حول ظاهرة التأنث إلى ممارسة تتعلق بالهوية. غير أن هذا الإطار يشتمل على مفارقة داخلية ترتكز على ضرورة افتراض، وتحديد، وإلزام الأفراد بالمعايير التي تمثلهم وتحررهم من القيود المجتمعية؛ فالأمر لايتعلق بالإعلان عن فرص التغيير الجديدة على علاتها، إنما بإعادة توصيف الفرص الموجودة بالفعل في المجالات الثقافية الغامضة، والحرجة؛ بمعنى آخر، إذا لم يتم الاستقرار على تعريف الهويات كدلائل أولية على الجدل المتعلق بالممارسة، وإذا لم يتم فهم الممارسة على أنها مجموعة من العادات من المفترض أنها تنتمي إلى الأفراد المستعدين لتلك الممارسة، في هذه الحالة يمكننا تخليق مظهر جديد، على أنقاض المظهر القديم. في الإمكان تعدد المظاهر الثقافية للجنس والنوع، أو بالأحرى الطريقة التي يمكن بواسطتها إدراجها في الخطاب الذي يشكل الهيكل الثقافي الواضح، الذي يميز بين الجنسين وصفاتهما الطبيعية. لكن ما الإستراتيجيات المحلية المغايرة "للطبيعة" التي يمكن أن تقودنا إلى طمس النوع كما هو، أي على حاله؟"

جوديث بوتلر، الخلل الجنسي؛ التأنث، وطمس الهوية، الترجمة الفرنسية سينشيا كروس، باريس، لا ديكوفارت، ٢٠٠٦ (١٩٩٠)، ص ٢٧٤ – ٢٧٦.

المراجع

1) Sandy Stone, "The Empire strikes back. A Post – Transsexual Manifesto", in Julia Epstein et Kristina Straub (dir). Body Guards. The cultural Politics of Gender Ambiguity, New York, Routledge, 1991, p. 294.

2) Rita Felski, "Fin de Siècle, Fin du sexe. Transsexuality, Postmodernism, and the death of history", New Literary History, vol. 27, n2, 1996, p. 337 – 349.

3) Francis Fukuyama, La Fin de L'histoire et le dernier Homme, Paris, Flammarion, 1992.

4) Jean Beaudrillard,La Transpsrence du mal, Paris, Galilée, 1990, p. 28.

5) Jacque Derrida,Eperons. Les styles de Nietzsche, Paris. "champs"/ Flammarion, 1973.

6) Jean Beaudrillard, Cool Memories, Paris, Galilée, 2000, p. 120.

7) Fredric Jameson, Postmodernism, or, The cultural Logic of late capitalism, Durham, Duke University Press, 1990 (tr. Florence Nevoltry, Le postmodernisme ou la logique culturelle du capitalisme Tardif, Paris, ENSBA, 2007).

8) An imperative to grow new organs, to expand out sensorium and our body to some new, yet unimaginable, perhaps ultimately impossible, dimensions" (ibid., p. 39).

9) Mandy Merck, "Figuring out Warhol", in J. Flatley, et J.E. Munoz (dir), pop out. Queer Warhol, Durham, Duke University Press, 1996, p. 224- 237. Judith Jack Halberstam de Jameson : Judith / Jack Halberstam, In A Queer Time $ place. Transgender Bodies, Subcultural Lives, New York University Press, 2005, p. 98 – 110.

10) Michel Foucault, "cours du 22 janvier 1975", Les Anormaux. Cours au collège de France (1974 -1975), Paris, Gallimard –EHESS –Le seuil, 1999, p. 51.

11) Janice Raymond, The Transsexual Empire. The Making of the She – Male, Boston, Beacon Press, 1979.

12) Donna Haraway, Simians, Cyborgs and Women, The Reinvention of Nature, New York et Londres,Routledge, 1991, et Judith Butler, Gender Trouble. Feminism and the subversion of identity, New York et Londres,Routledge, 1990.(Jay Prosser, Second Skin, New York, Columbia University Press, 1998).

13) Les cis – femmes, ou bio – femmes sont les femmes auxquelles le sexe féminin a été assigné à la naissance.

14) Beatriz Preciado, Testo Junkie. Sexe, drogues et biopolitique, Paris, Grasset, 2008, p. 125.

15) Susan Stryker, Transgender History, San Francisco, Seal Press, 2008.

16) Cheryl Chase, "Hermaphrodites with attitude. Mapping the emergence of political activism", GLQ. A journal of Lesbian and Gay studies, vol.4, n2, 1998, P. 189 – 211.

17) Nancy Jane Burkholder, "Michigan Women's Festival", Transsisters, The journal of transsexual Feimnism, n2, novembre – decembre 1993, p.4.

18) Susan Stryker, "De Subjugated knowledges, An introduction to transgender studies", in Susan Stryker et Stephen Whittle, Transgender Studies Reader, New York et Londres, Routledge, 2006, p.2.

19) Leslie Feinberg, Transgender Liberation. A mouvment whose Time has come, New York, World Wide Forum, 1992, et Kate Borinstein, Gender Out Law. On Men, Women, and the rest of Us, New York et Londres, Routledge, 1994.

20) Beatriz Preciado,"Multitudes Queer", Multitudes, n12, 2002.

21) Gilles Deleuze et Felix Guattari, Mille Plateaux, Paris, Minuit, 1980, p. 602.

انتصار / هزيمة

من موسيقي "الراف" إلى أخرى: الثقافة الرافضة والاستحواذ على الساحة

ماتيو ريمي Mathieu Remy

لنكن مطمئنين أن الثقافة الرافضة لم تُصَب بطعنة قاتلة؛ بل إنها خرجت من عقد الثمانينيات وهي أكثر وضوحًا وتحديدًا مما كان يمكن أن يصدق في مراحلها الأولى. بل من الأحرى أن يقال إن سنوات التسعينيات قد دقت أجراس الممارسات الثقافية الرافضة والمبهجة عندما تم استبدال نمط مزيف ومُتَصنَع وتجاري بها، يحمل في طياته بريق التجديد، الذي لم يُستَثمر منه إلا الأمور الثانوية قبل أن يتركها جثة هامدة.

إن التحولات الأيديولوجية والاقتصادية الأكثر اجتياحًا، كانت قادرة، لفترة من الزمن، على إزاحة بعض الأنماط الخلاقة التي قررت الحفاظ على استقلالها. لقد كان وضع الثقافة البديلة والغامضة – تلك هي التسمية التي نطلقها عليها، وليس "الثقافة الرافضة" – جيدًا في الثمانينيات بعد ابتكار أيديولوجية المعرفة والاستقلال الذاتي (Do it yourself). واستمرت الشعارات المستقلة، والصحافة الموازية في إحراز تقدم على الساحة، حتى ولو كان هامشيًا. والأفضل من ذلك، فإن النماذج الفنية الجديدة التي ظهرت في التسعينيات، تجعلنا ندرك أنها تتوافق مع فكر التحول وإرادة الاستقلال التي نشأت في الستينيات والسبعينيات، ثم مع موسيقى البانك المُسَيسة في الثمانينيات، كما أنها تتوافق مع أهداف مروجي الاتجاه السائد. لقد اتسم تاريخ الثقافة البديلة أوالغامضة، في التسعينيات بنضالها من أجل استرداد مكانتها، والتغلب على هزيمتها، وعلى تعارضها مع السوق، والحفاظ على فترات ازدهارها أحيانًا أخرى، في شكل أنماط غير مسبوقة.

يتلخص تاريخ الثقافة البديلة
في نضالها من أجل استعادة مكانتها

في التسعينيات، ظهر العديد من المبادرات الغامضة التي جذبت الجمهور العريض، في مجالات الإعلام والصناعة الثقافية؛ واستحسن السوق مجالات التجديد كافة، خاصة إذا كان ذلك التجديد يثير الشغف على نطاق واسع؛ فانتقلنا من الرسوم المتحركة، المنبثقة من ثقافة الرسوم اليدوية الثانوية، إلى موسيقى البانك التي ابتكرتها حركة "ستريت إيدج" straight edge، ومن "الفوضى" إلى دور النشر الحديثة التي بدأت تحتل مكانة على الساحة. لقد أدركت الثقافة الغامضة منذ بداية الثمانينيات، أن ثمة علاقة جديدة تربطها بالمجتمع، وأن حلمًا جديدًا جماعيًا وقويًا، يُلح عليها كالوهم المثالي؛ وأن هذه العلاقة تستلزم نمطًا حديثًا، وصاخبًا كي تتمكن من فرض سيطرتها على الساحة التي يمكن أن تلعب من خلالها دورًا نضاليًا غير مسبوق من أجل التحرر؛ فابتُكرت أساليب مستحدثة لفرض الثقافة البديلة أوالمستقلة، وتمهيد الطريق أمام الحفلات التحررية free parties، أو إنشاء عالم جديد ثقافي وذاتي في آن واحد. نجح خلفاء الثقافة الرافضة، التي نشأت في الستينيات، في اقتحام الساحة على مدار التسعينيات، وتثبيت أوتادها من خلال المعايير الاجتماعية، والسياسية لليبرالية الحديثة الناجحة والملتزمة، خاصة فيما يتعلق بالتداول المطلق للنماذج الشبابية المبتكرة.

"لقد أدى عجزنا إلي السخرية منا (...) لقد ابتكرت مدرسة اليأس الابتسامة الصلفة، والدلال الجماعي."

كاميل دي توليدو Camille de Toledo

استمرار تيار الاستقلال DIY

يمكننا تعريف الثقافة الرافضة بأنها مجمل الحركات الفنية / الذاتية، التي نشأت في الستينيات في أرجاء البلاد الصناعية، وتعارضت مع التقاليد الاجتماعية والثقافية السائدة لاستبدالها بحياة شاملة وبديلة؛ هذا إذا ما سلمنا بأن السبعينيات والثمانينيات لم

تسلك الطريق السليم. لهذا، فإن محاولة الثقافة الرافضة "لاستعادة مكانتها" – التي أثارت المخاوف في كل مرحلة من مراحل تكوينها التي تفوقت بخطاها السريعة، ونجاحها التاريخي (بدءًا من الحركة الاجتماعية "سمر أوف لاف" Summer of Love عام ١٩٦٧، وانتهاءً بالحركات التي تأسست في السبعينيات) – لم يمنعها من إحياء تأثيرها، الذي لم يتمكن المجتمع من استيعابه أو القضاء عليه، عن طريق ابتكار مجموعة متكاملة من الثقافة الرافضة في بداية كل عصر جديد.

على الرغم من "الكابوس" الأكيد الذي خيم على الثمانينيات، فقد استمرت محاولات الثقافة الرافضة للمضي قدمًا، وإحياء الحركة وإعادة هيكلتها، مدفوعة بظهور أيديولوجية "الاستقلال" في منعطف السبعينيات، التي أطلق شعارها بيني ريمبو زعيم فريق "كراس" لموسيقى "البانك"، والمسمى "بآخر فرق الهيبيز" Last of hippies التي نشأت في ملتقى "كونتيه ديساكس" البديل، ذي الإدارة الذاتية. في الثمانينيات، تمكنت موسيقى "البانك" بعد تصويب مسارها، وترجمة النظرية المجردة الخاصة بالاستقلال – التي كانت تعد وهمًا بلاغيًا – إلى واقع ملموس. ثم أسس بعض ممثليها أخلاقيات مهنة خاص بها، وحققوا نوعًا من التفوق الاقتصادي، وخاضوا معركة هوية تعيد إحياء رغبة الستينيات القوية. كما نجح نشطاء "البانك"، عبر تطبيق شعار "الاستقلالية" المشهور DIY ، في إنشاء "هيكل مزدوج" قادر على المنافسة مع الصناعة الثقافية الكبرى – حتى لو أدى ذلك إلى التهام الحركة نفسها– من خلال تنفيذ نظام مستقل للإنتاج، والتوزيع، والتطوير، والإدارة(١).

على مدار الثمانينيات، تمكن العديد من الفرق الموسيقية من ممارسة نشاطها تحت شعار "الاستقلال"، ونجحت في عرض موسيقاها دون اللجوء للشركات العملاقة الوسيطة. كما تمكنت بعض دور النشر من الظهور بعد إعادة النظر في علاقاتها مع الناشرين العمالقة، وتجنب ممارستهم المعيارية المقننة، ومواصلة التشكيك في المعايير الثقافية السائدة. في هذا الصدد، يمكننا في فرنسا ذكر دار نشر "آليا" Allia، التي تأسست عام ١٩٨٢، و"تريسترام" Tristram، التي تأسست عام ١٩٨٩؛ وفي الولايات المتحدة الأمريكية، نستطيع ذكر "نيو بريس" The New Press، التي أسسها أندريه شيفرين عام ١٩٩١ ملتزمًا بمبدأ عدم الربحية الاقتصادية، الذي أيدته بعض دور

النشر والقراء. في مجال السينما، واصلت الفنون التشكيلية، ووسائل الإعلام الخلاقة نضالها من أجل الحصول على استقلالها الفني والاقتصادي، وتأسيس "مجتمع دائم التدفق" داخل وخارج إطار الساحة الثقافية المتفق عليها. في هذ السياق، حدثت بعض الإخفاقات المعروفة (الفشل المبكر في فرنسا للإذاعات الحرة)، وتحققت بعض النجاحات الواضحة، كما هو الحال في الولايات المتحدة، مع مجلة "رو" Raw التي أسسها آرت سبيجلمان، وفرانسوا مولي عام ١٩٨٠ (التي استمر نشاطها حتى ١٩٩١)؛ كما يمكننا ذكر الازدهار الذي حققته مجلات الرسوم اليدوية (بدءًا من مجلة ماكسيمومروكنول Maximumrocknroll الأسطورية، وانتهاء بالمجلتين غير الأسطوريتين "لينكس" Lynx و"تيفس Tifs للفرنسي جان كريستوف مونو)، التي تُعد منجمًا حقيقيًا للإبداع الذاتي، الذي استفاد من ابتكارات النَسخ الفوتوغرافي.

في منتصف الثمانينيات، كان في إمكان الفنان الانضمام إلى الثقافة الرافضة أوالغامضة ويصبح عضوًا فعالاً، نظرًا لنمو السوق البديل الذي كان يضم شبكة توزيع منظمة تنظيمًا جيدًا تسمح بالتخلص من شرعية الدولة وبيزنيس السوق الرائجة. وانبثقت من هذه التشكيلات الثقافية "المستقلة" بعض النماذج الفنية الأكثر تشويقًا وتحررًا في التسعينيات، خاصة في مجال فن الخط. ففي فرنسا، حقق مجال الرسوم المتحركة طفرة في التسعينيات، بفضل بعض الشخصيات المؤيدة لتيار الاستقلال، والتي بدأت مشوارها مع فن الكتابة اليدوية، وأسست بعض التجمعات مثل "لاسوسياسون" ,LAssociation، و"كورنيليوس" Cornélius، و"شاكال بوانت" Chacal Puant، وطالبت بفن مستقل تمامًا، وتطلعت لتغيير الأنماط والنماذج والعروض، التي تحذلق البعض منهم، وأطلق عليها "الفن التاسع". حقق كذلك فن الرقص، والموسيقى الإلكترونية ازدهارًا ونجاحًا في سباقات الرقص، التي كانت تتمتع في بدايتها بالتنظيم المستقل، وتطلعت تلك المجالات إلى تكوين تجمعات تُعَبر عن رغبتها المشتركة، وتضم المفتونين المحليين بذلك التيار (من غير المتحمسين للتغيير)، والراغبين بشدة في أن تتحرر الأجساد بصورة جماعية، بالرقص لمدة ثلاثة أيام في مرج منعزل عن القيود الجديدة المفروضة على الحفلات الجماعية.

ظهور متزامن لموسيقى "الهاوس"، و"التكنو"

في تلك الحقبة، دعت الفرق الموسيقية، التي أثارت في عروضها الفنية مسألة القيود المفروضة على الجسد – سواء كانت تتعلق بالصمت، أو الانطواء، أو الاستدعاء – إلى رفض الانزواء، والتلاعب بالجسد بجميع الطرق الممكنة، من أجل مواجهة أشكال القهر الرمزية جميعها. وكان أبرز مثال على ذلك، موسيقى "الهاوس" house، و"التكنو" Techno، التي حثت من خلال إيقاعها الجرىء، على الهرب إلى الموسيقى، وعلى تعايش الجسد مع الأنغام، كي يتمتع بصورة جماعية بتلك الموسيقى؛ كما لو أن الازدهار الحقيقي للثورة الموسيقية – بمفهومها الجديد "للعصر الحديث" الرافض لأنانية الحقبة – لا يمكن أن يتحقق فعليًا إلا بصورة جماعية.

لقد بدأت موسيقى "الهاوس" في الملهى الليلي، "ذا وورهاوس"، مع عازف ال دي جي العبقري فرانكي نوكليس، الذي ابتكر نمطًا موسيقيًا جديدًا في مستهل الثمانينيات، عندما أضاف بعض الإيقاعات التناغمية بواسطة أوتار إلكترونية رخيصة الثمن، على بعض مقاطع الديسكو التي كان يعزفها على منصات الملهى. أدى هذا الوضع إلى إثارة شغف الجماهير، وأشعل روح المنافسة بين نوكليس وعازفي ال دي جي الآخرين، الذين تسابقوا على إثارة هوس الراقصين؛ الأمر الذي حول موسيقى "الهاوس" (التي لم تنبثق مباشرة من نوكليس)، إلى حدث بارز ليس فقط في ثورة الموسيقى الإلكترونية، إنما في تاريخ الممارسات الثقافية؛ إذ تحولت سريعًا، الملاهي الليلية، وفقًا لرأي جيل دي لوز، إلى ملاذات جماعية تُشبع الرغبات الفردية، في لندن وبرلين، ولوس أنجلوس، وهونج كونج، كما أصبحت الملجأ الذي يلم شمل المشاركين حول نشوة موسيقية، تتجاهل المضمون كلما ازدادت انتشارًا.

في ذلك التوقيت تقريبًا، وفي ضاحية بيل فيل بالقرب من ديترو، احتكر ثلاثة شبان – شغوفين بالأنغام الآلية لموسيقى "كرافتوريك" الألمانية، و"الفانك" لجورج كلينتون – موسيقى "الهاوس" لتطوير طابعها الإلكتروني للتوائم مع مجتمع ما بعد الحداثة الصناعي. لقد كان أحد هؤلاء الشبان الثلاثة، جوان آتكينز، شغوفًا بقراءة نظريات ألفين توفلر، الكاتب الذي تنبأ بالمستقبل في إصداراته الأكثر مبيعًا، " صدمات المستقبل" Les Chocs du futur، و"الموجة الثالثة" La troisième Vague، عندما وصف تأثير التطور التكنولوجي والمعلوماتية المباشرة على المتغيرات الاجتماعية.

الجمال الموسيقي للجزء المادي
المكتشف في الآلة الموسيقية
إنه الجمال المجهول

أدى التدهور الفظيع للقطاع الصناعي، الذي شهدته ديترروا في السبعينيات والثمانينيات، إلى ابتكار موسيقى، "التكنو" - المختلفة عن "الهاوس" - الحزينة والمتطلعة لخوض تجارب جديدة تتجاوز حدود الفن والتجارة، والتي سرعان ما أصبحت الموسيقى المعبرة عن عالم الأعمال الذي يزداد انتشارًا. ازداد جوان آتكينز تحمسًا ، بعد نجاح أولى خطواته في مجال الصناعة الموسيقية بمشروعه "سيبوترون"– الذي أصبحت إحدى مقاطعه "تكنو سيتي"، المسمى الذي أطلقه مبتكرو الموسيقى الإلكترونية في ديتروا على ذلك النمط الموسيقي – فأطلق عام ١٩٨٥، شعاره الخاص "ميتروبليكس"، الذي أرسى قواعد الجمال الفني والتجاري التي سرعان ما ازدهرت، مرتكزًا على جمال "الجزء المكتشف في الآلة الموسيقية"– وهي المرحلة التي تسبق عملية إعداد اللحن – وانطلاقًا من ذلك الجمال المادي المجهول، الذي يستطيع من خلاله الفنان الموسيقي العمل تحت مسميات مستعارة، وفي مشاريع نوعية، يمكن أن تحقق إيرادات تملأ خزائن الأسطوانات التي ظلت حتى ذلك الوقت فارغة.

"ينخرط الشباب، بخلاف جيلنا، في النظم المعاصرة المتوائمة مع عمره (...) هل سبق ورأيت شابًا مترددًا؟ إننا نمر بمرحلة انتقالية تتسم بالكراهية: كراهية العصر الحالي"

فرانسوا بيجودو François Bégaudeau

بعد أن أصدر فرع شركة "فيرجين" مجموعة المنتخبات البريطانية "التكنو! الصوت الجديد لديتروا" Techno! The New Sound of Setroit عام ١٩٨٨، أحرزت أنغام التكنو – التي ابتكرها الشبان الثلاثة في بيل فيل، والمختلطة بموسيقى "الهاوس" في المقاطع المسماة "جود لايف" Good Life، أو "بيج فان" Big Fun– نجاحًا مدويًا في أوروبا، بينما ظلت مهمشة على الأراضي الأمريكية. بعد التحول الذي لحق بموسيقى "إيبيزا" في نهاية الثمانينيات، أثارت موسيقى "التكنو"، و"الهاوس"، شغف الشباب الأوروبي –خاصة في بريطانيا – الذي اكتشف في الوقت نفسه أن الحد الأدنى من

هذه الإيقاعات السريعة والمخدرة، يُعد بمثابة الدواء الجديد الذي يساعدهم على التخلص من الأفكار السوداء لمخدر الاكستازي. تميز صيف عامي ١٩٨٨، و١٩٨٩، في بريطانيا بالعودة لمصطلح "صيف الحب" Summer of love، المستوحى من الثقافة الرافضة في ولاية كاليفورنيا، لتعريف الموجة الموسيقية الجديدة، والحياة غير المسبوقة، والحالمة، والمثيرة للنشوة والحرية.

الرقص، سلوك شخصي

يرى البعض، مثل الناقد الموسيقي البريطاني سيمون رينولدز، أن نشأة ظاهرة موسيقى"الراف"، تُعبر عن مطلب جيل بأكمله يعتقد أن لفظ "نحن" المعبر عن الجماعة، يجب أن يطغى على لفظ "أنا" المعبر عن الفردية؛ وأنها موجة مثالية بديلة لأنانية الثمانينيات، وللمادية التي تحمي مصالح المستهلكين؛ بل إنها نمط جديد لحياة تتغلب على مرحلة الجمود. من جهة أخرى، أصر فنانو الموسيقى الإلكترونية في بداية التسعينيات، على رفض نجومية موسيقى "الروك"، وعلى ابتكار نمط رقص موازٍ لها، للتأكيد على الطابع الثوري لموسيقاهم. لقد كانت موسيقى الرقص، بالنسبة لهم، هدامة لأنها تُمَجد اختلاط الجماهير العريضة في ساحات الرقص، على اختلاف نشأتهم الاجتماعية، وأعمارهم، وميولهم الجنسية، ونمط حياتهم. على الجانب الآخر، يعتقد الموسيقيون المتحمسون لتلك الموسيقى، أن المتعة الكبيرة التي تميزها، والتجربة الروحية التي تقترحها، تُعد محاولة لتصالح الجسد مع العقل، بغض النظر عن القيود المفروضة على كل منهما. لقد اعتبروا أيضًا أن تلك التجمعات الراقصة التي تضم عشرات الآلاف من الشباب، المنجذبين إليها في بداية ظهورها، فرصة ملائمة لمخالفة الفوارق الرمزية الموجودة – أهم أسباب الإحباط الذي أصاب قطاعًا عريضًا من الشباب في الثمانينيات – عن طريق فرض حماسة الاحتفال ليلاً، كلُ بطريقته وعلى حسب هواه.

الجدير بالذكر، أن النمط الذي فرضه مبتكرو تلك الموسيقى لم يستمر على حاله؛ فالنوادي الليلية لم تكتف بجذب الأعداد الكبيرة، بل تحايلت بشتى الطرق على

مواعيد الغلق الرسمية بنقل الاحتفال إلى الساحات المكشوفة المحيطة بها؛ الأمر الذي أدى إلى نشأة أولى جفلات "الراف بارتي"، على هامش المنشآت الأسطورية مثل هاسيندا في مانشستر، المقر الأساسي لموسيقى "الهاوس"، و"التكنو"، التي وُصِفت في بداية ظهورها على أنها أماكن احتفالية تتلاءم تمامًا مع العائد المجزي لمتعهدي الحفلات؛ ثم تحولت، بعد إقبال الجماهير العريضة عليها، إلى ظاهرة تحررية تسيطر عليها فكرة اتحاد الجسد بالعقل. لقد بدأ تنظيم حفلات "الراف" في المخازن التي غيرت نشاطها، واستوديوهات السينما المهجورة، والجراجات، والمطارات، والمستودعات كريهة الرائحة، وعلى الشواطئ الاستوائية. وعلى مدار التسعينيات، استولت تلك الحفلات بوضع اليد على الأماكن الطبيعية الأكثر جمالاً في أوروبا؛ مثل "الكاوو" بحي مونبولييه لو فيو في فرنسا (أكبر حديقة طبيعية في أفيرون)، أو الجزء العلوي لتعرجات آنديليس على نهر السين؛ وهي من المواقع التي شهدت أكبر احتفالات التكنو (١٩٩٤ – ١٩٩٦)، التي كانت تستمر من أربعة إلى ستة أيام، مستخدمة أقوى الأنظمة الصوتية التي تسمح بعزف أعلى الأنغام والإيقاعات الإلكترونية. لقد كانت تمثل تلك الحفلات الوجه الآخر للحياة الجماعية غير المسبوقة، التي تذكرنا، من خلال بعض نغماتها وجمالها الاستثنائي، بالفترات الجميلة للثقافة الرافضة الجماعية في الستينيات[٢].

ردع حفلات "الراف" Rave parties، والحفلات التحررية Free parties

انتشرت حفلات "الراف" بسرعة رهيبة في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، وباتت تهدد كيان السلطات السياسية في أنحاء أوروبا، خاصة بعد تفاقم حالات الاستيلاء العشوائي على الأماكن العامة أو الخاصة المفتوحة؛ الأمر الذي أدى إلى ضرورة فرض الرقابة الشرطية عليها، ومصادرة الأجهزة الثقيلة، وفرض الغرامات على الحفلات غير القانونية. وبدأت ممارسة لعبة القط والفأر الأسطورية بين هواة موسيقى الرقص، والسلطات الحكومية في أرجاء أوروبا، ولجأ منظمو الحفلات غير

الشرعيين إلى المناورات الماكرة للتحريض على ملاحقات الشرطة؛ مثل استخدام المكبرات الصوتية عن بعد بواسطة شفرة سرية، والإعلان عن حفلات مزيفة لتضليل رجال الشرطة مستخدمي التليفون المحمول، إلخ. لم تكن خدمة الإنترنت قد انتشرت في تلك الآونة، كي يستخدمها المناورون في السخرية من الشرطة. عام ١٩٨٩، بدأت ظاهرة "الراف" تقلق السلطات البريطانية، بعد إعادة عرض حفلات موسيقى "صيف الحب" التي نظمها ملهى هاسيندا، وبعد العثور على جثة فتاة تبلغ من العمر ستة عشر عامًا إثر تناولها جرعة زائدة من مخدر الإكستاز. وبدأت عملية المراقبة الواسعة لحفلات "الراف"، بواسطة فرقة خاصة مترجلة برئاسة مأمور قسم المقاطعة، كين تابينديز، لشن حملات مباغتة على الحفلات المفاجئة، وفضها، والقضاء على الشبكات التي تنظمها.

بدأت السلطات البريطانية عام ١٩٩٢، إعداد تشريع قانوني يتيح لها الحد من تلك التجمعات، بعد الحفلة الموسيقية الإلكترونية الضخمة التي أُقيمت في مقاطعة كاسل مورتن، وضمت ما يزيد على ٣٠٠٠٠ شخص. بعد انتهاء تلك الحفلة "العملاقة"، ألقت الشرطة القبض على أعضاء فرقة "سبيرال ترايب"، واتهمتهم "بالتآمر لإثارة القلاقل وتكدير الأمن العام"؛ غير أن التهمة لم تثبت عليهم، وأُطلق سراحهم بسهولة بعد فوزهم بالقضية المعروفة بـ"قضية النهر" في نهاية ١٩٩٤. لقد بدأت تلك الفرقة نشاطها عام ١٩٩٠، وأصبحت رمزًا لمقاومة القمع ضد الحركة المؤيدة "للحفلات التحررية"، ثم انضمت للتجمعات المُسيَسة – بل الموالية للعالمية المزيفة، مثل "ريكلام ذا ستريت" – لتصبح رأس الحربة في المعركة الدائرة بين مؤيدي "الراف"، والسلطات البريطانية، التي صرحت في أحد المقالات المشهورة أنها بصدد إعداد مشروع قانون أكثر شمولاً يتعلق بالأمن العام (criminal justice bill) ينص على منع التجمعات التي تزيد على خمسة عشر شخصًا لسماع الموسيقى. أثار ذلك المقال مؤيدي الموسيقى الإلكترونية، فقاموا بشن معركة طويلة ضد حكومة مارجريت تاتشر، رأس حربة الليبرالية العالمية الحديثة؛ وأدى إلى موجة من التمرد والعصيان المدني العام قبل صدور ذلك القانون في نوفمبر ١٩٩٤، على الرغم من التعبئة الكبيرة ضده من الشباب والصحافة الموسيقية البريطانية. لقد أراد البعض استغلال هذا

الصراع السياسي، المصحوب بمقاطع من الموسيقى الإلكترونية التي كان أشهرها "ذار لو"، لفريق "ذا بروديجي "(بحضور بوب ويل إيتا إيتسيلف)، لإحياء معارك التحرر المناهضة لثقافة "الهيبي" و"البانك". غير أن حركة "العصيان المدني"، التي تزعمتها بعض الجماعات من مشجعي "الراف"، أخفقت بسبب افتقار زعماء الحركة للخبرة السياسية، ولإعلائهم شعار "نظرية المتعة" القائمة على إشباع "سعادة الفرد" التي يسهل تحقيقها في الملهى.

تكرار، انشقاق، إعادة تأدية

مثلما كانت مسألة مناهضة السلطات الحكومية تُعد من العلامات الفارقة في تاريخ الموسيقى الراقصة، كانت أيضًا معركة "التكنو"، و"الهاوس" تشتعل بالتوازي، ضد الترويج لثقافة تلك الموسيقى التي تقوم، قبل كل شيء، على حرية الحلم بصورة جماعية. وقد خاضت "الحفلات التحررية" أولى تلك المعارك، لأن المتحمسين لموسيقى "الراف" منذ نشأتها، أدركوا أن رجال الأعمال سوف يسعون لتحقيق الربح المادي الهائل، بعد اتساع تأثيرها. ولقد كان أبرز مثال على استعادة أجواء "الهاوس"، و"التكنو"، إنشاء الملهى الضخم "مينيستري أوف ساوند"، في أحد مستودعات النقل العام القديمة بلندن، في حي إليفنت أند كاستل. وقد حدد ذلك الملهى، منذ نشأته عام ١٩٩١، هدفه في أن يصبح المكان الوحيد، الذي لا غنى عنه، في أوروبا لعزف الموسيقى الإلكترونية، ويتردد عليه أشهر الفنانين، ويروج لفنه بطريقة طموح تسمح لمريديه بالشعور بأنهم يعيشون كما يحلو لهم.

حقبة المراهقة في ألعاب الفيديو

"على أعتاب التسعينيات، استمرت لعبة البلاي ستيشن "وولف إينستن ثري دي"، بمشاهدها التي تعرض الرجل النازي الضخم، المدجج بمدفعين رشاشين، على رأس قائمة ألعاب الفيديو، ومهدت الطريق لألعاب التصويب وإطلاق النار. في لعبة "دووم" استبدل

الصليب المعقوف برموز شيطانية، مع الاحتفاظ بالمحتوى ذاته، الذي يعرض مقاطع غير مسبوقة لكاميرا تطلق النار، مع خلفية موسيقية تعبر عن تكدس الجثث. مع ابتكار شركة "أي دي سوفت وير" لعبة "تيكسانس" ثلاثية الأبعاد المثيرة للأعصاب، نشأ نمط جديد من ألعاب الفيديو، على غرار لعبة"أركاد"، ليحقق ثورة في قواعد الألعاب ترتكز على ابتكار ساحة تمثيلية، وحركات مختلفة. خرجت لعبة "شوترز"، أو كما يطلق عليها "دووم لايكِ" عن هذا الإطار، واستفادت من الاكتشافات التقنية التي طبقتها ألعاب "الهاكرز"، ووزِعَت الألعاب خارج نطاق الشبكات التقليدية على برامج الكمبيوتر السوفت وير، تُوزَع النسخة الأولى منه مجانًا، ثم بعد ذلك بمقابل مادي على أقراص مدمجة أو على النت. أدت هذه السياسة التسويقية المتلاعبة بالسوق، إلى إثارة الجدل؛ ففي عام ١٩٩٩، بعد مقتل كولومبيين على يد اثنين من المراهقين المهووسين بلعبة"دووم لايك" Doom- Like، طالب الملازم جروسمان "بالكف عن تعليم أولادنا كيف يقتلون". وأصبحت ألعاب الفيديو جزءًا لا يتجزأ من السوق الخلفية التي تعج بأفلام الرعب، وموسيقى "هيفي ميتال"، التي يتمسك بها الشباب. وتغيرت أنماط ثقافة ألعاب الفيديو، كلما تغيرت الابتكارات التقنية، ودخلت في سباق محموم بفضل تقنية الأبعاد الثلاثية، والمشاهد التمثيلية التصويبية، والأقراص المدمجة سي دي روم التي سهلت عملية التخزين، وعرض الأصوات الرقمية، ومقتطفات الأفلام. وسار الشغف بالوسائط المتعددة بالتوازي مع تعميم "أفلام الحركة"، التي اقتُبست بعض مشاهدها في ألعاب الفيديو، كنوع من المكافاة للاعب الفائز، ولتطوير الحبكة. وتسارعت خطى تطوير صناعة الفيديو بنفس وتيرة التطور الذي تحقق في عالم الكمبيوتر، وتميزت التسعينيات بازدهار ألعاب البلاي ستيشن (١٩٩٤)؛ أو بمعنى آخر، اقتحم "سوني" السوق، ذلك العملاق الإلكتروني واسع الانتشار، وتغلب على منافسه الياباني "سيجا". تُعد ألعاب البلاي ستيشن نمطًا جديدًا يعيد إلى أذهاننا ظاهرة السوق الرائجة التي بدأت مع الكمبيوتر المحمول، لأن أقراصها المدمجة تتميز بسهولة نسخها. في التسعينيات؛ تزامن أيضًا تطوير ثقافة ألعاب الفيديو، مع التنافس الشديد بين مبتكري ذاكرة الكمبيوتر لتسهيل عملية النسخ، وازدادت حدة المنافسة مع ابتكار مواقع القرصنة الإلكترونية المعروفة "بوواريز" ، وبرامجها ذات السعة التحميلية التي تصل إلى ٥٦ ك. بعد تعميم خدمات الإنترنت، انتشرت ألعاب الفيديو التصويبية (كويك، وكاونتر،

وسترايك)، وتواصل آلاف اللاعبين مع بعضهم البعض بواسطة موقع الألعاب "أولتيمــا أون لاين" Ultima on Line. من الصعب إذن تجنب الانطباع بأن التسعينيات تعد حقبة المراهقــة في ألعاب الفيديو؛ لأنه إذا كان اتحاد "سوني" و"سيجا" قد أشعل السباق فـــي لعبـــة "نينتينــدو" باسترجاعه عالم الطفولة، فإن عالم الكمبيوتر المحمول الفوضوي، تأقلم مع الساحة الاجتماعية مخترقة الإنترنت، التي تنمو فيها ثقافة التدليس، المزدهرة التي يتعذر تجاهلها".

ماتيو تريكلو Mathieu Triclot

اللهى الليلي أصبح نوعاً

من الممارسات الدنيا

تمسكت الجماعات الراديكالية بإحياء مفهوم "الحفلات التحررية" - القائمة على رفض المنفعة المادية، وعلى إعادة النظر في العلاقة المختلة بين الفنان والجمهور التي سبق وعارضها رواد موسيقى التكنو مثل جوان آتكينز - كرد فعل على الاتجاه الذي يعتقد مؤيدوه أنه محاولة للتحرر الكلي. غير أن ملاحقة الشرطة، وصدور قانون الأمن العام criminal justice bill كان كافيًا لردع العناصر الأكثر ضراوة من ممارسة نشاطها على الأراضي البريطانية. اضطرت بعد ذلك فرقة "سبيرال تريب" منذ عام ١٩٩٣، لإغواء شباب أوروبا، من فرنسا حتى التشيك، بفكر الحفلات التحررية، عبر خلط المفاهيم الأيديولوجية المستوحاة من ألفاظ التصوف لتجمع بين "نيو إيدج"، وفكر تيار الاستقلال، وعبارات الشاعر الروحي حكيم بك الحماسية في مؤلفه "مناطق مستقلة مؤقتة"(٣).

ظهر تأثير هذا التبشير الديني - كانت الفرق الموسيقية الإلكترونية تعظم كذلك حياة الترحال - في أرجاء أوروبا، بدءًا من الحفل الذي أُقيم في بوفيه عام ١٩٩٣ بفرنسا، وحتى حفل "زيك تك" في نهاية العقد؛ غير أن هذا لم يمنع السلطات المحلية من مطاردتهم في كل مرة. لم تتوان تلك الجماعات عن الدفاع عن الثقافة الخاصة بالرقص - حتى في الولايات المتحدة حيث فشلت ثقافة "الراف" في التغلغل - لأنها كانت تجسد، من وجهة نظرهم، مفهوم المعارضة. كان أبرز مثال على ذلك، جماعة "أندرجراوند ريزيستانس"، التي تأسست في ديترروا عام ١٩٨٩، وتبنت مبادئ "الموازاة" المتوارثة من رواد ذلك الاتجاه، والمفاهيم الاقتصادية لجماعة تيار الاستقلال؛ ثم أعلنت مع مرور الوقت، شعارها المستقل، وحددت أسلوبها التسويقي البديل "الإغراق"، وابتكرت لغتها المتمردة التي حولت موسيقى التكنو إلى سلاح معارضة اجتماعية غير مسبوق، وقادر على "تفجير ثورة مدوية"؛ كما حثت هواة الموسيقي الإلكترونية على الانضمام لجبهة "المقاومة".

على الرغم من انهيار حركة "سبيرال ترايب" Spiral Tribe في نهاية عام ١٩٩٦، والانحسار التدريجي لنشاط "أندرجراوند ريزيستانس" في ساحة الموسيقى الإلكترونية (التي أصبحت أكثر تنوعًا)، فإننا نستطيع أن نؤكد أن "الحفلات التحررية" في التسعينيات، على المستويين الاقتصادي والعملي، أثرت تأثيرًا كبيرًا، في قطاع عريض من الشباب الغربي، المفتون بالممارسات العامة لتلك الشريحة من مجموعات الرقص "المستتر". فيما يتعلق بموسيقى "التكنو" و"الهاوس"، تمكن السوق، بسرعة كبيرة، من إنتاج وترويج مجموعة أسطوانات ضخمة ذات ماركات مسجلة، تحقق المتعة الثورية المطلوبة للمستمعين، وبأسعار تشجع الغالبية العظمى من المستهلكين على اقتنائها، عبر فروعها الشرعية دون اللجوء للأساليب الملتوية.

الثقافة المضادة والسياسة المناهضة:

تشابه المعركة والأجواء

على الرغم من تراجع تلك الاتجاهات، واختلاف الأجواء في الألفية الثانية، يظل التساؤل: هل تُعد ثقافة "الراف" – أو جزء منها على الأقل – اجتياحًا لثقافة الستينيات الرافضة، "السيكتيس"، و"البانك"، أم شكلاً جديدًا متماسكًا لثقافة معارضة؟ الأمر الأكيد، هو أن شريحة كبيرة من حركة "الحفلات التحررية" مارست عملها التحرري بأسلوب قد يتشابه مع أيديولوجية جماعة تيار الاستقلال، وتطلعاتها – خاصة فيما يتعلق بمبدأ الترحال – هذا من جانب؛ ومن جانب آخر، فإنه من الواضح أن حركة "الموسيقى الراقصة" كانت تتوافق في بداية نشأتها (الهاوس في شيكاغو التي تأثرت بفكر الديسكو)، مع رغبات المشاهد وصناعة الأسطوانات. الأمر الأكيد كذلك، أن تلك الأجواء أسهمت في إعادة النظر في التحفظات التي قد يثيرها بعض المدافعين عن "الحفلات التحررية"، وأصبحت حجة ضد السلطة المزعومة، المعادية للثقافات "المستترة"، التي ركزت جوهر نشاطها منذ التسعينيات، على تحرير الجسد والعقل بواسطة القوة الجماعية الدافعة.

انطلاقًا من ذلك البرهان، فإن التهديد الحقيقي للنظام القائم، كان يقتصر على المحاولات المناهضة، والرافضة لأية صيغة توافقية، أو حوار مجتمعي. لكن إذا سلمنا بتلك الفرضية، فإننا نتجاهل الأجواء المشابهة التي خيمت في نهاية التسعينيات على الاتجاهات المختلفة للحركات المناهضة للعولمة - التي تأرجحت بين الاستنكار المعنوي للرأسمالية، والإستراتيجية المضادة؛ وبين الإصلاح التشريعي، والانفعال التلقائي؛ وبين الاختلافات الشعبية، وتأكيد هوية حقبة ما بعد الاستعمار - التي قد تُعد، بوجه حق، الصيغة الموازية للسياسة المضادة التي أرادت حركات "الراف"، و"الرقص" فرضها في الفترة عينها على الساحة الثقافية، أو على ساحة الثقافة المضادة؛ بل إننا نتجاهل أيضًا نشأة الثقافة الرافضة، وتأثيراتها الواضحة. وإذا أردنا عرض شعارات تلك الثقافة وتطلعاتها الواهمة بصورة مخالفة، أو تطبيق رياضة الجودو - التي يستغل فيها المتباري حركات منافسه للتغلب عليه - على نماذجها المهيمنة، فسوف ندرك أن الثقافة المضادة قد حققت نجاحًا كبيرًا في الفترات التي شنت فيها هجومًا مباشرًا على النظم السائدة؛ وإذا اقتصرنا - في تعريفها - على سعيها إلى الانعزالية، أو إصلاح ما لا يمكن إصلاحه، فسوف نبخسها حقها في التمتع بلا قيود، ونحرمها من الوقود الذي حفزها على الإبداع في كل حقبة على حدة وساعدها على استرداد، ولو جزء، مما سلبه العصر منها.

كاميل دي توليدو، "جيل الانهيار المزدوج"

"أعتقد أن السبب الأول للمعارضة التي انتهجها جيل الانهيار الأول ليس اقتصاديًا، بل نفسيًا؛ أي مرتبط بشعور أبنائه بالارتباك، والنفور، والكبت، والضياع ! نعم الضياع لأنه يواجه عالمًا تنقسم فيه الآراء حول انغلاقه على نظم سياسية، واقتصادية، واجتماعية واحدة تحكم الجنس البشري. يؤد هذا الكبت إلى الإحساس بألم غريب، لا تظهر أعراضه بصورة واضحة؛ ألم يؤد إلى الشعور بالعجز، ويضغط على المعدة،، والحلق، والجسد بكامله. ولهذا سعى أبناء الغرب المصابون بتلك الأعراض إلى تأسيس كيان يساعدهم على الصمود. هل

هي نزوة؟ لا أعتقد ذلك، فقد خيم اليأس على السنوات العشر الأخيرة، ولهذا اضطررنا لاختراع سبب لوجودنا في هذه الحياة، يرفض الخضوع والاستسلام.

في عام ١٩٥١ تساءل ألبير كامي قائلاً: "من الإنسان الثائر؟ إنه الذي يعترض ولا يرفض، ويوافق دون تفكير؛ إنه أسير كان يتلقى الأوامر طيلة حياته، ثم يرفض فجأة الأوامر الصادرة له. ما المقصود بهذا الرفض؟". استمر التمرد، منذ ذلك الوقت، على مدار خمسين عامًا، وارتبطت مثله العليا بتحقيق المنفعة المادية، وتحولت الفئة المعارضة إلى المطالبة بإصلاح السوق. لم تعد المسألة تتعلق إذن بالرفض، ولماذا فقد مضمونه؛ بل أصبح التساؤل يتمحور حول المقصود بالمعارضة، معارضة من وماذا؟ لقد كان هذا المصير المجهول أحد أسباب اندلاع مظاهرات سياتل، وبراج، وجنوة، التي عبرت بدقة عن الوضع الذي عانينا منه طوال فترة المراهقة؛ تلك الحقبة التي كان لزامًا علينا أن نختار فيها بين اليأس، والانتحار والضحك؛ اليأس من مصير انتهى قبل أن يبدأ؛ والانتحار للهروب؛ والضحك للبقاء على قيد الحياة. إن الكبت يدفع إلى التمرد الذي يساعدنا على البحث في أسباب هذا الكبت، وتجفيف منابعه، والتعبير عنه بصورة علنية. لقد فرض هذا الواقع نفسه علينا بسهولة، ودون إكراه؛ لأننا ببساطة طرقنا كل الأبواب. لقد أصابنا الضجر، وسئمنا من كلمات كامي عن الرفض. لقد تجاهل المجتمع مظاهر التعبير الرافضة وصيحات التمرد، واعتبرها أمرًا عابرًا، فتحولت إلى ألفاظ سوقية، وإلى أسوأ أساليب إثبات الذات على الساحة. لقد كانت ذكرى صرخات استنكارنا الصادقة تُلح على أذهاننا بالليل عندما كنا نأوي للفراش، فتنقذنا الوحدة من رتابة هذا الوضع.

عندما أردت تفسير الموقف السلبي تجاه ذلك التمرد، وكيف اضطررنا للضحك تعبيرًا عن عجزنا، قمت بفحص هيكله غير المرئي، فأدركت أنه يتكون من خمس لبنات؛ اللبنة الأولى أوقفت مسار التاريخ، والثانية قضت على الرغبة في الصمود، والثالثة أضعفت مخططات التغيير، والرابعة التهمت العوامل المساعدة جميعها، والخامسة شتتت السلطات

السياسية والاقتصادية فشردت المعارضة. أدى هذا الهيكل الخماسي سابق التجهيز، إلى تشييد مدرسة اليأس، المدرسة التي أنتجت الضحكة الصلفة، والدلال الجماعي".

كاميل دي توليدو، "وداع القرن العشرين"، اعترافات شاب معارض، باريس، كالمان ليفي، ٢٠٠٢، ص ٢٣ – ٢٥، (تحت الطبع).

فرانسوا بيجودو

"التوافق مع العصر تحالف مع الشيطان"

"لقد اضطررنا لارتداء ثياب الحداد، كوسيلة أخيرة للتوافق مع السلوك المشوش للشباب المعاصر، الذي من المحال تعريفه ككتلة موحدة . لقد اتفق المنظرون أمثالنا، في منتصف التسعينيات، على تعريف موحد وعملي للغاية للفظ "الشاب"؛ ثم أدرك المراقبون للأوضاع ضرورة التمييز بين شباب العشرينيات وبيننا، وسلموا بأنه يجب عدم الخلط بين الفئتين، لأن شاب العشرينيات يندمج مع تقاليد من هم في مثل عمره، وهذا لا ينطبق علينا. لم يكن ذلك التعريف كافيًا، وأُطلقت مسميات أخرى تعبر عن حال الشباب؛ مثل "المستسلم للظلمات" الذي أُطلق على الطالب الموهوب للغاية، تيري دارس الآداب، لوصف صمته الممتقع، و"الطفل الحديث" للتعبير عن الطالب البارز في الفنون الجميلة، و"الشاب المتشكك" الذي أُطلق على إدوارد بيار عاشق البرمجة. لقد كانت تُقاطَع الأمسيات للسؤال عن وجود شاب متشكك بين الحاضرين، وإذا سارع أحدهم إلى الرد إيجابيًا، كان يُصنَف في تلك الفئة المتشككة؛ ولهذا كان يلتزم الحاضرون الصمت دون الاستفسار لأنه أمر مسلم به، ولأنهم في غنى عن الفهم. لقد اكتفوا وأصبحوا لا يدينون بشيء لهذا العالم إذا استمر على حاله، ومتغيراته، و تقلباته؛ ذلك العالم الذي يتشكك في سلوكيات الشاب المعاصر الذي ينطلق بدراجته يوم الجمعة – على سبيل المثال – على رصيف أحد مقاهى شارع سان جرمان، فيؤدي هذا الاستعراض الروتيني إلى ثرثرة بين ثلاثة مزدرين لتلك الممارسة الممتعة (أو أربعة أو خمسة لأن الحي يعج بهم). وإذا أردنا أن نعرف المزيد عن تلك المسميات، يمكننا الرجوع لمؤلف فيليب موراي الذي اسردها بالتفصيل.

مثلما منعتنا مخاوف اليساريين من الحكم على الشعب، اتخذ حلفاؤنا المنظرون موقفًا متشككًا مماثلاً عندما عرفوا الفترة الانتقالية للعصر، بأنها الحقبة التي تشمل الظواهر الخفية في عصر الديمقراطية الذي وصفوه بعصر البرجوازية. لقد تعرض العصر للتجريم لكثرة جرائمه الاجتماعية المتمثلة في الأفلام الشعبية، والمفكرين المعتدلين ، والموسيقى التجارية، والبرامج المتخصصة التليفزيونية، وبدايات الغزو المعلوماتي. لقد كان من البديهي إذن ألا نُظهر أي رد فعل، لأننا سلمنا بأن الحاضر إذا تحرك منفردًا فسوف يصبح متقلبًا (...).

لقد تجاهلنا طويلاً ثقافة التكنو الرافضة، وقلدنا مغالاة "التريب هوب"، وتجنبنا "الراب"؛ لأننا لم نعد نؤمن إلا بعقولنا، ومعتقداتنا ، وعصرنا الذي يتخذ موقفًا سلبيًا من النقد الفكري، لأنه ليس عصرًا ناقدًا أو مفكرًا. لقد بغضنا في الثمانينيات، السراويل الجينز الضيقة ؛ وفي التسعينيات انتقدنا السراويل الفضفاضة، وأشدنا بالعزف الحي على الجيتار، ثم استبدلناه بالأسطوانات المدمجة "إف إم" على جزء من الألف يعادل ٨٢ -٣. لقد اعتنقت شخصيًا الشيوعية في أواخر عصر الاتحاد السوفيتي، وأيدت موسيقى "البانك" بعد ظهورها بخمسة عشر عامًا، وترددت دون انقطاع على سلسلة حفلاتها الموسيقية – بعد اختفاء الاتجاه البديل الذي أيدته فترة ازدهاره، أي النموذج الإنجليزي المندثر منذ ٧٨، بعد اتفاق فرقة "ذا كلاش" مع شركة "سي بي إس" الأسطورية – على الرغم من إيماني بأن التوافق مع العصر يُعد تحالفًا مع الشيطان. في هذا السياق، سوف أدخر بعض الثرثرة في خزانتي، لأستخرجها عندما تتوافق مع الاتجاه السائد".

فرانسوا بيجودو، "مثالا محاكاة، أو حياتي السياسية"، باريس، فارتيكال، ٢٠١٣، ص ١٧٦ – ١٨٠.

المراجع

1) le Label SST Records, fondé en 1978 par Greg Ginn; le Label Alternative Tentacles, fondé en 1979 pour les disques Dead Kennedys; Le Label Dischord, fondé en 1980 par Ian Mckay et Jef Nelson; Bondage Records, fondé en 1984.

2) Barry Miles; Le parallèle entre la vie nocturne londonnienne des années 1990 et celle des années 1960; L'extazy a remplacé les drogues hallucinogènes.

3) Hakim Bey, Temporary Autonomous Zone. Ontological Anarchism, Poetic Terrorism, Autonomedia, New York, 1991 (tr. Fr. Zone autonome temporaire, Paris, L'eclat, 1998.

الصحة والمخاطر في حقبة الإيدز: المعارك الجديدة للقوة البيولوجية

أوليفيه دوبر Olivier Doubre

نشرت الصحيفة اليومية "ليبيراسـيون" Libération يـوم ١٧ ديـسمبر ١٩٨٦، جدولاً كبيرًا في صفحتين، على غرار لوحة الإعلانات التي تُعلق في قاعات الانتظـار بالمستشفيات، يلخص "العوامل الخطرة" التي تتسبب في العدوى بالإيدز مثل، الأوضاع والممارسات الجنسية، وغيرها من احتمالات انتقال الفيروس عـن طريـق الـسوائل البيولوجية. كما كتب الممثل وودي آلان في أحد المقالات بعنوان "نظرة خاطفة" النص الآتى: "كل ما تريد أن تعرفه عن الإيدز دون الخجل من السؤال". ثم قامـت صـحيفة "ليبيراسيون" بحصر عوامل العدوى بفيروس نقص المناعة "الإيدز" وفقًـا لاحتمـالات انتقال الفيروس، وأسباب العدوى، وطرق الوقاية. لقد أثمرت تلك القـوائم المـصورة ثورة في مفاهيم عامة الشعب عن الممارسات الجنسية؛ الأمر الذي شجع الصحيفة بعـد ذلك بعدة شهور، في يونيو ١٩٨٧ أثناء انعقاد المؤتمر الدولي الثالث عن الإيدز، علـى تخصيص صفحة كاملة عن الموضوع بعنوان "الإيدز يغير مفهوم الجنس". لقـد سـبق وأوضحت تلك الصحيفة في عددها الصادر في ديسمبر ١٩٨٦، طرق انتقال العـدوى عن طريق العضو التناسلي، والممارسة الجنـسية اللواطيـة والـسحاقية، وعلاقـات "الشذوذ التقليدية"، والجماع من الأمام أو الخلف؛ واستبعدت الإصابة بواسطة البعوض، والسلام باليد، والشرب من كوب شخص آخر، والقبلات، لنفي الشائعات التي انتشرت في النصف الأول من الثمانينيات.

في العام ذاته، في ألمانيا، أصدر عالم الاجتماع أولريخ بيك مؤلفه المشهور "مجتمع المخاطر" La Société du Risque، الذي تحول إلى عمل سينمائي بعنوان "الطريق المختلف للحداثة". لقد أكد عالم الاجتماع بجامعة ميونيخ في اليوم التالي لحادثة تشيرنوبل قائلاً: "ليس مستحيلاً – كما كان الحال أيام المخاطر الصناعية والمهنية في النصف الأول من القرن العشرين – محاصرة مخاطر الإيدز في منطقة ما أو محيط بعينه. إننا نلاحظ أن ثمة اتجاهًا لتعميم المرض على كل ما يتعلق بالصحة الإنجابية والتناسلية، ليتعدى حدود الدول. لقد ظهرت تهديدات عبر قومية، لا تقتصر على طبقة بعينها، ومتزامنة مع نشاط فعال على الصعيدين السياسي والاجتماعي (...) ومع منطق جديد يغير مجرى الفرص والمخاطر؛ تلك هي حدود مجتمع المخاطر"(١). إننا ندهش من تباطؤنا في ترجمة هذا المؤلف إلى اللغة الفرنسية، بعد صدوره بخمسة عشر عامًا؛ لأنه كان أحد أسباب التحول الذي كانت تطالب به شرائح مجتمعية عديدة في الثمانينيات والتسعينيات، رافضة للكتابات النقدية لمجتمع ما بعد الحداثة. استهل أولريخ بيك مقدمة كتابه، بتحديد موضوع كتابه، وتعريف مفهوم بادئة الكلام "ما بعد" في مصطلح "ما بعد الحداثة"، والتركيز على مسألة المخاطر التي أطلق عليها البعض في فرنسا "تحصين المجتمع"، مثل فرانسوا إيوالد، المساعد الأسبق لميشيل فوكولت، ومستشار ميديف فيما بعد. أصدرت إحدى دور النشر الفرنسية عام ٢٠٠١ كتاب بيك، دون تبرير طرحه في الأسواق إثر وقوع إعتداءات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن، وبعد انفجار مصنع تولوز الذري. وأبرزت الطبعة الرابعة على غلاف الكتاب العبارة الآتية: "لم يعد يقتصر الخطر على التهديد، بل تعداه وأصبح يشكل طبيعة رد فعلنا"، ثم شرح المؤلف الهدف المقصود من رد الفعل في العبارة التالية: "لقد تغلب منطق توزيع المخاطر على توزيع الثروات؛ علينا الآن أن نتساءل باستمرار عن المصدر الأساسي لتلك المخاطر، وأن ندرك أن "مجتمع المخاطر" يجبرنا على التنبؤ بالمستقبل في الوقت الحالي"(٢).

مجتمع المخاطر والاقتصاد البيولوجي

في الفترة التي تزامنت فيها الليبرالية الحديثة والفلسفة العقلانية المتعلقة "بتحصين المجتمع"، أصبح مفهوم المخاطر في التسعينيات – بغض النظر عن مأساة الإيدز – يرتكز على مفهوم مختلف للعمل الاجتماعي، يتوافق مع مفهوم فوكولت عن "السياسة البيولوجية" الذي أطلقه قبل ذلك بخمسة عشر عامًا. لقد أصبحت طرق العلاج الأساسية والتأمين الصحي، محور القرن العشرين والهدف الأساسي للحكومات الليبرالية، في الفترة التي تزامنت فيها نشأة السياسات القومية، والأساليب الطبية الحديثة[٣]. كما أصبحت مسألة المخاطر تشكل إحدى أولويات المجال الطبي في النصف الثاني من الثمانينيات وطوال عقد التسعينيات، انطلاقًا من أن الصحة العامة والتأمين الصحي، يشكلان بصورة غير مسبوقة الساحة الحاسمة التي تحدد مستقبل علاقات القوى التي ترتكز في تنافسها على ثلاثة محاور؛ أولاً القوى الشعبية التي تواجه مخاطر جديدة مجهولة، لا تتماشى مع منطق البيروقراطية السائد، وغير المجدي (بل القاتل أحيانًا)؛ ثانيًا القطاع العريض من المرضى محدودي الدخل؛ وأخيرًا قوى السوق التي باتت تحدد هامش المناورة على الصعيدين السياسي والمدني، خاصة في مجالات صناعة الدواء التي لاقت رواجًا كبيرًا بعد تعاونها مع مجالي الصحة الإنجابية والزراعة الجينية التي تقلل من المخاطر الغذائية، فأسفرت عن نمط "الاقتصاد البيولوجي" الشامل الذي يمارس نشاطه بعيدًا عن رقابة الدولة. بعد توالي الأزمات الصحية في التسعينيات، على خلفية تهديدات وباء الإيدز، أصبح مفهوم "المخاطر" هو الذي ينظم – سواء للأفضل أو للأسوأ – روابطنا الصحية بالمجتمع وبالحياة بصفة عامة. في التسعينيات، كان أبرز مثال على ذلك، تاريخ الإيدز في فرنسا، سواء بعد إقرار الحكومة باعتباره قضية قومية (١٩٨٧ – ١٩٨٨)، أو قبل تعميم العلاج الثلاثي في بداية الألفية الثانية، بعد طرحه في الأسواق عامي ١٩٩٦ و١٩٩٧.

المقصود بالمخاطر، في هذا التحول السياسي البيولوجي في التسعينيات، وسائل تعاملنا مع المرض، والعدوى، وانتشاره على المستويين المحلي والعالمي. في عهد سابق، ارتبطت في أذهاننا المخاطر الصحية للسرطان، وأمراض الأوعية الدموية، والحميات بالممارسات الشخصية؛ غير أنها ترتبط في عصرنا الحالي بانتشار ظاهرة الإيدز عالميًا، بعد تجاوزها حدود الوطن الواحد، وانتقالها من مجتمع لآخر. تظل مسألة الممارسات الشخصية أحد الأسباب المرضية، لكن مفهوم "التهديد" هو الذي أصبح عالميًا، وممنهجًا، ومتعدد الأطوار؛ لأنه إذا كانت الممارسات الشخصية تقلل أو ترفع "فرص" الإصابة بالمرض، فإننا نتعرض لأوبئة أو لمخاطر صحية تتجاوز حدودنا، المعروفة والمجهولة، وتضع المخاطر في صميم اهتمامات القطاعات الاقتصادية المعنية؛ وعلى رأسها الصناعات الدوائية، التي تحقق طفرات هائلة. تشمل قائمة التسعينيات وحدها أمراض الإيدز، والتهاب الكبد الوبائي، وفيروس إيبولا، وجنون البقر – الذي قد يصيب الإنسان عبر الطرق الغذائية – والحمى القلاعية، وأنفلونزا الطيور، وهرمونات النمو، والعدوى الأمينتية، والمبيدات الحشرية، والمنشطات الرياضية. تشمل تلك القائمة مجمل "الكوارث الطبية"، التي أفزعت أخبار التسعينيات، وأثرت بطريقة هائلة المعامل الصيدلانية المهتمة بوسائل الوقاية، أكثر من اهتمامها بمعالجة أسباب الإصابة، وانتشار الأمراض؛ لأن الاهتمام بمصدر تلك المخاطر امتد على نطاق واسع، وأصبح جزءًا لا يتجزأ من "برامج" التنمية الاقتصادية لشركات الدواء والتأمين متعددة الجنسيات. غير أن هناك مؤشرًا آخر لهذا الانقلاب الصحي في التسعينيات، مفاده أن "المخاطر" أصبحت تُعد أحد العوامل الاقتصادية الهائلة لجمع رءوس الأموال.

"تستمد السلطات قوتها من الحفاظ على صحة شعوبها... إن المجتمع السوي هو نتاج السلطة التي تطبق التكنولوجيا للحفاظ على الصحة العامة."

ميشيل فوكولت Michel Foucault

قبل ظهور "مستغلي الطب" على الساحة

في مرحلة ما بعد المعارك التنافسية في الخمسينيات والستينيات، أصبح الإيمان بالتقدم المستمر أمرًا متفقًا عليه ولا رجعة فيه؛ وتسارعت وتيرة الاكتشافات العلمية بطريقة غير مسبوقة في المجالات الطبية، والأبحاث الدوائية، والبيولوجية. وأدركت فرنسا، التي تأخرت عن الولايات المتحدة في تلك المجالات، أن عليها تعويض هذا التأخر؛ وأسهم كثير من الأطباء المبعوثين إلي الكليات الأمريكية، في توطيد أركان هذا الجهد الوطني. وتلتها الدول الأوروبية، وأصبحت كل دولة، على حدة، تستثمر وتدعم صناعة الدواء. غير أنه على مدار أربعين عامًا، ظلت تجارب استخدام العقاقير المكتشفة حديثًا تتم بموافقة شخصية من المريض، على غرار النموذج الأمريكي، ودون أي اعتبار لأخلاقيات المهنة؛ ولم يتردد المجال الطبي في تجربة عينات من تلك العقاقير على المرضى المقيمين بالمستشفيات التي يشرف عليها الأطباء الباحثون في مجال التطبيقات الدوائية المستقبلية. بعد انحسار استخدام البنسلين والمضادات الحيوية بعد الحرب العالمية الثانية، حدثت طفرات سريعة في مجال الاكتشافات الدوائية، خاصة التي تتعلق بخفض نسب الوفيات في الدول الغنية؛ وأُنشئت المعامل الصيدلانية الصغيرة والكبيرة، التي تكتلت رأسماليًا في الثمانينيات والتسعينيات، لتؤسس شركات قوية متعددة الجنسيات.

الإيدز وباء عالمي

"لقد مر وقت طويل كي يتحول مفهوم الإيدز، في المجتمعات، من مرض "شخصي" إلى وباء يفتك بملايين من البشر في القارات الخمس. ظهرت بوادر هذا الوباء في التسعينيات، بعد ارتفاع حالات الوفيات، والمرضى، والخاضعين للعلاج. في عام ٢٠٠٠، أبرزت إحصائية الأمم المتحدة عن الإيدز، أن أعداد المصابين في أرجاء العالم بلغت ٣٦,١ مليون شخص، وأن حالات الإصابة في هذا العام وحده بلغت ٥,٦ مليون، وحالات الوفيات ٢,٦ مليون حالة. في عام ١٩٨١، تسبب فيروس نقص المناعة في وفاة ٢٢ مليون شخص،

وإصابة ٥٨ مليونًا؛ ولم تتوفر العقاقير متعددة المفعول إلا في عام ١٩٩٦، في الدول الغنية فقط، و"للقادرين" على تحمل نفقات العلاج، أو للمستفيدين من التأمين الصحي، كما هو الحال في الولايات المتحدة. فور اكتشاف مضادات الجزيئات البروتينية، صرح الطبيب الصحفي جيل بيالو، "أن تسويق العقار لم يراع مبدأ عدالة التوزيع بين الدول الغنية والفقيرة"؛ الأمر الذي أسفر عن انخفاض نسبة الوفيات بصورة مذهلة عام ١٩٩٧ في الدول الغنية، وارتفاع نسبة المصابين في الدول الفقيرة في التسعينيات. استنكر المرضى في أنحاء العالم هذا الوضع الجائر، مما دفع حكومات دول جنوب أفريقيا منذ ١٩٩٩، لاستيراد العينات الحاصلة على براءة الاختراع من المعامل الصيدلانية الكبيرة، وواصلت استيرادها في الأعوام التالية. الجدير بالذكر، أن إنتاج هذه العقاقير المتخصصة بدأ في الهند، ومنحت دول جنوب أفريقيا خصمًا يصل إلى ١٠% مقارنة بالدول الأوروبية أو الأمريكية، مراعاة "للضرورة الصحية الملحة" لشعوبها. وفي هذا السياق، شنت الشركات متعددة الجنسيات هجومًا مضادًا، استنادًا على مبدأ حق التجارة الدولية المنصوص عليه في منظمة التجارة العالمية؛ غير أنها اضطرت إلى التراجع وسحب شكواها بعد أن أثارت السخط الواسع للرأي العام. وقد كان هذا الموقف أحد الأسباب الرئيسة التي حثت على إنشاء صندوق الأمم المتحدة لمكافحة الإيدز، الذي سعى منذ ذلك الحين للتوسع في علاج الحالات المصابة. على مدار عقود طويلة، اعتمدت أساليب محاربة الأوبئة على طرق الردع كالحجر الصحي، والعزل الإجباري، والاستبعاد؛ إلا أن في حالات فيروس نقص المناعة، أدرك العالم أن مثل تلك الأساليب تدفع المصابين إلى إخفاء مرضهم،؛ الأمر الذي حث الشعوب الأكثر إصابة – في الدول الغنية أولاً، ثم في الدول الفقيرة – على محاصرة الوباء. يمكننا الإشارة أيضًا إلى أحد العوامل الأساسية التي تؤدي إلى انتشار المرض والمتمثل في تدفق الأفواج الاقتصادية والعسكرية، والسياحية والجنسية، والمدمنين عبر البلدان. صرح دانيال ديفار، مؤسس برنامج المساعدات "Aides"، أن عولمة الاقتصاد – بعد وصول الليبراليين الجدد إلى السلطة في إنجلترا وأمريكا – وتفشي الوباء عالميًا، كان وراء ظهور الإيدز بهذه الصورة على المستوى العالمي."

أوليفيه دوبر Olivier Doubre

إن تاريخ هذا التقدم الأكيد معروف للجميع ؛ غير أن أساليب تحقيقه تخالف أخلاقيات المهنة، لأن تجاربه الأولية أُجريت في المستشفيات العامة قبل تأسيس المعامل الخاصة. لقد انتهت هذه "الفترة الأولية" من تاريخ التجارب الدوائية " - التي استباحت، وفقًا لفيليب بينيار، جميع الوسائل المتاحة - ليس بسبب إثارة مسألة أخلاقيات المهنة فحسب، بل استجابة للمقتضيات العلمية. وأضاف بينيار قائلاً: "ولأن هذا التيسير كان يخفي وراءه كذلك ضعف التجارب ذاتها؛ ولأن التسرع في طرح الأدوية أدي إلى مخاطر جسيمة؛ كما أن سرعة انتشار تلك الاختراعات والتعامل العنيف مع المريض، ومخالفة أخلاقيات المهنة تسبب في مشاكل كثيرة (...) بالإضافة إلى أن حجب بعض نتائج الاكتشافات أو تزييفها، أصبح من الأمور المتكررة"[٤]. من جانبه، أخبرنا ديدييه ليستراد مؤسس "آكت آب باريس" Act Up Paris، أكبر جمعية فرنسية لمحاربة الإيدز واكتشاف العلاجات - عندما كان يروي تاريخ إنشائها - التجربة المريرة التي خاضتها تلك الجمعية لرفض الاختبارات الدوائية على المرضى في فترة التجارب وقبل اعتمادها، قائلاً: "إذا كان مريض السرطان لا يؤيد موقفنا، فهذا شأنه؛ لكن بالنسبة لمريض الإيدز فإن الوضع لا يصبح مجديًا إلا بعد شفائه"[٥]. على الرغم من قسوة هذا التصريح، فإنه لم يعتد به إلا في العقد الأخير من القرن العشرين.

الإيدز: الوباء "السياسي" الذي غير كل شيء

لقد اتسمت التسعينيات، في المجال الطبي، بوضع قد يبدو غريبًا علينا اليوم؛ حيث رفعت طلائع الجمعيات المحاربة للإيدز الشعار الذي رددته جمعية "آكت آب"، "الدواء هو البرهان"؛ وبالتالي كان محظورًا على المريض التساؤل عن طبيعة العلاج الذي يتلقاه. لقد أخبرنا بعض العاملين في هذا المجال، صعوبة مناقشة المريض للمعالج في بداية التسعينيات، لأنها من الأمور المخالفة للصواب. والأغرب من ذلك، أن مقدمي الخدمات في المستشفيات، العامة والخاصة على حد سواء، كانوا يرفضون

اللقاء المباشر مع المرضى، إلا في إطار الظروف التي كانت تفرض المقابلة الشخصية للمريض. فيما يتعلق بالمعامل الصيدلانية، فإنها لم تستقبل المرضى إلا أثناء التجارب المعملية لاختبار العينات الجديدة، وفي تلك الأثناء كان على المريض اتباع توجيهات مدير التجربة بكل انضباط. الجدير بالذكر، أن المعرفة الطبية لم تكن تعترف بأية معوقات، قبل ظهور وباء الإيدز.

في بدايات هذا المرض القاتل ومجهول المصدر، احتار الأطباء واضطربت المعامل أمام عجزها عن اكتشاف علاج لتدهور صحة المرضى بصورة سريعة. ولكي ندرك ذلك الوضع، علينا قراءة شهادة دانيال ديفرت، عندما اصطحب صديقه ميشيل فوكولت - مؤلف كتاب "راقب وعاقب" - لمستشفى بيتييه سالبيتريار في يونيو ١٩٨٤[٦]، واحتجازه في الحجر الصحي لمدة ثلاثة أسابيع حتى وفاته في ٢٥ يونيو. لقد أخفى المستشفى حقيقة مرض فوكولت على دانيال، وعندما كان يسأل الطبيب كان يرد عليه "إنه لو كان مصابًا بالإيدز، كنت سأفحصك أنت الآخر!" ظل دانيال، عالم الاجتماع ومؤسس جمعية Aides على هذا الحال، حتى قرأ على تذكرة دخول صديقه للمستشفى عبارة "سبب الوفاة: الإيدز"، فأعلن قائلاً: "تلك هي الطريقة التي اكتشفت بها إصابته ..." لقد اكتشفت بطريقة قاسية حقيقة هذا المرض، وهي التظاهر بعدم الإصابة به في ظل مجتمع يتكتم على وجوده". قرر دانيال على الفور أن "يحول حزنه إلى معركة كفاح"، فأطلق نداءً يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٨٤، لإنشاء جمعية لمصاحبة المرضى الذكور المثليين وكتب: "إن فكرة التعايش مع المرض وانتظار الموت، أصبحت من الأمور الملحة؛ لأن الشواذ يقررون عدم العودة إلى ذويهم". وهكذا تأسست جمعية Aides في ديسمبر ١٩٨٤، واضطر الأطباء منذ ذلك التاريخ، ومن بعدهم المعامل إلى مقابلة المرضى ومن يصاحبهم.

يروي لنا فيليب مانجو، الذي تولى رئاسة "آكت آب" في الفترة من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩ قائلاً: "لم ننجح بالفعل في تغيير الأوضاع واختراق تكتم الأطباء، إلا في الفترة القاسية التي كانوا يجهلون فيها طبيعة المرض، لكن سرعان ما عادوا إلى تكتمهم

..."[٧]. ظلت جمعية Aides تتصدر الساحة حتى ١٩٨٩، وتمكن أعضاؤها من الوجود مع العاملين بالمستشفيات، ومصاحبة المرضى وعائلاتهم. في عام ١٩٨٤، ثم خضعت ما يقرب من ٣٠٠ حالة فقط للعلاج، لأن السلطات الصحية لم تدرك آنذاك خطورة ذلك الوباء، الذي انتشر في العالم وبصفة خاصة في فرنسا، التي كانت من كبرى بلدان أوروبا الغربية تأثرًا. يتذكر دانيال ديفرت قائلاً: "لا أستطيع تصديق الأحداث عندما أسترجعها في ذهني؛ لأن الأشخاص الذين بادروا لحضور اجتماعات Aides، كانوا يجهلون إصابتهم بالمرض (...)، لقد انتقلت العدوى إلى أعداد كبيرة منهم ولم يكتشفوا ذلك. لقد انضموا إلى الجمعية لمؤازرة غيرهم، ولإحساسهم بالمسئولية تجاه نضال الشواذ في السنوات السابقة، أو لاعتراضهم على التمييز المجتمعي الجديد ضدهم، أو لاحتياجهم للمعرفة لعدم توافر المعلومات عن المرض؛ لقد أدركنا فيما بعد أن الوباء كان قد استوطن فرنسا في نهاية السبعينيات"[٨].

يفسر لنا هذا الوضع، إلى حد ما، لماذا لم "تتدخل" السلطات العامة في فرنسا حتى عام ١٩٨٦؛ بل قد نعتقد أن التعبئة الجماعية للمرضى هي التي دفعت السلطات إلى اتباع سياسة طبية لمواجهة الإيدز، وحثت حكومة جاك شيراك على إعلان الإيدز "قضية قومية". لقد أصبحت أجهزة الدولة، ومؤسساتها الطبية، وهيئاتها العلمية والاجتماعية والسياسية، في مواجهة الجمعيات التطوعية التي انتشرت على نطاق واسع"[٩]. ومن المفارقات الغريبة أن الدولة تعاونت مع الجمعيات في تناسق تام، على الرغم من تشكك كل جانب في الآخر؛ إنها مفارقة لأن المناضلين في حركة الإيدز، كان معظمهم من اليساريين غير القادرين على التعامل مع حكومة اشتراكية، تتخذ موقفًا سلبيًا من الإيدز حتى بعد تأصله في المجتمع، ولأنهم يتطلعون للتعاون بكل يسر، مع حكومة يمينية سبق وأصر أنصارها البارزون على رفض تعديل التشريع المتعلق بالتمييز ضد المثليين"[١٠]. لقد اتضحت أيضًا تلك المفارقة، بصورة أكثر حدة، عندما كان الأمر يتعلق بالإجراءات المتعلقة بمدمني المخدرات. في نهاية عام ١٩٨٧سعت ميشيل بارزاخ، وزيرة الصحة وأحد المسئولين السياسيين الفرنسيين،

بالتعاون مع سيمون فيل، وزير صحة سابق من حزب اليمين - وهما من العناصر الفعالة لمكافحة الإيدز - إلى طرح البيع الحر للحقن، بعد أن أدركت أن ندرة الحقن المعقمة تتسبب في ارتفاع نسبة الإصابة بفيروس نقص المناعة عند مدمني المخدرات، الذين يتعاطون المخدرات بواسطة الحقن الوريدي.

تقليل المخاطر المرتبطة بتعاطي المخدرات

"لقد تمكن وباء الإيدز في بداية انتشاره من فئتين كبيرتين: المثليين الذكور، ومدمني المخدرات بواسطة الحقن الوريدي. لقد أيقنت الفئة الأولى سبب إصابتها، بينما لم تدرك الفئة الثانية سبب العدوى على الرغم من ارتفاع نسبة وفياتها في الثمانينيات. لقد عانت تلك الفئة من الضعف، والفقر، والكتمان، خاصة في شمال أمريكا إثر الضربات المتلاحقة "لحرب المخدرات" التي أعلنها الرئيس نيكسون عام ١٩٧١. لم يكن أحد يتخيل عند ظهور فيروس نقص المناعة، أن المدمنين سوف يكونون على قدر "المسئولية"، وأنهم سوف يسعون لحماية صحتهم. في عام ١٩٨٥، سعى أحد رواد علم السلالات البشرية، دون دي جارليه بالتعاون مع فريق عمله، إلى التعامل المباشر مع تلك الفئة في الأحياء الفقيرة من المدينة، لتوعيتهم بمخاطر انتقال العدوى بواسطة الحقن الملوثة. في غضون عدة أشهر، انخفضت بصورة سريعة نسبة الإصابة بالمرض بعد وقف عملية تبادل الحقن، وأصبح في الإمكان تطبيق سياسة تقليل المخاطر المرتبطة بتعاطي المخدرات. في التسعينيات، اتجه المسئولون المعنيون إلى هذا المسار، وبدأ الأطباء والناشطون الاجتماعيون بالتعاون مع المتعاطين، في البلاد الأكثر تقدمًا في هذا المجال (هولندا، والمملكة المتحدة، وسويسرا، والبرتغال)، تبني سياسة خاصة، اتخذت طابعًا دوليًا في النصف الثاني من التسعينيات، على الرغم من تأخر بعض البلدان مثل فرنسا والولايات المتحدة. وبدأ تنظيم برامج تتعلق بتبادل الحقن، وإنشاء مراكز العلاج المتخصصة، وتوفير العقاقير البديلة (ميثادون، وبوبرينورفين)، وإعداد برامج طبية عن الهيروين، وتنظيم الإشراف الطبي على مراكز الإدمان، إلخ؛ وتنوعت البرامج وخطط المواجهة وفقًا لتشريعات كل دولة على حدة. لا تهدف بتاتًا سياسة التقليل من المخاطر

المرتبطة بتعاطي المخدرات، إلى تشجيع التداول غير المشروع للمخدرات؛ لكنها تعارض منع تداولها، كي تجنب المتعاطي تناولها في الخفاء، كما أنها لا تعارض سياسة "حرب المخدرات". لقد أثبتت الإحصائيات الرقمية، النتائج الفعالة لسياسة تقليل المخاطر، على الرغم من انتقاد نشاطها من جانب بعض الهيئات الأمريكية مثل وكالة الحظر الجبري للمخدرات. لقد حققت تلك السياسة نتائج مذهلة فيما يتعلق بالجرعات الزائدة، وعدوى الإيدز، وانخفاض نسبة الإجرام إلى مستويات دنيا في الدول المعنية، بصورة لم يكن أحد يتوقعها. إن "علاج" المتعاطين بالأدوية البديلة، يؤدي بالتأكيد إلى مشاكل جسيمة، حتى بعد عودة أولئك المدمنين إلى حياتهم الطبيعية، بعد سنوات من معاناة سحب المخدر من أجسامهم؛ لأنهم معرضون للانتكاس المتكرر، والعودة مرة أخرى"لجرعات" المخدر السابقة ؛ مما يجعلهم أشبه بالمرضى المصابين بمرض مزمن، ويحتاجون إلى علاج طويل المدى. في هذا السياق، نجد أن أكبر مستفيد هو المعامل الصيدلانية التي تسوق عقاقير الإدمان، وكأنها لم تكتف بالأرباح الهائلة التي حققتها في التسعينيات من تجارتها الرائجة للجيل الجديد من أدوية الاكتئاب النفسي، والمنشطات الجنسية، والأدوية المنظمة للمزاج...، إلخ".

أوليفيه دوبر Olivier Doubre

القائمة التي تُلخص التسعينيات:

- فيروس إيبولا
- الإيدز
- التهاب الكبد الوبائي
- هرمون النمو الأمينيتي
- المبيدات الحشرية
- جنون البقر
- أنفلونزا الطيور
- المنشطات

اضطرت الدولة إذن إلى التدخل لمواجهة الوباء، الذي تأصل في الفترة التي تراجع فيها دورها في مجال محاربة الأمراض المعدية على مدار العقود الماضية. لقد شهدت الحقبة التالية لتطوير التطعيمات وإطلاق بيعها، تراجعًا ملحوظًا في علم الأمراض المعدية، يواكبه ارتفاع في نسبة الإصابة بالأمراض المزمنة، والمميتة، والمعوقة؛ الأمر الذي دفع المؤرخين المعنيين بالصحة العامة، إلى التصريح بأن مرض الإيدز "لم يحظ باهتمام المسئولين عن الصحة". في عام ١٩٨٨، قررت أخيرًا ميشيل باراخ تخصيص ميزانية للأبحاث المتعلقة بالأمراض، وإرساء قواعد إنشاء الوكالة الوطنية لأبحاث الإيدز (ANRS)، وتأسيس مراكز الكشف المبكر المتكتمة، والمجانية (CDAG)، وتطبيق الكشف الصحي الإجباري. وعلى غرار الحملات التي لا تستهدف التنديد بالمصاب ، أطلقت الوزيرة أولى حملات الوقاية "الشعبية"، ووضعت الواقي الذكري على رأس القائمة. غير أن ذلك لم يمنع جمعية "آكت آب" من انتقاد السلطات الحكومية، بعد ذلك بعدة أعوام، لعدم شن حملة تستهدف مدمني المخدرات بواسطة الحقن الوريدي، والمثليين؛ أكثر الفئات تعرضًا للعدوى. لقد اقتصرت حملات الوقاية الفرنسية بالتحذير العام أو المبهم، على عكس الحملات الهادفة التي شنتها المملكة المتحدة، ثانية الدول من حيث الإصابة، بعد فرنسا. بعد إطلاق الحملة الأولى عام ١٩٨٧، تحت شعار "الإيدز لن يعرف طريقي" – التي تساءلنا خلالها عن الفئات المقصودة في هذا التوصيف – أُطلقت الحملة التالية في مطلع صيف ١٩٨٩، بعنوان "الواقي الذكري يتمنى لكم إجازة سعيدة"...

من "الدم الملوث" إلى أيديولوجية المخاطر

لقد أثرت فضيحة "الدم الملوث" تأثيرًا كبيرًا، في حث المجتمع الفرنسي على إدراك أبعاد الوباء، الذي كان حتى ذلك الوقت من المفترض أنه يقتصر على فئات محدودة؛ كما غيرت جذريًا المفهوم العام المجتمعي عن المرض، والتساؤلات عن

الصحة العامة. لم تعد الأوضاع كعهدها السابق، ولم تستطع الدولة التراجع عن الإجراءات التي اتخذتها فيما يتعلق بإصلاح المؤسسات الصحية. في شهر أكتوبر ١٩٩١، تورط بعض الأطباء الموقرين، أعضاء مجلس إدارة المركز القومي لنقل الدم، وبعض موظفي الدولة، في توزيع أكياس دم كانوا يدركون أنها ملوثة بفيروس نقص المناعة؛ وذلك لعدة أسباب، أولها الربح الكبير العائد إليهم من بيعها، والثاني يعود إلى ضعف أجهزة الكشف عن الفيروس المستخدمة في معمل معهد باستير، على عكس معمل آبوت في الولايات المتحدة الذي كان يمتلك أجهزة متقدمة، ولديه مخزون كبير من أكياس الدم. لقد كان ذلك العامل أحد الأسباب التي بررت هذه الفضيحة، إضافة لضعف الإمكانات المادية المخصصة لمواجهة مثل تلك الحالات الصحية الطارئة. لقد كانت تلك المعامل تلجأ إلى تجميد المخزون، بدلاً من تسخينه (ثم أدركت فيما بعد أن تقنية التسخين تؤدي إلى قتل نشاط الفيروس). لعبت أجهزة الإعلام آنذاك دورًا أساسيًا لاستنكار الواقعة، وأصبحت الناطق بلسان الشعب في المطالبة بإجراءات تكفل حماية الصحة العامة؛ فتعاطف الرأي العام مع الأشخاص المنقول إليهم الدم، ومرضى الهيموفيليا (سيولة الدم) – المحتاجين إلى بلازما دموية بكميات كبيرة من المتبرعين – لأنهم ضحايا الجشع والفساد.

إذا كانت الدول الصناعية الأخرى تتعرض لوقائع مماثلة، إلا أن تلك الواقعة أثارت ضجة كبيرة في فرنسا، بفضل التعبئة المنظمة من جانب جمعيات المرضى وخاصة "آكت آب"؛ الأمر الذي أدى إلى ملاحقة المسئولين السياسيين قضائيًا، لأنهم تقاعسوا عن رقابة مؤسسات نقل الدم، وقُدِم للمحاكمة كل من: رئيس الوزراء لوران فابيوس، ووزيرة الشئون الاجتماعية جورجينا دي فوا، ونائب وزير الصحة المكلف إدموند هيرفيه، أمام المحكمة العليا في نهاية عام ١٩٩٢؛ لكنهم حصلوا على حكم بالبراءة نظرًا لتقادم الواقعة. تعاطفت وسائل الإعلام مع أطفال الهيموفيليا، فكتبت صحيفة إكسبريس أنهم أصبحوا "ضحايا مرضين"، وكتبت جريدة لو بوان "أنهم أصبحوا يعانون الهيموفيليا، والإيدز"؛ فكان لزامًا على الدولة آنذاك أن تتحرك. في

ديسمبر ١٩٩١، صُوِت لصالح قانون يقضي بتعويض ضحايا نقل الدم؛ غير أن هذا لم يمنع المتضررين من المطالبة بتطبيق العدالة على المسئولين. من جهة أخرى، أدركت مؤسسات الصحة العامة إفلاسها التام، بعد تلك "الهزيمة، وفقًا لأقوال أكيلينو موريـــل، المستشار الطبي لرئيس الوزراء ليونيل جوسبان منذ ١٩٩٧، فبدأت تلـــك المؤســـسات عملية إعادة هيكلة كاملة[11]. في بداية التسعينيات، شرعت الدولة فـــي إعـــادة تقيـــيم الجهات المسئولة عن المخاطر الصحية، وأنشأت – على غرار الولايـــات المتحـــدة – وكالة الدم الفرنسية AFS، والشبكة الوطنية للصحة العامة RNSP، ووكالة العقـــاقير؛ وجميعها هيئات مستقلة عن وزارة الصحة، وتضم نخبة من الخبراء؛ غير أن دورهـــا اقتصر على إدارة المخاطر، وتقييمها.

مفهوم المخاطر غير علاقتنا

بالصحة والمجتمع والحياة

تعرضت فرنسا في التسعينيات لسلسلة من الفضائح الصحية، والغذائية، ولأزمة "جنون البقر". ومع استمرار التحرك الاجتماعي القوي لحماية الصحة العامة، ازدادت المطالبة بالضمان الاجتماعي - الذي كان مقصورًا على غير القادرين، حتى لا نستخدم لفظ "الفقراء" أو "المهمشين". أسفرت هذه الأحداث غير المسبوقة عن انقلاب في عالم الخريطة الفكرية، والمؤسسات الطبية الست المكلفة بالصحة العامة، وردود الفعل السياسية التي كانت تتحفظ على التغيير. في عام ١٩٩٧، اضطرت الدولة كذلك، أمام المخاطر الصحية الجديدة ومطالب المجتمع الصحية المتزايدة، إلى تغيير شامل في الوكالات السابق ذكرها، ودمجها حتى تتمتع باستقلالية أكبر. في عام ١٩٩٨، صدر القانون الصحي بإنشاء الكيانات الكبيرة، المستمرة في نشاطها حتى الآن، لتقييم المخاطر الصحية المحتملة؛ وبناء عليه، أُلغيت وكالة الدم الفرنسية، والشبكة الوطنية للصحة العامة، ووكالة الدواء، لاستبدالها بالمعهد الوطني للرعاية الصحية INVS المكلف بحصر مجمل المخاطر الصحية، والوكالة الفرنسية للأمن الغذائي AFSSA، ووكالة المنتجات الصحية الآمنة AFSSAPS. وفي عام ٢٠٠٠ اكتمل هذا الصرح بإنشاء مؤسسة الدم الفرنسية، التي أصبحت "المنشأة المدنية الوحيدة لنقل الدم في فرنسا". تضم الكيانات السابق ذكرها - التي تتمتع باستقلال إداري، وبتعدد الاختصاصات - نخبة من الخبراء، والمهنيين المتخصصين غير المرتبطين بالتدرج الوظيفي في الوزارات المختلفة. لقد تمكنت تلك الكيانات بالفعل من تحقيق تقدم في مجال الأمن الصحي، والصحة العامة؛ غير أن أعضاءها كانوا يتعرضون أحيانًا لإغواءات السوق فأصبحوا أكثر فسادًا؛ أو كانوا يخضعون لجماعات الضغط (اللوبي) التي تدافع عن مصالح شركات الدواء متعددة الجنسيات.

تكرر الوضع نفسه، وعلى نطاق أوسع، في العلاقة بين الأطباء، والمرضى، والمعامل الدوائية؛ لأنه إذا كان تكتل المرضى قد نجح في اختراق تكتم الأطباء؛ فإنه

سرعان ما تأقلمت المعامل مع أنماط العمل في البيئة المحيطة بها. بمعنى آخر، لقد تحكمت الرأسمالية الليبرالية الحديثة – بفضل مرونتها، وتجديد نشاطها – في إدارة المفهوم الجديد للمخاطر الصحية والاجتماعية على أكمل وجه. نستطيع أن نستنتج، من خلال قراءتنا للمقال الذي نشر في مجلة "لو ديباه" عام ٢٠٠٠ بعنوان "أفراح المخاطر والسياسة"، النهاية الرمزية لعقد التسعينيات، والطفرات التي لحقت بها؛ ذلك المقال الذي حرره دينيس كيسلر، الرجل الثاني في جمعية ميديف MEDEF (بعد رئاسته للاتحاد الفرنسي لشركات التأمين في التسعينيات)، وفرانسوا إيوالد، المساعد الأسبق لميشيل فوكولت الذي تبنى أبحاث أستاذه عن السياسة البيولوجية، لكن بطريقة مختلفة ليصبح مدافعًا عن نظام التسويق، وإدارة المخاطر الاجتماعية كنمط جديد من النظم المجتمعية. لقد أبرز هذا النص، وغيره من النصوص، التغير الحقيقي في مفهوم "الوقاية"، الذي قامت بالطبع شركات التأمين بالتسويق له، انطلاقًا من "مبدأ المنفعة"؛ وأصبح هذا المفهوم على رأس أولويات كيسلر الذي أعلن في عدة مناسبات سابقة، عزمه القضاء على التوريث داخل المجلس الوطني، وعلى نظام الدولة الحامية.

التسعينيات: عقد الأمراض "القصير"

لقد تبدلت الأمور مع ظهور فيروس نقص المناعة، الذي يُعد بوجه حق، بداية مأساة عقد التسعينيات. في نهاية الثمانينيات، نجحت جمعيات المرضى – مثل AIDES وغيرها من الجمعيات الكبيرة – في إثبات وجودها في المستشفيات ومراكز الرعاية، وتقديم الخدمات لأعداد كبيرة من المرضى؛ لكنها لم تسع لفتح حوار مجتمعي عن مرض اللواط، لأنها كانت تعتقد في ضرورة تغيير التصور الخاص "بالشذوذ الجنسي"، والتمييز المجتمعي المترتب عليه، بحيث يرى النور تحت مسمى "الصحة العامة"، ووفقًا للنصوص التشريعية الخاصة بمكافحة انتشار الأوبئة بين السكان.

أدى تأسيس جمعية "آكت آب"، من أعضاء شواذ على غرار مثيلتها الأمريكية – الأمر الذي كان يُعد فضيحة بكل المقاييس في المجتمع الفرنسي المنقسم بين تطبيق

العولمة المجردة، ومشاركة الدولة الرسمية – إلى انقلاب في المعايير الهشة التي حاربت الإيدز في الثمانينيات، وإلى ارتفاع الأصوات الجماعية المطالبة "بعلاج دوائي" للجميع. بدأت هذه المطالبات الجماعية الساخرة بكتابة عبارة "لا أحد يعلم أني قابل للشفاء"، على الفانلة ال تي شيرت كظاهرة عامة، أثناء مسيرة الشواذ في يونيو ١٩٨٩. كما لجأت الجمعية إلى المشاهد المعبرة، الرافضة للتعسف، للتعبير عن معاناة المرضى؛ فبدأت بعرض مشهد "داي إين" "die ins"، الذي افترش خلاله النشطاء الأرض في الجو الصحو، والبرد القارس على حد سواء، لتجسيد جثامين الإيدز. ثم نظمت الجمعية مشهد "زابس" Zaps، الذي ضم أعدادًا غفيرة في حيز محدود للغاية، لتوجه رسالة إلى "العدو" (سواء كان شخصية، أو إدارة، أو معملاً يتلكأ في تسليم العينات...) تستنكر المشاكل التي يواجهها المرضى. ثم اقتبست العديد من الجمعيات الاجتماعية الأخرى تلك المشاهد المعبرة، كأسلوب لمكافحة الإيدز.

لقد كان أفضل إنجازات "آكت آب"، إجبار السلطات الصحية والمعامل، على إطلاع المرضى على الخطوات المهنية المتخذة لإجراء الاختبارت المعملية، والتعجيل بتداول المصل التجريبي، وتعديل إجراءات التجارب، ومعاييرها وفترتها؛ لاعتقادها أن وضوح الإجراءات واحترام المرضى وأنماط حياتهم، يزيد من قدرتهم على الاستجابة للعلاج؛ ولإيمانها بأن الاستماع لشكوى المرضى، خاصة فيما يتعلق بالآثار الجانبية للمصل في مرحلته التجريبية، يشجعهم على مداومة العلاج، وتحمل تلك الآثار. تمكنت الجمعية كذلك من الحصول على حق الاشتراك في المفاوضات المتعلقة بإجراءات التجارب، وعقدت لقاءات دورية مع الوكالة الوطنية المسئولة عن الأبحاث الطبية لمرض الإيدز، وأقنعت الجمعيات الأخرى بالانضمام تدريجيًا لتلك اللقاءات. في بداية الأمر، وافقت الجمعيات الخمس، التي شكلت اتحاد TRT -5، على تبادل المعلومات عن التجارب الإكلينيكية المتعلقة بالمصل المضاد لفيروس الإيدز. من جانبه، يعتقد ديدييه ليستراد أن تأسيس ذلك الاتحاد، يعد "أكبر نجاح" للجمعية التي أنشأها. وفي هذا السياق، يُذكرنا فيليب مانجو، بالنفوذ القوي للتكتل، ومرونته قائلاً: "كان لزامًا علينا إعادة تأهيل المعامل، فتمكنا من إجبارها في وقت قصير، على التعامل المباشر مع

المرضى؛ لكننا لم ننجح مع الإدارات الحكومية، الأكثر بطئًا وتحفظًا على ذلك المطلب. لقد تعودت المعامل على التواصل السريع معنا، الذي تحول فيما بعد إلى علاقة دائمة، عندما اضطررنا لإجراء مشهد "زاب" ضد أحد المعامل الكبيرة، الذي كان بمثابة الدعاية المجانية له !"(١٢).

لقد تطورت العلاقة بين المعامل وجمعية "آكت آب" على مسارين؛ الأول كان لمواجهة بطء الإدارات العامة، ووزارة الصحة، والعادات البالية للهيئة الطبية؛ الأمر الذي أسفر عن ارتباط قوي بين المعامل ونشطاء الجمعية، الذين استهدفوا الشركات متعددة الجنسيات التي تجني أرباحًا هائلة من أدوية الإيدز. اتجهت الجمعية أيضًا في هذا المسار، نحو المطالبة باختصار المهلة المحددة لطرح مصل AMM في الأسواق، والحصول على تصريح مؤقت لاستخدام عقار ATU، في إطار "بروتوكول تعاطفي" – التعبير المشهور الذي أطلقه الكاتب هيرفيه جيفريه على مؤلفه في نهاية ١٩٩١ – يمنح المعامل حق الإعلان عن العقاقير المكتشفة، وطرحها في الأسواق في فترة أسرع من ذي قبل. في الولايات المتحدة، تأسس التحالف بين المعامل وجمعيات المرضى، في وقت سابق لفرنسا، واستلزم حشد أنصار الأيديولوجية الليبرالية الحديثة، الأكثر شراسة في مناهضة الإدارة الفيدرالية. ثم برزت في فرنسا، التكتلات المشابهة التي تناولت في بداية التسعينيات مسألة أسعار الأدوية، والتأمين الصحي الشامل الذي يتكفل بقيمة العلاج بالكامل. في المسار الثاني، حدث تغير في "العلاقة الدائمة" بين المعامل ونشطاء الجمعية، بعد موافقتهم على توظيف المعامل لهم؛ الأمر الذي اعتبره فيليب مانجو مخزيًا لأول وهلة، لكنه قام بشرحه بصورة مبسطة بعد ذلك قائلاً: " بالطبع لم نكن سعداء في بداية الأمر، غير أننا في مرحلة لاحقة، أصبح أولئك النشطاء يتمتعون بخبرة حقيقية في التعامل مع المرض، وكانوا يعملون بصورة تطوعية ومتواصلة مع الجمعيات؛ وفجأة عرضت عليهم المعامل وظائف بأجور مجزية، وظروف عمل مواتية للغاية، ولك أن تتخيل ذلك..."(١٣). ثم اتسعت تلك الظاهرة لرغبة النشطاء في شغل وظائف بعد أن قضوا عدة سنوات في العمل التطوعي الذي استغرق وقتهم بالكامل. لكن بعد انقضاء الظروف الملحة، واكتشاف العلاجات الفعالة، واستبعاد شبح الوفاة بالإيدز، بدأت المعامل الاستغناء عن خدماتهم؛ خاصة بعد انحسار

حركة النشطاء، التي نجحت في وقت سابق، في إحداث طفرة في عالم الطب، وتعديل السياسة الصحية، ومواجهة الهيمنة البيولوجية الصناعية للمعامل الكبيرة. منذ ذلك الحين، بدأت بعض المؤسسات الطبية، والمستشفيات العامة، الاستعانة بفرد يمثل المترددين عليها. ثم قام وزير الصحة، برنار كوشنيه، في شهر مارس ٢٠٠٢ بإدراج ذلك الإجراء في البند الثاني من قانون "حقوق المرضى"، وأطلق عليه المُشرِع "الديمقراطية الصحية".

شهدت جمهورية جنوب أفريقيا عام ١٩٩٩ مواجهة واسعة بين النشطاء والمعامل، بعد تعرضها لكارثة صحية بسبب انتشار فيروس نقص المناعة في أرجاء القارة السوداء؛ الأمر الذي اضطرها إلى استيراد أمصال مضادة للفيروس تنتجها المعامل الهندية، دون الحصول على تصريح من شركات الدواء متعددة الجنسيات التي تمتلك براءة الاختراع. تقدمت تلك الشركات بشكوى ضد بريتوريا، لكن سرعان ما تنازلت عنها، أمام استنكار العالم أجمع لهذا الإجراء القضائي، الذي لا يبرره إلا الجشع المادي لتلك الشركات التي لا تكترث بالمخاطر التي يواجهها ملايين الأفارقة. تلك كانت الهزيمة الوحيدة التي لحقت بالمعامل؛ إذ لم يلبث عالم الأعمال أن استرد عافيته، بعد ظهور أجيال جديدة من الفيروسات تهدد الصحة العامة. قد نكتفي في هذا السياق، بذكر الكميات الهائلة التي استوردتها فرنسا من المعامل الكبيرة في الألفية الثانية، والتي بلغت ٩٤ مليون مصل H1N1، "للوقاية" من مخاطر وباء الحمة القلاعية التي لم تتأثر بها البلاد على الإطلاق.

السياسة البيولوجية الجديدة:

مبدأ الوقاية، واحتواء المخاطر

لم يعد متصورًا الآن، كيف تجاهلت الجهات المعنية في الثمانينيات، المخاطر التي كانت تهدد الصحة العامة؛ سواء كانوا أطباء متخصصين، أو مسئولين في المؤسسات الحكومية. لقد عاصرنا آنذاك غياب القرارت المتعلقة بالوقاية من المخاطر؛

غير أنه بعد ارتفاع نسبة الوفيات والإصابات، اضطرت السلطات الطبية إلى وضع الوقاية، والصحة العامة على رأس أولوياتها التنفيذية، والتشريعية، والسياسية؛ وأبرز مثال على ذلك كان التصويت عام ١٩٩١ على قانون إيفان الذي يحظر الدعاية للخمر، وتدخين السجائر في الأماكن العامة. وعلى الرغم من عدم التقيد به في أواخر التسعينيات، فإن آلام المرضى، وعجز الأطباء أمام اكتشاف أسباب وباء الإيدز، غير تمامًا ممارسات ومبادئ المجتمع الطبي، الذي كان يعتقد حتى بداية التسعينيات، أن الألم الذي يشعر به المريض، يعد أحد الأعراض المصاحبة للمرض. لقد تغير كذلك سلوك الطبيب، الذي أصبح يولي اهتمامًا كبيرًا لراحة المريض، ولم يعد يتعامل مع جسده بصفة منفردة ووفقًا لمعلوماته الشخصية. وأصبح المواطن الذي يتعرض لضغوط السوق، والتهديدات الصحية الجديدة، ولمنطق المخاطر الجديد الذي يجرم السلوكيات الفردية (انطلاقًا من هذا المبدأ، قام المشرع بتجريم التدخين نهائيًا في الألفية الثانية، في غالبية الدول الصناعية) محركًا فعالاً على الساحة الطبية. ارتفعت بعد ذلك الأصوات التي أحدثت تغييرًا شاملاً في التسعينيات، في مجالات الصحة العامة، والتأمين الشامل، والاعتراف بالمؤسسات الصحية الموازية، وإنشائها في بعض الأحيان، ونالت المؤسسات المكلفة بتقييم المخاطر الصحية استقلالها التام، وأصبحت آراء جمعيات المرضى المتعلقة بتحسين أداء الأطباء، والعاملين في مجال الصحة العامة من المقترحات التي يُعتد بها. كما أنه لم يعد متصورًا الآن، أن نرى جمعية وطنية لرعاية المرضى تتخذ من رابطة العمل الوطنية CNTS مقرًا لها، ويقتصر نشاط أعضائها المتواضع، على تسجيل بيانات مرضاها، وتنفيذ قرارات المسئولين، كما كان عليه الحال في الثمانينيات وقت إنشاء جمعية مرضي الهيموفيليا. لقد استغرق الأطباء والسلطات الطبية وقتًا أطول من المعامل الصيدلانية لتقبل القوة الموازية المتمثلة في المصاحبة الجماعية للمرضى، وعدم التراجع عن هذا المكسب الذي حققته الجمعيات، والذي لا يقبل المساومة.

في هذا السياق، نستطيع القول إن أضلاع العلاقة الثلاثية - التي تجمع بين السلطات العامة التي أعادت تأهيل نفسها، والمرضى ذوي الوجود القوي على الساحة،

وصناعة الدواء التي تلقى رواجًا أكثر من أي وقت مضى – أصبحت أكثر توازنًا في بداية ونهاية التسعينيات. غير أننا رأينا أيضًا، في فرنسا، كيف أسفرت معارك التسعينيات عن مرحلة انتقالية، أو اعتراضية كما أطلق عليها البعض، تغيرت خلالها أساليب تعامل السلطات الليبرالية الحديثة مع المخاطر والوقاية، وسيطرت الصناعات الكيمائية والدوائية على الحياة الصحية بصورة غير مسبوقة؛ كما ظهرت في بداية الألفية بعض المخاطر الجديدة – حقيقية أو مفتعلة – المتمثلة في الحمى القلاعية، والترويع البيولوجي، والتهديدات البيئية. علينا ألا نغفل أيضًا، أن من أبرز الآثار التي ترتبت على أحداث التسعينيات، الهيمنة الحالية لشركات الدواء العملاقة على حياتنا البيولوجية؛ مثل جونسون & جونسن، ونوفارتيس، وساندوز، وفايزر، ومونساتو، ونستلة، بفضل مجموعاتها القوية (اللوبي) عابرة القوميات، ومنظمة الصحة العالمية التي تلعب دور الوسيط ؛ تلك الهيمنة التي يتعدى تأثيرها القوى السياسية، والجمعيات الأهلية. لقد أسفر كذلك انتشار وباء الإيدز، ودور الوسيط الذي لعبته المعامل بين الهيئات الطبية وأجهزة الدولة والخبراء، والاهتمام المتزايد بمبدأ "الوقاية"، إلى زيادة هيمنة صناعة الدواء التي تلقى رواجًا في أرجاء العالم، وإلى تصاعد نفوذ الكيانات الرأسمالية العملاقة على المستوى العالمي، منذ نهاية الحقبة "الانتقالية" وحتى بداية التسعينيات. وبعد أن أصبح مبدأ الوقاية على رأس الأولويات الشعبية في التسعينيات، تصدرت صناعة الدواء القطاع الصناعي، وأصبحت المستفيد الوحيد في معركة النضال من أجل الحياة.

ميشيل فوكولت "علم الأحياء ينعكس على السياسة

"أدرك الإنسان الغربي بمرور الوقت، قيمته ككائن حي يعيش في ظروف بيئية متغيرة، ويمتلك جسدًا ويتمتع بفرص الحياة؛ كما أدرك أن هناك صحة شخصية وأخرى مجتمعية، وأن هناك قوى يستطيع تعديلها أو إعادة هيكلتها بأفضل صورة ممكنة. ولأول مرة في التاريخ، ينعكس علم الأحياء على السياسة، ويصبح الحق في الحياة إحدى أولويات السلطة، ويحتل أكبر مساحة ممكنة في المجال المعرفي والرقابي، بعد أن كان مجرد ركيزة

صحية تطفو عشوائيًا على السطح من حين لآخر في حالة حدوث وفيات. لم يعد هذا الحق يتعلق بالمتوفي فحسب، بل بحق الحي في حياة صحية كريمة. لقد أصبحت القوى السياسية تستمد قوتها من الحفاظ على صحة الأحياء، وليس بالكشف عن أسباب الوفيات. وإذا كان يحق لنا استخدام مصطلح "التاريخ البيولوجي"، للتعبير عن التداخل بين ضغوط الحياة وتطور التاريخ، فيجب علينا أيضًا استخدام مصطلح "السياسة البيولوجية" للتعبير عن العوامل التي ساعدت على إدراج الصحة في حسابات المسئولين، وتكريس المعرفة لصالح الحياة الإنسانية، بعد أن كانت تتحكم فيها آليات تلك المعرفة. لقد انتشرت المجاعات بصورة غير مسبوقة في مناطق كثيرة من العالم باستثناء الكتلة الغربية، وتفاقمت المخاطر البيولوجية التي تهدد الجنس البشري قبل تطور علم الجراثيم. إننا لا نستطيع تطبيق عبارة "مجتمع الحداثة البيولوجية" إلا على المجتمع الذي يدرج حياة البشر في: إستراتيجياته السياسية. لقد كان التعامل مع الإنسان، يتم لعقود طويلة، وفقًا لمفهوم أرسطو القائل إن الإنسان حيوان حي يعيش في مجتمع سياسي؛ لكنه تحول في العصر الحالي إلى حيوان يتمتع بحياة تصدرت أولويات السلطة (...).

تكمن إحدى نتائج هذا التطور السياسي البيولوجي في تطويع القانون، ونظامه التشريعي (...)؛ لأن القانون لا يتمتع بالمرونة اللازمة؛ ولأن المجتمع الذي يتكفل بحماية الحياة يحتاج إلى آليات دائمة التطور، وتشريعات تصحيحية لا تركز فيها السلطة على الحد من الوفيات، بل على قيمة الحياة، وأهميتها عند الأحياء. إن مثل تلك السلطة تحتاج إلى توصيف، وتقييم، وتقدير، وترتيب اختصاصاتها؛ وإلى تجنب الانغماس في بريقها القاتل، وعدم التمييز بين المؤيدين والمعارضين لها. إنني لا أقصد إلغاء القانون، أو المؤسسات القانونية؛ إنما أرغب في أن يتماشى القانون مع الأوضاع السائدة، وأن تندمج المؤسسات القانونية مع الأجهزة الطبية والإدارية التنظيمية. إن أفضل نتاج تاريخي للسلطة التي تؤمن بتطبيع اختصاصاتها، هو تطبيق التكنولوجيا على حياة الإنسان".

ميشيل فوكولت، تاريخ الجنس، الجزء الأول، حق المعرفة، باريس، جاليمار، ١٩٧٦، ص ١٨٧ – ١٩٠.

المراجع

1)Ulrich Beck, La société du risque. Sur la voie d'une autre modernité, tr. Fr. Laure Bernardi, Préface de Bruno Latour, Paris, Aubier, 2001 (1986), p 26 – 27 et 29 – 30.

2)Ibid

3)Michel Foucault, Naissance de la biopolitique. Cours au collège de la France, 1978 – 1979, Paris, Gallimard – EHESS – Le seuil, 2004.

4)Philippe Pignarre, Le Grand Secret de l'industrie pharmaceutique, Paris, La Découverte – poche, 2004, p. 53 – 54.

5)Didier Lestrade, Act – Up, Une histoire, Paris, Denoel, 2000.

6)Reproduit in Eric Favereau, Nos années Sida. 25 ans de guerres intimes, postface de Daniel Defert, Paris, La Découverte, 2006.

7) Entretien avec L'auteur.

8)Eric Favereau, Nos années Sida, op. cit, p. 74.

9)Cité in Patrice Pinelle (dir), Une Epidémie politique. La lutte contre le Sida en France (1981 1996), Paris, PUF, 2002.

10)Ibid.

11)Aquilino Morelle, La défaite de la santé publique, Paris, Flammarion, 1996.

12)Entretien avec l'auteur.

13)Ibid.

التكنولوجيا المتطورة / التكنولوجيا الضعيفة

نشأة الإنترنت من لا شيء إلى بعض الشيء

جزافييه دي لا بورت Xavier De La Porte

أسفرت الثورة الرقمية عن تحسين وضع التسعينيات. في عام ١٩٩٠، بلغ عدد أجهزة الكمبيوتر المتصلة بالإنترنت في الولايات المتحدة، ١٠٠٠٠٠ جهاز، وأدى ابتكار شبكات الإنترنت الجديدة إلى اختفاء شبكة أربانت – التي اخترعتها عام ١٩٦٩ وكالة مشاريع الأبحاث العسكرية الأمريكية المتطورة "داربا" Darpa. في بداية التسعينيات، اخترع كل من تيم بيرنيرز لي، وروبرت كاليو، شبكة إنترنت واسعة في معامل مختبر فيزياء الجسيمات بجنيف CERN، التي تحولت فيما بعد إلى الشبكة العنكبوتية العالمية، واستُخدِم أول محرك بحث في جامعة ماك جيل، بمونتريال. بمعنى آخر، كان الإنترنت لا يزال يعتمد حتى عام ١٩٩٠ على الربط المشفر بين الشبكات الجامعية والمعلوماتية؛ وعلى تحديد مجال البحث، وعلى شبكة "الويب" التي كانت تُجرى المحاولات لتعميم استخدامها.

بعد مرور عدة أعوام، وبالتحديد عام ٢٠٠٠، ربط الإنترنت بين ٣٦٨ مليون كمبيوتر حول العالم، بعد توسيع الشبكة (التي أصبحت تضم ١٣٠ موقعًا في ١٩٩٣، و٢٣,٥٠٠ في ١٩٩٥، و٢٠ مليونًا في نهاية ٢٠٠٠)؛ ودُمجت مواقع الإنترنت، ومحركات البحث – التي تُعد فهرس الشبكة – فيما أطلق عليه "السيرفر". وفي غضون عشرة أعوام، نشأ "الاقتصاد الجديد" حول العالم، برأس مال بلغ ملايين الدولارات. غير أن عام ٢٠٠٠ شهد نهاية شيء ما؛ ففي شهري مارس وأبريل، انفجرت "فقاعة الإنترنت"، وانتهى عصر شبكة "web 1.0 " – عصر البوابات الكبيرة ذات الإمكانات المتواضعة على شبكة الإنترنت، التي كانت تمكن الباحث، في أفضل

الأحوال، من كتابة تعليق على الموقع – بعد أن شهدت الألفية الثانية نشأة شبكة "web2.0"، التي تتيح للمستخدم، مقابل اشتراك بسيط ، التواصل مع الموسوعة الجماعية ويكيبيديا (التي أنشئت عام ٢٠٠١)، ومع شبكات التواصل الاجتماعي (الفيس بوك الذي نشأ عام ٢٠٠٤، وتويتر عام ٢٠٠٦).

تُعد إذن الحقبة بين ١٩٩٠ و٢٠٠٠، بداية لشيء ما، أو فترة انتقالية. بداية، لأن الإنترنت دخل حياتنا، وبدأنا استخدام التجهيزات الحديثة، وظهرت المحفزات الصناعية والفكرية الجديدة، ونشأ العديد من الظواهر المستمرة حتى الوقت الحالي. وفترة انتقالية، لأنها الحقبة التي شهدت عصر "الطرق المعلوماتية السريعة" الاقتصادية والفكرية، والوهم الخاص " بالفضاء الإلكتروني" الذي أشار إليه عام ١٩٩٦ جون بيري بارلو، المتحدث باسم مجموعة "روك جريتفول ديد"، ورائد شبكات الإنترنت. إذا فسرنا اعتقاده هذا على أنه كان تنبؤاً بإنشاء عالم لم يستطع القادة الاقتصاديون السابقون فهمه أو إدراكه، فإننا نعتقد أن بيري بارلو يشاركنا الرأي في أن هناك واقعًا جديدًا على وشك الظهور في عصرنا هذا، لا نستطيع نحن كمستخدمين، إدراك طبيعته؛ على عكس الدول والشركات الكبرى التي لا تغفل أبعاده. إذا كان الإطار العام لعقد التسعينيات يُعد إطارًا متماسكًا من الناحية الرقمية، إلا أن الحديث عنه يستلزم عرضه على مراحل، وفقًا لمصطلحات المعلوماتية. فالتاريخ ليس حقبة تقنية فحسب، بل مراحل اقتصادية، وصناعية، وسياسية، وفكرية، وجمع معلومات، وإثبات وجود، وتطوير للحياة التقنية. لقد حدث شيء ما في حياتنا خلال السنوات العشر الماضية، ولا نستطيع تفسيره.

مرحلة إثبات الوجود

لنضرب مثالاً عمليًا لتلك المرحلة بأبناء الجيل "الوسط" في أحد البلدان الصناعية، ولتكن فرنسا على سبيل المثال. ولِمَ لا؟ وابن هذا الجيل، هوالشخص– ذكرًا أو أنثى – غير الكاره للتكنولوجيا، ولا المحب لها، وينحدر من الطبقة المتوسطة، وينتمي للجيل الذي نضج فكريًا دون استخدام الإنترنت؛ أي الذي ولد فيما بين ١٩٧٠،

و ١٩٨٠، ويبلغ من العمر خمس عشرة سنة، ولا يزال يحيا مع الأهل. كانت منازل العائلة في فرنسا آنذاك (ما يزيد على ٦،٥ مليون منزل) مزودة بجهاز مينيتل، يُستخدم كدليل تليفونات، وفي بعض الأمور الإدارية، ومتابعة حالة الطقس. وكانت العائلة تمتلك جهاز كمبيوتر محمولاً، يعمل بأقراص مدمجة يبلغ قطرها ٨ بوصات -، ثم أصبحت فيما بعد ٣,٥ - يستخدمها الأب في حساب ميزانية الأسرة ، التي قد تختفي من على الجهاز بعد قضائه عدة أسابيع في عمل جداولها وإدخال البيانات؛ ويستخدمه الأطفال كذلك في الألعاب الترفيهية. في بداية الأمر، استلزم تشغيل الكمبيوتر وقراءة بيانات القرص المدمج، إدخال بعض الشفرات، وكانت الرسومات التصويرية بدائية؛ أي عبارة عن سلسلة من البكسيل (أصغر عنصر منفرد في مصفوفة صور نقطية أو في عتاد توليد صور) تتراص رأسيًا لإخراج صورة شخص واقف، وأفقيًا لإخراج صورة شخص مُمَدد؛ وبمرور السنوات، أصبح الحد الفاصل بين البكسيل أكثر تلقائية، وتحسنت مصفوفة الصورة. بعد تصميم لعبة الفيديو "تومب ريدر" عام ١٩٩٦، أصيب الصبية بنوع من الشغف الجنسي أمام أنوثة لارا كرافت الفذة، الشخصية المصنوعة من مصفوفة باكسيل؛ فكانوا يقتبسون أحيانًا، بعض نصوص من الفيديو عند تحرير أبحاثهم، وكتابة المقالات الدراسية. لقد كانوا مفتونين بالرسم المنمنم، والدقة الفائقة، وسرعة وانسيابية الصورة. إنهم يتذكرون، وبكل تأثر، امتلاكهم لأول كمبيوتر محمول ذي القرص المقروء دي في دي في عامي ١٩٩٧ - ١٩٩٨؛ لكنهم يتذكرون بصعوبة المرة الأولى التي تردد فيها الحديث عن الإنترنت؛ كما يتذكرون أنهم كانوا يبحثون عن قائمة الكتب على أحد المواقع، ويحصلون على القرص المدمج الخاص بها، لأنها لم تكن متاحة للنشر على الإنترنت.

"اتسع مدى ذاكرة الكمبيوتر؛ وأصبحت الثقافة الموازية من أفضل نتائج توسع الرأسمالية الرقمية"

Dominique Cardon دومينيك كاردون

في أواخر التسعينيات، أدرك معظم أبناء هذا الجيل أهميـــة الإنترنـــت، عنـــدما شاركوا عامي ١٩٩٨ و ١٩٩٩، في حملة "الخضر" أثناء الانتخابـــات الأوروبيـــة؛ إذ كانوا على تواصل مع الحزب عبر هذه الوسيلة الحديثة. بدأت القـــصة عنـــدما التقـــى شابان بفريق الحملة، لإقناعه بحتمية استخدام الإنترنت لشن حملته الـــسياسية – لأنـــه الوسيلة الأمثل للتأثير على الجماهير المحبطة من السياسة التقليدية – وإنـــشاء موقـــع مشوق، وتغذيته بمعلومات مبتكرة تختلف عن المنشورة في الصحف، أو التي تبث في التليفزيون. وبدأت عملية الفهرسة من خلال محركات البحث، وأقنـــع الـــشابان فريـــق الحملة بضرورة إدراج كلمة "الجنس" في كل نص، لأنه يرفع نـــسبة المـــشاهدة علـــى الموقع، وبدأوا العمل بإجراء بعض المحاولات على الشاشة، فتـــأثر أعـــضاء الفريـــق جميعهم، وتساءلوا كيف تمكن الشابان من تنفيذ ذلك؟ ثم اقتنـــع الـــشابان فـــي مرحلـــة لاحقة، بعدم جدوى هذا العمل، لأنهم كانوا يتقاضون مقابلاً ماديًا متواضعًا لا يـــوازي إمكاناتهم. في العام التالي، بدأ جهاز الخدمة العسكرية، اســـتخدام الإنترنـــت كوســـيلة اتصال مباشرة بين أعضاء وفد الشئون الاستراتيجية بوزارة الـــدفاع. وبـــدأت عمليـــة التوثيق، بعد اختراع منظمة الأبحاث الأمريكية Think tanks (RAND, CSIS) – التي تمتلك مواقعها الخاصة – شبكة "الويب العنكبوتية". تطورت الأمور بعد ذلـــك، وأدرك أبناء هذا الجيل أنهم يستطيعون، بفضل مثابرتهم، اكتشاف الكثير عبر الإنترنت؛ "ياهو" yahoo على سبيل المثال، الذي كان بالنسبة لهم، بمثابة الواجهة الكبيرة للمـــستودعات، التي يستطيعون من خلالها الحصول على فيض من المعلومـــات. فـــي نهايـــة ١٩٩٩، أثناء المظاهرات المناهضة لمؤتمر منظمة التجارة العالمية في سياتل، سمع هذا الجيـــل ولأول مرة عن الدور الرئيس الذي يلعبـــه الإنترنـــت لتنظـــيم الحركـــة الاجتماعيـــة "المناهضة للعولمة". في العام ذاته، بدأ كل منهم، شراء أول "مـــودم" Modem، الـــذي كان يحدث صوتًا طفيفًا أثناء وصله بجهاز الكمبيوتر، وشـــرعوا فـــي إنـــشاء بريـــد إلكتروني، واستمروا في استخدامه، على الرغم من تعدد المواقع التي أنشأها الكثيـــرون غيرهم فيما بعد؛ لأنها بالنسبة لهم غير ذات جدوى، وتشبه الأنقـــاض الرومانيـــة فـــي الحدائق الرومانسية، ثم انضموا إلى خدمـــة مـــشاركة الملفـــات الموســـيقية "نابـــستر"

Napster، وتمكنوا من تبادل النُسخ الموسيقية النادرة المسجلة على قرص مدمج صلب في أحد الكمبيوترات، وقاموا بنسخها. في عام ٢٠٠١ أدركنا بعد أن أغلقت وكالة المخابرات الأمريكية "نابستر"، أن هذا العمل يسمى "قرصنة". وفي نهاية عام ١٩٩٩، استطاع هذا الجيل الولوج إلى أول موقع إباحي.

نجح رواد هذا الجيل في مستهل التسعينيات – قبل اكتشاف الويب – في التواصل عبر الإنترنت مع النشرات الإخبارية، ومنتديات المباحثات، ومقدمي خدمات الإنترنت، وشبكة بي بي سي الإخبارية. غير أن الكثيرين غيرهم تمكنوا قبل ذلك، في منتصف الثمانينيات، من القرصنة على أجهزة المينيتل، والولوج إلى مواقع الجامعات الأمريكية؛ لكنهم أيقنوا دون شك، أن اكتشاف "الويب"، وبصفة خاصة الويب التجاري، سوف يضع نهاية لهذا العصر لأن في منتصف التسعينيات، بدأت البوابات الكبرى تكتظ باللوحات الدعائية. في تلك الحقبة، لاحت لهم ولنا في الأفق، بوادر الوضع الجديد الذي جعلنا نستغنى بدءًا من منتصف عام ٢٠٠٠، عن اللقاءات المباشرة، والمقابلات الشخصية، نظرًا لظهور شبكات التواصل المحلية، والتليفون المحمول. وهو الأمر الذي لم نكن ندرك أبعاده؛ لأننا لم نكن نبلغ آنذاك سوى مرحلة الولوج إلى المعلومات غير المصنفة (نشر جيريمي ريفكين عام ٢٠٠٠، في الولايات المتحدة وفرنسا، كتابه الرائج "عصر الولوج"). ثم أصبحت عملية البحث عن المعلومة مجرد مغامرة، لأن محركات البحث ألتا فيستا، لم تعد مجدية، وتستغرق الكثير من الوقت، والصفحات تستغرق وقتًا طويلاً للتحميل. وإذا كانت تكلفة الخدمة تنخفض الشهر تلو الآخر، إلا أن عملية البحث تعتمد على كفاءة الباحث. إننا مفتونون بالتقدم الذي حدث، غير أن الكثيرين غيرنا يعتقدون أن الوضع لا يزال مبهمًا.

مرحلة التجديد التقني

في تلك المرحلة كان الوضع لا يزال مبهمًا، لأنه معقد من الناحية التقنية، ويخضع لمنطق التجديد الجذري؛ ففي السبعينيات، بدأ التفكير في البلاد الصناعية في وسائل اتصال سمعية بديلة للكابلات التليفونية، وخضعت بعض النماذج للتجربة في

أماكن مختلفة، يمكننا تلخيصها في نموذجين: الأول، الإنترنت الذي اخترعه المعلوماتيون الأمريكيون؛ والثاني، المينيتل، الذي اخترعه بعض المهندسين بشركات الاتصالات "تليكوم" في أوروبا والولايات المتحدة؛ لكنه لم ينجح إلا في فرنسا؛ ولهذا السبب تفوق في التسعينيات، الإنترنت على المينيتل، ومبرمج الكمبيوتر على مهندس الاتصالات.

لقد كان المينيتل يُعد بمثابة امتداد للتليفون السلكي؛ لأن الصوت كان ينتقل من مكان إلى آخر بواسطة قناة يمكن فتحها أو غلقها من السنترال. ثم ابتكرت شبكات الإنترنت من جانبها، بروتوكول للتحكم في الإرسال/ والإنترنت (TCP/IP) باستخدام الكابلات نفسها، لكنه يوفر حزمة من الاتصالات؛ حيث كانت تقتصر التقنية على تقسيم المعلومة إلى عدة حزم، تنتقل كل واحدة منها بطريقة معينة على الشبكة، ويقوم الكمبيوتر مستقبل المعلومة بتجميعها. إنهما منطقان مختلفان، يطبقان المركزية واللامركزية؛ أحدهما غبي، والآخر ذكي؛ أحدهما يستخدم تجهيزات مؤمنة ومحكمة، والآخر يستخدم تجهيزات ضعيفة التأمين والتحكم. فضلت الولايات المتحدة الإنترنت على المينيتل، بينما رجحت فرنسا المينيتل الذي أصبح مشروعًا قوميًا، انطلق بعد صدور التقرير المشهور عن "معلوماتية المجتمع الفرنسي"، الذي عرضه الشابان آلان مينك وسيمون نورا على الرئيس جيسكار ديستان عام ١٩٧٨، وحقق نجاحًا كبيرًا في الثمانينيات وبداية التسعينيات. عندما بدأ الحديث في الولايات المتحدة عن "الطرق المعلوماتية السريعة"، اعتقدنا أنه يمكن استخدام النظامين معًا؛ والدليل على ذلك، التقرير الذي قدمه جيرار تيري، أحد مخترعي المينيتل، في يناير ١٩٩٤ لرئيس الوزراء إدوارد بالادور بعنوان "الطرق المعلوماتية السريعة". على الرغم من أن هذا التقرير كان يشمل عدة جوانب تتنبأ بالتقدم المستقبلي في مجالات تحويل المعلومات إلى بيانات رقمية، وتجميع وسائل الاتصالات، وعلم الحاسب الآلي، وتطوير الوسائل السمع / بصرية إلخ؛ فإنه حصر عيوب الإنترنت في " خدماته المتعددة، غير الآمنة التي يتيحها لعدد كبير من المستخدمين، والمفتقرة للصوت والصورة الواضحة. كما أن متصفح الإنترنت يستطيع قراءة الرسالة المرسلة، عبر الشبكات التي يخترقها بطرق

غير قانونية؛ بالإضافة إلى أن الخوادم غير المحمية وسـهلة الاسـتخدام، المرتبطـة بالشبكة، تسمح بكثير من الاختراقات؛ فيؤدي تراكم الرسائل إلى تعطيل الـشبكة لعـدة دقائق أو ساعات، فتُمحى الرسائل (...). لقد أثبتت قدرات الإنترنت أنه لـن يـتمكن، على المدى الطويل، من أن يصبح شبكة الطرق المعلوماتية السريعة "[١]. لقد تجاهـل جيرار تيري في تقريره هذا، مهارة المثرثرين، من شباب كاليفورنيا، كما أنـه أغفـل النجاح الذي حققه هو شخصيًا.

لقد تردد الحديث في فرنسا كثيرًا، عن تخلفها في استخدام الإنترنت، وسـخرنا من غباء مهندسي شركات الاتصالات، ومتخذي القرار الذين لم يدركوا عجزهم عـن مواجهة المد الجارف الذي لا يمكن تجنبه. غير أننا نـستطيع تفـسير ذلـك الوضـع بمبررين؛ الأول، أن صعوبة تقبل الابتكارات الحديثة لا يقتصر على فرنـسا وحـدها، لقد اشتعلت المواجهة بين الإنترنت وشبكات الاتصالات في مناطق أخرى من العـالم. وإذا رجعنا بالذاكرة قليلاً إلى التقرير الذي نشره بول باران عام ١٩٦٤ في الولايـات المتحدة، بعنوان "مذكرة عن الاتصال التوزيعي" – النص المؤسس لمبـادئ الاتـصال عبر الحزم – فسوف ندرك أنه كان بمثابة الحل البديل لمشاكل "شركات الاتصالات"، فيما يتعلق بنقل المعلومة. ولا يزال الصراع مستمرًا بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًـا. يحكي لنا كلاي شيركي – أحد رواد الإنترنت – قصة صراعه فـي التـسعينيات مـع مهندسي شركة الاتصالات الأمريكية AT&T، أول شركة تليفونـات تـسعى لـدخول السوق الجديد لاستضافة المواقع؛ ويتذكر الصعوبة التي واجهها لإقناع المسئولين فـي الشركة بأن مستضيفي المواقع يفضلون دفع اشتراكات أقل مقابل الحصول على موقـع أقل ثباتًا وأكثر تطورًا، بدلاً من الموقع الثابت وغير المتطور. فسر جيركي عدم قـدرة الشركة الأمريكية على اقتحام سوق استضافة المواقع، بأن المهندسـين العـاملين بهـا عجزوا عن استضافة موقع ثابت، وبسعر مناسب[٢]. إن الاختلافات الفكرية لـم تكـن مقصورة إذن على فرنسا وحدها، بل شملت البلاد الصناعية في العالم أجمع. المبـرر الثاني، يتعلق بالتقدم الذي أحرزته فرنسا في بداية الألفية الثانية لتعويض تأخرها فـي مجال الإنترنت في النصف الثاني من التسعينيات، وذلك بعد أن أدركت أن الإنترنـت

سوف يتحول إلى شبكة عنكبوتية عالمية. في عام ٢٠٠١، وصلت خدمات الإنترنت إلى ١٧% من المنازل، وفي عام ٢٠٠٥ إلى ٤٠%. والحق يقال إنه إذا تمكنت فرنسا، في غضون سنوات، من أن تصبح من أكثر البلدان استخدامًا للإنترنت، فالفضل يرجع للمينيتل؛ لأن تأقلم المستخدمين الفرنسيين على استخدامه (كدليل تليفونات، ووسيلة إجبارية للقيد بالجامعات، وحجز تذاكر القطار، وتبادل عبارات الإعجاب على شبكة المينيتل الوردي...)، حثهم على التأقلم مع شاشة الكمبيوتر، وشبكة الإنترنت. من جهة أخرى، أدى نجاح مينيتل، إلى ظهور طلائع جيل الإنترنت، وفي مقدمتهم جزافييه نيل بكل تأكيد، الذي أنشأ عام ١٩٩٠ فريق "إلياد" المدعم بخدمات شركة المينيتل الوردي. وفي عام ١٩٩٥، استثمر في الإنترنت بواسطة شركة "وورلد نت"، كبرى شركات خدمات الإنترنت في فرنسا، التي اشترتها بعد ذلك شركة سيجيتال عام ٢٠٠٠، بعد أن قدمت عام ١٩٩٩، عرضًا لحصول العميل على خدمة ثلاثية تشمل الإنترنت، والتليفون، والتليفزيون (وهو التقدم المبهم الذي تخيله كاتبو المقال المذكور سلفًا)؛ الذي أسفر بعد ثلاث سنوات عن ابتكار "فري بوكس" الذي يوفر خدمات الوسائط المتعددة عبر التليفون المحمول، وسار على دربه بعد ذلك، معظم موردي خدمات المواقع.

نادي فوضى الحاسوب DST، والقراصنة، و"الحوت"

"أسفرت نتائج الأبحاث التي استمرت ثلاث سنوات، عن اندلاع "حرب الفضاء الإلكتروني". كان كتاب "الخدمات الخبيثة والإنترنت" من أوائل الكتب الصادرة في فرنسا، التي ربطت بين الشبكات الجديدة والتهديدات العسكرية والإستراتيجية. لم يتناول جون جيزنال، الصحفي المتخصص في القضايا المتعلقة بالدفاع، ومؤلف الكتاب الصادر عام ١٩٩٥ – العام الذي أنشأت فيه فرنسا مزود خدمات الإنترنت "وانادو" (أحد فروع فرنسا تليكوم) – العمليات التي يمكن إنجازها أثناء تصفح الشبكة، والتطورات التي يمكن تحقيقها؛ بل تناول "الحرب المعلوماتية" التي تشنها أجهزة المخابرات العسكرية منذ الثمانينيات عبر

الشبكة العنكبوتية. لقد تحدث عن عمليات التجسس المتبادلة بين تلك الأجهزة، بفضل النظام الأنجلو / أمريكي "شبكة النسق للاتصالات"؛ ونجاحها في التجسس على ملوك القرصنة المعلوماتية "الهاكرز"، الذين كان معظمهم من شباب المراهقين أو البالغين. في نهاية الثمانينيات اتُهِم أربعة شباب ألمان في سن العشرينيات – أعضاء أقدم مجموعة قرصنة أوروبية، "نادي فوضى الحاسوب"، التي تأسست عام ١٩٨١- بالتجسس على الحواسب الأمريكية لصالح المخابرات الروسية، بواسطة الستاسي (جهاز أمن الدولة الألماني). وعُثر بعد ذلك على جثة أحدهم، متفحمة في إحدى الغابات. وانتهى التحقيق إلى اعتبارها حالة انتحار، الأمر الذي أثار شكوك العديد من المراقبين. كانت هذه الحادثة، التي أثيرت إعلاميًا، بمثابة تحذير لأجهزة المخابرات في أنحاء العالم، لمراقبة "المهووسين"، المجندين، أثناء الحرب الباردة، للتجسس على الدول الأجنبية بغرض شن "الحرب المعلوماتية". أخبرنا جون جيزنال أيضًا، أن فرنسا قررت تأسيس "نادي فوضى الحاسوب"، لمكافحة التجسس، واستقطاب القراصنة الفرنسيين، وتسهيل وضعهم تحت المراقبة؛ بيد أن النتيجة كانت حاسمة: لم يتجرأ أحد على التقدم، وعلى وصفه "بالقرصان"، ولجأ بعضهم إلى المواقع السرية في "البرمجيات الخبيثة"، والبعض الآخر آثر مغادرة البلاد. من جهة أخرى، أشار الجنرال جون جويو في مؤلفه "التجسس العلمي" الصادر عام ٢٠٠٢، أنه تمكن من فرض الخدمة العسكرية – التي كانت إجبارية آنذاك – على ما يقرب من مائة شاب في نادي فوضى الحاسوب؛ إذ كان يشغل منصب المستشار العلمي للنادي في الفترة من ١٩٨٤ إلى ١٩٩٦، وكان معروفًا بلقب "الحوت". نجح جويو في تجنيد أولئك "القراصنة" الذين أطلق عليهم فيما بعد "صغار الحوت"، كنوع من المزاح، لأنه وفقًا لجويو "استلزم الأمر بعض السخرية، لتنفيذ الأعمال الجادة". لقد حسمت سلوكياتهم الصورة السلبية عن النادي؛ إذ كان البعض منهم لا يتردد في ارتداء تي شيرت مكتوب عليه "الموت للبقر"، أو يرتدي شورتًا عند حضوره للنادي، أو يتصفح الحاسوب ليلاً، ليكسب جائزة من مسابقات المينيتل، ليمنحها للنادي. ونظرًا للمهام التي كانوا يُكلفون بها، مثل اكتشاف القراصنة الآخرين، ومراقبة اجتماعاتهم ومؤتمراتهم،

والاستعلام عن بعض المستهدفين من نادي فوضى الحاسوب، واكتشاف مواطن الضعف في النظم المعلوماتية الفرنسية للشركات والإدارات الفرنسية، كان "ملوك القراصنة" – التسمية التي كانوا يعلقونها على أبواب مكاتبهم - يمارسون القرصنة أحيانًا على بعض المواقع التي تعتقد أنها محصنة، ليرسلوا إليها رسالة مفادها أن "النادي يعرف قدراتك جيدًا"؛ الأمر الذي أسهم في توعية الفرنسيين بمخاطر "الفضاء الإلكتروني".

جون مارك ماناش Jean Marc Manach

أصبح جزافييه نيل، أحد المهرة في تجديد جهاز المينيتل، ومن أقوى وأغنى الرجال في غضون عدة سنوات. في الفترة ذاتها، نجح مستخدمو الحواسب المهرة، ودارسو علوم الحاسب الآلي في الولايات المتحدة، في إنشاء مواقع وتحقيق مكاسب مادية كبيرة، لأن تقنية "حزمة التحويل" تحقق أرباحًا هائلة.

"كل تكنولوجيا جديدة تؤدي إلى نشأة جيل جديد من القراصنة، سرعان ما ينتشر في الشارع، ويحدث فوضى الاستخدامات"

جون ماركوف Jean Markoff

مرحلة الربح الاقتصادي

في غضون عشرة أعوام، ظهرت شركات جديدة مثل "وادي السيليكون" Silicon Valley، و"ستارت آب" Start Up، و"مقاولي الإنترنت" Web- Entrepreneurs، و"ملائكة الأعمال" Business angels؛ التي أدارت منظومة الإنترنت بشكل مختلف، وأكثر هدوءًا وتعاونًا؛ وأصبحنا نتحدث عن "الجيل الرابع للثورة الصناعية"، المليء بالأحداث. لقد اختلفت الأوضاع عن الثمانينيات، وبدأ المسار مع نموذج آبل، للشابين المتلصصين على أجهزة حاسوب والديهما في الجراج، قبل أن يصبحا مليونيرين. بدأ تاريخ التسعينيات للإنترنت داخل الجامعات، عندما أسس بعض الطلاب مشروعًا

سرعان ما تحول إلى شركة "ياهو" الناجحة ! بدأ المشروع مع دافيد فيلو وجيري يانج، كمشروع معلوماتي للطالبين اللذين راودتهما فكرة إنشاء دليل للشبكة في بداية عام ١٩٩٤. وتحول المشروع الجامعي إلى شركة، أسهمت في البورصة بعد عامين من إنشائها، وباعت ٢,٦ مليون سهم بـ ١٣ دولارًا للسهم الواحد، ثم ارتفعت قيمتهُ إلى ١١٨ دولارًا في يناير ٢٠٠٠؛ فأدى هذا الوضع إلى ما يسمى "فقاعة الإنترنت" التي انفجرت في الأشهر القليلة الأولى من عام ٢٠٠٠. كانت الدلائل الأولى لتلك الظاهرة، انضمام شركة "نيسكاب" إلى البورصة عام ١٩٩٥، وارتفاع سعر السهم في اليوم الأول من ٢٨ إلى ٧٥ دولارًا، وحققت الشركة ربحًا بلغ ٢ مليار دولار في اليوم الأول من طرحها الأسهم. من الصعب تفسير ذلك الاندفاع ، إذا حاولنا تحليله بصورة مبسطة، أو تفسير التوسع الذي حققته تلك الظاهرة؛ غير أننا نستطيع تلخيصه في أن جانبًا كبيرًا من الاقتصاد اتجه نحو التكنولوجيا الجديدة من أجل الاستثمار الجماعي. واقع الأمر، أنه في نهاية التسعينيات أسفرت الفكرة التي ابتكرتها شركة "ستارت أب" عن تطور مجال الاستثمار المالي. وتطورت الأمور بعد ذلك بوتيرة غير مسبوقة؛ ونشأ أول منتدى للإنترنت في إنجلترا "الثلاثاء الأول" عام ١٩٩٨، حيث كان المبتكرون والمستثمرون يجتمعون، في الثلاثاء الأول من كل شهر ليعرض المبتكرون أفكارهم، ويمول المستثمرون مشروعاتهم.

إن التهافت على ذلك الاستثمار، لم يقتصر على التقدم التكنولوجي فقط؛ بل شمل عدة عوامل أخرى من بينها الظروف الاقتصادية، المتمثلة في فائض الادخار أو الاضطرابات العامة والجماعية التي لحقت بقطاع الاتصالات؛ كما شمل الظروف السياسية، التي دعمتها السياسة الأمريكية. علينا ألا نغفل الدور الذي لعبه، في هذا الصدد، آل جور نائب الرئيس بيل كلينتون في الفترة من ١٩٩٣ إلى ٢٠٠١، الذي شجع ما يسمى "بالطرق المعلوماتية السريعة"، ودافع بشدة، في الولايات المتحدة وفي العالم أجمع، عن فكرة التقدم الصناعي المحتوم. أضف إلى ذلك، تكاتف كلينتون وآل جور في التسعينيات، لإعداد تشريع يتعلق بأبحاث برامج الإنترنت؛ وتبني قوانين أسهمت في نشأة التجارة الإلكترونية، وتزويد المدارس والمكتبات بالإنترنت.

الأهم من ذلك، هو إبراز التجارب الناجحة في النصف الثاني من التسعينيات، وخاصة نموذج البوابات الثلاث؛ "ياهو" (الذي لم يقتصر نشاطها على كونها دليل مواقع)، وإن إس إن، وإيه أو إل. تعتمد سياسة البوابة على توفير المعلومة المجانية لزوار الموقع، كي تجذب المزيد من المتصفحين، وتتمكن بالتالي من تسويق الإعلانات المعروضة، في أجزاء من الشاشة، عن الموقع. لقد أدى انفجار فقاعة الإنترنت في ربيع ٢٠٠٠، إلى انفجار مماثل لهذا النموذج، بعد ظهور نماذج أخرى، كان من أبرزها "جوجل"، الذي لم يكن بوابة عامة فحسب - تختلف في التصميم وتتميز بصفحتها البيضاء الخالية من الإعلانات - بل محرك بحث يتيح بعض الروابط المدعمة، ويوفر دعاية هادفة ازدادت نموًا في الألفية الثانية. بالإضافة لهذه الخلفية، يتميز "جوجل" في طريقة استخدام الموقع؛ فقد كان يوفر المعلومة بصورة عامة وثابتة، كما كان الحال آنذاك، ثم تطور محرك البحث وأصبح يتيح الدخول الفردي الأكثر فعالية؛ ولم يعد المتصفح في حاجة إلى البوابات الكبيرة، الشبيهة بصحف المعلومات العامة؛ بل أتاح له نمطًا جديدًا أكثر جذبًا للتصفح الفردي.

عصر الطرق المعلوماتية السريعة
والاستقلال والفضاء الإلكتروني

إن ظهور النماذج الجديدة، لا يعني الاكتفاء بالإنجازات التي تحققت، بل تتطلب المزيد من التطور الأكثر عمقًا؛ الذي لخصه فريد تورنر في دراسته التحليلية عن نشأة الإنترنت بقوله: "في مفترق الثمانينيات والتسعينيات، انتشرت الآليات الاقتصادية والتكنولوجية الديناميكية، التي أدارت المسار المهني لوادي السيليكون لفترة طويلة، في أرجاء العالم في صورة إنتاج شبكات، وتعاقدات من الباطن، وتوسع السوق غير المنضبط ، وأصبحت تلك الآليات جزءًا من حياة الفرد اليومية"(٣). لقد ساد الاقتناع التام بنشأة "اقتصاد جديد"، من أبرز مصطلحاته "الكمبيوتر"، و"الرقمية"، و"إنشاء الشبكات". شرح آلان جرينسبان، رئيس هيئة الاحتياطي الفيدرالي الأمريكية، هذا الوضع عام ١٩٩٩، لمجموعة من رؤساء البنوك في شيكاغو قائلاً: "إن الإسراع في تبني الابتكارت التكنولوجية، يحقق صالح العملية المتعلقة برفع إنتاجية العمل؛ التي لم تعد مجرد ظاهرة دورية لتحقيق طفرة رقمية؛ لكنها تعكس، ولو قليلاً، احتياجنا لتعديل المشهد الاقتصادي بصورة أكثر عمقًا، واستمرارية"(٤). من الصعب إدراك هذه الموجة الجنونية التي هبت على الاقتصاد في تلك الحقبة، التي اعتقدنا أو أردنا أن نعتقد، أننا قادرون خلالها على تحقيق تقدم شبيه بالتطورات الصناعية القديمة. وإذا كان انفجار فقاعة الإنترنت قد أسهم في تهدئة هذا الاندفاع، إلا أن الشعور الذي ساد العالم آنذاك، أن ثمة تغيرًا قد حدث بالفعل. ولمزيد من الاقتناع، علينا قراءة ما كتبه الصحفي جو كلين، في السيرة الذاتية التي أعدها عن بيل كلينتون عام ٢٠٠٣: قائلاً "إن النجاح الذي حققه بيل كلينتون في فترة رئاسته، على الصعيد الثقافي على الأقل، لم يكن سطحيًا كما كان يعتقد خصومه (...) إذ تضمن برنامجه الرئاسي العديد من المتناقضات مثل تأييد التجارة الحرة (الأمر الذي أيده المحافظون)، وتأمين صحي شامل (نال تأييد اليساريين)، ودعم الإصلاح المتعلق"بدولة الرفاه" (الذي أثار اليساريين)، ومساندة الأقليات (الذي أرعب المحافظين). لقد كانت تلك المتناقضات

تشكل الجزء الأكبر من مهمته الأساسية المتمثلة في انتقال البلاد من العصر الصناعي إلى العصر المعلوماتي"(٥). إنه تفسير مغاير لما اعتقده البعض في أن خلل البرامج الاجتماعية، وخفضها أثناء فترة رئاسته، سوف يؤدي إلى انقلاب حضاري في مفهوم آليات الحكم الذاتي.

مرحلة الابتكار

الأمر الذي كان مثيرًا للدهشة في الفترة بين ١٩٩٣ و١٩٩٥، هو تفوق التكيف السريع للإنترت مع الاقتصاد، على تكيف الاقتصاد مع الإنترنت. في ٣٠ أبريل ١٩٩٣، ضخ مختبر سيرن في السوق العام مجمل تكنولوجيا الشبكة العنكبوتية التي يستخدمها، الأمر الذي أسفر عن ظاهرتين؛ الأولى، تتعلق بانفتاح جمهور المستخدمين على الممارسات الحديثة الواسعة، وانتشار المودم وتطوره السريع، وبالتالي تسهيل استخدامات الإنترنت. إلا أنه إذا كان مسار المعلوماتية يتجه من أعلى إلى أسفل، أي يستمر في الهبوط "Top - Down"، في مجال العرض المرئي، فإننا نلاحظ ظهور ممارسات جديدة في نهاية التسعينيات؛ مثل "المدونات"، التي ابتكرت وسائل نشر إلكترونية أون لاين، لا تتطلب معرفة معلوماتية؛ وأسفرت عن إنشاء الصفحات الشخصية الإعلانية، والتواصل مع الغير، وتعدد المنتديات ذات الصلة. الظاهرة الثانية، المتزامنة مع هذا الانفتاح، تتعلق بالتراجع الأيديولوجي؛ ففي خلال عامين، تحولت شبكة "الويب" إلى ساحة تجارية كبيرة، لا يقتصر مداها على البوابات الموجودة، بل امتد ليشمل إنشاء مواقع تسويق عبر الإنترنت أون لاين. في عام ١٩٩٤، أنشأ جيف بيزوس أول مكتبة أون لاين، وبدأ تسويق إنتاجه في العام التالي. وفي عام ١٩٩٥، أنشأ بيار أوميديار موقعًا للمزادات أون لاين، أسماه فيما بعد "إيباي". يعتقد البعض أن هذا الأمر يُعد بمثابة خيانة صارخة للمثل الأولية للإنترنت؛ لأن عددًا كبيرًا من أولئك التجار الجدد في التسعينيات، كانوا مناصرين للثقافة المضادة في السبعينيات والثمانينيات. كيف نفسر تحول زعماء الرقمية في فترة قصيرة

إلى رجال أعمال محنكين، ومستثمرين خبراء، ومتغنين بالرأسمالية المطلقة، بعد أن كانوا يعتقدون في الستينيات أن استمرار المعارضة سوف يغير من طريقة تعاملنا مع العالم. الأمر لا يتعلق هنا بتفسير الحقبة الأخيرة الساخرة من القرن، أو تسليط الضوء على السلوك الشخصي لبعض "الهيبي"، المؤيدين لحرية خيارات شراء الأسهم؛ إنما بتفسير التحول الذي لحق بالفئة التي استغلت الوسيلة التي ابتكرتها في الماضي لتغيير سلوكها الحاضر، وبالتالي تغيير سلوكياتنا.

موجة "الواقع الافتراضي "VR"

تعرض الحقل اللغوي لأزمة حقيقية بسبب الاستخدام المفرط للمصطلحات المتعلقة بعالم الإلكترونيات. إن النجاح المدوي في بداية التسعينيات لمصطلح "الواقع الافتراضي"، وفقًا لإحصائيات كتب جوجل، لم يكن يضاهيه سوى فشله المدوي. إن هذا المصطلح الذي أدخله مبرمج الكمبيوتر والفنان جارون لانييه في منتصف الثمانينيات، كان يبلور التصورات التقنية للنصف الأول من التسعينيات. لم يكن الغرض من الكتاب، الأكثر مبيعًا "الواقع الافتراضي" الصادر عام ١٩٩١ للكاتب هاورد رينجولد، تعميم المصطلح؛ لأن الحديث عن الواقع الافتراضي كان يتم على المحورين التقني والفكري، المبشرين بعالم اجتماعي جديد، وثورة أنتروبولوجية. استخدم الرمز "VR" في بداية الأمر، لتجميع سلسلة ابتكارات إيفان ثوثرلاند، وعلم الحاسب الآلي في الستينيات المتمثلة في: إمكانيات الكمبيوتر (الإنتاج، والمعالجة، والفهرسة، وضغط الصورة)، وخوذة الواقع الافتراضي (جهاز عرض يوضع على الرأس مزود بشاشة صغيرة لعرض الواقع الافتراضي)، وأجهزة تحليل الحركة تصويريًا. في مستهل التسعينيات، حقق ثوثرلاند حلمه في غرفة الواقع الافتراضي المسماة "مغارة"، التي تُعد بمثابة "غرفة تحكم الكمبيوتر في مادة العرض (...) واصطحاب المُشاهِد إلى بلاد العجائب الرياضية"، وفقًا لأقواله في كتابه الصادر عام ١٩٦٥ "العرض النهائي". استُخدِم بعد ذلك مصطلح "الواقع الافتراضي" للتعبير عن التكهنات التقنية المستقبلية، بالإضافة لوظيفته

التقنية، المتعلقة بتنقيح الابتكارت القديمة. إن أبرز مثال على فشل الواقع الافتراضي، كلمات رينجولد عندما قال إن الانبهار بالقدرات المعرفية الفياضة؛ وتقنيات "إثارة الجنس عن بعد"، التي تثير الأحاسيس والانفعالات؛ وتطلع الجيل، أسير شاشة العرض البلوري السائل "إل سي دي"، لكل ما هو جديد؛ كل ذلك أدى إلى فشل التطبيق "الحتمي" للواقع الافتراضي. لقد نشأ الواقع الافتراضي في حقبة الأقطاب الثقافية المتناقضة بشدة والمتمثلة في الإنسان والآلة؛ الجنس والموت؛ العمل والترفيه؛ العقل والمشاعر؛ الاستقلال والخضوع. لقد صار الجهاز التقني المشوق، من مقدسات الحياة التي تستمد قواها من التركيز على التغيرات الاجتماعية، لتبرزها وتخفيها. إن الموجات العابرة، لها أبعاد أيديولوجية قوية؛ فقد نشأت موجة الواقع الافتراضي بعد "مجتمع المعلوماتية"، الذي بلغ ذروة مصطلحاته اللغوية عام ٢٠٠٠، وتبعه الحديث عن التوفيق بين معلومات الناتو الحيوية واتجاه ما بعد الإنسانية (الدعوة لاستخدام التكنولوجيا لتحسين الخصائص الفيزيائية والعقلية للبشر). إنها الحقبة التي تتشابه فيها المصطلحات البلاغية، والروابط الاجتماعية. لقد تزامن استخدام لفظ "افتراضي" مع ظهور شبكة الإنترنت الواسعة، التي أشعلت الصراع داخل النفس البشرية، عندما أبرزت وجود عالم مختلف، يوشك على ابتلاع العالم "الواقعي". ما الذي تبقى لنا من هذا العالم الافتراضي؟ الإنترنت ليس قرصانًا مناهضاً؛ بل إن العالم المضاد هو الذي استحوذ على عالم الكمبيوتر ومبيعاته. لقد استُبدل منطق الاتجاه نحو العالم الافتراضي، بالفرضية المستدامة، أي الدمج المستمر بين المعطيات الرقمية التي تنسج خيوط العالم، وتراجعت موجة الواقع الافتراضي إلى صفوف الابتكارات القديمة الملحة والزائلة بعد ظهور "المدن الذكية"، وقاعدة البيانات الكبيرة. غير أن الابتكارات المستوحاة من الواقع الافتراضي لا تزال مستمرة، ومتمثلة في التسويق أون لاين لخوذة ألعاب oculus Rift، وتصميمات طائرات حقبة ما بعد الحرب، وإصدارات دائرة الرقابة الداخلية والروبوت DataViz (عرض المعطيات الفضائية). ختامًا، يمكننا القول إن الابتكارات الفردية تحولت إلى اتجاهات جماعية، ومفتوحة للفرضيات الواقعية."

ماتيو تريكلو Mathieu Triclot

في الفترة بين نهاية الثمانينيات، ومنتصف التسعينيات لاحظنا إذن في الولايات المتحدة تحولاً غير مسبوق في مبادئ المولعين بالتكنولوجيا، المنتمين للثقافة المضادة في الساحل الغربي – التي ينتمي إليها جزء كبير من مهندسي وادي السيليكون – وللتيارات الليبرالية الحديثة، المندفعين إلى سياسات التغيير في التسعينيات. إن ١٩٩٣، يُعد من العلامات الفارقة في تلك الحقبة؛ لأنه كان عام إنشاء أول محرك إنترنت تخطيطي فسيفسائي Mosaic، وتأسيس مجلة "وايرد"، الممولة من المستثمرين المحافظين، المنقلبين إلى ليبراليين. تميزت مقالات وإعلانات تلك المجلة بتصميماتها التخطيطية الجريئة، وأسلوبها الثوري المساير للعصر بفضل مؤسسها ستيوارت براند، رائد الثقافة المضادة الأمريكية، ومؤسس كتالوج "الكرة الأرضية" الذي كان يُعد في نهاية الستينيات، بمثابة الكتاب الجامع للمبدعين من مجتمعات مختلفة. لقد كتب دومينيك كاردون في مقدمة مجلة "فريد ترنر وايرد" – تلك المجلة التي تعد حتى وقتنا هذا، مكان الإبداع في مجالي الإنترنت والتكنولوجيا الحديثة – قائلاً: "إنها سوف تكون لسان حال شريحة من المؤيدن للثقافة المضادة في كاليفورنيا، الرافعين شعار التجارة الحرة للرأسمالية الرقمية"(٦). إن النخبة الثقافية الأمريكية الجديدة، هي التي تؤمن بالتكنولوجيا، وتسعى لتحويل الإنترنت إلى نظام يستطيع كل مبتكر إدارته بصورة ذاتية؛ ذلك هو نمط التفكير الذي سبق وأيده المؤسسون الأوائل لمبدأ المجتمعات الفكرية المستقلة، ورواد التغيير الجذري. يعتقد دومينيك كوردن، أن الإنترنت يُعد انتصارًا أيديولوجيًا، مفسرًا ذلك بقوله: "إن استخدامات الإنترنت سوف تساعد على تطبيق مبادئ التسعينيات الليبرالية، التي تستهدف القضاء على بيروقراطية المجتمع، ومساندة صغار المبتكرين النشطاء في مواجهة خمول الكبار، وإطلاق الطاقات التمويلية، ومكافأة الإبداع والجدارة. لقد بدأت بالفعل المشروعات الاقتصادية الجديدة تعترف بشرعية مهاجمة الاقتصاد الصناعي القديم، وقُضِي الأمر، وأصبحت الثقافة المضادة أكبر مساند للتوسع الرأسمالي الرقمي"(٧). إن الرفض الظاهر أمامنا، ما هو إلا نوع من التحول المؤيد للتغيرات الرأسمالية الأمريكية التي تبنت، في الحقبة عينها، القيم المضادة للهيبي.

مرحلة الإبداع

الأمر المثير للدهشة، أن هذا التحول أثر كذلك في صميم الاتجاه المهم الذي استمر في المغالاة بالمزايا المثالية للشبكات قبل – العنكبوتية؛ أي البرمجيات الحرة. في عام ١٩٩٤، أصبح متاحًا، للمرة الأولى، تشغيل الكمبيوتر ببرمجيات عامة بفضل نظام "جنو / لينكس" للبرمجيات الحرة؛ النظام الدامج بين مشروعين مختلفين: مشروع "جنو" لتصنيع البرمجيات الذي اخترعه المبرمج الأمريكي اللامع في معهد ماساتشوسيتس، ريتشارد ستالمان، المهتم في بداية الثمانينيات، بالحصول على براءة اختراعه، وبيع البرمجيات المتاحة مجانيًا آنذاك عند شراء جهاز الكمبيوتر؛ لأن البرمجيات، وفقًا له، يجب أن توفر أربع حريات: الاستخدام، والدراسة، والتعديل، والنسخ؛ الأمر المخالف تمامًا لمنهج مايكروسوفت، وآبل على سبيل المثال. والمشروع الثاني تضمن إنشاء مؤسسة البرمجيات الحرة، المعتمد على تبرعات الأفراد، وبيع منتجات جنو (لأن البرمجيات الحرة لم تكن مجانية بصورة إلزامية). غير أن البرنامج النواة لم يكن متاحًا لمشروع "جنو"، فتعاون ستالمان مع المبرمج الفنلندي الشاب المقدام، لينوس ثورفالد ،الذي نجح في غضون ثلاث سنوات، من ١٩٩١ إلى ١٩٩٤، في إعداد هذا البرنامج بالتعاون مع خبراء الكمبيوتر في أرجاء العالم.

قرر اتجاه ما بعد الإنسانية
بدء عصر جديد يدمج الآلة
بالكائن البشري

من جهته، اعتقد ستيلمان أن البرمجة الحرة تُعد من الأمور المثلى الاجتماعية والسياسية؛ في حين اعتقد ثورفارد أنها من الأمور المثيرة للشغف الجماعي، إذا اعتقدنا أن رفع كفاءة البرمجة يحتاج لتضافر جهود المتحمسين لهذا المجال. لقد أسفر هذا الاختلاف بين وجهتي نظر ستيلمان وثورفالد عن الانشقاق النظري بين حركة البرمجة الحرة من جانب، وحركة المصدر المفتوح من جانب آخر؛ الذي انتهى بغلبة التيار الثاني على الأول في منتصف التسعينيات. يفسر سيبستيان بروكا، منطق المؤيدين للمصدر المفتوح بقوله: "إن أهدافه تدمج بين الرغبة في اللحاق بركب النمو في قطاع التكنولوجيا الحديثة، والصمود القوي أمام فكر ريتشارد ستيلمان الاجتماعي، الذي قد يتصف "بالأيديولوجية"، والمخاطرة"[(٨)]. في عام ١٩٩٨، أطلقت مبادرة المصدر المفتوح لمنافسة مؤسسة البرمجيات الحرة؛ ولقد رأينا أنه من الضروري التنويه عن هذه المنافسة السريعة والمليئة بالثغرات؛ لأنها أسفرت عن نشأة برمجيات موزيلا ومتصفحها فايرفوكس، والعملاق "جوجل" الممول الرئيس لموزيلا فايرفوكس – أي المنتصرين في الألفية الثانية، المعتمدين على المبادئ المثلى للبرمجة الحرة، القائمة على تخطي المعوقات الصعبة، وفتح مجال الإبداع. وكان أبرز مثال على ذلك "جوجل" الذي خصص ٢٠% من أوقات العمل للمشروعات "الفردية". الأمر الذي تنبأ به إريك ريموند – أحد مؤسسي المصدر المفتوح – عندما قارن عام ١٩٩٩ في مقاله "الكاتدرائية والسوق"، بين نمطي إنتاج البرمجيات؛ الأول يعمل بنظام الكاتدرائية، أي مجموعة صغيرة من الأشخاص تعمل في عزلة تامة لتشييد بناء ضخم؛ والثاني يعمل بمنطق السوق، أي جموع غفيرة من البشر تعمل، من الناحية الظاهرية، بصورة عشوائية، وتُجري التبادلات، لتأسيس السوق. يعتقد مؤيدو البرمجة الحرة، على غرار ستيلمان، أنها مشروع اجتماعي يتفوق على المشروع التكنولوجي، وأنها الوسيلة الأفضل للتحرر من سيطرة التكنولوجيا؛ إلا أنهم كانوا الفريق الخاسر في

نهاية التسعينيات، أمام الفريق المؤيد للمصدر المفتوح الذي يؤدي إلى رفع الكفاءة وتحسين الأداء.

لقد كانت تلك المنافسة ذات مغزى؛ إذ لجأ النموذج المتفوق إلى تطبيق مُثل اجتماعية وتكنولوجية أقل شأنًا من مُثل ستيلمان، لكنه روج لتكنولوجيا طموح، ولهدف يفوق الحدود: ألا وهو قدرته على تغيير العالم. وعلى الجانب الآخر المعارض، كانت الأفكار الاقتصادية والأيديولوجية لآلان غرينسبان (رئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي السابق) ومجلة "وايرد"، تفتح آفاقًا شبه ميتافيزيقية للتكنولوجيا الرقمية الجديدة، وللإنترنت بصفة خاصة.

في تلك الحقبة، تحولت مفاهيم الفترة الفاصلة بين الأدب التحرري، والتناقضات الفلسفية، إلى واقع فعلي. في عام ١٩٩٥، فسر فرنور فينجي، أستاذ علم الحاسوب ومؤلف العديد من روايات الخيال العلمي، مفهوم "التميز" بمسلمة مفادها أن الذكاء التكنولوجي يتجه بخطى ثابتة نحو تطور حتمي سوف يتفوق، في القريب العاجل، على ذكاء الإنسان. وفي السنوات التالية، أسفر هذا المفهوم عن الحركة التي يمكن أن نُطلق عليها بفظاظة "ما بعد الإنسانية"، التي تؤكد بداية عصر جديد، ووشيك يدمج إنسانية الآلة بإنسانية البشر. الجدير بالذكر، أن راي كورزويل، أحد الوجوه البارزة اليوم في تيار ما بعد الإنسانية، أصدر عام ١٩٩٠ مؤلفه "عصر الآلات الذكية" The Age of Intelligent Machines(٩)، ثم تحول من الحياة العملية، كمستثمر ومخترع في شتى المجالات، إلى الحياة النظرية التي يلجأ فيها لشتى السبل، لبث أفكار ما بعد الإنسانية في الرأي العام. وبصدور كتاب "عصر الآلات الروحية" عام ١٩٩٩، استخدم كورزويل لفظ "روح" بدلاً من "ذكاء"، مؤكدًا اقتناعه بأننا سوف نشحن الآلة بعقولنا، ونتخطى بالتالي موت الجسد. لقد أصبح راي كروزويل حاليًا أحد العاملين في جوجل.

ظهرت بعد ذلك بعض المفاهيم المستوحاة من الخيال العلمي مثل الفضاء الإلكتروني، وفرضت نفسها علينا بكل قوة. كان الكاتب التحرري الأمريكي ويليام جيبسون، أول من استخدم هذا المصطلح في الثمانينيات في روايته "حرق كروم"

Burning Chrome (١٩٨٢)، وشرحه بعد ذلك بعامين في روايته الأعلى مبيعًا "نيورومانسر" Neuromancien قائلاً: "يعيش عشرات الملايين من أطفالنا، طلاب العلوم الرياضية، يوميًا في جميع أرجاء العالم، حلمهم المشروع لابتكار نموذج لذاكرة حاسوب تستمد معطياتها من ذاكرة العقل البشري. إنه تصور معقد وغير معقول" (١٠). في التسعينيات، فرض اللفظ نفسه على الساحة، وكان مرادفًا للإنترنت، والشبكة العنكبوتية، والشبكات بصفة عامة. وإنني أعتقد أن الأمر لا يضيرنا إذا استخدمنا اللفظ المشتق من جيبسون، دون الأخذ بخصائصه الأصلية. إن الفضاء الإلكتروني، هو الإنترنت باستخداماته الحالية مضافًا إليه الخيال "المرئي"؛ اللفظ الذي استبدله جيبسون فيما بعد "بالمستنير"؛ إنه تصور مخالف لفضاء الإنترنت الحالي، وعلينا إدراك هذا الاختلاف الحاسم، كي نفهم تأثير الإنترنت على حياتنا في نهاية التسعينيات.

في عام ١٩٩٧، فسر الفيلسوف الفرنسي بيار ليفي، المقيم حاليًا في كندا، هذه الظاهرة في أحد فصول دراسته المعبرة للغاية، "الذكاء الجماعي" L'Intelligence Collective، بعنوان "أنتروبولوجيا الفضاء الإلكتروني" Pour une anthropologie du cyberspace قائلاً: "إنه الفضاء الأنتروبولوجي الجديد، فضاء المعرفة والذكاء الجماعي". لكن ما هو الذكاء الجماعي؟ "إنه الذكاء المتاح للجميع، والمتطور بصفة مستمرة، والمتأقلم مع الزمن، وثمرة الكفاءات الجماعية المحتشدة"(١١). الفضاء الإلكتروني إذن، بالنسبة لبيار ليفي، هو أحد الروابط المختلفة التي تربطنا بثمرة الذكاء والمعرفة؛ والفرصة الفريدة لتوحيد الذكاء في دماغ عالمي كبير؛ وشبكة نقل المعلومات الفعالة، التي وصفها بحماس معبر، ونفى مخاطرها الاجتماعية والاقتصادية. غير أن كثيرًا من معاصريه، اعتقدوا أن عليهم الاستفادة من الخصائص السياسية المباشرة للفضاء الإلكتروني، لتأسيس فضاء جديد أكثر تحررًا – على غرار رائدي الفضاء الإلكتروني أرتو وماري لويز كروكيه – أو لاستنكار مخاطره الجديدة، المتعلقة باللغة والبرمجة وأدوات البحث، على غرار المهندس الروحاني شارون لانييه – مخترع أجهزة الواقع الافتراضي – عندما قارن "قانون البرمجة المعلوماتية البسيط"،

بالشبكة "المثيرة"، الأكثر تحررًا[١٢]. أدى افتقارنا للفضاء الإلكتروني - الذي يعد بكل بساطة، الملاذ الجديد وربما الأخير للمعارضين السياسيين، المنبوذين من العالم "الواقعي" بسبب النظام العالمي الجديد - إلى ظهور قراصنة الفضاء المُسَيسين للمجلة الإلكترونية الأسبوعية "فوضى الدايجست"؛ والموقع الإخباري المناهض للفاشية "المشاهد المكروهة"؛ ونشطاء مجموعة حقوق الإنسان الأمريكية "رفض ومقاومة"؛ وموقع الاستضافة العمومي "فور تو" لشبكة المكافحة الأوروبية؛ والثوريين السرياليين لموقع "ناديا"؛ ونضال النحات اللاتيني جيليرمو جوماز بينا، المناهض للعنصرية والذي وضع أون لاين المشاهد الساخرة "للروبوت العرقي"؛ والأمريكيين المناصرين لجيل دي لوز وفيليكس جاتاري (الذين عبروا عن الإنترنت في صورة "جسد بلا أعضاء"...)؛ والمنضمين منذ ١٩٩٣ إلى منتدى "قائمة تصميمات دولسي & غبانا"؛ والمواقع المساندة للمناضل الأمريكي / الهندي، المسجون ليونارد بيلتييه؛ والحركة الثورية في بيرو توباك أمارو، المنحلة عام ١٩٩٧. لقد كانت الحقبة الأولى للفضاء الإلكتروني، هي مكان الاستضافة الجامع للحركات المناهضة للعالم، والمُثل السياسية، والمناضلين غير النمطيين، والإخفاقات الجلية، بطريقة أكثر تحررًا وعشوائية، عن الفترة التالية.

علينا ذكر حالة أخرى لا يمكن تصنيفها؛ ألا وهي حالة حكيم بك، مؤلف كتاب "تاز : منطقة الحكم الذاتي المؤقتة" TAZ: zone autonome temporaire؛ الذي وصف في أحد نصوصه - الذي أصبح فيما بعد من النصوص المقدسة - رواد تلك المنطقة "بالرحالة الذين يسيرون في دربهم، على هدي النجوم الغريبة التي تتلألأ في معطيات الفضاء الإلكتروني"[١٣]. وكتب في نص آخر، "إن الشبكة العنكبوتية لا توفر الإمداد اللوجيستي لمنطقة "تاز" فحسب، بل تساعدها على البقاء". واختتم قائلاً: "ينبئني حدسي أن الشبكة الموازية دخلت بالفعل حيز التنفيذ، بل موجودة بالفعل... لقد أسست نظرية "تاز"، انطلاقًا من هذا الحدس. تحتاج الويب بالتأكيد إلى شبكات تبادلية أخرى غير معلوماتية مثل شبكة السوق السوداء الروسية "ساميزدات" Samizdat وغيرها؛ غير أن الإمكانات اللازمة لتأسيس شبكة، لا توفر المعلومات المسلسلة، تتوافر باقتدار في

الحاسوب"[١٤]. على الرغم من هذا، فإن حكيم بـك، المـتفهم للحركـات المعارضـة للتكنولوجيا، كان يدرك جيدًا المشاكل الناجمة عن استخدامات التكنولوجيا والحاسـوب، والنشأة المتزامنة لثقافة "الهوس" التخريبية إلى حد ما، والرأسمالية الشمولية التي نُطلق عليها "الاقتصاد الجديد"؛ وكان يعي جيدًا أن ساحة النضال لن تقتصر علـى الفـضاء الإلكتروني، الأمر الذي يتطلب من المناضلين المؤيدين للتكنولوجيـا إثبـات فكـرهم الصائب. إن فكرة إنشائه شبكات قادرة على إقامة منطقة الحكم الذاتي المؤقتـة "تـاز"، هي في حد ذاتها فكرة سهلة التنفيذ – اسـتغلتها وسـائل الإعـلام الرقميـة الـسائدة mainstream – كما أنها تعد بلورة لأفكار التسعينيات وانتشارها بصورة مذهلة.

"الثقافة هي عالمنا، نحن القناصين والحاصدين لتكنولوجيا الاتـصالات...إذا كانت تاز مجتمعًا قبليًا، فإن الويب هي ممول أساطير القبيلة ..."

حكيم بك Hakim Bey

هل تحققت أخيرًا تطلعات حكيم بك وبيار ليفي، على اخـتلاف ظـروف كـل منهما، المتعلقة بالإنترنت؟ من المبكر جدًا الإجابة عن ذلك التساؤل بطريقـة حاسـمة؛ على الرغم من ظهور بعض الوجوه الجديدة المعارضـة، والأنمـاط الحديثـة لنـشر المعرفة في الفضاء العام. يقف القراصـنة غيـر الـشرعيين بالتأكيـد فـي الجانـب المعارض؛ ولو أدرك الخبراء من البداية أن أولئك القراصنة عباقرة صـغار، أسـهموا بعملهم بصورة كبيرة في معلوماتية العالم – وهـو الـرأي الـذي دافـع عنـه عـام ١٩٨٤ستيفن ليفي[١٥] – لم يكن لينظر إليهم الرأي العام بهـذه الـصورة القاتمـة؛ أي قراصنة يستغلون الخلل الأمني للأنظمة، لتحقيق أهداف مغرضة إلى حد ما؛ أو بمعنى آخر، يمثلون الوجه المظلم للإنترنت. في الجانب الآخر المعارض، يقـف القراصـنة الشرعيون، الحاصلون على حق الملكية، وبصفة خاصة في مجال النـسخ الموسـيقية. وكانت خدمة "نابستر"، أول من خاض تلك المعركة في القضية المثـارة عـام ١٩٩٩، عندما طرح الشابان الأمريكيان، شوان فانينج، وسين باركر خدمة مـشاركة الملفـات الموسيقية عبر الإنترنت بين مختلف الشبكات، على أسطوانات صلبة؛ فأسرعت شـعبة

صناعة الأسطوانات الموسيقية إلى مقاضاتهما، لانتهاك حق الملكية؛ الأمر الذي أسفر بعد عامين عن وقف تلك الخدمة. غير أن نجاح نابستر الفوري، فتح مجال الابتكار أمام الكثيرين، وأسهم في تأقلم عدد هائل من المتصفحين في أرجاء العالم، على الولوج أون لاين للحصول على المحتوى الثقافي. ولا يزال الصراع مستمرًا حتى الوقت الحالي، وعلى نطاق أوسع، بين الصناعات الثقافية، والفضاء الإلكتروني الذي لا يكترث ألبتة بالقوانين التي تحكم العالم المادي.

مرحلة سياسة العولمة

في تلك المرحلة اهتم البعض، بالشئون السياسية على المستوى الدولي؛ مثل جون بيري بارلو الذي أعلن في منتدى دافوس الاقتصادي"استقلال الفضاء الإلكتروني". كان لهذا الإعلان ذي النبرة المعبرة، أهمية تاريخية لأنه كان بمثابة الالتزام بالعمل مع مؤسسة الجبهة الإلكترونية التي أسسها بيري بارلو بالتعاون مع جون جيلمور، وميتش كابور عام ١٩٩٠؛ وذلك بعد اعتراض السلطات الأمريكية عدة مرات، التي كانت تهدد - وفقًا لهم - الحريات المدنية. اضطلعت المؤسسة في بداية عهدها، بالتأثير على السياسات العامة من أجل الحفاظ على الحريات في الفضاء الإلكتروني، الذي أسرع وأعلن استقلاله فيما بعد. إن هذا الإعلان، الذي يُعد تمردًا على التراث الأمريكي الطويل - الذي بدأ بسلسلة من البطولات التي استوحت مبادئها من إعلان استقلال ١٧٧٦، بدءًا من هنري ديفيد تورو، حتى مارتين لوثر كينج - يُعد أيضًا من العوامل الرمزية، القوية والمعبرة؛ لأنه يفسر نشأة نمط سياسي جديد في طور الإعداد، بمنأى عن الواقع السياسي للدول القومية ومتعددة الجنسيات، ويتجسد في المشاركة السنوية في منتدى دافوس؛ ويفلت من قبضة الدول الكبرى، والقوى الاقتصادية التقليدية.

الواقع الافتراضي للإنترنت أصبح حقيقة

وساحة الإنترنت السابقة أصبحت عالمنا

إن نشأة هذا النمط السياسي الجديد لا تشوبها شائبة؛ لأن التسعينيات طبقت بعض المعايير الإدارية الخاصة بالشبكات. ففي عام ١٩٩٢، أنشأ رواد الإنترنت الأوائل، شركة إيزوك (ISOC) – مركز توفير المعلومات التكنولوجية ذات الصلة- للربط بين شبكات العالم، وتطويرها في حقبة كان انتشار الإنترنت لا يزال ضعيفًا خارج أمريكا الشمالية. لعبت كذلك شركة إيزوك دورًا أخلاقيًا وتقنيًا مهمًا، عندما قننت وقامت بتمويل قوة مهمات هندسة الإنترنت "إيتاف" (IETF)، الفريق غير الرسمي لمطوري الشبكات في أرجاء العالم، الذي يحدد معايير الإنترنت التقنية، وصلاحيتها. ولولا عمل "إيتاف" ما استطاعت شبكات الإنترنت الوفيرة، التواصل فيما بينها؛ وتحول الفضاء الإلكتروني إلى مجموعة متفرقة من الشبكات. فيما يتعلق بمؤسسة الإنترنت للأسماء والبيانات الرقمية، آيكان (ICANN)، التي أنشئت عام ١٩٩٨، لإدارة وتوزيع أسماء المواقع والمجالات، فإنها تعد منظمة إستراتيجية. إن هذه الهيئات الإدارية تستحق الإشادة، خاصة إذا تذكرنا المهندسين المتطوعين المؤسسين لقوة المهمات الهندسية، والعاملين ذوي الكفاءات المتعددة بمؤسسة آيكان؛ لكنها أيضًا تُعد هيئات مشكوكًا في أمرها نظرًا لتعقيدات عملها. بيد أن استخدام الإنترنت الدائم، استلزم تأسيس تلك الهيئات الإدارية الخاصة، التي لا تستطيع العمل تحت مظلة الأمم المتحدة، وأثارت العديد من التساؤلات، التي تفاقمت في العقود التالية.

قد يكون من الوهم الظن بأن الساسة، وكبار العاملين بالسوق غافلون عن تلك الآلية التنظيمية؛ فمؤسسة آيكان، على سبيل المثال، جمعية حقوقية، يقع مقرها في ولاية كاليفورنيا، وتتبع في نهاية المطاف إدارة التجارة الأمريكية. كما أن إعلان تأسيس الشبكة لاعتراض الأقمار الصناعية التجارية الخاصة التي أنشأتها الولايات المتحدة بالتعاون مع المملكة المتحدة، وكندا، وأستراليا، ونيوزيلندا، للتجسس على

البريد الإلكتروني للمفاوضين الأوروبيين في اتفاقية الجات، تقضي على الوهم المتعلق باستقلال الفضاء الإلكتروني، وبأنه فضاء سياسي بمنأى عن علاقات القوى التقليدية.

في العصر الحالي، ينفي وبشدة الباحث البيلاروسي إيفجني موروزوف، هذا الوهم عندما كتب في إحدى مقالاته المنشورة في أكتوبر ٢٠١٣، تعقيبًا على قضية إدوارد سنودين "إن الشعور السائد بالتداول الحر للمعلومات، الذي أسنده العديدون إلى التسعينيات، لم يكن إلا هذيانًا طويل الأمد؛ لأن الرأسمالية والبيروقراطية الإدارية سرعان ما تأقلمتا مع هذا النظام الرقمي الجديد"[١٦]. كما استنكر موروزوف كذلك، حصيلة المعطيات الهائلة، والمتوفرة التي أعدها كبار مصممي الويب المعاصرون؛ ونظم مراقبة الشبكات التي أنشأتها الولايات المتحدة. لا ضير إذن من استخدام موروزوف للفظ "هذيان" الذي سبق وأطلقه ويليام جيبسون على الفضاء الإلكتروني؛ ومن دعوتنا لإعادة النظر في علاقاتنا المستقبلية بالإنترنت. لأن الوهم الذي أطلقته التسعينيات، وتلاشى تدريجيًا في العصر الحالي، يعد حقيقة من الأمور السياسية؛ ولأن الاعتقاد السائد اليوم، هو أن التكنولوجيا الحديثة في حد ذاتها ما هي إلا سياسة تحقق مزيدًا من الديمقراطية، وتدعم نفوذ المواطن.

في الفترة بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٠، فُرضت تكنولوجيا جديدة علينا، أثارت العديد من التساؤلات غير المسبوقة، المتعلقة بالأنشطة البشرية؛ خاصة على المستوى العالمي. إن الهوس الذي أصاب العالم أجمع عام ٢٠٠٠، والوهم المتعلق بخلل البرمجيات، كان بمثابة المؤشر الدال على حاجتنا للاستقلال البيني المعلوماتي، والكاشف عن الخداع اللوجيستي الكبير،الذي لم يحقق شيئًا. في عام ٢٠٠٠، كانت نسبة التواصل المعلوماتي ضعيفة بين الدول، حيث اقتصر استخدام الإنترنت على أوروبا، والولايات المتحدة، وأستراليا، وجزء صغير من آسيا؛ وكانت استخداماته أضعف بين الأفراد، إذ اقتصرت على الممارسين لأنشطة رقمية غيرت حياتهم بصورة ملحوظة. في نهاية المطاف، يمكننا القول إن الإنترنت فُرضت على عقولنا وليس على حياتنا، متأثرين بحتمية اللحاق بالتغيير الخارجي، المثير للشغف والقلق.

ولم يحدث التغيير إلا بعد تطبيق الاختراعين، ويكيبيديا وجوجل - اللذين حققا نقلة نوعية في استخدامات الويب في نهاية التسعينيات - ونشأة الشبكات الاجتماعية، والاتصال الدائم، والموبايل. في منتصف التسعينيات، انتهى عصر الاتصال بالإنترنت، وأصبح مصطلح "الولوج إلى الإنترنت" من المصطلحات البالية، لأننا أصبحنا نتحكم في اتصالنا أو انفصالنا عنه. لقد تحول الإنترنت من واقع افتراضي إلى واقع حقيقي، ومن وافد خارجي إلى عالم نحياه.

جون ماركوف John Markoff، "بدايات القرصنة الخلوية"

"في وادي سيليكون، كانت كل تكنولوجيا جديدة تؤدي إلى نشأة جيل جديد من القراصنة. ولنضرب مثالاً بالتليفون المحمول؛ لقد كانت الوصلات الأرضية في بداية الأمر، مسرحًا لتلاعب حفنة من المغامرين التقليديين الذين اعتقدوا أن التحكم في تكنولوجيا التليفونات يُعد غاية في حد ذاته. لم يكن هدف المتلصصين المبتدئين التلصص بلا هدف على المكالمات، بل كان تحديهم الأكبر فهم آلية النظام؛ وتطبيق فلسفتهم القائمة على تطوير الأجهزة إلى أقصى حد ممكن. ولا يختلف الوضع في عصرنا الحالي. ولنضرب مثالاً بأمكر متلصصين في البلاد "ف. ت" ؛ و "ن. م" (علينا حجب اسميهما، لأن أضرار أعمالهما تدخل في إطار المنطقة الرمادية في القانون الحالي، كغيرهم من القراصنة) اللذين آمنا بأنهما "هواة اتصالات"، يتسليان، وغير مكترثين بالمكسب المادي؛ يقتحمان ثغرات وخبايا الشبكة التليفونية الوطنية من أجل التحدي الفكري. لكن الثورة التي تحققت في مجال الهاتف الجوال، شجعت جيل القراصنة الصاعد على التسلل إلى متاهات المحمول وخوض المغامرات.

"ف. ت"، هو باحث شاب يعمل في معمل حكومي مرموق، طويل الشعر، ويرتدي في الغالب، سترة وحذاء ماركة باتوجاس (...)؛ أما "ن. م"، فهو قرصان عصامي، يعمل ويقيم في وادي السيليكون، ويتقن اكتشاف أسرار نظم التشغيل يونكس UNIX ، ودوس DOS (...).

لقد أدرك "ف.ت"، و "ن. م" أن الهواتف الجوالة، مجرد أجهزة حاسوب بسيطة، أي محطات اتصالات طرفية تتصل ببعضها بشبكة خلوية ضخمة؛ وأن من الممكن برمجتها مثل أجهوة الحاسوب.

إن البرمجة، بالنسبة للقرصان، تعني عدم قصر استخدامات أجهزة المحمول على اختيارات التشغيل التي اخترعها مصنعوها؛ أي تحويلها إلى أدوات قرصنة ! بعد فحصها، وتفكيكها وإعادة تجميعها بطريقة مبتكرة، لتوسيع مداها إلى أبعد حد (...). تُعد تلك التطلعات تجسيدًا لأفكار ويليام جيبسون، وبروس ستيرلنج، رواد الخيال العلمي، عندما بدأوا الحديث عن السايربانك، القائم على إنتاج تكنولوجيا متقدمة، بتكلفة تناسب فوضى السوق والمستخدمين. في وادي السيليكون، ينخرط مئات القراصنة من أمثال "ف. ت"، و "ن. م"، في خبايا التكنولوجيا الحديثة، لتعديل استخداماتها بصورة غير مسبوقة وأكثر غرابة (...). بالإضافة إلى أن وصل المحمول بالحاسوب الشخصي، تفتح الطاقات الكامنة للمراقبة والتحكم عن بعد. لقد عقد العزم "ف. ت"، و"ن.م" على ابتكار برمجة تسمح بمراقبة أي خط تليفوني، وإعداد برنامج يخترق نظام الخط الخلوي OKI 900، عند إجراء أو ورود اتصال. وتجسدت ثمرة جهدهما في اختراع مسجل صوتي مزود بجهاز توجيه لتسجيل المكالمة؛ وبالتالي فك شفرات كلمات المرور من على الرقم المطلوب، وسرقة أرقام بطاقات الائتمان، وحل رموز الرسائل."

جون ماركوف، "Hacking chips on cellular phones. The latest thing in the digital underground", no 1، ترجمه فرانسوا كوسيه من الإنجليزية إلى الفرنسية، 1993 – 2014 ، دار نشر The conté

حكيم بك، " نموذج من النت الموازي"

"لقد تحدثنا عن النت، كوسيلة تواصل، ونقل معلومات. تقتصر بعض أنواع التواصل على نخبة معينة ومحدودة؛ الأمر الذي يضفي على النت سمة رأسية؛ بينما تضفي عليه

وسائل التواصل الأخرى المتوفرة للعامة،سمة أفقية؛ إذ تتوافر المعطيات المتعلقة بالجيش، والأمن، والبنوك، والبورصة، وغيرها، بصورة محدودة؛ في حين تتوافر مجمل المعلومات العامة، وقواعد البيانات، للهاتف، والبريد الإلكتروني، للكافة. وهكذا، نشأ النت الموازي، الذي نطلق عليه "الويب" (كما لو أن النت شبكة صيد، والويب بيت العنكبوت المنسوج في فجوات، وثغرات النت). إننا نستخدم لفظ "ويب" للتعبير، بصفة عامة، عن هيكل التبادل الأفقي، والمفتوح للمعلومات؛ أي باعتباره شبكة غير رأسية. ويقتصر استخدام مصطلح "النت الموازي"، على المعاملات السرية، وغير القانونية، والمتمردة على الويب، وقرصنة المعطيات، وغيرها من أنواع التلصص. تنبثق إذن مفاهيم النت، والويب، والنت الموازي، من النموذج الشامل نفسه، وتشترك في العديد من النقاط. كما أن الألفاظ التعريفية لا تهدف إلى تحديد مناطق بعينها، إنما لطرح بعض الاتجاهات.

(**استطراد:** قبل الحكم على الويب، أو النت الموازي "المتلصص"، الذي لم يُعَد قط ثورة قوية؛ فلتسألوا أنفسكم ما المقصود "بالابتكار" في حقبة الاقتباس. وما "الطبقة المبتكرة"؛ ربما تقبلون مكرهين، أن الألفاظ فقدت مدلولها. وفي كل الأحوال، سوف تكون الإجابة معقدة، لدرجة دفعت التاز إلى تجاهل الألفاظ جميعها، والاحتفاظ فقط بالقدر الذي تستخدمه. إن "الثقافة طبيعتنا"، ونحن القناصة – الحاصدون لعالم الاتصالات التكنولوجية).

علينا الافتراض أن الأنماط الحالية غير الرسمية "للويب"، تعد إلى حد ما في أولى مراحلها: فالمجلات الهامشية، المتخصصة لهواة المتحمسين، وخوادم الكمبيوتر لتشغيل البرامج المتخصصة، وقرصنة البرمجيات، والتلصص، والتنصت الهاتفي، يقتصر تأثيرها على الصحافة والراديو؛ ويكاد يتلاشى من وسائل الإعلام الأخرى؛ وينعدم في محطات التليفزيون، والأقمار الصناعية، والكابلات، والألياف البصرية، إلخ. على الرغم من هذا، يُعد النت، في حد ذاته، نموذجًا جديدًا للعلاقات المتطورة بين الأفراد (المستخدمين) ، والأشياء، أي "المعطيات". لقد استكشفنا بطريقة شاملة طبيعة تلك العلاقات (...).

تحتل "تاز" مكانة مؤقتة، لكنها معاصرة من حيث المدى، والزمان. (...) علينا إدراك أن تطور الويب، وإحساسنا برغبة "المواجهة"، يحثنا على اعتبار "الويب" الركيزة، والنظام القادر على نقل المعلومة من المنطقة المؤقتة "تاز"، إلى أخرى، وحمايتها، بتحويلها إلى معلومة "غير مرئية"، بل تزويدها وقت الضرورة بالأدوات الدفاعية. وإذا كانت "تاز" مجتمعًا قبليًا، فإن "الويب" هي التي تمد القبيلة بأغانيها الملحمية، وشجرة نسبها، وأساطيرها؛ لأنها تحفظ في ذاكرتها، الطرق السرية للقوافل، ومسارات الكمائن، التي تكفل السيولة المادية للقبيلة؛ كما أنها تحتوي على بعض الطرق التي يجب اتباعها، وبعض الأحلام التي سوف تتحقق لتصبح دلائل ومبشرات".

حكيم بك، "تاز: المنطقة المؤقتة المستقلة"، باريس، لايكلا، ١٩٩٧ (١٩٩١)، الترجمة الفرنسية، كرستين تريجييه، ص ٢٧ - ٢٩.

المراجع

1) Gérarad Théry, "Les autauroutes de l'information. Rapport au premier ministre", Paris, La documentation française, 1994, p.17.

2) Clay Shirky, "The collapse of complex business models", texte publié sur son blog le 1er avril 2010 http://www.shirky.com /weblog.

3) Fred Turner, Aux sources des utopies numériques. De la contre – culture à la cyberculture, Paris,CF éditions,2012,p.277.

4) Alan Greenspan,"The American economy in a world context", 35 eme conférence annuelle, Réserve Fédérale de Chicago, 6 mai, 1999, cité in Fred Turner, Aux Sources des utopies numériques,op.cit,p.332.

5) Joe Clein, The Natural. The Misunderstood Presidency of Bill Clinton, Philadelphie, Coronet Books,2003,p.24.

6) Dominique Cardon, préface à Fred Turner, Aux sources des utopies numériques,op. cit., p.26.

7) Ibid., p. 27.

8) Sébastien Broca, Utopie du logiciel libre, Du bricolage informatique à la réinvention sociale, Lyon, Le passage clandestine, 2013, p.63.

9) Ray Kurzwell,The age of intelligent machines, Cambridge, MIT press, 1990.

10) William Gibson,Neuromancer,1984, édition en ligne: http://project. Cyberpunk. Ru/lib/neuromancer.

11) Pierre Lévy, L'intelligence collective, Pour une anthropologie du cyberspace, Paris, La Découverte,1997, p.29.

12) "Programmes informatiques, programmes politiques" (entretien avec Jaron Lanier), Les cahiers de médiologie, no 3, 1997, "Anciennes Nations, nouveaux réseaux",p.229- 241.

13)Hakim Bey, TAZ, Zone autonome temporaire, Paris, L'éclat, 1997 (1991), p.25.

14)Ibid., p. 40.

15)Steven Lévy, Hackers, Heroes of the computer Revolution, New Tork,Dell Books,1984.

16)Evguency Morozov, "The real privacy problem", MIT Technology Review, 22 octobre 2013.

العقد الرياضي
في ثلاث عشرة كلمة أساسية

جيروم لاتا Jerome Latta

التناسق في الملابس:

نستطيع أن نؤكد دون مخاطرة، أن الملابس كانت في عقد التسعينيات أكثر تمثيلاً للعصر منها في الثمانينيات؛ عصر حشوات الأكتاف الضخمة، والألوان الصارخة، وتسريحات الشعر غير المستساغة اليوم على الإطلاق. أما في مجال الرياضة، فإن التطور سار في اتجاه المبادرة التي أطلقها مصممو الأزياء والمعدات الرياضية، لإنتاج ملابس وأدوات غزيرة ومتجددة على الدوام، تلغي الذوق التقليدي وتساير ذوق العصر. وتحولت الرياضة الراقية، إلى الواجهة التي تعرض الملابس الرياضية، وانتشرت في الشارع، وتحولت الملابس الرياضية إلى متنفس المتأنقين: صبغات شعر زاهية، وبنية جسدية غليظة، ومحفزات مكثفة، وزينة مبالغ فيها، خاصة بعد اجتياح رعاة الرياضة للميدان. أدى هذا الفيض الغزير إلى "تخصيص" صناعة للتجهيزات الرياضية (أربطة الفخذ، والنظارات، والثياب، وأدوات الحماية)؛ وأصبحت صناعة المنسوجات الرائدة في مجال الأنسجة التي تمتص العرق؛ واختفت ظاهرة نزع الشعر؛ واختلط المظهر الصحي بالجمالي. وبدأ السباحون التضرر من المركبات الكيمائية المعقدة للغاية. وتبَدل مظهر الرياضي، فأصبح يتخلى عن الشورت والفانلة ليساير ذوق العصر، ويصبح أكثر بساطة ورونقًا؛ بل يمكننا القول إن شخصيته أصبحت أيضًا أكثر تأنقًا لكن أقل رونقًا. ولتحطيم الرقم القياسي في سباق الدراجات، امتطى جرايم أوبريه، وكريس بوردمان، ومايكل إندوران، أحدث

الدراجات، والخوذات انسيابية الشكل. اختلف كذلك مستقبل البنية الفسيولوجية لممارسي ألعاب القوى؛ وتكفل المهندسون بتصميم الأحذية، وأدوات كرة المضرب على أسس بحثية؛ وانكب الرياضيون، خارج الملعب، على آلآت تضخيم العضلات التي تكفل لهم عضلات صدر تماثل رافعي الأثقال؛ فتلاشت الهيئة النحيفة السابقة للعدائين ولاعبي الكرة. وأصبح من العسير التمييز بين الرياضي ومعداته، بل بين "مدربه البدني" وكفاءة أدائه؛ فعندما حطم راكب الدراجات السويسري توني رومينجر الرقم القياسي ٥٥,٢٩١ كيلو مترًا في الساعة، كان يلازمه الطبيب ميشيل فيراري، بمحاذاة ميدان السباق في بوردو وأصبح الطبيب المصاحب لفريق جفيس، مكتسح السباق في عام ١٩٩٤، أحد رواد مستخدمي الدواء الذي يساعد على تكوين البروتينات EPO، الذي أصبح فيما بعد هرمون العقد لمتسابقي الدراجات، ومصدر الصخب في ذلك القرن.

الطب

لم يقتصر التغيير في التسعينيات على بنية الرياضي، بل شمل وظائف الجسم. وتنامى الطب الرياضي، وتخطى الحدود، وتسلل إلى المنافذ التي تمكنه من اختراق اللوائح. وأطاح أطباء تحسين الأداء، بالمعالجين السابقين والأسفنجة السحرية، وروائح الكافور والأرنيكا، لاستبدالها بالروائح العطرية الكبريتية. وانتهى عصر المنشطات الأولية بجرعاتها المخدرة التنشيطية، مع ظهور المعامل الخاصة برياضات ركوب الدراجات، وكرة القدم، والرياضات البدنية. كما أسفر سقوط الحاجز الحديدي عامي ١٩٨٩ – ١٩٩٠، عن تبادل الكفاءات، وتلاحم جرأة الغرب بأبحاث الشرق الطبية؛ الأمر الذي حقق المعجزات في مجال المنشطات. كما قامت الصين في عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤، بتجربة لإعداد جيل من السباحين المتطوعين محطمي الأرقام القياسية، يستمر في مزاولة نشاطه حتى انقضاء فترة التفتيش على الفرق بصورة إيجابية. وفي الفنادق، واظب راكبو الدراجات على الركض بالليل داخل حجراتهم، على الأجهزة لتجنب التوقف عن التمرين. واقتصر دور الطبيب، في أفضل الحالات، على حماية

صحة الرياضي المصاب، وتقليل فترات النقاهة، وتلبية طلباته، ولم يتطرق لرعايته الصحية بصورة فعلية. وفي أسوأ الحالات، كان يعمد طبيب الفريق إلى تطبيق البروتوكولات المتقدمة بصورة مباشرة، مخالفًا القوانين ومتحايلاً على اللوائح، والأساليب الكاشفة للمخالفات. فقد كشفت قضية فريق الكرة جوفينتيس دي تورين، على سبيل المثال في العقد التالي، عن حصول أعضاء الفريق على أدوية مضادة للكحوليات، والاكتئاب، ومنشطات قلبية من "صيدلية مستشفى ريفي صغير"، فدفعوا الثمن غاليًا فيما بعد، في صورة أمراض نادرة، وارتفاع نسبة السرطانات بصورة لا مثيل لها، واستبعادهم من قوائم الفائزين، وزوال حظوتهم؛ هل كان الأمر يستحق هذه التضحيات! لم تحظ مكافحة المنشطات بالأهمية على المستوى الفردي، إلا بعد اهتمام الحكومات بخطورة المشكلة. عندما تقلدت ماري جورج بوفيه منصب وزيرة الرياضة في فرنسا، في يونيو ١٩٩٧، اكتشفت أنها تبدأ من الصفر، وتواجه سياسة المجاملات في هذا المضمار، فضاعفت الاعتمادات المالية الرياضية، وأيقنت الصعوبة التي ستواجهها عند سعيها لكشف النقاب عن الوضع القائم. يبدو أن الجميع كان يريد تجاهل الوضع؛ والأمر المؤكد، هو رفض الإعلام الرياضي الخوض في هذا الموضوع. غير أن ذلك لا ينطبق على مجال العدالة؛ فانفجرت قضايا تجارة الممنوعات، والمصادرات الشرطية والجمركية، لتوجه ضربات استباقية لطرق الاكتشاف التي كانت لا تزال غير فعالة. هل كان المنطق السائد، يتلخص في عدم الجدوى من إثارة الشكوك قبل بدء السباق الميداني؟ لقد استُبعد ريتشارد فيرنكي بعد قضية فستينا عام ١٩٩٨، مثيرًا السخرية من إنكاره الساذج؛ وشرع الإيطالي بانتاني في الترنح، وبدأ لانس أرمسترونج مشوار التعاطي. في نهاية العقد، بدأ فرض العقوبات على سباق الدراجات؛ في حين استمر مسئولو رياضة كرة القدم في الإنكار، مرددين أن تناول المنشطات لا يساعد على تجاوز الأوقات الصعبة التي يمر بها اللاعبون؛ وظلوا يؤكدون أن الحفاظ على اللياقة البدنية يساعد اللاعب على تحقيق أهدافه؛ وأن المنتجات المحظورة تؤدي إلى تخفيف الضغط العصبي، واستعادة الثقة بالنفس.اجتمعت إذن العوامل جميعها لتناول المنشطات بصورة مُقَننة ومُمَنهجة في معظم الرياضات، ولم تُحارب أي منها بصورة جدية.

إيقاف بوسمان: أطلق ثورة التحرر في كرة القدم

"لم يكن أهم حدث في التسعينيات حدثًا رياضـيًا. دارت وقـائع هـذا الحـدث فـي لوكسمبورج عام ١٩٩٥، في محكمة العدل الأوروبية، وشمل أحد أطراف النزاع، لاعب كرة القدم جون مارك بوسمان، عضو نادي لييج، المعترض على بنود عقده. ينصب النزاع علـى القانون البلجيكي الذي ينص على عدم تجاوز العدد المحدد للاعبين الأجانب رعايـا الاتحـاد الأوروبي، داخل الفريق الوطني الواحد. أسفر إيقاف بوسمان، عن تفجير مسألة حرية انتقـال العاملين، وبصفة خاصة في مجال كرة القدم؛ وإطلاق سوق اللاعبين، مما أدى تلقائيًـا إلـى تضخم جذري في انتقالاتهم ومرتباتهم. أصبحت النوادي الغنية تحـتفظ بأفـضل اللاعبـين، وفقدت العقود قيمتها، وتزايد الجشع التجاري وارتفعت تسعيرة اللاعبين. وتحول دوري أبطال أوروبا – ثمرة لوبي الأندية الكبيرة، التي تحتفظ في جعبتها بسلاح الدوري الخـاص – إلـى وسيلة مخيفة لتضخم ثروات النوادي الأكثر غنى، بفضل حقوق البـث التليفزيـوني، التـي انفجرت بدورها. وسيطر المنطق الاقتصادي، غير المرغوب فيه، على الاتفاقات الرياضـية؛ واختلطت الرهانات الرياضية بالمجازفات الاقتصادية، حتى بلغت عدم الـسماح للمـساهمين بالاعتراض على أخطاء التحكيم المشكوك فيها. واتجهت النخبة الرياضـية الأوروبيـة إلـى الاتحاد، وتكوين جماعة فاعلة، ومستغلة، لاحتكار الجدول النهائي للبطولة الرئيسة. وتغلـب منطق الفريق الانتقائي – الذي يختار أفضل اللاعبين – على فريق النادي؛ والتـزم الاتحـاد الأوروبي الصمت، أمام "الواقع الرياضي الاستثنائي"؛ لأنه يؤمن بسياسة "الخصوصية" التـي تتمتع بها الأعمال التثقيفية. واتجه مجال الرياضة نحو مصيره التجاري المحتوم، بعد تخلـي المدافعين عنه. وهكذا، لم تعد الملاعب المقدسة تتسم بالنقاء، كما يزعم مؤيد الوهم الخـاص بقدسيتها، ولم تكن بمنأى عن "السياسة"، التي تتحكم بها القوميات، والنظم الشمولية. وحتى إذا لم يكن حتميًا، في هذا السياق، الإعلان صراحة عن انتهاج الأيديولوجيـة الليبراليـة؛ إلا أن الساحة الرياضية حققت أفضل نجاحاتها".

جيروم لاتا Jerome Latta

بعض الظواهر

واجه المتألقون رياضيًا صعوبة للإبقاء على مراكز صدارتهم في التسعينيات. في كرة المضرب، تصدر ستيفان إيدبرج تصنيف رابطة محترفي التنس ATP، لكن سرعان ما لحق به كل من جيم كوريه، وبوريس بيكر؛ بالإضافة للتألق الجرئ لبيتي سيمبراس، الذي تُوِج ملك العقد. في رابطة محترفات التنس WTA، تصدرت قائمة التصنيف اللاعبة ستيفي جراف، صاحبة أجمل أقدام متحركة في الملعب، منذ سيد شاريس؛ غير أن مونيكا سيليس، ومارتينا هينجيز احتلتا الصدارة بعد وقت قصير. في سباقات الجري، برعت العداءة سيلفيد ماري جوزيه بيريك، في سباق ٤٠٠ متر، وتألقت برشاقتها وسرعتها. وفي سباق السيارات فورميلا وان، لقى آرتون سينا مصرعه بعد اصطدامه بالحائط في منعطف بين طامبوريلا، وإيمولا بإيطاليا عام ١٩٩٤، أمام أعين مايكل شوماخر، الذي أصبح بطل العالم للمرة الأولى في هذا العام. وفي كرة القدم، تخلى المنتخب البرازيلي، المشهور سيليساو، عن أسلوب مدربه الأسبق تيلي سانتانا، وقائد الفريق السابق سقراط - المعتزلين الماهرين - من أجل اتباع براجماتية كرة القدم القائلة إن النجاح هو التصديق العملي على أسلوب الإدارة؛ فترتب على ذلك هزيمة منتخب البرازيل للمرة الأولى منذ عام ١٩٧٠ أمام منتخب إيطاليا، وانتهاء المباراة بالتعادل صفر / صفر، واللجوء للضربات الترجيحية. وعلى النقيض من ذلك، ظل بعض نجوم الكرة مثل بيركام، وزيدان يسحران لب الجماهير على النجيلة الخضراء. وتبعهما في هذا المضمار، لاعب الوسط رونالدو، متألق القوة والحركة والتقنية، الذي لم ينقطع عن اللعبة بالقدر الذي تحملته أربطة ركبه. ولم يضاهيه في فنه سوى لاعب الرجبي النيوزيلاندي جونا لومو،الملقب "بالأتوبيس"؛ الذي اختير في التاسعة عشرة من عمره، للعب مع فريق أول بلاكس، في يوليو ١٩٩٤؛ لكنه لم يصمد أمام جون لوك سادورني، بطل الفريق الفرنسي فرينش إير، الفائز

ببطولة العالم في أوكلاند عام ١٩٩٤، محرزًا انتصاره الثاني على التوالي خارج ملعبه. غير أن أساطير تلك الرياضات، لا يحتفظون طويلاً بمكانتهم؛ ويضطرون لتحسين لياقتهم البدنية، وتطوير فنهم بطريقة علمية، والالتزام بالخطة الموضوعة، والتزود بعقلية المحارب. كما أنهم يعانون، بعد اعتزالهم، الفقر، وتدهور قواهم البدنية والعقلية. ولنذكر الحكمة التي قالها ذات مرة لاعب الرجبي مايكل كروست لزملائه: "سوف يتحول صغار تلك اللعبة إلى عجزة حُقراء"؛ تلك المقولة التي أصبحت تُعمم فيما بعد على الألعاب الأخرى رفيعة المستوى.

الرياضة لا تتمتع بالاستقلال
وتتحول إلى منتج ثانوي
للدعاية التليفزيونية

الرياضة والبيزنيس

أطلقت إنجلترا أول دوري لكرة القدم بعد تطوير اللعبة عام ١٩٩٢؛ عام انطلاق دوري أبطال أوروبا. ثم أطلق بعد ذلك بفترة، الاتحاد الدولي للرياضة البدنية، الدوري الذهبي له. ركز أيضًا الرجبي، أو لعبة الكرة البيضاوية، على مهاراته، وأعلن احتراف اللعبة بتأسيس دوري الرجبي الوطني عام ١٩٩٨، وسعى إلى تدويل اللعبة، و"التسويق" الجيد لكأس العالم سوبر ١٢، ولاتحاد الرجبي تري ناشيون، ولكأس أوروبا، ومسابقة الدول الخمس التي بصدد التوسع لتضم ست دول. في رياضة كرة السلة، نجحت الرابطة الوطنية لكرة السلة الأمريكية، في فرض تألقها، والمزايدة الاقتصادية على اللعبة. واحتفظت كرة القدم بشعبيتها العالمية، ودعمت نفوذها الاقتصادي، وأصبحت تعتمد في تمويلها على حقوق البث؛ بدءًا من مباريات كأس العالم، وأشعلت بيزنيس كرة القدم بجنون. وأصبح كأس أوروبا يضم ستة عشر فريقًا عام ١٩٩٦، وكأس العالم اثني عشر فريقًا بعد ذلك بعامين. أما كرة المضرب، فقد أنشأت رابطة محترفي التنس، في ستاخونوفيسم. في الفترة ذاتها، بلغت اللجنة الدولية الأوليمبية، برئاسة الأرجنتيني / الفرنسي السابق خوان أنطونيو، ذروة ضعفها عندما وافقت على بيع الهاوي الأوليمبي المثالي بيار دي كوربتين، أثناء ألعاب أطلنطا عام ١٩٩٦، مدينة كوكا كولا، الراعي الرسمي لها. ارتبطت تصميمات الماركات العالمية بالأحداث الرياضية الكبيرة، أكثر من أي وقت مضى، ولم تقتصر على مجال التجهيزات. وتحولت الثقافة الرياضية الشعبية، إلى ميدان لتسويق المبتكرات الفريدة. وأصبح الرياضي بمثابة الركيزة الأساسية للدعاية الشعبية للماركات، ولمتطلباتها التسويقية؛ وأصبحت"قيمتها" الحقيقية أكثر غموضًا، وأكثر إغواء. وأقبلت جماهير المشجعين على تلك المنتجات، الذين تحولوا بدورهم إلى منتجات تُباع للمُعلِنين. وخضع هواة الرياضة، طائعين أو مكرهين، لقيود التسويق الجديدة. وأصبحت نهاية عقد التسعينيات، بكل تأكيد أكثر ليبرالية؛ وتحولت "الأندية إلى بيزنيس مثلها مثل

الأعمال الأخرى"، وفقًا لأقوال جون ميشيل أولاس، مدير فريق أوليمبيك ليون، القوة الصاعدة في بطولة فرنسا، والمتجه إلى الطريق الصحيح في الوقت الذي تراكمت فيه الأخطاء الإدارية لفريقي أوليمبيك مارسيليا، وباريس سان جيرمان. في عام ١٩٩٨، أطلقت شركة ميديا باترنز الإيطالية الغامضة، مشروع "الدوري السوبر" الأوروبي، بناء على طلب النوادي الأكثر غنى؛ وعلى الرغم من تعثره، فقد حقق هدفه المتمثل في تعديل دوري الأبطال، الذي كان يُعد، في وقت سابق، الآلة التي تدر الأموال السائلة، ومحققًا اللا مساواة الاقتصادية التي أدت بالتبعية إلى اللا مساواة الرياضية.

"اعتادوا تسمية مضرب الكرة بالعصاة. العصاة هي صديقتكم..."

دافيد فوستر والاس david Foster Wallace

النجــوم

أنتجت الصناعة المتجددة للبث الرياضي – بصورة مطلقة في أغلب الأحيان، وبصورة غير مكثفة في أحيان أخرى – نجومها المطالبين بإخفاء انفعالاتهم، والظهور بالمظهر المثالي. ضرب مايكل جوردان أبرز مثال على ذلك، عندما نال شهرة كبيرة في أوليمبياد ١٩٩٢، بعد إذاعة المنتخب الوطني لكرة السلة المباراة كاملة. وبقدر ما يجني أولئك النجوم من مهنتهم، بقدر ما يفقدون في المقابل من شخصيتهم؛ وتتردد الأقوال عن سلوكياتهم الشخصية، وعن المواراة الماهرة لخصوصياتهم؛ كما أنهم لا يعبرون عن طبائعهم الفظيعة إلا بعد انتهاء المباراة وخارج الملعب، مثل جون ماكنور، ودييجو مارادونا. ومن أبرز النجوم غير الأسوياء، المنزلقين إلى الهاوية بعد انتهاء مسيرتهم الرياضية بفترة قصيرة، يمكننا ذكر لاعب الوسط البريطاني بول جاسكوني، مدمن الكحل والمكتئب؛ والملاكم مايك تايسون، المجرم المسجون. غير أن أكثرهم مهارة، هو الذي ينجح في تحسين وضعه بعد انتهاء مسيرته، مثل المشتعل حماسًا إريك كانتونا، لاعب كرة القدم الفرنسي. نالت الرياضات البدنية، الفردية والزوجية، شهرتها العالمية بصورة مختلفة عن مثيلتها من الألعاب الرياضية؛ إذ يكمن الانبهار بنجومها في الإنجازات التي يحرزونها وليس في مقارنتهم بنظرائهم

المشاهير. ويجسد البطل السوبر، الصورة الحقيقية لهذا الوضع؛ وأبرز مثال على ذلك الإنجازات الغامضة لبيتي سامبراس، وسيرجي بوبكا، أو مايكل إندورين؛ فقد أنهى سيرجي بوبكا مسيرته الرياضية بتحطيم سبعة عشر رقمًا عالميًا قياسيًا في القفز العالي بالقوس، بصورة متوالية السنتيمتر تلو الآخر. وأسند لاعب الجولف تايجر وودز، ولاعب كرة القدم دافيد باكهام، إدارة سباقاتهما إلى مستشاريهما، لرأب الصدع بينهما. ويجذب اللاعبون الاحتياطيون، والخاسرون، وغير المؤهلين بصفة دائمة الأنظار، لكنهم يحتلون المرتبة الثانية، ويموتون قبل بلوغ مبتغاهم، أي قبل إدراجهم في قائمة المشاهير التافهة.

البث

يذيع التليفزيون الأحداث الرياضية، التي تمتلك "حق البث" المطلق؛ من حيث سرد تاريخ أبطالها، وتعظيم مسيرتهم، وكتابة السيناريو المباشر، والاتفاق مع المعلنين الذين يتكالبون على الأبواب. وتحولت الأحداث الرياضية الكبرى إلى رحلات مرئية مثيرة، يخرجها التليفزيون للمشاهد، منذ بدأ نظام البث التليفزيوني المتنقل، وانتشار الكاميرات في كل مكان حول الملعب، لتصوير وجوه اللاعبين عن قرب، وانفعالاتهم، وقطع البث في بعض الحالات، أو حجب أجزاء كاملة منه. ونشأت قواعد مرئية تفضيلية للرياضة في التسعينيات، يدعمها التطور التكنولوجي الرقمي. كما أسس المخرجون الفرنسيون مدرسة التصوير البطيء، التي أطلقتها قناة Canal +، عندما طافت أرجاء الكرة الأرضية أثناء كأس العالم ٩٨؛ وعرضت تصميمات الكأس، وأعادت عرض المشاهد الرياضية، واستخدمت الكاميرات المتحركة، وصورت مختلف زوايا الملعب، والمرور في الأروقة، والكواليس، بل غرف الملابس... يلاحق التصوير التليفزيوني أيضًا خصوصيات اللاعبين، ويبرز معاناتهم، ودموعهم، بدلاً من تقييم كفاءاتهم من خلال رؤية متكاملة؛ كما يلاحقهم دون شفقة لعرض لقاءات لحظية؛

فيضطر اللاعبون الفائزون والخاسرون، إلى التعبير عن مشاعرهم فور خروجهم من الملعب أو ميدان السباق، قبل التقاط أنفاسهم، أو صفاء ذهنهم. يوجد الإعلام أيضًا أثناء التدريبات البدنية، ويسجل التعبيرات الفظة، ويحث الصحفيين على السعي وراء التصريحات الجوفاء المتفق عليها. لم يلاحظ أحد، على سبيل المثال، أن وجوه راكبي الدراجات – بعد انتهاء ماراثون المحافظات خارج الدوري – كانت تتسم بالنقاء أمام ميكروفونات التليفزيون. لم تعد تتمتع الرياضة باستقلاليتها، وتحولت إلى سلعة ثانوية للدعاية التليفزيونية، بلغت حد الرغبة في إعادة صياغة القواعد المنظمة لعملها، والتأقلم مع تصرفاتها الدنيئة. كما تحدد نسب المشاهدة التليفزيونية التي تصل إلى مليارات المشاهدين، القوة التي تحظى بها الألعاب الأوليمبية، وسباق الدراجات الفرنسي، وبطولة السوبر الأمريكية السنوية للكرة الأسطوانية؛ فالأحداث الكبيرة تحطم الرقم القياسي في المشاهدة، وتجذب أفواجًا من المعلنين والرعاة؛ لدرجة أنه أصبح شبه مستحيل، ظهور صورة رياضة تخلو من الشعارات المتعددة.

فرنسا

عقب موجة الانتصارات التي أحرزها لاعب التنس يانيك نواه، في بطولة رولان جاروش عام ١٩٨٠؛ ومنتخب كرة القدم "البلوز"، في كأس أوروبا ١٩٨٤؛ وآلان بروست، في سباق الجائزة الكبرى لسباق السيارات؛ استمرت فرنسا في تحقيق الانتصارات والتغلب على آثار الهزائم التي لحقت بها، مع التعرض من حين لآخر لبعض الانتكاسات. ولمع نجم العداءة الفريدة ماري جوزيه بيريك؛ كما أحرز فريق كرة السلة لدائرة سان بيار، أول بطولة فرنسية في كأس أوروبا؛ وتبعه، في ربيع ١٩٩٣ المليء بالانتصارات، فوز فريق "فيترول لكرة اليد في أوليمبياد مارسيليا لدوري الأبطال، عندما هزم في ميونيخ الفريق الإيطالي إيه سي ميلان، ليثأر لهزيمته

أمام الفريق نفسه قبل ذلك بعامين في باري بإيطاليا. غير أن الأمر لم يكن سهلاً؛ فقد هوى برنارد تابي، قبل عدة أيام من انتصاره، بعد إعلان محاولته رشوة بعض اللاعبين في فريق فالينسيا. وفي العام السابق، وقعت كارثة فيرياني عندما انهارت منصة استاد أرماند سيزاري في باستيا على مشجعي كرة القدم الفرنسية، مخلفة وراءها سبعة عشر قتيلاً، ومئات الجرحى. وفي نوفمبر، تعرض المنتخب القومي لكرة القدم لهزيمة ساحقة، عندما أحرز إميل كاستادينوف، هدفه الأسطوري في الدقيقة الأخيرة من المباراة، وحرم الفريق الفرنسي من كأس العالم في الولايات المتحدة. كما تعرض المنتخب لانتكاسة أخرى عندما اتَهَم المدرب جيرار هولييه اللاعب جيرار دافيد جينولا، ومالك مركز التوظيف "إكزوسيه"، بإفساد روح الفريق. ثم تلى هذه المرحلة الفاشلة، مرحلة أخرى ناجحة للنوادي الفرنسية، بعد فوز نادي باريس سان جيرمان بكأس الكئوس عام ١٩٩٦، وصعود فرنسا لكأس العالم عام ١٩٩٨. كما تفوقت فرق كرة اليد على سباحي المانش؛ فقد حصل فريق بارجو على الميدالية البرونزية عام ١٩٩٢، بقيادة جاكسون ريتشارد، النجم الرياضي الفرنسي للعقد، وبرئاسة دانيال كوستانتيني، وفاز بكأس العالم بعد ذلك بثلاث سنوات. كما شهد عام ١٩٩٢، عام الألعاب الشتوية في ألبرتفيل، تكريم المتزلجين فابريس جي، وإدجار جروسبيرون، ومتزلجات الرماية كورين نيوجريه، وآن بريان، وفيرونيك كلوديل؛ والتنظيم الناجح لحفلتي الافتتاح والختام، الذي صممه فيليب ديكوفليه.

الأيام العسيرة على التذوق الفني

المولعون بالجمال الفني

يفقدون مكانتهم

النموذج الفرنسي

بعد الانتصارات القليلة التي حققتها فرنسا، عمت مظاهر الفرح أنحاء البلاد. عندما فاز فريق التنس رجال بكأس دافيس في ليون عام ١٩٩١، للمرة الأولى منذ ١٩٣٢، نظم رئيس الفريق يانيك نواه عرضًا صاخبًا في قصر الرياضة بجيرلاند، على أنغام الأغنيته المشهورة ساجا أفريكا. كما حقق اللاعب غير المحظوظ، هنري لوكونت، أعظم انتصار له عندما قهر بيتي سامبراس في البطولة الزوجية مع جي فورجي، وقدم أكبر استعراض لموهبته الدفينة منذ زمن طويل. كما فاز فورجيه عام ١٩٩٦، تحت قيادة يانيك نواه، بالبطولة الزوجية ضد فريق السويد في ماليمو؛ ونافس على الزوجي، أمام سيدريك بولين، وأرنو بويتش، المصنف رقم خمسة في مباراته الخامسة أمام نيكولاس كولتي. نظمت الدولة بعد ذلك نوعًا من التعاملات الخاصة مع المنتخبات الوطنية، حتى في الرياضات الفردية؛ خاصة بعد فوز فريق التزلج في سبليت، وتحطيم أعضائه ماكس مورينيار، ودانيال سانجوما ، وجون شارل تروالبال، وبرونو ماري روز الرقم القياسي ٤x ١٠٠ في سبتمبر ١٩٩٠. حصدت الرياضة الفرنسية كذلك، العديد من الميداليات الفضية في الألعاب الأوليمبية في الوثب العالي بالقوس، وسباق الدراجات، والتجديف، وسباق الزوارق، والجودو – الذي سلط الأضواء على دافيد دوييه فتحول إلى شخصية سياسية – ولمع نجم لورا فليسال، في المبارزة بالسيف. في الرقص على الجليد، خلف الراقصان مارينا آنيسينا، وجواندال بيزيرا، الراقصين بول وإيزابيل دوشيني، وكانا أكثر حظًا في البطولات الأوروبية والعالمية من سوراي بونال، التي لم تنجح في الحصول على لقب عالمي أو أوليمبي، على الرغم من البطولات التي أحرزتها في ألعاب القوي. في التنس، كانت ماري بيارس، أول فرنسية تحصل على لقب الفائزة ببطولة جراند شيلم، بأستراليا عام ١٩٩٥. في التزلج على الجليد، وصل لوك ألفاند، إلى كأس العالم رجال، ولمع نجم كارول ميرل، في البطولات النسائية. تغلبت السباحة كذلك على عثرتها، بفوز كاترين

بليوينسكي، وروكسانا ماراسينينو، وفرانك أسبوسيتو. في التسعينيات، اكتشفت فرنسا أن في استطاعتها التميز في المجال الرياضي، واكتشاف المواهب، والتقدم لتصبح مدرسة رياضية على المستوى الأوروبي؛ فتمكن الاتحاد الفرنسي لكرة القدم، بإدارته الفنية الوطنية، من إرساء قواعد "التأهيل على النمط الفرنسي"، الذي جسده مركز كليرفونتان، الذي كان مثالاً يحتذى به في الدول الأوروبية. في عام ١٩٩٨، نجح المدرب آرسين وينجر، الملقب "آرسين من؟"، عند سفره إلى لندن، في دفع فريق أرسنال إلى الفوز بالكأس والدوري، مطلقًا بذلك رواج سوق المدربين الفرنسيين في الدوري الإنجليزي.

الملعب المقدس

"على مدار عقد التسعينيات، تغير قليلاً حال الساحات الرياضية، التي بدأت بدورها ثورة رياضية. وأصبح العصر في أمريكا الشمالية، "عصر الصالات المغلقة"، من أجل ممارسة رياضات الأماكن المغلقة. وعفى الدهر على الملاعب التقليدية، والنجيلة في ميادين سباق ألعاب القوى، وسباق الدراجات، بعد أن أعادت النظم الشمولية تأويل المفاهيم الكوبارتية (نسبة إلى بيار كوبارتين الذي ناضل من أجل إدخال الرياضة إلى المدارس الفرنسية)، التي تفانت في إعداد الصالات الأوليمبية في روما وبرلين. اقتصرت الصالات المغطاة في البداية، على بعض الألعاب، والاحتفالات غير الرياضية. ودخلت إنجلترا إلي هذا المضمار؛ عندما نظمت عام ١٩٩٦ بطولة كرة القدم؛ إذ كانت تخوض آنذاك سياسة مناهضة لموجة التخريب الجماهيري، فلجأت إلى تجديد ساحاتها الرياضية، وإعداد برنامج لإقصاء الجماهير الشعبية لاستبدلهم بالطبقات المتوسطة، ذات القوة الشرائية القادرة على تحويل الملاعب إلى أماكن استهلاكية تُدر الإيرادات، وتحتوي على مقاعد البيزنيس، ومقصورات الضيافة، ومدرجات الدرجة الممتازة. واكتسب الاستاد الجديد لغة تسويقية جديدة؛ وانتشرت شاشات التليفزيون العملاقة في أنحاء الملاعب؛ وطغت المكبرات الصوتية على روح المشاركة التي كان يزعم

المنظمون إرساءها. افتتحت أمستردام أول صالة مغلقة عام ١٩٩٦؛ تتميز بسقف متحرك، ونجيلة قابلة للطي، ومزودة بعوامل الأمان، وتقبل الدفع بكروت العملة المحلية، للحفاظ على المستوى المنشود من المتفرجين. تعمل تجهيزات الصالات المغطاة، بصفة عامة، بطريقة عنيفة نظرًا لثقل المعدات التكنولوجية المستخدمة، التي لا تكترث بالفن المعماري الجمالي، أو التكامل الحضاري، الذي أصبح أكثر حدة؛ لأن الملاعب المغطاة أصبحت تهجر المدن، وتتجه بصورة متزايدة إلى المناطق الحضرية المحيطة بها، حيث تنخفض أسعار العقارات، وتصبح الفرصة متاحة لعقد الصفقات التجارية والدخول في الشراكات العقارية. كما تطغى على الواجهة الخارجية لتلك الصالات، تصميمات مصانع عصر ما بعد الحداثة، أو مقرات الشركات متعددة الجنسيات، التي تُوصد أبوابها على العاملين بها. لم يحقق على سبيل المثال، تصميم الاستاد الفرنسي المغطى الأنيق، الإقبال المطلوب نظرًا لتعدد اتجاهاته، وإنارته الضعيفة، ونظامه الصوتي الهزيل. لكن على الأقل، فقد عاد بالنفع على مقاطعة سان دينيس، الأكثر فقرًا والتي تضم أكبر عدد من المهاجرين في فرنسا".

جيروم لاتا Jerome Latta

عام ١٩٩٨

بعد تعيين أيميه جاكيه بطريق الخطأ خلفًا للمدرب جيرار هولييه، الذي لم يُجدد عقده بعد مباراة فرنسا وبلغاريا عام ١٩٩٣، انتهج نهجًا لم يسلكه أحد قط؛ فاستغنى عن النجوم التي بدأت تأفُل مثل إريك كانتونا، وجان بيار بابان، ودافيد جينولا، واتخذ من كأس أوروبا ١٩٩٦ في إنجلترا نقطة الانطلاق لكأس العالم. وعلى الرغم من وصول الفريق إلى الدور قبل النهائي، بعد هزيمته أمام التشيك بضربات الجزاء، وعلى الرغم من سلسلة الانتصارات التي استمرت لثلاثين مباراة (محتفظًا بالرقم القياسي)، فإن جاكيه لم ينجح في تحقيق هدفه؛ إذ ظل محتفظًا باللاعب رقم ١٠ زين الدين زيدان، بوصفه رئيسًا للمنتخب في إنجلترا على الرغم من عدم لياقته. كما طعم فريقه بالخبرات المتراكمة للاعبي الكرة الفرنسيين الذين يلعبون في النوادي الأجنبية

الكبيرة. لجأ كذلك إلى تطبيق بعض الخطط التجريبية في المباريات الودية على مدار الموسمين السابقين لكأس العالم، فاعتقد المراقبون أنه يتخبط ولا يسلك نهجًا واضحًا، متجاهلين أداءه الناجح في افتتاح البطولة في استاد فرنسا أمام فريق إسبانيا في شهر فبراير. وقد راهن المتخصصون عشية المسابقة، على هزيمة فريق فرنسا، بسبب عادات أميه جاكيه، واستهتاره، وثقته المفرطة بنفسه، وازدرائهم لإمكاناته المتواضعة كمدرب، وتجنبه "المقتضيات الإعلامية" لمنصبه الجديد. حافظ الفريق على هذا الانطباع السائد تجاه مدربه، الذي انتقل بالتالي إلى الصحافة، ولم يدرك خبراؤها أن النصر التاريخي الكبير للرياضة الفرنسية سوف يكمن في حكمهم الخاطئ. لم يكترث جاكيه بهذا الانطباع، وحجب فريقه عن هذا العداء، وبدأ المنافسة بالفوز على جنوب إفريقيا في مارسيليا. ثم رفع الفيلم الوثائقي "عيون على الفريق الأزرق"، النقاب عن جانب من القوة المحركة التي كانت تُسيطر على الفريق، والتي كانت تتلخص في أن الفوز بكأس العالم لا يأتي بمحض المصادفة، إنما بكثير من الجهد وبقليل من الحظ؛ وأجمع الفريق، ثلاثي الأعراق (السود والبيض والعرب)، على استغلال المواهب الفردية، والاعتماد على التأييد الرباني، مثلما كان الحال في ضربات الجزاء ضد إيطاليا، أو في مباراة الإعادة ضد كرواتيا في ثورام، في التصفيات قبل النهائية، ثم الفوز على البرازيل في النهائي؛ مثيرًا بذلك لحظة إحساس وطني يصعب تكرارها، وتفسير معناها. وانكب المفكرون الإعلاميون الرسميون على الفريق الأزرق، ورددوا أن الجمهورية تحتاج لمثل تلك الرموز الجميلة. وتحمس عالم الاجتماع إدجار مورين، وصرح قائلاً في صحيفة "ليبيراسيون"، "إن البهجة الوطنية التي تخفي الأنانية الذاتية، تنصهر في مشاعر الحب الجماعية وفي الاستمتاع المجتمعي، الذي يتعدى "الأنا" ليصل إلى "نحن". وقد صرح المفكر الأكثر شراسة آلان فينكيلروت، في صحيفة الباريزان، بأن "تشجيع فريق فرنسي يتشكل، وفقًا للتعبير الأمريكي من تجانس ألوان قوس قزح، أمر مشوق"؛ ثم صرح في مقابلة أجراها لاحقًا بنبرة أقل مدحاً "بأن تشكيل الفريق الفرنسي يضم أغلبية سوداء ولا يضم السود والبيض والعرب". كان من

الضروري أيضًا ترجمة هذا الرمز، إلى واقع وإلى صدى يتردد في الأنحاء، فانفجر هذا الرمز على الملعب عينه بعد مرور ثلاثة أعوام، في مباراة فرنسا والجزائر، عندما احتدمت الضغائن على أرض الملعب، وطغت على اللعب المسالم، فأسفر الوضع عن سلسلة من المآسي الدرامية القومية، التي تتخذ من كرة القدم ذريعة لها.

الجغرافيا السياسية

مع انتهاء الحرب الباردة، انتهى عصر مقاطعة الأوليمبيات (مونتريال ١٩٧٦، وموسكو ١٩٨٠، ولوس أنجلوس ١٩٨٤، وسول ١٩٨٨) وتغيرت طبيعة القومية الرياضية؛ فأصبحت أكثر مرونة، وأقل تعصبًا، وأكثر اعتمادًا على الارتباطات، وأقل اعتمادًا على العلاقات الدولية، متخذة بالتالي من الرياضة ساحة للهدنة الرمزية؛ على غرار مباراة إيران والولايات المتحدة في مونديال ١٩٩٨، أو عناق الأثيوبية ديرارتو تولو، بطلة أوليمبيات سباق ١٠٠٠٠ متر في برشلونة، لخليفتها البيضاء من جمهورية جنوب أفريقيا، إيلينا ماير. كما شهدت أوليمبيات ١٩٩٢، في كاتالان، تمثيلاً موحدًا لألمانيا، ودخول اتحاد الدول المستقلة (الكيان المؤقت بين الاتحاد السوفيتي وروسيا الاتحادية) حاملاً راية حيادية ؛ كما ضم الوفد لاعب الجمباز فيتالي شيربو الحائز ست ميداليات ذهبية، ومتصدر قائمة الفائزين. شهدت أيضًا تلك الأوليمبيات، عودة جمهورية جنوب أفريقيا إلى محفل الأمم المشاركة، بعد غياب ثمانية وعشرين عامًا، والتي انتهى بها المطاف، في نهائي كأس العالم للرجبي بالفوزعلى نيوزيلندا، في البطولة التي نظمتها على أرض ملعبها عام ١٩٩٥؛ كما قام نيلسون مانديلا، الذي ارتدى الزي الأخضر والأصفر، بتسليم الكأس إلى رئيس الفريق، الرجل الأبيض فرانسوا بينار، على ملعب إيليس بارك في جوهانسبورج للبرهنة على شعار "فريق واحد، أمة واحدة". ثم برزت الرياضة الأفريقية، في عقد التسعينيات، عندما أطلقت الكاميرون البطولة الأسطورية لكأس العالم لكرة القدم عام ١٩٩٠، وتألقت المتسابقات الكينيات، والأثيوبيات، والنيجيريات، والمغربيات في ألعاب القوى على مستوى القارة

الأفريقية،. كما برز على سبيل المثال، حايل جبر الليثي، وموسيس كيبتاوني، ونور الدين مرشدي، وهشام الجيروش في سباقات جري المسافات الطويلة والمتوسطة. غير أن هذا التألق الأفريقي بلغ نهايته، بعد تفضيل بعض الرياضات على الأخرى، وضعف البنيات الأساسية، وغياب السياسات الرياضية، ولعب الغالبية العظمى من اللاعبين الأفارقة تحت راية البلدان التي هاجروا إليها.

"العالم يدور حول الكرة التي تدور... حاول الأقوياء عبثًا التلاعب بكرة القدم، لكنها أرادت أن تكون دائمًا الفن الذي يأتي بما ليس في الحسبان".

إدواردو جاليانو Eduardo Galeano

يوغوسلافيا

ترتب كذلك، على ظهور الكتلة الشيوعية، الزيادة الملحوظة في أعداد الرياضيين المشاركين من الكونفيدراليات الأوروبية؛ واحتفالهم تحت رايات بلادهم المستقلة حديثًا، وارتداء الزي الخاص ببلادهم. لقد تَميزت الفترة الانتقالية لبلدان يوغوسلافيا السابقة، بالمشاركة القوية للفرق الجماعية مثل كرة السلة وكرة القدم. وعقب فرض الحظر على دولتي صربيا والجبل الأسود في ٣٠ مايو ١٩٩٢، أجبر مجلس الأمن الدول الأخرى على عدم قبول "المشاركة الفردية أو الجماعية، لجمهورية يوغوسلافيا الاتحادية السابقة في المناسبات الرياضية التي تنظم على أراضيها"؛ وقرر على الفور استبعاد منتخبها الأوروبي لكرة القدم، قبل أيام قليلة من بدء البطولة. وصرح لاعب التنس الكرواتي جوران إيفانيسيفي: "أنه قد آن الآوان لاتخاذ موقف. إنني سعيد لاستبعاد فريق كرة القدم، رغم أنني أعي جيدًا أن اللاعبين لا ذنب لهم، لكنهم يلعبون في السويد تحت راية ذلك العلم؛ وبالتالي فإنهم يُعدون جزءًا من هذا الصراع". إلا أن اللجنة الأوليمبية الدولية، توافقت بعد ذلك مع المجتمع الدولي للموافقة على اشتراك لاعبي ألعاب القوى لدولتي الصرب والجبل الأسود في بطولة برشلونة، في بعض الرياضات الفردية فقط، شريطة ألا يمثل اللاعبون بلادهم. وعلى الجانب

الآخر، فازت جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية ببطولة أوروبا لكرة السلة في اليونان عام ١٩٩٥، وأجبرت الكرواتيين - الحاصلين على المركز الثالث - على عدم الصعود إلى منصة تقلد الميداليات كنوع من الثأر. وفي كرة القدم، لم تحصل "يوغوسلافيا" - المحظورعليها التأهل لكأس العالم ١٩٩٤، وكأس أوروبا ١٩٩٦ - على حق المنافسة في المباريات الودية إلا في عام ١٩٩٥، وعلى المباريات التنافسية في العام التالي، ثم تأهلت لكأس العالم عام ١٩٩٨... ونجحت في الحصول على المركز الثالث في البطولة.

النســـاء

قد نبالغ إذا قلنا إن النساء أحرزن تقدمًا في مجال الرياضة في التسعينيات؛ إنما ظهرن بصورة أقوى، إذا اعتمدنا في تقييمنا على بعض الرياضات التقليدية القوية مثل كرة المضرب التي حققت فيها بعض النساء مثل شتيفي جراف، ومونيكا سيليس، ومارتينا هينجز، والأختين ويليامز نجومية كبيرة. يمكننا أيضًا ذكر بعض الرياضات المرتبطة بالجنس الناعم والتي احتلت مكانة متوسطة، مثل الجمباز، والتزلج؛ وبعض الرياضات الأخرى مثل السباحة وألعاب القوى التي تحسن فيها أداء المرأة وأثبتت وجودها بصورة كبيرة. في سباقات الركض، برز جيل ديفرس، وجوين تورانس، ومارلين أوتي، وسيطرت فرانشيسكا فان ألميخ على حوض السباحة. في الألعاب الأوليمبية، بلغ نصيب النساء المشتركات في بطولة سول عام ١٩٩٨، ٢٦% ووصل إلى ٤٠% عام ٢٠٠٠ في سيدني. كما نتابع باهتمام في فرنسا لاعبتي الجودو ماري كلير ريتو، وسيسيل نواك، ومبارزاتي الشيش لورا فليسيل، وجاني لونجو، الحاصلة على كأس الأوليمبيات عام ١٩٩٦، في سباق الدراجات. كما برزت بعض الوجوه في الرياضات الفردية، مثل فلورانس آرتو في سباق القوارب الشراعية (التي حققت الرقم القياسي في فردي أطلنطا، وفازت في سباق طريق دي رام ، وكاترين ديستيفال، في تسلق جبال الألب (الفائزة بسباق جراند جوراس، بعد تسلقها أعلى قمة في الجبل من

جهة سيرفن، وواجهة إيجه الشمالية). في الرياضات الجماعية، كانت فرنسا في بداية طريق الانتصارات؛ إذ فاز فريق بورج بدوري كرة السلة عامي ١٩٩٧، و١٩٩٨، وقفز فريق كرة اليد، بقيادة مدربه أوليفيه كرومبولز، إلى المركز الثاني في بطولات العالم عام ١٩٩٩، في حين ظلت كرة القدم من الرياضات المهجورة. وإذا كانت الرياضة النسائية قد أثبتت مكانتها في معظم الرياضات، إلا أنها لم تتمكن من التغلب على ردود الفعل الانعكاسية للجنس الآخر؛ وأبرز مثال على ذلك، "مباراة الزوجي المختلط" التي نُظمت عام ١٩٩٢ في لاس فيجاس بين مارتينا نافراتيلوفا، وجيمي كونرز، التي أظهرت الرغبة العبثية في مقارنة أداء الجنسين. في رياضات ألعاب القوى، تعارض تطور أداء اللاعبات مع الاعتقاد السائد بضرورة توافق المرأة مع طبيعة جنسها، فرفضن الترحيب بهن في هذا المجال انطلاقًا فقط من جمالهن أو لطفهن أو أناقتهن؛ كما ظهر على الملأ الاستغلال الجنسي الذي تعرضت له بعض اللاعبات من قبل مدربيهم.

> **"لن يعود الزمن إلى الوراء. لقد أصبحت كرة القدم الفرنسية من الرياضات الأزلية، كما اكتشفت فرنسا شغفها بالفريق الأزرق الذي يكتسح كل ما يقف في طريقه".**
>
> **صحيفة "الفريق" اليومية**

بعض الوقفات

إن المشهد الذي يتصف بالتشاؤم المرسوم أمامنا هنا، لم يتطرق إلى أمر أساسي غفلت عنه أخبار الحوليات والتحليلات على حد سواء، مفاده أن تضليل الرياضة، أواستخدامها كوسيلة، أو تجارة، يرجع إلى القوة التي تتمتع بها في إبهار محبيها، على الرغم من اعتقادنا أنها إذا تعدت قدرًا معيناً من التدهور فإنها سوف تفقد هذا الإبهار. إن الترهات الناجمة عنها، وغموض الانفعالات التي تثيرها، تُحولها إلى نتاج إنساني عميق، لا تنضب موارده غير المتوقعة، والمتمثلة في الافتتان بها، وفي الأساطير

والروايات الخيالية التي تروى عنها. غير أن هناك جانبًا آخر مشوقًا يحقق لحظات الانبهار؛ ومن أبرزها الاختراق غير المسبوق للاعب الهجوم جورج وياه، لدفاع فريق بايرن ميونيخ ؛ ونادي كرة القدم الفرنسي جيروندينس دي بوردو الذي هزم فريق ميلانو إيه سي على ملعب شابان دلماس؛ ومباراة الثأر للاعب التنس هنري لوكونت في ليون؛ وفوز اللاعب مايك باول على كارل لويس، في طوكيو في الوثب العالي بارتفاع ٨,٩٥ متر، وتحطيم الرقم القياسي الذي حققه بوب بيمون عام ١٩٦٨؛ والهزيمة الساحقة التي ألحقها فريق جنوب أفريقيا في الرجبي- مدفوعًا بتأييد الأمة كلها - بالفريق النيوزيلاندي أول بلاكس الأقوى منه، إلخ. إن كل تلك الإنجازات تجعلنا لا ننسى الأفعال الخسيسة، والمآسي الساخرة، والفواجع الدرامية التي تشهد على الجنون الذي تسببه الألعاب الرياضية، والذي تجاوز جميع الحدود؛ ومن أبرزها حادثة طعن أحد المختلين عقليًا لمونيكا سيليس بالخنجر، واغتيال أندريه إيسكوبار لإحرازه هدفًا ضد فريقه، والاعتداء على نانسي كاريجان، بتحريض من منافستها تونيا هاردينج، وإدمان دييجو مارادونا للهيروين، وقضم مايك تايسون لأذن إيفاندر هوليفيلد، وحالات الوفيات التي حدثت جراء انهيار استاد الكرة في باستيا الذي أُنشئ على عجل لتحقيق إيرادات ضخمة من بيع التذاكر. لم ينكر عقد التسعينيات وجهة نظر الذين يعتقدون أن الرياضة أداة لبث الكراهية، مدفوعين بقراءة أيديولوجية مشوهة؛ لكنه يذكرهم بأن الرياضة تُعد أيضًا أحد عوامل الصداقة والتواصل الاجتماعي والعائلي، والترابط الفكري الجماعي، وأنها تعبر عن بعض المشاعر البغيضة مثلها مثل المجالات الأخرى. لقد افتقر هذا العقد للتألق الحقيقي، وتفاقمت الأحداث وتسارعت، في الوقت الذي كانت لا تزال فيه الرياضة تستكمل في المقام الأول، تطورها في مجال الصناعة، وعولمة البث الرياضي. في هذا السياق، يمكننا القول إن عقد التسعينيات، يستند في تاريخه إلى العقود التالية، أكثر من العقود السابقة، كما أنه يمثل فترات التحول الكبرى - باستثناء الرياضات الاحترافية - المتمثلة في ظهور النمط الجديد، ذي الطبيعة البيولوجية، الذي يربط الصحة السليمة باللياقة البدنية؛ ذلك النمط الذي فجر، في الطبقات المتوسطة الغنية، شغف ممارسة التدريبات البدنية، والركض،

واليوجا، بل حتى الرياضات الخطرة، التي كانت تُعد فيما مضى، رياضات الهواة المعبرة عن القيم الاجتماعية التي تكفل الهدوء والسكينة. غير أن الرياضة لم تحظ قط بعصر ذهبي، وكانت مهددة بالخطر في بعض فترات من تاريخها، في نهاية القرن العشرين. ومن مفارقات هذا العقد أيضًا، التسليم بأهمية الرياضة، خاصة بعد أن أصبحت موضوع الدراسات العلمية، باعتبارها ثقافة شعبية، تحظى باهتمام المفكرين والباحثين؛ وتعبر عن رغبة الرأي العام في أن تكون الرياضة مرآة المجتمع، حتى لو اكتسبت بعض السمات الغريبة عليها، لأنها جزءًا لا يتجزأ من المجتمع؛ وليست مجرد شيء مجازي. ذلك هو الوضع الذي كانت عليه التسعينيات بصورة واضحة.

دافيد فوستر والاس، "العصا صديقك"

"تلك هي الطريقة التي ترتدي بها الفانلة الحمراء الكبيرة، المخطوطة بحروف عبارة أكاديمية إيفرت للتنس.

انزلق في سروالك الرياضي، وأحكم أربطته المطاطة حتى لا تدخل بين كَفَلَيك فتبرز ككتلة واضحة للجميع، بعد أن ينضح الشورت بالعرق.

تلك هي الطريقة التي تزم بها بقوة العصبة الملونة حول عرقوبك الملتوي، حتى تشعر أن الفخذ الأيسر بكامله قوي كالحطب.

ذلك هو طريقك للفوز.

تلك هي الشبكة المعدنية الصفراء التي يقذف عليها اللاعب الكرات، والمليئة بالكرات القديمة الطائشة، انقلها إلى أرض الملعب من الناحية الشرقية، وتدرب مع ظهور أول ضوء شاحب للفجر، وبعد خلو الملعب من البشر، وعند تحليق الحمام فوق غابات الصنوبر قبل شروق الشمس، وعندما ترى دخان أنفاسك في جو الصيف الخانق. اذهب إلى التدريب بمفردك. اجمع الكرات من جميع الاتجاهات، وأسفل السياج في الناحية المقابلة عندما تشرق

الشمس ببطء على الميناء، وعندما تتصاعد أنفاسك، وتُحسن التدريب. توقف عن التفكير، تصرف بعفوية، وأطلِق عاليًا صوت الكرات، بوم، بوم، بوم، حتى تسمع احتكاك الكرة بالسياج الخلفي (...).

تلك هي الطريقة التي نمسك بها بالعصا.

تعود على إطلاق كلمة عصا على مضرب الراكيت. هذا هو ما يفعله الجميع هنا.

إن العصا تراث. يجب إعطاء اسم مستعار للشيء المُلازم لجسمك.

انظر جيدًا. سوف نخبرك للمرة الأولى والأخيرة كيف تمسك بمقبض المضرب. تمسكه هكذا. تمامًا بالضبط. كف عن الثرثرة على الطريقة الشرقية. ألق تحية الصباح فقط.

اقبض جيدًا على الشريط الجلدي المحيط بالمقبض. العصا هي صديقك. سوف تصبحان مُقرَبين من بعضكما البعض.

شتت زميلك بقوة في أرجاء الملعب. اقبِض بقوة على مقبض المضرب للتحكم واقذف الكرة بقوة في الوقت نفسه. تلك هي الطريقة التي نمسك بها الكرة، اضغَط عليها بقدر المستطاع كلما سنحت لك الفرصة، في قاعة الدراسة، وعندما تتحدث في الهاتف، وفي المعمل، وأمام حائط التدريب. استخدم كرة مبللة عند الاستحمام. اضغط في كل الأوقات على الكرة باستثناء أوقات تناول الطعام. انظر إلى مطعم الأكاديمية، ستجد كرة بجوار كل طبق. اضغط عليها بانتظام لعدة أشهر ولسنوات، حتى لا تشعر إلا بالدم الذي يتدفق في قلبك، وحتى تصير ذراعك اليمنى أقوى ثلاث مرات من ذراعك اليسرى، وحتى يعتقد الجانب الآخر من الملعب أنه يرى المضرب وليس ذراعك.

تلك هي التمارين الإضافية التي يجب ممارستها، قبل بدء تمارين الأكاديمية الصباحية، وقبل الإفطار؛ والتي سوف تشجعك على قذف الكرة بقوة أكبر بعد قذفها بعيدًا عن الهدف للمرة الألف، على الرغم من مداها العملاق وخفتها المخيفة؛ وسوف تجعلك تتغلب على

الرغبة في القيء عندما ينتابك هذا الإحساس القوي وأنت في الشوط الثالث من المباراة؛ وسوف تعالج التشنجات، وتُنعشك كنسمة هواء مقبلة عليك من المشرق، وتنقي صدرك؛ وسوف تجعلك قادرًا في نهاية المطاف، على التنفس.

دافيد فوستر والاس "الدعابة المطلقة"، لندن ونيويورك، أباكوس، ١٩٩٦ – ١٩٩٧، ترجمه من الإنجليزية، شارلوت مينجاسون، ص ١٧٢ – ١٧٣.

إدواردو جاليانو، " نهاية المباراة"

"الكرة تدور والعالم يدور. يتشكك العلم في أن الشمس كرة من نار تعمل بالنهار، وتقفز عدة قفزات في السماء بالليل، وقت عمل القمر؛ بينما تُثبت، على العكس من ذلك وبصورة مؤكدة، أن العالم يدور حول كرة القدم التي تدور. لقد بلغت نسبة مشاهدة نهائي كأس العالم عام ١٩٩٤ أكثر من ملياري نسمة، وهو أكبر تجمع جماهيري في تاريخ الكرة الأرضية، يتشارك شغف متابعة المباريات؛ فضلاً على معبودي الكرة المستديرة الذين يتابعون المباريات في الملاعب، والمشاهدين الأكثر عددًا، المتوترين والقاضمين لأظافرهم، الجالسين أمام أجهزة التلفاز لمتابعة العرض الذي يقدمه اثنان وعشرون لاعبًا بزيهم الرياضي سعيًا وراء الكرة ركلاً بالأقدام، وإثباتًا لحبهم لها.

في نهائي كأس العالم عام ١٩٩٤، أُطلِق على جميع الأطفال حديثي الولادة في البرازيل اسم روماريو، وبيعت النجيلة الخضراء لملعب لوس أنجلوس، المقسمة إلى قطع صغيرة كقطع البيتزا، بعشرين دولارًا للقطعة الواحدة. هل هذا الهوس جدير بقضية بمثل هذا الجنون؟ أم تجارة سوقية لمنتج بائر؟ أم مصنع خدع يتلاعب به مُلاكه كيفما يشاءون؟ في رأيي الشخصي، أعتقد أن كرة القدم قد تكون كل ذلك، بل أكثر من ذلك؛ إنها بمثابة عيد يحتفل به المشاهدون، وممارسة ممتعة للاعبين. طرح أحد الصحفيين، ذات مرة، على العالم اللاهوتي الألماني دوروثي سولي، السؤال الآتي: "كيف تشرح لطفل مفهوم السعادة؟" فأجابه قائلاً: "لن أشرح له، سأعطيه كرة ليلعب بها".

تبذل كرة القدم الاحترافية كل ما في وسعها للقضاء على ذلك الهوس، إلا أنه يظل قائمًا على الرغم من ذلك. وقد يكون ذلك أحد أسباب انبهارنا الدائم بتلك اللعبة. يعتقد صديقي أنجيل رووكو، أن أفضل ما في كرة القدم، هو قدرتها على تفجير المفاجآت، ويحصرها التكنوقراطيون في أدق تفاصيلها، ويتلاعب بها ذوو النفوذ على هواهم؛ لكن ستظل كرة القدم هي الفن الذي يقدم ما ليس في الحسبان؛ فالمستحيل يتحقق في التوقيت غير المتوقع، والقزم يعطي درسًا للعملاق، واللاعب الأسود النحيل والقصير يثير حنق اللاعب القوي مفتول العضلات في اليونان.

يتجاهل التدوين الرسمي رياضة كرة القدم؛ فالنصوص التاريخية المعاصرة لا تذكرها على الإطلاق، ولو بصورة عابرة، حتى في البلدان التي كانت تُعد فيها أحد الدلائل الأساسية على الهوية المجتمعية. "إنني ألعب إذن أنا موجود"؛ إن طريقة اللعب هي أسلوب الحياة الذي يعبر عن الملامح الخاصة بكل مجتمع، وتؤكد على حقه في الاختلاف عن غيره من المجتمعات. "قل لي كيف تلعب، أقل لك من أنت". إننا نلعب كرة القدم منذ عهد طويل بطرق مختلفة، أي بالطرق التي تعبر عن شخصية كل بلد على حدة، وتحافظ على تنوعها الذي أصبح - من وجهة نظري - ضروريًا أكثر من أي وقت مضى. يعيش العالم اليوم عصر التغير الحتمي في الفرص الممنوحة والعادات المفروضة، في رياضة كرة القدم وفي كل شيء بصورة غير عادلة، لم يسبق لها مثيل. في نهاية هذا القرن، من لم يمت من الجوع سوف يموت من الملل".

إدواردو جاليانو، "كرة القدم: الظل والنور"، باريس كليما، ١٩٩٨، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، ترجمه من الإسبانية جون ماري سانت لو.

ظهور الأطياف أو الوضع الفكري

فرانسوا كوسيه François Cusset

إن المشهد الذي يطفو على الساحة – بذكرياته الماضية البسيطة – يكمن في الانهيارين المتتابعين لسور برلين الأسمنتي وناطحتي السحاب في موقع إنشائهما، واللذين ظهر تأثيرهما المباشر في اندثار معتقداتنا الفكرية، وفقدان إنتاجنا الثقافي، وتحول الكتب إلى رماد، وانهيار المبادئ الحصينة للمعسكر الفكري بصورة مفاجئة في خضم تلك الأحداث، أو بالأحرى بعد حادثتي ١٩٨٩/١١/٩ و ١١ /٩/٢٠٠١، وزوال الدراسات الماضية والمستقبلية المتعلقة بخصائص الإنسان، وبسياقنا المتناظر المعروف. إنهما حادثتان بارزتان ومتتابعتان، تنحصر بينهما حقبة يصعب تسميتها، لكنها تقضي لأول وهلة على الاجتهادات الفكرية، الناقدة أو الأكثر مرونة كي تفرض معناها على نهاية الألفية، وتصيب النماذج الرائدة بالعجز – في عصر يفتقر إلى القدوة – وتقضي على مصطلحاتها اللغوية الخاصة بها . إنها حقبة تقدر الأشياء مثل مطلقات الخير والشر، وتعيد بالفعل إلى الأذهان الانقسامات الزائلة المتمثلة في تعارض التأويل مع التفسير، والألفاظ مع الأشياء، والثرثرة المجتمعية مع صرامة التاريخ (أو نهايته). إنها حقبة نستطيع أن نأخذ عليها ابتذالها المنفصل عن الوقت الحاضر، وتخلفها المحتوم عن إعداد تصور خاص بالتغير التاريخي، ونظرتها الخاطئة عن الحقبة الفكرية أو الأيديولوجية، ووتيرتها البطيئة التي لا تواكب وتيرة الأمور الطارئة واللحظية. فقبل سقوط حائط برلين بخمسة عشر عامًا، بدأت تخبو الليبرالية الحديثة، وتظهر من جديد الهيمنة الأيديولوجية التي تقضي على التنافسات الاجتماعية، وتُجرِم أيَ نقد معارض. وقبل سقوط البرجين صباح يوم ١١ سبتمبر

٢٠٠١، برز عقد المجادلات الفكرية داخل الجامعات في البلاد المتقدمة[١]، والذي كان يُعد حدثًا حضاريًا مفاجئًا، ذا تأثير عميق بمتغيراته الأكثر تقدمية (المذهب الثقافي الوسطي / التنوع والاختلاف) أو الأكثر تعلقًا بالدين (التنافس بين الأديان الموحدة / العودة إلى كل ما هو ديني). هذا بالإضافة إلى أن هذين الحدثين اللذين تنحصر بينهما هذه الحقبة، قد سبق وفسرتهما الأجندة الإعلامية في تسلسل تاريخي أشبه بإشارات رمزية توحي بتراجع العالم، وتشير إلى المعارك الخفية طويلة الأمد ذات التأثير الحاسم. غير أن هذا لا يمنع أن "سقوط الشيوعية بمعناها الحقيقي" و اندلاع "الحرب ضد الذعر" – إذا ما استخدمنا المصطلحات الملائمة لتفسير تلك الأوضاع – قد أثار في جميع الأرجاء، حيرة بل دهشة المفكرين المعترضين، من أمثال الفيلسوف طاليس، على دلالات بعض الألفاظ،، مثل الجمود الذي يقضي على التجديد الفكري، أو الصمت المرهق، أو الإذعان المحير – أو الواضح إلى حد ما – لفكرة أننا لا نستطيع أن نحقق ما نريد، أو أن الفكر يفتقر للحافز الذي يحركه.

على أية حال، فإن الحقبة التي تصل بين نقاط تلاقي الحقبتين الأيديولوجيتين، ودلالاتهما المشتركة، أي الحقبة التي تقع بين التاريخين، البسيطين والشاملين (سوف تُراجع جميع الأمور من منظوري الشيوعية وصدام الحضارات) هي على الأقل حقبة متماسكة وتمثل عصرًا حقيقيًا يشتمل على السياق المضطرب نفسه، والبلبلة نفسها، وخيبة الأمل عينها، ونبرة الحذر نفسها، والتحول المؤكد الذي يصعب التفكير فيه، سواء على المستوى الفكري أو النضالي، أو لدى القارئ أو المفكر، أو المتشدق بالقيم الغربية، أو الداعم للتغير الاجتماعي. إن مثل هذه البلبلة، أو ذلك التخوف من تجريم الأمور الفكرية ومن عودة الأمور المرفوضة، هي التي قضت في وقت من الأوقات على كل معارضة فكرية، ومهدت الطريق لهيمنة الأحاديث الليبرالية المتغطرسة – على الأقل في النصف الأول من التسعينيات – والمناهِضة للمجتمع، والتي جعلت من السوق الشرط الأساسي لتحقيق الديمقراطية والعدالة والتفوق على المستوى العالمي. إن هذا السياق أيضًا لا يحث على التفكير بطريقة مباشرة في الواقع أو التغير التاريخي الواضح فحسب، بل يستبعد الأحداث، والأفكار ليلعب الدور نفسه الذي سبق

ولعبته مختلف "الأطياف" عندما كانت تعرض الأحداث مستعينة بتبريراتها الذاتية، وبالاحتمالات البالية، وبزعزعة الثوابت. إن عقد التسعينيات، من حيث الأحداث الطارئة والاجتهادات الفكرية، لم يكن حقبة تتميز بالأحداث المهمة، بل اتسم بالأحداث الثانوية، التي لم تترك علامة في زمن التغيير؛ وبإدراج الفكر المحترف في مستودع الأفكار الهامشية. إنها بالأحرى حقبة أدت خلالها الانزلاقات التي تهتم بالمتغيرات الباطنة والأكثر تأثيرًا من الضجة الإعلامية، إلى فتح الفجوات تحت أقدامنا، والتصدعات الوهمية المتحررة من ماضيها المضمحل، كما دفعت بعض العبقريات إلى الهروب. إن حاضر تلك الحقبة – فيما يتعلق بالمجال الفكري – يُعد أرضًا متصدعة تسمح بتصاعد جميع العناصر الطيفية إلى محيطنا الزمني، كي تُعِد خليطًا من الأوهام المبهمة حديثة العهد وطويلة الأمد، ومن الأمور الماضية الملحة التي حكمنا عليها بالزوال النهائي في وقت قصير. لقد برزت أيضًا في منتصف عقد التسعينيات بعض التطلعات المشوشة لكن القَيِّمَة، وبعض الآمال الجذرية الجديدة للمرة الأولى منذ ربع قرن. الوضع يبدو كما لو أن هذه الأطياف المبهمة قد ظهرت لتطوي الأوهام التي طالما تغنينا بها، كي تتمكن من التعبير غن كيانها الجديد المتأقلم مع الزمن الجديد بطابعه الخاص، ومع عصر التشككات غير المسبوقة، والأمور المتعلقة بالمتطلبات المضجرة لنهاية الحقبة.

تصنع كره الإسلام

"في سبتمبر عام ١٩٨٩، تفجرت في فرنسا "قضية الحجاب"، للمرة الأولى، عندما منع مدير مدرسة "لواز" الثانوية دخول ثلاث طالبات يرتدين "الخمار" – الاسم المشتق في فرنسا من الزي الإيراني – تخوفًا من هذا الزي الشعائري. وقد أوضح الوزير الاشتراكي ليونيل جوسبان، وزير التعليم الوطني، أن المدرسة يجب أن تكون ساحة "لا نتباهى فيها (...) بإظهار الدلائل التي تدل على انتمائنا الديني"، ولكنها أنشئت كذلك "لاستقبال التلاميذ وليس لطردهم". ثم نظمت الصحافة ووسائل الإعلام بعد ذلك حملة نشرت خلالها في جريدة "لو

نوفال أوبزرفاتور" Le Nouvel Observateur عريضة "المفكرين" التي وقع عليهـا إليزابيـث بادينتر، وريجي ديبراي، وآلان فينكيلكروت، ليعيدوا بها إلى الأذهان شبح النازية، ويتهمـون الحكومة بتحويل المدرسة الحكومية إلى "ميونيخ أخرى". ثم سقط سور برلين في ٩ نـوفمبر وهي اللحظة الحاسمة التي انشقت فيها الكتلة الشرقية لتعلن بوضوح للمرة الأولى، "أن الـدين الإسلامي" يشكل تهديدًا لمبادئ الجمهورية. وانتهز مؤيدو الليبرالية الحديثة فرصة الظهور في هذا الوقت المناسب، خاصة بعد أن فقد المذهب الإسلامي بصورة مفاجئة التأييـد الـسوفيتي، وأصبح "عاريًا "تمامًا. وتلى ذلك ظهور ردود الفعل المنفعلة التي أعلنت أن الدعوة الإسلامية لا تحقق ازدهار الإنسانية بصورة كاملة؛ الأمر الذي أدى إلى نشأة "الحركة الواسعة المؤيـدة للعالمية"، التي لم يعد يُجدي معها اتهامات التواطؤ السابقة الموجهة إليها من موسكو. استخدم بعد ذلك المفكرون – الذين أُطلقت أيديهم – سلاح نظرية "صدام الحضارات" لمطالبة "الغرب المستنير" بالحذر خاصة بعد حرمان الروس من المسلمين، عدو الغرب الجديـد الـذي نـشأ حديثًا. وفي فرنسا، استغل رجال الإعلام البارعون – الذين نالوا شهرتهم في وقت سابق مـن الهجوم على "الشمولية الشيوعية" – هذا الوضع لتغيير موقفهم عبر التحـذير مـن الخطـر الإسلامي، وبدأوا الإفراط في بث القلق المصطنع، وفي عرض بعض المشاهد المبـالغ فيهـا عن الصراعات المدنية الشرسة التي كانت تمزق الجزائر آنذاك. ثم هـاجم جـون فرانـسوا ريفيل، الهجرة عام ١٩٩٤، في صحيفة لو بوان قائلاً: "إن الهجرة لن تؤدي إلا إلى صراع لا نهاية له إذا استمر المتعصبون في المطالبة بدمج الشعب الفرنسي في الإسلام، وليس العكـس أي دمج المسلمين في الشعب الفرنسي". ثم صرح كلود إيمبير، الكاتب الـصحفي المعـروف بكرهه للإسلام، في المقال نفسه قائلاً:"إن تراجع المدرسة الحكومية أمام محاولات الاجتيـاح الإسلامية، تغرس إحدى البذور الفاسدة في صميم المبادئ الجمهورية". وطـرح الفيلـسوف أندريه جلوكسمان التحليل الآتي: "إن الحجاب عمل إرهابي. لقد أصبح تلاميذ الثانويـة فـي فرنسا يدركون أن الحجاب زي ملطخ بالدماء". كما نشرت جريدة إكسبريس النص الآتي: "إن الأمر يتعلق في مدارسنا بالكرامة، لأننا لم نفرض على تلاميذنا في التعليم زيًا محددًا، إلا في عهد النازية". كما أشار السياسي بيار أندريه تاجويف إلى أن "ذم الإسلام وصفَه "بالدين الـذي

لا يتلاءم مع التقاليد الفرنسية" لا يقتصر على اليمين المتطرف، بل أصبح "الموضوع المشترك" للإعلام وللعديد من المفكرين". ثم استغل بدوره الخطاب الديني عام ١٩٩٧ قائلاً: "إن وجود مليوني مسلم في فرنسا يعني احتمال وجود مليوني متطرف". وتحول بعد ذلك بعدة أعوام هذا الخطاب الديني إلى مادة مبتذلة، وأصبح كره الإسلام في القرن الحادي والعشرين أحد المعايير المثيرة للجدل".

سيباستيان فونتونال Sébastien Fontenelle

عندما نحدد حدود عصر ما – سواء أكان ضبابيًا أم غامضًا – نكتفي في بعض الأحيان باختيار مساحة زمنية تتضمن بعض المراجع المؤيدة أو المعارضة له. وقد يساعدنا هذا التناقض بينها على سرد الصراعات الجارية، والأفكار المندثرة حتى لو كانت تلك المراجع تروي أحداثًا خارج إطار هذا العصر أو تسترجع بعض العصور السابقة. وإذا كان اختيارنا كيفيًا – خاصة إذا كان يشمل ثلاثة رجال لا غبار عليهم، ظهروا في عقد يستنكر عليهم احتكار الشرعية الفكرية، وهو ما سنطرحه فيما بعد – فإننا نقترح أن نتناول القمم الثلاث لمثلث هذه المساحة الزمنية، أي المؤلفات النظرية الثلاثة التي تناولت – كل على طريقته – هذا العصر، وأثارت ردود فعل كبيرة ومتتالية؛ ألا وهي "نهاية التاريخ وآخر الرجال" للكاتب فرانسيس فوكوياما (وهو تقرير عن كتاب واشنطن "خلية تفكير المؤسسات غير الربحية" الصادر عام ١٩٩٢)؛ و"أشباح ماركس" Spectre de Marx للمؤلف جاك دريدا عام ١٩٩٣ (الذي يرد بصورة مباشرة على الكتاب الأول)؛ و"سوء الفهم" La Mésentente لجاك رونسيار عام ١٩٩٥. تلك هي المراجع الثلاثة أو المطارق الثلاث التي هوت على سندان الواقع – تلك الحقبة الهَرِمة التي لا يؤمن بها حتى التجريبيون – كي تبرز مميزات التنوع الفكري. تُعد هذه المراجع باكورات العصر الثلاث، لأنها بمثابة الاكتشافات التي ظهرت في غير أوانها لسرد الأحداث التي سوف تُحبك في نهاية تلك الحقبة التاريخية من القرن العشرين، الثقيل الذي لا نأسف على فراقه. يعتقد فوكوياما – الذي فنّد

الأجندة الأيديولوجية مستندًا على الحجة الفلسفية، وعلى مؤلَف "التفكير الحكيم" Wishful thinking الأكثر تركيزًا على نقطة التحول التاريخية – أن نهاية الشيوعية، بل كل محاولة تحررية تُعد نوعًا من أنواع تصالح العالم مع نفسه ومن الرفض العالمي لإنسانية الفيلسوف إيمانويل كانت، وفكر هيجل على حد سواء؛ أي أن هذا التصالح يعد دون أدنى شك، نهاية لعهد الحرب الكلامية وليس لعهد الأحداث المتعلقة بالواقع. في بداية الأمر، رد جاك دريدا بصفة شخصية على فوكوياما، عندما دعاه زميلان أمريكيان لمواجهة فكر ماركس بعد تفكك الاتحاد السوفيتي في نهاية ١٩٩١؛ فتعمق في الكشف غن الغموض المزدوج للعصر، انطلاقًا من قراءة غير مألوفة "لهاملت"، ترتكز على أمرين: الأول، استمرار العلاقة بين عدوي الأمس ودوامها؛ والثاني على نموذج الأشباح المطلق، والإلحاح الفكري، وتسلط مفهوم "الحاضر / الغائب" الذي يطوي بين طياته الضبابية، مشروعي الوعد الجديد بالتفاوض الكامل، والوعد المحظور بالثورة الشاملة؛ أي المشروعين اللذين ظهرا – وفقًا لتأكيدات دريدا – في شكل أطياف، أو بمعنى آخر في صورة أشباح المستقبل، التي أنكرها هذا أو ذاك، وأشباح الماضي التي انساقت في أوهام الحاضر القريب.

> "ترتكز أيديولوجيتنا على الحداد على الشيوعية، ومجتمعنا يتشكك في هذا الحداد؛ لقد فقد الشعب ثقتة الكبيرة في العصر... وفشل كل شيء"
>
> مارجريت دوراس Marguerite Duras

شمل حوار الصم للأسف منذ ذلك الحين، المعسكر الماركسي بأكمله – المتحمس للغاية دون أدنى شك لأحداث الساعة – الذي نفى أن يكون اهتمام دريدا المتأخر بفكر ماركس، الميت / الحي، عملية تصحيحية أو تجميلية تنبثق عنها ثورة سلمية للتخيل العصري المرضي، وللخيال العلمي(٢). ظهر رد فعل المعسكر الماركسي بصورة خاطئة عندما اعتقد أرباب العائلة الماركسية– كما أطلق عليهم دريدا – أو حماة الماركسية، التي تتعرض لأزمة فكرية، أن تلك الأطياف لا تهدف إلا إلى

الهدم؛ في حين أنها كانت تمثل الأشباح الصديقة لجيل أو اثنين، الجيل الذي دفن تطلعاته الثورية في سرداب الزمن، وجيل الشباب الصاعد الذي ترعرع على الأفكار نفسها المتعلقة بنهاية الفكر الماركسي. إن الخطأ الذي ارتكبه المعسكر الماركسي، يكمن في عدم إدراك أن العلاقة التي تربطنا بتلك الأطياف تشمل كذلك العلاقات الاجتماعية، والتاريخية، وعلاقات القوى. إن تلك النظرة القاصرة، التي استردت وعيها من الغيبوبة التي أصابتها منذ خريف ١٩٨٩، وأفاقت من العقد المناهض للشيوعية المتطرفة تُماثل، وفقًا للكاتبة مارجريت دوراس، "النظرة الرافضة للفكر القائل إن أيديولوجيتنا ترتكز على حدادنا على الشيوعية، وعلى ترسيخ تشكك مجتمعنا في تراجع هذا الحداد الذي لا يتزعزع. إننا لا نستطيع أن نصادر هذا الرأي ، ونقصره على الفكر الستاليني". واستطردت دوراس قائلة في أحد اللقاءات: "لقد خلا هذا العصر من المقترحات، ومن الأفكار الجلية والسامية، ولم يتجاوز الأفكار البالية؛ وبالتالي فقد الشعب ثقته الكبيرة في العصر وفشل كل شيء"[٣]. إن هذا الفشل يجسد في كلمة واحدة مستقبلنا المشترك، ولا يجسد النعش الذي يحمل مستقبلنا المحتمل. فيما يتعلق بنظرية رونسيار، في كتابه العظيم "سوء الفهم"، فإن تلك الأطياف تُعد بمثابة الطيف التصوري أو الشبح العلمي الذي بعثه رونسيار من مرقده لإطلاقه بصورة خفية في هوامش العصر الذي لا يدرك مخاطر تلك الأطياف. إن الاختلاف، وفقًا لرونسيار، هيكلي وحاسم، ويشمل على حد سواء، أقطاب الفكر الأيديولوجي، والفكر المسيطر ووسائل تواصله؛ ولا يمكن اختزاله في مجرد مناظرات كلامية، أو تصريحات لفظية تنافسية تندرج في إطار آداب الحوار الأخلاقية المشتركة. ويفسر رونسيار الوضع موضحًا أنه إذا استرجعنا الاختلافات القائمة بين أرسطو، وتوماس هوبز، ضد يورغن هابرماس ومؤيدي إيمانويل كانت الجدد، فسوف ندرك أن تلك الاختلافات لم تُحسم في مرحلة الجدل، لكنها ظلت المرجعية الوحيدة التي يمكن أن نؤسس عليها هذا الشيء النادر ؛ ألا وهو السياسة، حتى في العصر الذي أراد أن يتحول إلى عصر "ما بعد السياسة"، وأشاد – أكثر من العصور الأخرى – بفضائل المنافسة الاختلافية الشريفة في ظل حقبة حولت الاختلافات البسيطة إلى اختلافات

جدلية ؛ العصر الذي أعلن أن تعارضات الماضي بين الإصلاح والتغيير، واليسار واليمين، والوطن والعالم، ليست إلا مغالطات تاريخية. كما يُذكر كتاب "سوء الفهم" أصحاب العقول البالية المعاصرين، أن السياسة ليست فن الاتفاق، أو البحث عن الحلول العقلانية للمشكلات العلمية، بل هي مواجهة مباشرة لا هوداة فيها وحيوية بين فن الإدارة الذي يتخذ القرارات والفرد الرافض لها؛ أو هي تحديد حصري لنصيب كل طرف منهما؛ أو التأكيد على مقاطعة من لا يشارك في هذه العملية. ويوضح رونسيار أن السياسة هي النذير المتحفظ في صحراء التوافق الخداع، أو النظام الجامع بين الاختلاف والتوافق، أو المُقاطِع لسياسة متخذي القرار والسياسة الرافضة، التي اتخذت، في بعض الأحيان، شكل "الحوكمة" الديمقراطية التحررية التي لا غنى عنها ، كما كان الحال في منتصف التسعينيات، أو شكل الحركة الاجتماعية التي لم تكن مهيأة لتنتفض، وتنهض من سباتها لتعيد تجديد نفسها، أحيانًا أخرى.

القوى الحيوية للأطياف

تحدد المؤلفات الثلاثة إذن حدود العصر، لكنها مؤلفات صدرت في غير أوانها، بكل ما تحمل الكلمة من معنى؛ ذلك لأن كتاب فوكوياما أفضى في غضون عدة أشهر، بعد تفتت يوغوسلافيا، إلى السخرية بطريقة مأساوية من المعسكر المؤيد لفلسفة هيجل الحديثة، ومن الرموز المتغافلة في نهاية تلك الحقبة التاريخية؛ وكتاب دريدا لأنه طرح فلسفة ماركس من خلال شكسبير وفرويد، بعد فوات الأوان، وفي المرحلة الحاسمة التي كانت تُهدم فيها النصب التذكارية جميعها؛ وكتاب رونسيار لأنه أثار مسألة الحرب الكلامية في مرحلة كانت توشك على أن تصبح تلك الحرب مجرد أصوات لا صدى لها بعد تحقيق التوافق بين أهداف المخططات الإستراتيجية والحوكمة العالمية. فضلاً على أن الساحة الفكرية لم تعد مقصورة، في منتصف التسعينيات، على أطياف تلك المؤلفات الثلاثة، فقد ظهرت أطياف القرن العشرين بكاملها بالتزامن مع العد

التنازلي للألفية، الذي كان يتسلط علينا. كما سارع الكثيرون إلى تجميد الشيوعية والتغني بنهايتها، وإلى تكميمها عن طريق إدانتها بصورة نهائية. إن تلك الضراوة المثارة على جثة هامدة، واختصار أنماطها المتعارضة في نمط واحد، هي التي أدت إلى رواج المبيعات لكثير من المؤلفات مثل كتاب "ماضي الوهم" Le Passé D'une illusion لفرانسوا فوريه، الذي أحدث دويًا هائلاً عام ١٩٩٥. كما أسفرت تلك الضراوة عن إخراج شبح النازية من مخبئه، فأعادت إلى الأذهان جريمته النكراء التي استمر تأثيرها البالغ لعدة سنوات، وسيطرت هذه المرة،على ساحة الجدل العام. إن عدم الفصل بين أنواع الأطياف لم يكن أمرًا مثيرًا للدهشة في تلك الآونة، وكذلك الحال بالنسبة لاختصارها في الوجه الآخر للمرآة المناهضة للشر ولجذوره التاريخية. ولنذكر في المقام الأول، أطياف المحرقة النازية، الأكثر قتامة والتي أصبحت، بفضل بعض الوثائق الاستثنائية (مثل الفيلم الرمزي لكلود لانزمان الذي عرض عام ١٩٨٥)، أحد المقدسات المدنية للنظم الديمقراطية القديمة التي أعادت إلى الأذهان ذكرى الغرب الذي نَدِم على تعميم الشر، إن لم يكن اختراعه. هناك أيضًا الأطياف الأكثر وضوحًا وتأثيرًا، أي الوجوه الإجرامية الألمانية المطارَدَة في نصف الكرة الجنوبي؛ أو المتعاونين المزيفين القادمين مؤخرًا إلى فرنسا؛ أو المتورطين إلى أخمص أقدامهم أمام محكمة التاريخ في جرائم ضد الإنسانية. ولنذكر في هذا السياق، القضايا التي استمرت زمنًا طويلاً ضد بول توفييه، وموريس بابون، ورينيه بوسكيه، الذي سقط صريعًا أمام منزله؛ وتلك المتعلقة بطيف قضية فيشي في بداية عقد التسعينيات. هناك أيضًا الغموض غير المحسوم، وجنوح الشباب الخطير الذي أثاره في فرنسا، وجه الرئيس ميتران الشاحب في نهاية فترة ولايته الثانية، ومسألة مرضه التي طُرحت عليه أثناء مقابلة تليفزيونية، وهربه من معسكر اعتقال ألماني وتوجهه إلى فيشي في سبتمبر ١٩٩٤، بعد صدور المؤلف الثائر "الشباب الفرنسي" للكاتب بيار بيان. ثم امتدت تلك الأطياف لتشمل التشريع القانوني عند التصويت عام ١٩٩٠، على قانون

غيبسو، الذي يُجَرِّم أي تمييز عنصري أو عمل معادٍ للسامية أو للأجانب. تشير تلك الأطياف أيضًا، وبكل تأكيد، إلى الدور المؤثر للناشرين، بعد النجاح المفاجئ لبعض المؤرخين الشباب غير المعروفين آنذاك (على غرار إريك كونان، وهنري روسو، في مؤلف "فيشي ماض لن ننساه" عام ١٩٩٤)، ودعوتهم للمشاركة في المناقشات حول إنتاج المؤرخين السابقين، مثل أطروحات زيف ستيرنهال عن "الفاشية" الفرنسية، التي أسفرت عن انقسامات في الرأي العام، وداخل الجامعة، في خضم الفترة الانتخابية للجبهة الوطنية. كما ظهرت أخيرًا، على المستوى الفكري، الأطياف التي لا علاقة لها بكابوس القرن العشرين، والتي فرضت في نهاية الأمر على الساحة الفكرية للتسعينيات، أنماط التذبذب، والاختفاء غير الملحوظ، والانسحاب المخجل، لكبار المفكرين المقاطعين للحقبة، والفارين نحو أقطابها غير الماركسية وغير الليبرالية وغير الستالينية، بعيدًا عن إلحاح قضية فيشي، أمثال فيليكس جاتاري عام ١٩٩٢، وجيل ديلوز عام ١٩٩٥، وجون فرانسوا ليوتار عام ١٩٩٨. هناك أيضًا الأطياف التي استعادت ذكرى ميشيل فوكولت عام ١٩٩٤، بعد عشر سنوات من وفاته ودفنه على عجل، في أربعة مجلدات كبرى غير مطبوعة. لقد ترك اختفاء أولئك المفكرين فراغًا هائلاً في فرنسا، وفي العالم أجمع، وفرض في الوقت نفسه نمطًا من التفكير معارضًا للعصر، يخرج عن إطار سياسة الأمر الواقع الفكرية، وعن معضلة التاريخ العظيم.

٩/ ١١/ ١٩٨٩ - ١١/ ٩ / ٢٠٠١

انهياران أسفرا عن اندثار

معتقداتنا الفكرية بأكملها

وفي مقابل الأطياف، ومطاردي الأطياف (التي نالت شعبيتها عـام ١٩٩٤مـن فيلم "صائدو الأشباح"، وأعلت شأن الرموز الأيديولوجية الليبرالية في التسعينيات، التي وضعت الجدل الفكري في إطار تنظيمي)، تجدُر الإشارة إلى الساحة الأكثـر حـسمًا المتعلقة بالقيود المفروضة آنذاك علـى العمـل الفكـري، والابتكـارات التـصورية، والمؤسسات الفكرية غزيرة الإنتاج، والأنماط العابرة إلى حد ما، والجدل الأيديولوجي، وردود فعله الإعلامية. في منعطف التسعينيات، بدأت العلوم الجامعية التي يطلق عليها "العلوم الإنسانية" في الولايات المتحدة مرحلتها الثانية أو أزمتها الثانية، بعد أكثر مـن عشر سنوات من الافتتان بالدراسات الأدبية؛ وذلك بـسبب التـصعيد المـستمر فـي سياسات تقسيم الحرم الجامعي وأماكن الدراسة، وفقًا للهويات الدارسة (فتحت المعاهـد الرائدة في الدراسات الإنسانية الأفرو / أمريكية أبوابهـا فـي مـستهل التـسعينيات)؛ وتعرضت آنذاك الإشكالية المتعلقة بالهوية – وفقًا لما ذكره المجلد الإحصائي الـصادر عام ١٩٩٤ – لهجمات أيديولوجية قوية على جبهتين في آن واحد(٤)؛ الهجمة الأولـى شنها زعماء الفكر في معسكر المحافظين (زعماء الفكر المحافظ الجـدد، بـدءًا مـن إرفينج كريستول، وحتى نورمان بودهوريتز، وروبرت كاجان)؛ وأشـعلتها فـضيحة جامعة ستانفورد التي اتخذت بُعدًا قوميًا، وأجبرت الرئيس بوش على الحضور بنفـسه للدفاع عن المناهج التقليدية، بعد اعتراض مجموعة من الطلاب عامي ١٩٨٨و ١٩٨٩ على شرعية محاضرة عن "الحضارة الغربية" تتجاهل في نصوصها المرأة والأقليـات، لدرجة أدت إلى اندلاع المظاهرات والأعمال العدائية في أماكن عـدة داخـل الحـرم الجامعي في أنحاء البلاد. والهجمة الثانية شنها اليسار الاشتراكي الديمقراطي (الحليف غير الطوعي للتيار الرجعي الجارف) ضد سياسات الهوية داخل الحرم الجامعي، بعـد الواقعة التي اعترض فيها رئيس اتحاد الطلاب تود جيتلين على "بلقنة الحرم الجـامعي" (مصطلح يطلق لوصف عملية التقسيم وفقًا للهوية) ، لأنها تقضي، من وجهـة نظـره،

على "أحلامنا المشتركة"(٥)؛ وبعد الدور الماكر الذي لعبه الفيزيـائي الـديمقراطي آلان سوكال لتشويه النظريات النقدية السائدة، كي يستنكر "التضليل الفكري"، والـلا معنـى العلمي(٦)، وذلك عندما عرض على مجلة "سوشيال تيكست" مقالاً محرفًا وهدامًا فقبلتـه ونشرته قبل أن يعلن كاتبه عن التحريف الذي ألحقه بـه. أبـرزت هاتـان الواقعتـان الغضب الشعبي – الذي تناولته الصحافة وبثته وسائل الإعلام – من النخبة الجامعيـة الراديكالية، ومؤيدي النظرية النسبية المتعلقة بالهوية، المرتشين مـن اتحـاد الطـلاب الجامعي "إيفي ليج".

تناولت بعد ذلك مقالات الصحف اليومية، وبرامج الشاشة الأكثر شعبية، الجـدل الصاخب بين اليمين الأخلاقي، الذي شجعه لمدة ثمانية عشر عامًا انتـصار المعـسكر الجمهوري؛ واليسار الثقافي داخل الحرم الجامعي الراديكالي، الذي شجعه تفوقـه فـي المجال التربوي، وتدخلاته لضبط سلوكيات أطراف الجدل. تناولت المناقشات الجدليـة المساحة المتاحة لنقد مبادئ العلوم وأصولها المنطقية، و"القيم" الغربيـة، و"الإصـلاح السياسي" – أي شرعية تعديل المفردات اللغويـة التـي تحـدد صـفات الأقليـات – والخلافات المتعلقة بالمعيار الذي يحدد روائع الأدب أو أدب الطليعـة. كمـا اسـتنكر الجمهوريون مساندة الوكالة الفيدرالية "الصندوق الوطني للفنون"، لمعارض المـصور روبرت مابليثورب، عن الرجال العراة؛ ونشطت الحروب الثقافية في عقد التسعينيات؛ وتصدرت الجامعة أخبار وسائل الإعلام. في عام ١٩٩٠، انتقد روجر كيمبـال، فـي كتابه الذي حقق أعلى المبيعات، "المتحمـسون للمناصـب" tenured radicals، موقـف أولئك المتحمسين لتسييسهم الدراسات العليا دون أي سند قانوني. كما سار على الدرب نفسه دينيش ديسوزا، المستشار السابق لرونالد ريجـان، عنـدما أدان – علـى خلفيـة الأقليات الدارسة – الحياة الجامعية "المعادية للحرية"(٧). ثم شنت عدة مـرات الناقـدة كاميلا باجيليا هجومًا غير سياسيًا، لكن أكثر حماسًـا علـى الأكـاديميين "المبتـدئين"، المتقمصين شخصيات المفكرين الفرنسيين، "المزهوين بأنفسهم" واقترحت إلقاءهم فـي ميناء بوسطن على غرار واقعة "حفل الشاي" المـشهورة عـام ١٧٧٣ (عنـدما ثـار المتظاهرون ضد قانون الشاي وألقوا حمولة السفينة القادمة من شركة الهنـد الـشرقية

في ميناء بوسطن)، حتى يعودوا سباحةً إلى بلادهم. كما صرحت لصحيفة نيويورك تايمز قائلة :"لسنا في حاجة إلى دريدا، فلدينا جيمي هندريكس"، لتعبر عن معارضتها لتمثال الفيلسوف المشهور الذي لمع نجمه في سماء أمريكا.(٨). في تلك الفترة، أدت انزلاقات الجناح الراديكالي – الضعيف علميًا – إلى الكثير من الإحباطات، لأنها أمدت المحافظين بالبراهين التي تثبت "ادعاءتهم الباطلة" في مجال الفكر النقدي، وأتاحت الفرصة للجامعيين السود لتوطيد مكانتهم، مثل هنري لويس جيتس مدير مركز الدراسات الأفرو / أمريكية في هارفارد. كما تصدرت أخبار المجتمع آراء ليونارد جيفرس الأستاذ بجامعة نيويورك، الاستفزازية والمعادية للسامية؛ وغطرسة السياسي مارتين برنال في كتابه "أثينا السوداء" الذي جعل من القارة السوداء المهد الوحيد للمعرفة والفنون الغربية، وأغفل المرحلة الانتقالية لليونان وروما(٩).

"تتحدث عن ماركس...ونذكره في الوقت الذي ترتفع فيه الأصوات اليوم لتجنب عودته (...) لكن الشبح لا يموت أبدًا، إنه يأتي ويعود"

جاك دريدا Jacques Derrida

إن هذا الشطط الجدلي – الذي مهد له الأيديولوجيون المحافظون – كان يخفي وراءه مواقف اليسار الثقافي الجامعي التي كانت أكثر صلابة، وتقتصر على بعض الأقليات في الجامعات الأمريكية مقارنة بفرنسا – حتى وقتنا هذا – التي تأثر فيها الرأي العام كله بالهجمات التي شنها المفكرون العاملون بالجامعات الحكومية، على النسبية العرقية والتعددية الثقافية؛ في حين ظل الرأي العام في الولايات المتحدة أشد انقسامًا وأكثر توازنًا. لقد كان أولئك المفكرون المحافظون أول من نظم ندوة في مركز بومبيدو عام ١٩٩٧ – قبل التصويت على اتفاقية "حلف التضامن المدني" – بعنوان "دراسات عن المثليين والسحاقيات". كما دخل رواد معارضة الاتجاه المعادي للمجتمع في فرنسا في مواجهة، هي الأولى من نوعها، مع الضربات المتعددة التي وجهتها إليزابيث بادينتر للاعتراض على الدراسات الجنسية، والمتزامنة مع آراء منى أوزوف المعادية لظاهرة التأنث (التشبه بالنساء) الأمريكية، والتي مهدت لتحقيق كتابها

"الكلمات النسائية" أعلى المبيعات عام ١٩٩٥(وهو كتاب يبرز المصطلحات التي تستخدمها المرأة للتعبير عن أنوثتها). لقد كان أولئك الرواد أول من واجه منظري علم الأخلاق، وأول من أحرز نجاحًا يُماثل النجاح الذي حققه – في الحقبة نفسها – "الفلاسفة الجدد". في عام ١٩٩٤، شبه برنارد هنري ليفي في كتابه "النقاء الخطر"، سياسات الهوية داخل الحرم الجامعي بالتطهير العرقي في يوغوسلافيا السابقة. وفي عام ١٩٩٥، قصر باسكال بروكنر دفاع الأقليات على المنطق الكاريكاتوري للضحية، واعتقد آلان فينكلروت في مؤلفه "نقائص الحاضر"، أن التضامنات المجتمعية – التي أطلق عليها المنظرون تضامنات "ما وراء الأطلنطي" – تُعد بمثابة "ترياق الإخاء السام". في الولايات المتحدة، ظهر نقد سياسات الهوية قبل فرنسا بخمسة عشر أو عشرين عامًا، وبلغ ذروته في الحقبة التي سيطرت فيها مفاهيم العالمية البحتة، والجمهورية البرجوازية في فرنسا على الرأي العام؛ تلك المفاهيم التي تقهقرت إلى مربعها الأول، وثارت على العالم، لدرجة دفعت العناصر الداخلية إلى مهاجمتها ومهاجمة مفهوم الهوية نفسه، بحجة الدفاع عن تلك المواجهات الدائرة بطريقة أكثر ملاءمة من الناحية النظرية، وأكثر تدعيمًا – على المدى الطويل – لليسار الثقافي في مجمله. في الولايات المتحدة، تعددت المفاهيم المتعلقة بالهوية، واتجهت نحو المفهوم النقدي الشامل، أو المعالجة التي أطلق عليها البعض "مرحلة ما بعد الهوية"، لاحتواء مشكلاتها العرقية ومتناقضتها السياسية في آن واحد، وبصورة أفضل. والدليل على ذلك، الابتكارات النظرية الكبيرة التي ظهرت في بداية التسعينيات، بدءًا من مقال المؤرخة السينمائية تيريزا دي لوريتس المنشور عام ١٩٩١ في المجلة النسائية "اختلافات"، الذي ساعد على نشاة نظرية الممارسات الجنسية الشاذة Queer ، وانتشارها السريع. لقد عارضت تيريزا في ذلك المقال، بصورة واضحة، المؤيدين لنظرية التمييز بين الجنسين، وللمقارنات الثنائية بين المثليين والسحاقيات (من حيث التماثل والتنافر)؛ وآثرت استخدام مصطلحات التعددية الجنسية، ونقد التعريفات الصارمة غير المعقولة المتعلقة بالثقافة الجنسية – التي بدأتها عام ١٩٩٠، إيف كوسوفسكي سيدفيك في دراستها بعنوان "المبحث النقدي في علم الدعاية"، والتي تُذكرنا

بالمُنَظِّرة الشابة جوديث بوتلر وكتابها "الاضـطرابات الجنـسية"– أو التأكيـد علـى الاضطرابات الجنسية وآلياتها الجدلية والتنافسية. يمكننا مقارنة هذا المنطـق بـالمنطق الذي تغلب على دراسات حقبة ما بعد الاحتلال، وعلى الصيغ اللغويـة، التـي أسـفر سعيها لتنويع مصادرها – المشتقة على سبيل المثال من كتابـات إدوارد سـعيد عـن الاستشراق، والإمبريالية الثقافية، ومن مصطلح "الأمة المتفرقة"، الذي استخدمه هومي ببها للتعبير عن تعارض المفاهيم عند إنسان المهجر– عن إعداد نقـد موحـد يـشمل خبرات التجريبيين، ومبحث العلم القديم المتعلق بالهوية الواحدة. إن لفظ الهوية الـذي يُستخدم الآن بصيغة الجمع في الكتابات والإصدارات الأدبية، أصبح يعبر مجازيًا عـن الاغتراب، والقلق، والتوافق بين الأنماط الذاتية، والتشتت العالمي الذي يحث أعـضاءه على التوفيق بين ثقافتي بلد المنشأ، وبلد المهجر. لم يكن الأمر غريبًا إذن على إحـدى نساء العالم الثالث جاياتري سبيفاك – التي لا تقل شأنًا عن دريـدا – أن تقتـرح عـام ١٩٩٩، بلهجة تقترب من مفهوم إيمانويل كانت، نقد عقلية حقبة "ما بعد الاحتلال" التي تبتعد فيها الانحرافات الأدبية، والحلول الوسطية السياسية، و"التعبيرات التوافقيـة بـين لفظين"، عن المنطق التاريخي الصارخ لعالم ما بعد الاحتلال، ولا تعبر عن الأحـداث الطارئة التي تجري على أرض المهجر(١٠). إن نظرية "المجتمعات التأويليـة"، التـي اقترحها المنظر الأدبي ستانلي فيش عام ١٩٨٢ – الذي نتـشكك قلـيلاً فـي تطرفـه المتعلق بالهوية – هي نفسها التي جعلته يقف على مـسافة مـن اسـتكمال نـصوص نظريته التأسيسية، أو إدراجها في الإطار المجتمعي، وفي الاختلافـات الفرديـة بـين القراء؛ لأننا – وفقًا لبرهنة ستانلي – نقرأ انطلاقًا من مكان وزمان وأطـر ومعـايير، تجمعنا حول نص واحد(١١).

جي ديبور و جوني روتين ومارتين هايدغر

رجال في مصفوفة سوداء

ظاهرة التقمص

منعطف أخلاقي للفلسفة؟

"أثارت دراسة الفيلسوف دومينيك جانيكو، بعنوان "المنعطف اللاهوتي لعلم دراسة الظواهر الفرنسي"، المنشورة في نهاية ١٩٩١ – والتي كان من المفترض أن تكون دراسة شخصية – جدلاً كبيرًا استمر لعدة سنوات، بعد أن عاب على عدد من المفكرين المهمين أمثال بول ريكور، وجون لوك ماريون، وميشيل هنري، تركيز أعمالهم الفلسفية على عقائدهم الدينية، وتحويل التراث المتعلق بعلم الظواهر (علم دراسة الظواهر كما تبدو بغض النظر عما وراءها من حقائق) إلى "علم الكائنات"؛ كما أخذ عليهم مقارنة الفلسفة القائلة إن الوجود الإلهي يتجلى في العالم المادي، بالفلسفة الاستعلائية التي تؤمن بالوجود الإلهي خارج العالم المادي؛ وكذلك المقارنة بين غموض الإدراك الحسي، والغموض الميتافيزيقي. ثم قام دومينيك بتركيز لومه على إيمانويل ليفيناس – الذي كان يعتقد أن الذات تطلق العنان لحدود الظواهر الصارمة – خاصة بعد تعميم التسعينيات أعماله عن الشمولية والأبدية Totalité et Infini(١٩٦١) التي كانت تقتصر دراستها على الدارسين، من أجل معارضة سيطرة الذات على الآخر، وتغليب العقلية الشمولية على العقلية الفردية ومتطلباتها اللانهائية. لقد رأى جانيكو في تلك الدراسات انحرافًا عن صميم الفلسفة، واعتقد أن إعادة قراءتها تمثل العودة لفلسفة إدموند هوسرل. لقد تناولت دراسة جانيكو أيضًا الجدل حول آراء مارتين هايدغر النقدية، الذي بدأ عام ١٩٨٧، بعد نشر البحث الذي أعده فيكتور فارياس عن "مارتين هايدغر والنازية". يمكننا أن نتساءل كذلك بصورة أشمل – بغض النظر عن الخلافات التي أثارها جانيكو، واقتداءً بما كتبه فريدريك وورمس في مجلة "لحظات" الأدبية بعنوان "فلسفة فرنسا في القرن العشرين (جاليمار ٢٠٠٩) – إذا كانت حقبة التسعينيات الفلسفية تُعد "منعطفًا أخلاقيًا" في تاريخ الفلسفة، ساعدت على تدعيمه الأحداث الحياتية، والأخلاقيات المستجدة، والكوارث السياسية المتمثلة في حروب يوغوسلافيا السابقة، وحرب الإبادة في رواندا. كما

يشمل هذا التساؤل، مسألة الإصرار الذي جعل من دريدا مفكرًا أخلاقيًا يجسد الفكر "الصائب" و "الخلاق"؛ والطريقة التي احتفلنا بها فجأة بفوكولت بوصفه فيلسوف علم "الأخـــلاق الذاتيـــة" المستوحى من علم الأخلاق القديم. والتساؤل الأشمل والأضعف، يشمل الابتـــزاز الأخلاقـــي للمفكرين الإعلاميين،عن "تضحياتهم السقيمة"، التي اســتنكرها جيــل ديلــوز عـــام ١٩٧٧؛ ومختلف النداءات العامة التي تنادي "بإصلاح" الــسياسة الفاســدة، والرأســمالية الجامحــة، والسياسة الدولية الواقعية باسم حقوق الإنسان أو دونها. فـــي الفتـــرة نفـــسها، مهـــد بعـــض المحافظين الأيديولوجيين الأمريكيين، من المحافظين الجدد، الطريق أمام الحمـــلات الغربيـــة للعقد التالي، بتوجيه نداءات بالعودة "للقيم" المناهضة لمبدأ "النـــسبية العرقيـــة" الـــذي تبنـــاه المنظرون الثقافيون. كما طالبت بعض العقول الأكثر اعتدالاً مثل المؤرخ توني جدت، بالعودة لأخلاقيات ألبرت كامي، وريمون آرون الصادقة، ورفض المرجعيات الفرنـــسية الراديكاليـــة المفرطة، والمنتشرة خارج فرنسا. وهكذا، تعرضت تلك الحقبة، بدرجة أو أخـــرى، للتكمـــيم المحمود، وللترويض الأخلاقي للساحة الفكرية، باستثناء بعض المنغصات المقلقة التي كانـــت في أغلب الحيان بمنأى عن فن الخطابة الجامعي."

فرانسوا كوسيه François Cusset

مفكرو العامة، والجامعات، والمهزلة الإعلامية

يمكننا ذكر دلالتين أخريين لتفسير طبيعة مسألة الهويـــة، أو النـــسبية العرقيـــة، لإعادة التركيز على بعض المواقف بعد المعارك التي حُسمت في عهد الرئيس ريجان. الدلالة الأولى، تتعلق بتدفق التيار النقدي الذي أصبح أكثر ارتيابًا، والذي مارسه أكثـــر النقاد تحمسًا "للدراسات الثقافية" التي أعدها في الستينيات الماركسيون الإنجليـــز غيـــر المميزين في برمنجهام – قبل أن تصبح الاتجاه السائد على الساحة الأدبية الأمريكيـــة في الثمانينيات – سواء تلك التي تناولت الأسلوب المجازي للفنانة الراقصة مادونـــا، أو التغيرات الثقافية التي أصابت مشاهدي المسلسلات التليفزيونية. لم يكن هـــذا الإفـــراط

النقدي بحاجة إلى أن يكون الناقد شيوعيًا تقليديًا، أو أحد المحافظين المتشددين المنتمين "لإحدى المقاطعات أو الأقاليم"؛ لأن نقد "الدراسات الثقافية" كان قد أصبح منذ ذلك الوقت، هدف المقالات الافتتاحية، ولأن المقالات العديدة التي تعتمد على الدراسات الثقافية غير الدقيقة بدأت تختفي بدءًا من عام ١٩٩٢، وفقًا لقاعدة البيانات الجامعية في تلك الحقبة. والدلالة الثانية تتعلق بالجامعات الكبرى وبالأدباء السود الذين أصبحوا بمثابة النخبة الأخيرة من "مفكري العامة" في الولايات المتحدة، بعد أن قاموا بصقل محتوى أحاديثهم الهجومية والانفصالية، وتحولوا إلى تربويين معتدلين يستند الشباب الأمريكي إلى مراجعهم الأخلاقية، ومن أبرزهم جيتس كورنيل ويست، وبيل هوكس، وتوني موريسون (الحاصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٣)، وكثيرون غيرهم ممن ضمتهم مجلة "أتلانتا الشهرية" عام ١٩٩٥، في باب "المفكرون الجدد".

إلا أن هذا لا يمنع من التمييز بين الجدل سريع الزوال، والإستراتيجيات الإعلامية المعاصرة، وتشبُع الساحة الثقافية كلها بالأعمال الأكثر تطورًا وتحفظًا وعمقًا، التي دامت وتميزت بالقدرة على البقاء. تميزت التسعينيات - حتى لو كانت مكرهة على ذلك - بأنها الحقبة التي شهدت الدمج غير المسبوق، والربط النظري الحاسم بين الثقافة والسياسة، وبين التاريخ الاجتماعي وتاريخ الظواهر، وبين مادية الواقع التاريخي والنصوص الجمالية؛ بعد عقود من الانقسام كانت تؤكد استحالة الجمع بين الأعمال النضالية والجمالية، وبين الأعمال الجادة المهتمة بالأسس التاريخية (المؤرخين وعلماء الاجتماع) والنخبة المختارة (في الأدب والفنون). إنها الحقبة، على سبيل المثال، التي حققت فيها أعمال فريدريك جيمسون أفضل إيقاع لها، بعد أن أدرك مغزى المفاهيم الملتوية للرأسمالية المعاصرة، وأُسُس نظرية ما بعد الحداثة في كتابه الصادر عام ١٩٩١ بعنوان "ما بعد الحداثة" الذي أعاد تنظيم حُجَة مقاله المنشور عام ١٩٨٤. كما أنها حقبة التحول إلى "التعددية الثقافية"، وعولمة العلوم الإنسانية (التحول الثقافي ١٩٩٨)، والتي أحدثت فيها سينما هوليود، بفضل مجلة عام ١٩٩٢، دويًا سياسيًا وجغرافيًا. إنها الحقبة التي سلك فيها إدوارد سعيد الاتجاه السليم، وأنتج أعمالاً مثمرة للغاية من بينها "الثقافة والإمبريالية " عام ١٩٩٣، الذي سرعان ما أصبح أحد

المراجع الأساسية التي يُستند إليها. إنها الحقبة التي اكتشفنا فيها التوافق بين أعمال المؤرخة كرستين روس، التي ربطت فيها بين الحياة العائلية "المعاصرة" في فرنسا في الستينات، وحالة اللاوعي الاستعماري، وأحداث ما بعد مايو ١٩٦٨، والشطط السياسي وانعكاساته الثقافية السائدة[١٢]. ونستطيع أن نقول، انطلاقًا من منظور آخر، إنها حقبة نقد الموسيقى الشعبية، وفقًا لما ورد في دراسة الناقد جريل ماركوس لأغنية "آثار أحمر الشفاه" التي ظلت تمثل الرابط التاريخي القوي – وهو الأمر المثير للجدل – بين الانتماء اليساري القديم والثقافات المضادة، أو بين جي ديبور، وجوني روتين، أي بين الحماس العصري ونشأة موسيقى البانك. وبصيغة أخرى، إنها الحقبة التي برز فيها الفكر النقدي المستدام للفيلسوف السلوفاني سلافوج زيزيك، الشخصية القادرة على تلخيص تأثير أنطولوجية مارتين هايدغر ومجون فيلم "رجال في بزات سوداء"، في عبارة واحدة. من جانبها، لم تكتف ثقافة البوب بكونها محور إحدى النظريات النقدية المهتمة بتغلغلها في الواقع الاجتماعي، فقامت بدورها، بعرض بعض أجزاء من نظريات تبرز أداءها المذهل؛ كما جازفت بتحليل المخاطر السياسية أو التكنولوجية لمسلسل النخيل البرية (١٩٩٣) الذي عُرض على شاشة التليفزيون قبل عرضه على شبكة ٢، والذي سبق أحداث فيلم أسطورة مصفوفة الإخوة فاكوفيسكي (١٩٩٨)، الذي يفسر نظريات بودريلار، ودريدا عن المظهر الخدَاع الذي يطمس الشخصية الأصلية. علينا ألا نغفل أيضًا الفترات الانتقالية؛ والظواهر العارضة التي طواها النسيان؛ واللقاءات التي لم تستمر، والتي نُظمت في منعطف تلك السنوات، في نهاية حقبة الثقافة الفكرية المضادة، التي تحولت مؤخرًا إلى ثقافة عالمية؛ وكذلك الاحتفالات التجريبية مثل ندوة "اغتنم فرصة ثلاثة أيام في الصحراء" التي نُظمت في نوفمبر ١٩٩٦، في كازينو منتجع "ويسكي بيت دي برايم"، على الحدود بين نيفادا وكاليفورنيا. علينا ألا نغفل كذلك الندوة عن "حفلات الراف الفلسفية"، التي أثارت موضوع المغامرة الموسيقية على مدار ثلاثة أيام مدفوعة بعدة عوامل من بينها: وابل النقد الفني، وتجارة الندوات البالية، ومثيري الشغب، والنضال النقابي، وزعيم الهنود الأمريكيين، وعالم الحضارة والمؤرخ الصيني المعاصر آي شينج، وجون بودريلار

الذي لم تعد أعماله تلقي رواجًا، والذي زُج به في الساحة مرتديًا سترة فضفاضة مرصعة بلآلئ براقة ليتغنى بألحانه في "موتيل الانتحار" مع الفرقة الموسيقية "عروس الصحراء".

"إن المجتمعات المغلقة نماذج ثابتة وواضحة، لكن المجتمعات الانضباطية تتغير بصورة تلقائية وذاتية ... ولا تتوقف المجتمعات الانضباطية عن التجديد."

جيل دي لوز Gilles Deleuze

إذا كانت الصناعة الثقافية تحاول – ولو على هامش أعمالها – تصور نظم إدراكنا الجديدة، وإذا كانت العلوم الإنسانية قد استوعبت أخيرًا، من جانبها، ثقافة البوب والأسس التي تقوم عليها هويتنا الذاتية؛ إلا أن الهوة سوف تزداد اتساعًا في أمريكا الشمالية وأوروبا على حد سواء، بين الجامعة والمجتمع المدني، وبين الإنتاج الفكري المتخصص – على الرغم من كفاحه من أجل الصمود – والجدل الفكري (أو الجدل المفتعل) المتصاعد عبر وسائل الإعلام الحديثة، وبرامج التوك شو، والصحافة الموجهة، والمجلات السيكولوجية، والإنترنت الناشئ، ومطبوعات الكتب الوفيرة، وخبراء التواصل السياسي المستعدين لاستعمال جميع الوسائل لتوسيع تلك الهوة. إن هذا الجدل هو أحد أنواع "التفكير الذهني النوعي" (وفقًا لمصطلح فوكولت)، المنفصل جزئيًا عن ساحة الأنقاض الاجتماعية المعاصرة؛ لأنه يهرب – كما في فرنسا – نحو التأمل الميتافيزيقي أو المبحث النقدي للعلوم الاجتماعية، أو يتغلغل – كما في الولايات المتحدة – في الأماكن الهشة داخل الحرم الجامعي المفتوح، أو في الجامعات التي دخلت عصر العولمة، والمجهزة تجهيزًا متطورًا. يتجنب أيضًا ذلك الجدل الخلافات الحادة، التي تؤثر تأثيرًا طفيفًا على السياسة والمجتمع المعاصر، لأنها مجرد زوابع تهب بسبب بعض المفاهيم المتعلقة بالهوية، والجنس، والمساومة، والأقلية، وحقبة ما بعد الاستعمار؛ وهي زوابع في فنجان تترسب في قاع الاختلافات الأكاديمية. في الوقت الذي تفخر فيه الجامعات الأمريكية من تغلغلها في مفاهيم الغرب المتخم بالأفكار، عبر التعليقات المبهمة، والتفسيرات الجامحة؛ وفي الوقت الذي يحاول فيه

مفكرو العامة – الذين ظهروا على الساحة مؤخرًا – تحذير مواطنيهم من النماذج الإمبريالية الأمريكية الجديدة (أمثال سوزان سونتاج، ونعوم شومسكي، ونورمان ميلر، وهي نماذج على وشك الزوال)، تنشأ ظاهرة جديدة تفرض منطقها التسويقي، ومزايدتها الأيديولوجية على الجزء المتبقي من الساحة العامة السمع/ مرئية، وتؤثر في أعداد كبيرة، بصورة تفوق تأثير ظاهرة التأنث في الحرم الجامعي، والمقالات الافتتاحية لصحف نيويورك. يرتكز المنطق الذي تريد فرضه تلك الظاهرة، على المواجهات الشفهية في ساعات الذروة بين مقدمي البرامج ومعدي الأخبار، الأكثر شعبية والمنتمين للتيارين السياسيين: اليميني واليساري؛ وعلى صيحات المحافظين المتطرفين، المعترضين على الإصلاحات التهكمية، عن طريق استقطاب الآخر بالمصطلحات البلاغية المتكلفة التي تقضي على جوهر المسائل الفعلية المراد مناقشتها: مثل "الهجمة الليبرالية الحديثة" ، أو"الكارثة المجتمعية. إن التسعينيات هي السنوات التي شهدت بالفعل، ظهور المحرضين المحترفين، أمثال راش ليمبو اليميني وآل فرانكلين المائل قليلاً إلى اليسار، الذين حققوا أعلى نسبة مشاهدة وأعلى مبيعات لكتبهم، وكرسوا أنفسهم للسيطرة على الساحة لفترات طويلة.

إن فرنسا – التي شهدت سقوط تماثيل "المفكرين العظماء" من فوق قاعدتها، والتي انقضت على إعلام الانتهازيين الصاعدين الذين قرروا تقليد الاتجاه الجامح- تدرك جيدًا الخندق المتعذر عبوره، والهوة الكبيرة بين ابتكار المفاهيم والعصف الذهني، وفقًا لتعريف الفيلسوف جيل دي لوز الغامض؛ أو بمعنى آخر، تدرك فرنسا جيدًا الهوة بين الاجتهاد من أجل ابتكار مفاهيم دقيقة، وموضع ثقة برعاية أحد المعاقل النظامية، أو إحدى المؤسسات غير التقليدية (مثل هيئة الفلسفة الدولية)، أو فلاسفة مثل دريدا، وفوكولت، وبورديو، أو بودريلار، أو حتى برنو لاتور، وبول فيرليو – بغض النظر عن النجاح العالمي الذي حققوه على المستوى الجامعي، والذي كان يجهله قراؤهم تمامًا – وبين الإيماءات الثرثارة التي تصدرت الجانب الآخر من الساحة الاجتماعية، أو أي مكان آخر من الفضاء الزمني غير المترابط، إذا ما استخدمنا

تعبيرًا أكثر دقة، ونجحت على مدار التسعينيات في اتخاذ ثلاثة أشكال واضحة، أحدها على الأقل يُعد حدثًا جيدًا.

يتمثل الشكل الأول الأكثر وضوحًا، في الهجمة الأيديولوجية، المحتدمة بسبب تغير العصر، التي شنها باحثو علم الأخلاق والكتّاب الليبراليون على الأفكار الليبرالية الثورية البالية، التي اعتقدنا أنها اندثرت؛ وعلى الأفكار المتعلقة بالمجتمع والكفاح والصراع. انكب حماس فرانسوا فوريه – الذي رفع راية الهجوم أثناء الاحتفال بالمئوية الثانية لثورة ١٧٨٩ – على جثة الثورة الهامدة، ولم يكف عن قوله إن الثورة الفرنسية "قد انتهت"؛ وإن التغير المجتمعي لم يكن سوى فترة انتقالية (امتدت لأكثر من قرنين)؛ وإن الليبرالية العالمية هي الأفق الوحيد الذي يتعذر اجتيازه في عصرنا هذا. لم تقتصر تلك الهجمة على فرانسوا وحده، بل امتدت للإعلاميين الأصغر سنًا منه، المقلِدين بعض المضطهدين منهم تقليدًا أعمى. إن مصطلح "عودة المفكرين"(١٤) الذي أطلقته مجلة جلوب عام ١٩٩٠ – والذي يُعد تكرارًا هزليًا لما حدث في وقت سابق بين زولا، وسارتر– كان سببًا من أسباب نجاحها. إن عودة الفلاسفة القدماء، الذين أصبحوا "شهودًا على الحرب" – وفقًا لمصطلح فيليكس جاتاري – تحولوا من أصحاب رأي إلى نقاد لاذعين ادعوا حق احتكار الالتزام الأخلاقي، والشرعية الفكرية، في مواجهة حروب اندلعت في كل مكان؛ بدءًا من حرب الخليج الأولى، وحتى الحرب التي مزقت يوغوسلافيا. تلك الحروب التي تعاملوا معها – متدثرين بالمصطلحات الهزلية الرنانة – بأسلوب الابتزاز الأخلاقي، ومصادرة الأقوال، والحاجة الإنسانية الملحة، وأصبح خلالها أندريه جلوكسمان زعيمها الحادي عشر"(١٥). لقد تعاملوا أيضًا مع تلك الحروب الجديدة بأسلوب انتقائي إلى حد ما، لأنهم لم يذكروا آنذاك الإبادة العرقية في رواندا، و"الحرب المدنية" في الجزائر. والأغرب من ذلك، الطريقة التي نفذوا بها الأجندة الوطنية من أجل ازدراء براءة محبي السلام، بعد توجيه الإنذار النهائي للعراق عام ١٩٩١ في عهد صدام حسين؛ وإدانتهم لسياسات الهوية التي كان من أبرز نتائجها حرب البوسنة؛ واستنكارهم آلام العصر التي تتخفى وراء الانتماء

المجتمعي؛ ذلك المصطلح الذي وصفه موريس بلانشو، في إحدى دراساته الأخيرة "بالانتماء المخزي" تمامًا[١٦].

الشكل الثاني هو المشهد الجديد "للثقافة الكاذبة"، التي تتلاعب بالأفكار بصورة غير مباشرة على أنقاض الساحة العامة عن طريق تعميم مفهوم أن الفلسفة غذاء الروح، ورياضة تأملية، وأساس التنمية الذاتية، فتصبح تلك الثقافة، بالتبعية مصدرًا مربحًا لصناعة النشر، التي حققت أكثر من أي وقت مضى مكاسب مجزية؛ وأساس التأرجح بين الربح المادي وانحسار العلوم الإنسانية. في عام ١٩٩٢، افتتح مارك سوتيه أول "مقهى فلسفي" في تجمع مقاهي الفنارات بميدان الباستيل بباريس، مطلقًا بذلك موجة من الرواج المستمر، ومن مجازفات لا يستهان بها، تهدف إلى تعميم المعرفة وتطويق الجامعة على حد سواء. في تلك الفترة، نجحت المؤلفات الأكثر مبيعًا في بداية التسعينيات، في حث عشرات الملايين من القراء في أنحاء العالم على الاعتقاد في الروحانية العلمانية المبهمة، وفي الفلسفة التي تحقق "حياة أفضل"، وكان من أبرز تلك المؤلفات "فن السعادة" للكاتب دلاي لاما الذي تغنى على صفحاته بالتوفيق بين الشعوب بعضها بعضا، وتأقلُم المواطنين الشواذ مع حياتهم الخاصة؛ والرواية الفلسفية "عالم صوفي" للكاتب النرويجي جوستين جاردير التي تُرجمت إلى أربع وخمسين لغة، وبيع منها ٣٠ مليون نسخة (صدرت في فرنسا عام ١٩٩٥). وعلى المستوى المحلي، أعاد لوك فيري نشر الدراسات الخاصة بعلم الحكمة من خلال دار نشر "إجزاجون" التي نشرت أعمال أندريه كونت سبونفيل "الحب، والوحدة" عام ١٩٩٢، و"أفكار حول الحب" عام ١٩٩٨، و"الدراسة الصغرى للفضائل الكبرى" عام ١٩٩٥، الذي تصدر المؤلفات المنشورة في عقد التسعينيات.

بعيدًا عن تلك المؤلفات المنشورة، والتي أذاعتها وسائل الإعلام، وبعيدًا عن نزعتها السياسية، ظهر الشكل الثالث على هيئة ساحة فكرية عامة – على الأقل في فرنسا – في خضم الحركات الاجتماعية ١٩٩٥ – ١٩٩٦، كرد فعل على الهجمة التي

شنها الباحثون الإعلاميون، التي اتخذت على شبكة "أتاك" بصفة خاصة، صورة نقد اجتماعي مقبول وعامي وشعبي، يذم نزعات الأنانية والذاتية الجديدة؛ كي يتمكن من التغلغل في عمق النسيج الاجتماعي؛ وتمهيد الطريق أمام تطوير التعليم العام في نهاية العقد؛ وإبراز الوجه الحديث للعولمة في منعطف الألفية. بفضل الدفعة المتبادلة والقوية لمجلات الرسوم اليدوية، والترابط العالمي، وشبكة 1.0، اتخذ النقد الاجتماعي أشكالاً متعددة، ومتنوعة دارت حول مناقشات جادة لمبادئ علم الإدارة (مع صدور "فكر الرأسمالية الجديد" للكاتبين لوك بولتانسكي، وإيف شيابيلو عام ١٩٩٩)؛ وتراجُع التاريخ من أجل فهم انحسار الأيدي العاملة (مع صدور مؤلف روبرت كاستيل "التحولات على المستوى الاجتماعي" عام ١٩٩٥)، وظهور الوجه البارز بيار بورديو المفكر المعارض - الذي أصبح على مضض، مرشد تيار اليسار النقدي بعد اضطرابات ديسمبر ١٩٩٥ - من خلال دراسات صغيرة ملتزمة، أصدرتها، للمرة الأولى، دور النشر الواعدة المستقلة لجمهور القراء العريض، لمناقشة الأرقام التي حققتها مبيعات كتب الدراسات الرسمية. يمكننا في هذا السياق، ذكر دار نشر "آليا" وإصداراتها عن ميشيل بومان، وبوريس سوفارين؛ ودار نشر "كليما" وإصداراتها عن جون كلود ميشيا الذي بدأ يبث الرعب في عالم النشر؛ وطبعات دار نشر "ريزون"، التي حققت أعلى المبيعات في نهاية عقد التسعينيات عندما نشرت عام ١٩٩٧ مؤلف بورديو "كلاب الحراسة الجدد"، وأعمال سيرجي حليمي عن "التليفزيون"، و"النار المضادة" الذي فصل فيه بين الازدواج الإعلامي الفرنسي. غير أن العوامل المواتية لاستمرار ظاهرة دور النشر الحديثة لم تتحد لتحقق دوامها، والتحايل بصورة دائمة على ظاهرة "التحكم في الأقوال"، من خلال منطق المنفعة، وصناعة الترفيه التي تعمل على تهميش الفكر النقدي؛ تلك الدور التي استنكر ظهورها الناشر الفرنسي / الأمريكي أندريه شيفرين عام ١٩٩٩ في مؤلفه "نشر بلا ناشرين".

استطــراد

ربما يكون الحدث الأهم، أبعد من ضفتي الأطلنطي اللتين تدعمان بغيـر وجـه حق، ومنذ زمن طويل، احتكار الإنتاج الفكري، وتنقيح ونشر الأفكار. لم يستطع حتـى الآن الجامعيون الأمريكيون، والباحثون الفرنسيون، تقبـل فكـرة أن مـستقبل العمـل الفكري – على الأقل في إطار صلته بالصراعات المجتمعية والتغيرات الـسياسية – لا يتمركز في باريس ونيويورك، ولا حتى في لندن أو لوس أنجلوس؛ وأن هنـاك عالمًـا حديثًا ينشأ في البلدان التي يُطلق عليها "الدول الواعدة"، التي تطبق الإصلاح السياسي، وتنتهج الليبرالية التقدمية، وفي التكتلات السكانية الفوضوية. ربما وجب إذن، على كل من يهتم برصد التاريخ الفكري للتسعينيات، أن يركز على الظاهرة الأساسية المتمثلـة في خارطة العالم الفكرية المعقدة؛ وتعدد الطرق الماكرة لنـشر الأفكـار؛ والتحالفـات الفكرية البينية؛ وهجين الأجناس على المستويات المحلية. وأبرز مثـال علـى ذلـك، "حرب العلوم" التي قسمت الجامعات الهندية من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٦، والتي تعارضـت فيها آراء أنصار مذهب العقلانية التقدمية – الحريصين على تأقلم المجتمع الهندي مـع "الفكر العقلاني" الغربي – مع أفكار الأغلبية الوطنيـة، المرتبطـة بنـصير الاتجـاه المحافظ بهاراتيا جاناتا بارتي، والتي كانت تذكر فكـر "مـا بعـد الثقافـة" الغربـي الأمريكي، لتبرير تدهور العلوم والقيم الأخلاقية في المجتمع الهندي(١٧). عنـدما قـام أكبر عباسِ– من جانبه – بتحليل ثقافات ما وراء الحدود مثل ثقافـات هـونج كـونج، واستخدم مصطلحات مثل "اختفاء الهويات المتجانسة"، و"الأسس البسيطة للهوية"، كـان يهدف إلى تشبيه تراجع العلوم الاجتماعيـة، ونظريـة الـشمولية، وعلـم الاجتمـاع المحلي(١٨)، بظاهرة ال "دي جي" الآسيوية الجديدة، التي تدمج بين المعـايير الغربيـة لإنتاج أنماط غير مسبوقة. وعندما أعد المفكر الصيني وانج هيـوي – علـى غـرار نظرائه المحليين السابقين، المحظورين منذ أحداث قمع تيانمـان عـام ١٩٨٩ – نقـدًا شاملاً عن الليبرالية الحديثة، وبديلها الصيني المتمثل في تسلط الدولة، ربط هذا النقـد النماذج الغربية لهيمنة الأجهزة والكفاح التحـرري، بـالواقع الاجتمـاعي والمفـاهيم الصينية. إن إعداد النظريات النقدية المتجددة في نـصف الكـرة الجنـوبي، أو حتـى التعاون العلمي بين الجنوب والجنوب – الذي لم يكن متصورًا منذ عدة أعوام مـضت

– مثل التعاون بين جامعة كوديستريا في دكار، ومعاهد أبحاث العلوم الاجتماعية في البرازيل أو الهند، مهد الطريق لتجديد المفاهيم القديمة المتعلقة بالتعبئة والتحرر الاجتماعي؛ وفتح الطريق كذلك "للرفض الجزئي" للدلائل الكبرى المنظمة لعملية التغيير الاجتماعي، كما تصورها المفكرون "الشاملون" أمثال أرجون أبادوراي الهندي، وجاياتري سبيفاك الأمريكي، وشيخ أنتا ديوب السنغالي الذي ظهر قبلهما بعشر سنوات. بالإضافة إلى ذلك، يمكننا القول إن أمريكا اللاتينية كانت في التسعينيات مصدر التغيير السياسي الحقيقي في مجال الحريات من خلال حركة زاباتا، والحركة الأهلية البوليفية، والتآلف – المؤلم إلى حد ما – بين الماركسية البوليفية وأنصار المعتقدات التحررية، الذي أثر تأثيرًا كبيرًا على الثقافة وعلى الجيل الصاعد من المفكرين المحليين، وترك بصمة غير مسبوقة على الفلسفة السياسية، وتاريخ الثقافة، وعلم الأنتروبولوجيا.

بمعنى آخر، لا يمكننا قصر العلاقة بين الشمال والجنوب في المجال الفكري، على حقبة التراجع؛ وعلى ترابط العمل أو تفاوت اقتسامه بين المنتجين والمستفيدين، وبين مصادر الإلهام (الفرنسية، والألمانية، وبدائلها الإنجليزية، والإيطالية) والتابعين؛ أو على التقارب بين الشمال الأمريكي والبلدان جميعها من أجل التنقيح المؤسسي، والتعبئة الموجهة، ونشر الأعمال باللغة الإنجليزية في القارات الثلاث "الفقيرة". إنها رؤية قديمة ومبسطة، ومركزية / أوروبية؛ لأن البعد الزمني اختفى في واقع الأمر، كما أن ظروف ابتكار المفاهيم والتجارب التاريخية المعاصرة، والأمور النظرية التي أصبحت تماثل التطبيقات العملية، أسهمت جميعها في تحويل العالم إلى ساحة فكرية مفتوحة يحكمها القراء والمستخدمون، والنقاد الحذرون، الذين أصبحوا يمثلون "العالم الأول" بشقيه القديم والجديد على حد سواء. لقد استلزم الأمر بعد ذلك مهلة زمنية بدأت مع الألفية الثانية، التي كانت بالفعل بمثابة فترة تراجع حقيقية؛ لأن المنعطف الحضاري، وعودة الاستقطاب بين الشرق والغرب الذي شهد صراع القيم بين الإسلام والغرب المتمسك بالأيديولوجيات المحافظة الحديثة، عاد بنا إلى مرحلة الركود العقائدي – الذي اعتقدنا أننا انتهينا منها – وإلى خلافات الأمس، والتقسيمات الاستعمارية، التي سوف تتسبب جميعها في شقاء تحرر الفكر العالمي الجديد؛ ذلك الفكر الذي سوف يضطر إلى انتظار دوره في ذلك الشقاء.

المجتمع أصبح لا يعترف بكُتّاب

علم الأخلاق والاحتفاء العلني بهم

إعادة ترتيب الزمن المعاصر

جاك دريدا "إعادة ترتيب الزمن المعاصر"

"يتردد الحديث عن ماركس، وشخصه، ووصيته، وإرثه، وشبحه، وطيفه؛ وترتفع الأصوات عاليًا اليوم لرفض ذلك العائد؛ لأن الحديث عنه يُعد نوعًا من أنواع الرفض (...) يجب أن نطرد ذلك الشبح – بطريقة سحرية – ونرفض عودة نفوذه المؤذي في حد ذاته، الذي يلاحق القرن بتهديداته الشيطانية.

إن هذا الرفض الذي يُلح علينا اليوم – في صورة توافق خافت – يحدثنا أن المتوفى سوف يظل مُتَوَفًّي؛ تلك هي الطريقة التي يجب أن تثير شكوكنا، لأنها تجعلنا نستيقظ في المكان الذي تريدنا أن نرقد فيه. فلنأخذ حذرنا إذن، إذ ربما يكون الجثمان لا يزال ينبض بالحياة، أو لم يمُت كما يريد الرفض أن يوهمنا بذلك. إن الغائب لا يزال موجودًا بيننا، وعودته تدل على شيء ما، وعلى سعيه إلى عمل شيء ما. حتى إذا افترضنا أن في إمكاننا التعرف على رفاته، إلا أننا ندرك اليوم أكثر من أي وقت مضى، أن المتوفى لديه القدرة على التحرك وحث الآخرين على التحرك، ربما بصورة لم تحدث قطّ في حياته. علينا أن نعي جيدًا أن هناك نمطًا مختلفًا لإظهار الشبح، أو بمعنى آخر طريقة مختلفة للتعامل معه؛ وهي الطريقة التي تعاملنا بها مع حالة الحزن، بعد تلقي صدمة موت ماركس؛ فرفض عودته كان يستلزم التأكد من عدم عودة الروح إليه، والإسراع بإتمام إجراءات دفنه في مكان آمن، حيث يتحلل جثمانه؛ بل تحنيطه وفقًا لرغبة البعض في موسكو، والإسراع بوضعه في قبو نحتفظ بمفاتيحه! أي بالمزلاج الذي يمثل القدرة على رفض عودته بعد وفاته. إننا نتحدث الآن بصوت عال عن "فتح المزلاج"؛ غير أن منطق "الغلق" انبثق من طريقة تعاملنا مع الصدمة، وطبيعة الحداد، الذي كان حدادًا– سواء في الواقع أو التخيل - بلا نهاية أو حدود أو قاعدة؛ حدادًا يتأرجح بين الاندماج لا شعوريًا في المتوفى أو الانحياز إليه. إن هذا المنطق يستجيب، وبغض النظر عن القانون – كما سبق وأشرنا – لإيعاز العدل الذي يحث على احترام كل ما هو زائل، ولا ينبض بالحياة؛ أو بمعنى آخر احترام الغائب / الحاضر (...)

تختلف الأزمنة التي تظهر فيها الأشباح؛ فنحن لا نعرف إذا كان الشبح – إذا سلمنا بوجوده – يجسد أحد المتوفين، أو ينبئ بظهور أحد الأحياء؛ لأن الطيف العائد يستطيع أن يرمز بالفعل لأحد الأحياء المأمول ظهوره. إنه ظهور غير مقيد بالزمن ويعطل الزمن المعاصر. يمكننا تفسير ذلك الوضع بالشيوعية التي كانت وستظل اتجاهًا طيفيًا، يستمر في العودة ويتميز – مثل الديمقراطية – بأنه الحاضر/ الحي الذي يحقق كمال وشمولية حاضر متجانس مع ذاته. تستطيع المجتمعات الرأسمالية أن تتنفس الصعداء وتردد أن الشيوعية انتهت بعد انهيار النظم الشمولية في القرن العشرين، بل لم تنته لأنها لم تكن موجودة في الأصل، لقد كانت مجرد شبح؛ غير أن تلك المجتمعات لا تستطيع أن تنكر الأمر الذي لا يقبل الجدل، وهو أن الشبح لا يموت مطلقًا ويواصل الظهور والعودة."

جاك دريدا "أشباح ماركس"، باريس،

جاليليه، ١٩٩٣، ص ١٥٩ – ١٦٣.

جيل دي لوز، "من المجتمعات النظامية إلى المجتمعات الانضباطية"

وصف فوكولت المجتمعات النظامية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكذلك في القرن العشرين عندما بلغت أوج تنظيمها بالمجتمعات المغلقة، التي يواصل الفرد فيها الانتقال من مرحلة إلى أخرى وفقًا لقوانين كل منها. فالفرد ينتقل من العائلة إلى المدرسة (المرحلة التي يبتعد فيها عن العائلة) ثم إلى المرحلة الأكثر التزامًا (التي يبتعد فيها عن المدرسة) ثم إلى مكان العمل، وقد يضطر في بعض الأحيان إلى دخول المستشفى أو السجن، الذي يُعد بوجه حق مكان الاحتجاز الحقيقي؛ فالسجن هو أكثر الأماكن التي ينطبق عليها وصف المجتمع المغلق تمامًا(..) لقد كان في استطاعة بطلة رواية فوكولت "أوروبا ٥١" أن تصيح عند رؤيتها بعض العمال قائلة "لقد اعتقدت أنني أرى أشخاصًا محكومًا عليهم بالسجن" (...) لقد حلل فوكولت، بطريقة جيدة للغاية، التصميم الأمثل للأوساط المغلقة، عندما اختار المصنع، لأنه النموذج الأكثر وضوحًا للمكان الذي ينطبق عليه وصف المجتمع المغلق من

حيث تقسيم المساحات، ودقة التوقيت، والقوة الإنتاجية الملتزمة بزمان العمل ومكانه، والمُطالبة بتحقيق إنتاج يفوق إمكانات المواد الأولية. غير أن فوكولت كان يدرك جيدًا أن نموذج المجتمعات المغلقة قصير الأمد؛ لأنه جاء بعد حقبة المجتمعات السيادية التي كانت تسعى لزيادة الإنتاج بدلاً من تنظيمه، والاهتمام بالأمور التي تحد من الوفيات أكثر من تدبير شئون الأحياء. لقد حدثت هذه العملية الانتقالية بصورة تدريجية، ونجح نابليون – على ما يبدو – في تنفيذ عملية التحول الكبرى من المجتمعات المغلقة إلى المجتمعات النظامية، التي تعرضت بدورها لأزمة بعد ظهور قوى أخرى جديدة حلت محلها بصورة بطيئة، ثم بصورة مسرعة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. على أية حال، لم تكن المجتمعات النظامية تُعبر عن واقع حالنا، ولا عما نرفضه (...)

نشأت بعد ذلك المجتمعات الانضباطية ، وحلت محل المجتمعات النظامية. وقد كان ويليام بوروز أول من اقترح لفظ "انضباط" للتعبير عن ذلك "الوحش" الذي عرفه فوكولت "بالمستقبل القريب" (...)

إن مختلف أنظمة الإقامة الداخلية، أو الأوساط المغلقة، تُعد أحد البدائل المستقلة التي ينتقل إليها الفرد، ليبدأ من الصفر في كل مرحلة من مراحلها، ويتأقلم مع لغتها الدارجة والقياسية. على العكس من ذلك، فإن الأوساط الانضباطية تتصل ببعضها البعض، وتشكل نظامًا هندسيًا مختلفًا، يستخدم لغة الأرقام (الأمر الذي لا يعني بالضرورة أن يكون عالمًا ثنائيًا). والأوساط المغلقة، نماذج ثابتة وقائمة بذاتها؛ في حين تتغير المجتمعات الانضباطية بصورة تلقائية ومستمرة، ومن لحظة إلى أخرى، تمامًا مثل الغربال الذي تتغير المسافات بين أوتاره من نقطة إلى أخرى (...)

في المجتمعات النظامية، يبدأ الفرد دائمًا من جديد (عندما ينتقل من المدرسة إلى المكان الأكثر التزامًا، وإلى مكان العمل)، في حين أن المجتمعات الانضباطية دائمة التغيير، والتجديد، والتدريب، والتأهيل، والخدمة؛ لأن تلك العناصر تتوافق مع المتغيرات العالمية (...) كما أنها لا تعتمد على المعاملات الورقية، أو على الكثرة العددية؛ إنما على الأرقام

التي تُعد بمثابة كلمة السر لانطلاقها. إن اللغة الرقمية هي أساس الأنظمة الانضباطية، وهي التي تحدد لها قبول المعلومة أو رفضها. كما أنها لا تعتمد على العمالة الكثيفة أو الفردية، بل على العينات، والمعطيات، والأسواق، والبنوك (...) إن إنسان المجتمعات النظامية ينتج وفقًا لطاقته الجسمانية المتغيرة، أما إنسان المجتمع الانضباطي فهو يعمل وفق المسار المحدد له، ويطبق مجموعة القواعد الموضوعة. إنه النموذج الذي حل فيه التزلج على الأمواج محل الرياضات القديمة".

جيل دي لوز، "مخطوطة مراقبة المجتمعات"، المنشور في لوتر جورنال، العدد الأول، مايو ١٩٩٠، وفي بوربارليه، باريس، مينوي، ١٩٩٠.

المراجع

1)Le best seller de Samuel Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of world order, New York, Simon Schuster,1996 (tr. Fr. Le choc des civilisations,Paris, Odile Jacob,1997).

2)Pierre Machery, "Marx dématérialisé ou l'esprit de Derrida, Europe no 78, avril 1994; Fredric Jameson et Toni Negri, le volume de Michael Sprinker, Ghostly Demarcations. A symposium on Jacques Derrida, Londres, Verso, 1999.

3)Entretien avec Marguerite Duras, Le Nouvel Observateur,24 au 30 mai 1990.

4)John Rajchman (dir) , The identy in Question, Londres et New York, Routledge,1995.

5)Todd Gittlin, The Twilight of common dreams. Why America is Wracked by culture wars, New York,Henry Holt, 1996.

6)Le titre français du livre (Odile Jacob, 1997).

7)Roger Kimball, Tenured Radicals. How Politics corrupted our Higher Education, New York Harper Collins,1990 et Dinesh D'Souza, Illiberal Education. The politics of race and sex on campus, New York, Free Press, 1991.

8)Camille Paglia, "ninnies, pedants, tyrants and other academics", New york Times Book Review, 5 mai 1991.

9)Martin Bernal, Black Athena, The Afroasiatic Roots of Classical civilization, 2 vol, New Brunswick, Rutgers university press, 1987, et 1991.

10)Gayatri Chakravorty Spivak, critique of postcolonial Reason, Toward a History of the vanishing present, Cambridge, Harvard university press,1999.

11)Stanley Fish, Is There a Text in This Class? The Authority of Interpretative communities, Cambridge, Harvard university press,1982 (repris en français dans le volume Quand lire c'est faire, Paris, Les prairies Ordinaires, 2007.

12)Kristin Ross, Rouler plus vite, Laver plus blanc, Paris , Flammarion, 2006 et mai 68 et ses vies ultérieures, Bruxelles, Complexe,2005.

13)Greil Marcus, Lipstick Traces. A Secret History of the Twentieth Century, Harvard university press, Cambridge, 1990 (tr. Fr. Lipstick Traces. Une Histoire secrète du xxème siècle, Paris, Allia,1998.

14)Le retour des intellos, Globe, no 46, avril 1990.

15)André Glucksmann, Le onzième commandement, Paris, Flammarion, 1991.

16)Maurice Blanchot, La communnauté inavouable, Paris, Minuit, 1996 (1984).

17)Meera Nanda, "The science wars in India", Dissent, hiver, 1997.

18)Ackbar Abbas, Hong Kong culture and the politics of disappearance, Minneapolis, University of Minnesota press, 1997.

اقتصاد / مال

عشرة أعوام من العولمة "السعيدة"

فريدريك لوردون frédéric Lordon

يؤكد سجل الاجتهادات – الذي يشمل في أكثر الأحيان المفكرين التقليديين – أن تحديد الحقبة التاريخية يتطلب الارتقاء بها إلى مستوى الأحداث المهمة (في حالة حدوثها) والاضطرابات؛ وهي طريقة تصور خدَّاعة تؤدي إلى قصر عملية تدوين التاريخ على الأحداث المهمة التي تحققت بالفعل؛ ومن أمثلتها ابتكار محرك البحث ألتا فيستا، وتطبيق مفهوم "أرجو"، أي قياس العمل وفقًا لتساوي الربحية بين الأطراف المشاركة. وهكذا، شهد تدوين تاريخ القرن العشرين معارك نفوذية بين مختلف القوى المؤثرة التي تسمو بالتاريخ إلى مستوى الأحداث الكبرى. فالبعض يقول إن القرن العشرين انتهى بسقوط حائط برلين عام ١٩٨٩؛ والبعض يحدده بأحداث سراييفو عام ١٩٩٢؛ والبعض الآخر يؤكد أن القرن الحادي والعشرين لم يبدأ إلا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ حتى أن البعض منهم زعم – مدفوعًا بالإفراط في التمحيص والتدقيق – انتهاء عصر التقويم والحساب الزمني ووصفه بالأمر المبتذل. وقياسًا على هذا الرأي، أصبح عقد التسعينيات يمثل فجوة تاريخية ! ذلك لأن تلك السنوات لم تشهد – وفقًا لتلك الآراء– أحداثًا تُذكر(١).

نماذج من بعض التعبيرات المبالغ فيها

تلك هي الحقيقة ! أو نصف الحقيقة ... إذا افترضنا أن تعريف النجاح يتلخص في الإيمان بالتطورات الاقتصادية الشاملة التي تحققت في عقد التسعينيات، يمكننا القول دون شك، إن السنوات التي شهدت "بداية العولمة" هي التي تمثل تلك التطورات؛

لكنه مفهوم غريب، لأنه استُخدِم عن عمد على الرغم من تعارُض فحواه؛ ولأنه يصف العولمة بالحالة الطارئة على العالم، بل ينكر حدوثها، ولا يضمن استمرارها، ويوحي بالتالي بإمكانية تغييرها. وفيما يتعلق بالرأي القائل بنجاح العولمة، فتلك قضية أخرى؛ لأنه نجاح بالنسبة للفئة المجتمعية التي ينتمي إليها آلان مينك، التي اعتادت على وصف العالم وفقًا للمكانة التي تحتلها فيه. إن تلك الشريحة المجتمعية، التي أصبحت وفقًا لتطورات الألفية الثانية، تشكل جزءًا كبيرًا من الكتلة السكانية، استشعرت بالفعل بوادر هذا النجاح.

غير أنه يمكننا القول إننا ألغينا لفظ "النجاح" من مصطلح "العولمة الناجحة"، واكتفينا حتى الآن باستخدام لفظ "العولمة". وقد نخطئ إذا سلمنا بواقع الاستخدامات اللغوية الشائعة للعولمة، لأنها تستخدم تعبيراتها البلاغية الخاصة بها، التي صاغتها بإحكام، لتحملنا على الاعتقاد بأن تجاوز الحدود بين الأمم حدث بالفعل ولا رجعة فيه، وأن الزمن يمضي ولا يمكن العودة إلى الماضي أوالحنين إليه. لقد استخدمت العولمة في بداية نشأتها، تعبيرات مثل "العلاقات المتبادلة" و "عصر العولمة"؛ وهي الآراء التي طالما آمن بها معارضو الليبرالية، وتُبرز فعالية الأحداث وتأثيرها القوي، لأنها نجحت في الجمع بين الخيال الواسع وتباينه الشديد؛ أي بين التوجيه الخَدَّاع والنقد المخالف الذي وصل إلى حد المطالبة "بعولمة مختلفة" بعد تسليمه بوجودها كأمر واقع. والمقصود بفعالية الأحداث في هذا السياق، التسليم بأن العلاقات المتبادلة أصبحت أمرًا واقعًا، ولا مفر منه أو الاندماج فيه والتعامل معه، ويتطلب بذل أقصى جهد للحصول على مكانة داخل هذا الواقع، الذي لا يمكن تجاوزه، وتتفاعل فيه السياسة مع الاقتصاد، ويندمجان في إطار واحد. والأمر يبدو كما لو أن تلك العلاقات كانت موجودة من قديم الزمان، وتُعد أحد شروط التعامل الطبيعية في العالم، ولا نملك إلا الانصياع لها؛ وأن كل محاولة للتصدي لها سوف يصفها العالم بالتفكير المَرَضي والضعيف. غير أن الأمر لا يعني الإسراع بمجريات الأمور بحجة اللحاق بركب العولمة. والأمر الأغرب والمذهل، هو أن عقد مقارنة تاريخية، على سبيل المثال، مع الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٧٥، تؤكد أن الوضع لم يكن على هذا "الحال"، وأن

"العلاقات الشاملة المتبادلة" أثبتت ضررها على المستويات الاقتصادية والسياسية والبيئية، بصورة واضحة للغاية؛ وأنه يجب أن نُعيد النظر والتفكير مرة أخرى في عدم المبالغة في مفهوم "العلاقات المتبادلة"، وتكريس الهدف السياسي ليحقق الغرض المنشود منه؛ أي تقليل التداول الحر لرءوس الأموال، والحد من حركة حاملات الحاويات التي تسير في أعالي البحار في كل الاتجاهات على مستوى العالم.

بالإضافة إلى ما سبق، فإن العولمة – على الرغم من كثرة معاييرها الخاصة، وفشلها في تحقيق الإنجازات المنشودة من إنشائها – أطلقت تعبيرات عن "العالم المتناغم تمامًا" تتعدى بكثير الإنجازات التي حققتها في هذا المجال. ولنضرب مثالاً على ذلك بالشركات التجارية الكبرى التي ظلت إجراءات تسجيلها تتبع دولة المنشأ، ولا يغترب مديروها إلا في الحالات النادرة؛ كما أن التشكيل الدولي لمجالس إدارتها محدود إلى حد ما، ويستأثر موظفوها المحليون بالنصيب الأكبر من فرص التوظيف، وتحتفظ تلك الشركات بحقوقها الوطنية وطابعها الخاص، والتنسيق المؤسسي بين الاقتصاديات؛ على الرغم من الهجوم المتكرر عليها، وضغوط الدمج المفروضة عليها من جانب الفروع الوطنية التي استمرت في المطالبة بالتعبير عن طابعها الوطني(٢). وكما جرت العادة، لم تنجح إلا بعض الحالات الاستثنائية في فرض مطالبها، وإثبات وجودها. فعندما تعرض العالم عام ٢٠٠٨ للأزمة المالية، تأثرت البنوك الكبرى بصورة مفاجئة وحادة بانكماش وتدهور رءوس الأموال، واضطرت إلى العودة لأحضان دولة المنشأ التي لم تتمكن من احتوائها بسبب عجز أرباحها الناجمة عن الأزمة المعروفة "بفقاعة الإنترنت". غير أن تلك البنوك – التي كانت تبحث عن طوق النجاة لإعادة تمويلها– لم تكن تملك سوى هذا الملاذ، لأن في ظل نظام العولمة المفلس لن يستجيب أحد لصرخات الآخرين. الأمر الذي أدى إلى تصاعد الأصوات التي طالبت "بعودة التأميم" لمواجهة خصخصة التمويل، وطغت تلك الأصوات على أحاديث التودد التي رددها ملوك العولمة عن أوصالهم المقطوعة، وانتمائهم للعولمة.

والعولمة لم تحقق كامل الإنجازات التي كانت تزعمها، لكنها لم تفشل كليــة؛ إذ تمكنت في التسعينيات بالتحديد، من إرساء قواعــدها – التــي سـبق وأعــدتها فــي الثمانينيات – وسعت إلى تدعيمها وتعزيزها، وإقامة علاقات متبادلة جديدة تحقق لهــا مزيدًا من التماسك. لقد ظهر التأثير الواضح لتلك المحاولات فــي تلاحــم العلاقــات أحيانًا، وفي الاستجابة لتلك المحاولات أحيانًا أخرى. كما أسفر التحرك عن تغير كمي أدخل الرأسمالية في نظام جديد. والأمر واضح للغاية، فأسواق رأس المال اضــطربت في منتصف الثمانينيات، وأعطى القانون الأوروبي الموحد قوة دفــع للتجــارة الحــرة الأوروبية، امتد تأثيرها إلى اتفاقات الجات (التي أصبحت منظمــة التجــارة العالميــة عام ١٩٩٥). كما طبق صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، منهج التعــديلات الهيكليــة على دول الجنوب في الثمانينيات؛ وأُدرجت الآراء الصائبة للاتحاد النقدي الأوروبــي فــي تقرير ديلور لعام ١٩٨٩. كما شهدت التسعينيات تعزيز تطلعات تلك الحقبة فــي "إقامــة نظام جديد " شامل ومتكامل، وقادر على فرض وجوده والاعتراف بتلك التسمية.

غير أن مجمل هذا المشهد لم يخل من السلبيات الواضحة التي كان من أبرزها، ضخ التمويل المالي بصورة ضخمة، الذي بلغ ذروته في التسعينيات وأخــضع العــالم لسيطرته؛ وبداية المحنة الأوروبية – التي وضعت أوروبا بين شــقي رحــى الــسوق الأوروبية المشتركة (١٩٩٣)، والتحول نحو توحيد العملة بــاليورو – التــي جــسدت مساوئ العولمة من خلال المشهد الأوروبي.

عولمة النشاط المالي أو الأزمات المستمرة

استطاع رجل الاقتصاد العادي – الذي لا يجهل تمامًــا دروس الماضــي فــي صورتها المجازية، المتمثلة في مناهج العلوم الاقتصادية الجامعيــة لكــل مــن جــون ماكينار كينيز، وشارلز كندليبرجر، ومارفن مينــسكي – التنبــؤ بكــوارث الاقتــصاد المستقبلية، وبالاضطرابات المالية العالمية في أيامها الأولى... وذلك لأن تلك الكوارث تُعد تكرارًا على نطاق واسع لما حدث في العشرينيات... إن التنبؤ بصفة عامــة أمــر

مستساغ، لكن التنبؤ بمكان وتوقيت وطبيعة الأزمات، هو أمـــر مـــستحيل دون شـــك، نظرًا للابتكارات المالية السريعة التي تخترع بصورة دائمة أساليب جديدة تؤدي إلـــى هزات عنيفة وغير مسبوقة في النشاط المالي، تنشأ من تخبط الأسواق المالية العـــاجزة عن تجنب نشوب تلك الأزمات... ومن اعتماد المضاربات في نشاطها المتذبذب علـــى الضمانات الكبيرة التي يمنحها سوق المال للحالات الطارئة. وأكبر دليل علـــى ذلـــك، سلسلة الانهيارات المفاجئة والمتكررة في الأسواق المالية التي أضفت على التسعينيات طابعها المتغير، والتي كان من أبرزها: الأزمة العقارية في الولايات المتحدة وأوروبـــا عامي ١٩٩٠ - ١٩٩١ ؛ والأزمة الأوروبية النقدية الأولى عام ١٩٩٢ (التي أدت إلى إلغاء التعامل بالليرة والجنيه من معاملات الشركات الصغيرة والمتوســطة)، والأزمـــة الأوروبية النقدية الثانية عام ١٩٩٣ (التي لم يتمكن الفرنـــك مـــن الـــصمود أمامهـــا)، والانهيار الإجباري لسوق المال الأمريكي عام ١٩٩٤، وأزمة البيزوس المكسيكية عام ١٩٩٤، والأزمة المالية العالمية الأولى عام ١٩٩٧ (التي شملت المكـــسيك، وكوريـــا، وهونج كونج، وتايلاند)، والأزمة المالية العالمية الثانيـــة عـــام ١٩٩٨ (التـــي شـــملت البرازيل وروسيا). كما انتهى عقد التسعينيات بوهم إنشاء بورصة نـــازداك، وفقاعـــة الإنترنت... ذلك الوهم الذي ضاع في عامي ٢٠٠٠، و٢٠٠١، كمـــا لـــو أن ســـفينة التسعينيات لم تستطع استيعاب مثل تلك الحمولة.

غير أن نشاط المضاربات المالية يتسم بما يمكن تسميته الاستقلال اللا متماثل، لأنـــه قد يحقق نشاطًا كبيرًا، ثم يتوقف لأنه لا يتلاءم مع معطيات الاقتصاد الفعلي... ونادرًا مـــا كان يصمد هذا النشاط بعد تعرضه لسلسلة من الانهيارات. خلاصة القول، إذا كـــان فـــي مقدور النشاط المالي التسبب بصورة مفاجئة، في ظهور فقاعات، فهو لم يكن في مقـــدوره تجنُب الانهيار وحده، وامتد تأثيره إلى غيره من الأنشطة، وإلى الاقتـــصاد الفعلـــي الـــذي تجاهل هذا النشاط عندما كان يحقق طفرات ملحوظة. كما أن هـــذه الأزمـــات المتكـــررة تصيب العناصر الاقتصادية التقليدية بصدمات تجعلها غير قـــادرة علـــى تحمـــل حِـــدتها. ولنضرب مثالاً على ذلك بأزمة الرهن العقاري عام ٢٠٠٧، التي يمكن مقارنتهـــا بالأزمـــة العقارية التي نشأت في مستهل التسعينيات - على الرغم من أنها كانت أقل حدة من أزمـــة

٢٠٠٧ – التي أنهكت "مؤسسة مدخرات الودائع ومنح القروض العقارية الأمريكية"، عندما اضطرت لمنح قروض تصل إلى ١٥٠ مليار دولار لمواجهة الأزمة؛ مما أسفر بالتبعية عن تباطؤ النمو في الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٢، وعن انكماشه في عام ١٩٩٣.

لقد تكررت الأسباب والآثار نفسها في أوروبا؛ ولأن فرنسا كانت جزءًا من العولمة، فقد تعرضت لأزمات مماثلة للأزمات التي واجهتها دول عديدة متقدمة – بفارق عدة سنوات – كان من أبرزها أزمة بنك كريديه ليونيه التي ضربت السوق ووضعت الدولة في أزمة حقيقية بسبب تحول البنك إلى الفكر الليبرالي الحديث. والسبب الحقيقي وراء هذا التحول، يكمن في الاعتقاد السائد آنذاك، بأنه بنك عام، وبالتالي فإن تبعيته للدولة هي التي تتسبب في إخفاقاته، وفي القصور الذي شاب أداءه؛ لأنه يعتمد على الدعم المسبق للدولة. وإذا كانت أزمة مؤسسة "مدخرات الودائع ومنح القروض العقارية الأمريكية" – التي اندلعت قبل أزمة ليونيه بعامين– قد اضطرت إلى ضخ ١٥٠ مليار دولار في السوق على الرغم من أنها مؤسسة خاصة؛ إلا أن ذلك لم يحث المحللين الفرنسيين على تخفيف حدة التعليقات بشأن بنك كريديه ليونيه، وعلى التغاضي عن الارتباط الجوهري بين المخاطر المهنية والنشاط المالي والبنكي الخاص؛ وهو الارتباط الذي أثبته الصندوق الوقائي غير الحكومي عندما أنقذ مؤسسة رأس المال طويل الأجل، والقطاع البنكي الأمريكي بأكمله عامي ٢٠٠٨، و٢٠٠٩. وإذا كان القطاع الخاص قد تمكن من وضع النشاط المالي العالمي على حافة الهاوية (في عامي ١٩٩٧ – ١٩٩٨، وفي عام ٢٠٠١، وعام ٢٠٠٨)، إلا أن هذا لا يمنع من ذكر الجانب الآخر لتلك الخصخصة المتمثل في الخسائر الهائلة التي لحقت بمؤسسات "الأفيال البيضاء" (التسمية التي أطلقت على المؤسسات التي أثبتت فشلها في مجال تكلفة البناء، والتشغيل، والصيانة)، وتقلُص دورها؛ والخسائر التي لحقت بالقطاع البنكي الدولي في أزمة ٢٠٠٧ – ٢٠٠٩، التي قدرها صندوق النقد الدولي ب ٣٠٠٠٠ مليار دولار ؛ وكذلك أزمة كريديه ليونيه التي قلل البعض من شأنها، مدعين أنها لم تبلغ سقف الأزمات ...

بعد تلاشي آثار أزمة كريديه ليونيه، نشأت أزمة الائتمان العامة (تشديد الشروط للحصول على القروض)؛ لأن بنك كريديه لم يكن الوحيد الذي عانى خسائر الأزمة العقارية، ومن انخفاض النمو عام ١٩٩١ من ٤% إلى ١%، والذي ظل عند هذا المستوى حتى عام ١٩٩٣. كما ارتفعت نسبة البطالة في السنة التالية في فرنسا إلى ١٢,٣% بسبب تضافر الأسباب التي أدت إلى تقلبات أسواق رأس المال ومن بينها الأزمة العقارية عام ١٩٩١، وأزمة المشروعات الصغيرة والمتوسطة عام ١٩٩٢، وآثارها الأكثر عنفًا على المجتمع عام ١٩٩٣.

"أغنية الوداع" لنظام المساهمة المختلطة

"سعى نظام المساهمة المختلطة لرعوس الأموال إلى توجيه ضربته الأكثر طموحًا عام ١٩٩٥، بإعداد المشروع المالي الكبير الذي كان يهدف لدمج اتحاد شركات تأمين باريس UAP، مع بنك باريس الوطني BNP وشركة "السويس" المالية la compagnie financière de suez؛ لكن خاب مسعاه، وكانت تلك المحاولة بمثابة الإنعاش الذي يسبق المنية مباشرة. في تلك الحقبة، تميز هيكل النظام الرأسمالي الفرنسي بتشكيله المعروف "بالقلوب المالية" Coeur financier، وهي شبكات شراكة مختلطة تضم مجموعة كبيرة من الشركات الصناعية والمالية الكبرى، تتجمع حول مركز واحد كان أبرزه – في أغلب الأحيان – بنكًا كبيرًا أو شركة تأمين؛ أي حول كيان تُشكِل أسهم مساهماته المالية الجزء الأكبر من أصوله. وظل النظام الرأسمالي الفرنسي لفترة طويلة معتمدًا على "قلبين" متنافسين، يسيطر عليهما بالتبادل شركة "السويس"، وبنك باريباس paribas. وقد كان نظام "القلوب المالية"، النظام الأمثل للمساهمة المختلطة على مستوى الشركات التي كانت تهدف إلى تأمين رأسمالها من خلال تكوين تلك الشراكة. وقد كان هذا النمط يُعبر بصورة مثالية عما يمكن وصفه "بسياسة رأس المال". لم يكن المقصود بهذا التعبير تدخل رأس المال في السياسة؛ وهو الأمر المخالف تمامًا للواقع! لأنه إذا كانت تلك الشركات الكبرى تعلن صراحة أن الغرض من إنشائها اقتصادي بحت، إلا

أن مديريها كان ينتهي بهم المطاف إلى إقامة علاقات يجب وصفها "بالسياسية"، لأنها كانت تسفر عن عمليات جوهرية لتحالفات، وإسقاط تحالفات، وغدر، وتوسيع نطاق النفوذ، والإطاحة بالغير إلخ... تُحاك بصورة سرية داخل مجلس الإدارة أو في الجمعية العمومية للمساهمين؛ أي داخل الوجه الآخر للرأسمالية.

لقد كان المشروع المالي الكبير أحد نتائج تلك السياسة؛ ذلك المشروع الذي دبَّره بعض "الأصدقاء" في سرية تامة داخل المكاتب المغلقة. لقد كان هذا المشروع بمثابة الحلم الذي يُخَوِل لميشيل بيرو (بنك باريس الوطني)، وجاك فريدمان (اتحاد شركات تأمين باريس) سلطة مراقبة النشاط المالي الذي يطبق منهج إدوارد بالادور؛ غير أن الشريك الثالث المتآمر معهما جيرارد وورمس، لم يكن متحمسًا لتلك الشراكة، لأن الشخصين الآخرين حاولا منحه منصبًا شرفيًا فيها. إن تحالف "الأجيال" بين "المسن" فريدمان – المتحكم في زمام الأمور – و"الشاب" بيرو – الذي وعده فريدمان بأن يكون خلفًا له في أسرع وقت ممكن – كان قصرًا على الرمال؛ حيث لجأ جيرارد وورمس "المخدوع" إلى مناورات سرية مماثلة لمناورات "أصدقائه"، ونجح في شق صف الجمعية العمومية السنوية لشركة "السويس"، التي كان من المفترض خلالها الإطاحة به، واستبعاده من تحالف فريدمان / بيرو، وسانده في ذلك جون لويس بيفا رئيس شركة سانت جوبان، وأحد شركاء بنك باريس الوطني. وفشلت المؤامرة الماهرة، وتوارى المشروع المالي الكبير في مقبرة أوهام العظماء. بعد مرور عام، خذلت المجموعة الدولية للتأمين، اتحاد شركات تأمين باريس عندما قرر رئيسها كلود بيبار، المؤيد لنموذج المساهمة المالية الأنجلو ساكسونية، أن عصر المساهمات المختلطة قد انتهى، وأعطى الإشارة لفسخ تلك الشراكات."

فريدريك لوردون Fréderic Lordon

بعد أن أثبتت أيديولوجية الأسواق المالية المانحة أنها عالمية وشاملة، اعتقدت بلدان العالم أجمع أن لها الحق في الحصول على نصيب منها. وبدأت دول الجنوب

(الفقيرة) فتح حسابات تمويل لرعوس أموالها"، بعد الضغط الودي الذي مارسه عليها صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي. وهو الأسلوب الذي يمكن وصفه بالضغط "التكتيكي والتلميحي"، لأنه كان يحث تلك الدول على اعتماد اقتصادياتها على رعوس الأموال العالمية، وبصفة خاصة قصيرة الأجل. وبعد توطد ذلك الأسلوب، انتهزت الدول الأوروبية الفرصة لاستغلال فكرة أن سوق المال أصبح مصدر التمويل الرئيس – للخزائن العامة بصفة خاصة – وأن سياسة التطبيع هي الوحيدة القادرة على الحفاظ على سلامة ميزانية الدولة. وهي الفكرة التي روج لها المستثمرون ووصفوها "بالسياسة الاقتصادية الجيدة" القادرة على الصمود؛ وأن أي فكر آخر مخالف سوف يعاقب في المقابل بأسلوب المضاربة. وأصبح مصطلح "تلك هي الشروط الواجبة"، هو أسلوب التمويل الملزم، والقادر على إخضاع الحكومات، ولا تنازل عنه. وبعد استكمال بناء الهياكل التمويلية الحرة، بدأ تراجع الوضع المالي لتلك الدول من المرحلة التي أسماها كينيز "نظام المدينين" إلى "نظام الدائنين"، والذي لجأت خلاله تلك الدول إلى جميع وسائل الضغط المالي المتاحة للوفاء بمتطلبات الجهات المانحة، وتحقيق مصالحها الوطنية؛ الأمر الذي تطلب التحكم الصارم في التضخم (الذي يعمل على تآكل القيمة الاسمية لأصول الدولة)، والحفاظ على ثبات مستوى الدين العام (لتجنب الوقوع في الخطأ).

"فطنة" الأسواق

وكما لو أن كل ذلك لم يكن كافيًا، استمرت عملية إخضاع السياسات العامة للدول الراغبة في الحصول على قروض – وهو الأمر المشين للغاية – من خلال نشر المفاهيم المعرفية المبهمة؛ لأن التمويل المالي لا يطبق سياسات واضحة ومعلنة فيما يتعلق بالتفاصيل والتطبيقات الخاصة بسياسات الدول الاقتصادية؛ ولأنه يرى أن ذلك الأسلوب هو القادر على تحقيق الأهداف العامة للاستقرار (الاسمي فقط)، وعلى التمويل المستدام. كما أن تلك المفاهيم المبهمة يمكن انتشارها على نطاق واسع، وتنجح

في إجراء تحولات مفاجئة وعنيفة. من جهة أخرى، فإن الافتتان بتلك المفاهيم يُسهل دخول رءوس الأموال إلى الدول التي تتعارض فيها الآراء في هذا الشأن، ويساعد كذلك على زيادة نسبة المتكيفين مع الأوضاع. غير أن رءوس الأموال قصيرة الأجل الممنوحة بوفرة كاسحة، لا تهدف للاستثمار المستدام، لكنها تنقض على الفرص لتحقيق الأرباح التي تساعدها على تدفق أموالها إلى تلك الدول. إن هذه "الأموال الساخنة" – مصدر المضاربات الملوثة – تُهدر بالسرعة نفسها التي مُنحت بها، وتحرم بالتبعية الحكومات المضطربة من مصدر تمويلها، وتضعها في مواجهة مأزق ارتفاع نسبة الفائدة على الدين. وهكذا، أصابت عدوى الأموال الممنوحة، الكرة الأرضية من أدناها إلى أقصاها، واجتاحت آثارها الدول الواحدة تلو الأخرى، دون التفريق بين الدول المستفيدة وغيرها. أبرزت تلك المضاربات القوة الجامحة لرءوس الأموال التي استسلمت لها السياسات الاقتصادية، وكان أبرزها الأزمة التي وقعت ضحيتها المكسيك عند انهيار عملة البيزوس عام ١٩٩٤، التي امتد تأثيرها إلى الدول المجاورة ... تايلاند، وكوريا، وهونج كونج.

إن تسمية الأشياء بمسمياتها، قد يُعد إحدى الوسائل التي نزعم أنها تساعدنا على فهم غموضها؛ فقد أطلق سوق المال مصطلح "آثار تيكيلا" effet Tequila على الانتقال غير المبرر لهذا الفزع الذي ارتكز بشكل قطعي على اختلاط المفاهيم، وكشف عن منح قروض بمئات المليارات من الدولارات، استنادًا على الأنماط المعرفية الأولية، بل أكثرها فظاظة، ومن بينها الفكر الجماعي على سبيل المثال؛ لأن القاسم المشترك الوحيد بين الدول التي تأثرت "بآثار تيكيلا"، كان تصنيفها بين الدول "الناشئة"، وكذلك استسلامها لعدم التشدد في الاستخدامات المرنة لهذا التمويل الذي يصلح لكل شيء. يشير كذلك اختلاط المفاهيم المعرفية إلى الآثار الوخيمة المترتبة على الأساليب التي يلجأ إليها، ويكشف عن الأغراض الخفية للعولمة في أسواق المال، التي من المفترض أن تكون أحد عوامل تطويع جميع العناصر الاقتصادية، وأفضل الطرق الرشيدة لتحقيق تطويرها؛ لكنها على العكس من ذلك، اقتصرت في تعاملها على القوى الاجتماعية المؤثرة في مجال المعتقدات والآراء الاقتصادية.

لقد اتضح ذلك الأمر جليًا مع فقاعة الإنترنت – أحد الإنجازات المروعة لعقد التسعينيات – عندما سعت الجهات الممَوِلة تارة، إلى تبرير الأزمة بعد وقوعها، على الرغم من الظهور المسبق لبوادرها؛ وعندما حاولت تبريرها، تارة أخرى، بالاستناد إلى أحد الأقطاب الأساسية للأزمة – مضاربات البورصة الصاعدة أو الهابطة، التفاؤل بتحسن الأوضاع أو التشاؤم من تدهورها، وحركة البيع والشراء – الذي يقع الاختيار عليه لأنه يرتكز على بعض المعلومات المعرفية غير المؤثرة أو المبالغ فيها، التي يروج لها الاعتقاد الشائع بأن "النشاط التمويلي" لا يعتد بجدية الحديث عن جدوى هذا التمويل، ولا يستعرض مضمونه. يُدار الحديث عن جدوى هذا التمويل، بطريقة الغربال الذي يغربل عناصر الواقع، فيستبعد الضار منها، ويحتفظ بالصالح الذي يساعده على ترسيخ الإيمان بجدوى التمويل. لقد نشأت فقاعة الإنترنت من جراء هذا الاختيار الانتقائي – الذي يوجه نفسه ويدعمها تلقائيًا – وظل الحال على ما هو عليه حتى انفجر الواقع الذي جعل التأقلم مع الوضع أمرًا متعذرًا تحقيقه، والدفاع عن النشاط التمويلي أمرًا مستحيلاً. وأسفر الوضع عن ضربة عصفت بالمجتمع المالي، وجعلته ينحرف نحو الاتجاه المعاكس؛ أي دفعته إلى الاختيار بين الجنة والنار، وإلى الهروب بدلاً من الإسراع في خطى التطور، وإلى البيع بالجملة بدلاً من الشراء بالجملة، وإلى عدم الاكتراث بالدمار الذي خلفه وراءه.

الاشتراكيون هم الأكثر تضرراً

من عالم التمويل الساحر

عودة المساهمين

ظل "التمويل" نشاطًا عامًا غير محدد الأبعاد؛ إذ كان يشمل أسواق حاملي السندات - وهي الغطاء الذي كانت تتستر وراءه السياسات الاقتصادية للدول، في إحدى فترات نموها - وأسواق الأسهم، التي كانت تقتصر على المشروعات الهادفة لتنمية أموالها الخاصة. في كلتا الحالتين كانت القوى الاجتماعية تقف على مسافة من الممارسات المالية وبمنأى عنها، ويمثلها في الجانب الأول المواطنون، والمساهمون، والمستفيدون، وفي الجانب الثاني جموع العاملين. ولم يكن مستغربًا أن يسعى "رأس المال التمويلي" إلى الحصول على أفضل المميزات في مجالات نشاطه كافة. وهكذا، أصبح عقد التسعينيات، العقد الذي انتعش خلاله تمامًا نشاط المساهمة.

بدأ هذا النشاط دون شك في فرنسا، في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات، مع تطبيق نظام الاستثمار الجماعي في التمويل العقاري OPCVM - الذي اندفع بكل قوة إلى هذا المجال - وتوظيف أذون الخزانة من أجل تداولها مرة أخرى في المشروعات من خلال البورصة. إلا أن الفترة المهمة، كانت فترة الخلل التنظيمي وغياب اللوائح عام ١٩٨٦ في عهد بيار بيريجوفوي الذي انتهج نهجًا لم يجرؤ التيار اليميني نفسه على خوضه، عندما بدأ عملية التحول الكبرى التدريجية التي انتهت في التسعينيات؛ لأن التداول البسيط لرءوس الأموال، حتى وإن كانت دولية، كان يتطلب مزيدًا من الوقت والجهد لفرض نظام المساهمة، وتجميع التمويل الادخاري، ودعم نظام الاستثمار الجماعي في التمويل العقاري، وتشجيعه على المشاركة في البورصة، ومنح إعفاء ضريبي للشركات الصغرى المساهِمة، وابتكار أنماط مختلفة لتشجيع مدخرات المرتبات، وتطبيق الزيادة التصاعدية لمدخرات التقاعد، وتوسيع فرص الاستثمار غير البنكية في المنشآت العقارية، وبصفة خاصة فرص الضامنين. ساعدت كل تلك العوامل على عملية "ضخ الوقود" في أسواق الأسهم، التي وصفها اقتصاديو التيار

اليساري المتحول "بقمة الحداثة"؛ أولئك الاقتصاديون الذين اكتشفنا فيمـا بعـد، نمـو علاقات الصداقة والثقة المتبادلة بينهم وبين "صناعة التمويل".

"البورصة لم تعد المجال الذي يخدم المشروعات... لقد أصبحت المشروعات هي التي تخدم البورصة، عن طريق جذب الأسهم الجديدة"

لوران مورياك Laurent Mauriac

لقد استلزم الأمر اتخاذ خطوتين؛ الأولى تشمل تحرير حركة رءوس الأمـوال، والثانية إنشاء "قوة ضاربة" للتمويل الادخاري، الذي قام بالحشد له كبـار المـستثمرين المؤسسين. ولتحقيق هاتين الخطوتين، كان لابد من اتخاذ الخطوة الثالثـة – الأكثـر حسمًا – التي تكسر المزلاج المعوق، وتفتح الباب أمام عملية التحـول العميـق نحـو "نظام التحكُم الرأسمالي" الذي يوزع ويحدد حقـوق الملكيـة أو ينقلهـا؛ لأن تطبيـق "النظام الفوردي" Fordisme (نسبة إلى هنري فورد مؤسس نمـوذج تنظـيم وتطـوير الأعمال) الذي استمر حتى منتصف التسعينيات، كان يرتكز على الملكيـة المـشتركة التي تسن قوانينها الشركات الكبرى الفرنسية، لتحمي مصالحها المتبادلة. كما أن تلـك المشاركات كانت تلجأ أيضًا إلى تقليص سلطة المديرين في المـساهمة عبـر تقلـيص نشاط الشركة؛ فكانت تبدأ ببيع السندات، التي تؤدي بدورها إلى خفض نشاط الـشركة في البورصة، ثم توقفه. الأمر الذي كان يجبر عرض الشراء العام الفائز OPA علـى استبدال الفريق الإداري من أجل تغيير الإستراتيجية التي تمنح المساهمين مزيـدًا مـن الرضاء. تطلب الأمر كذلك زيادة رأس المال العائم، لإتاحة الفرصة لمزيد من عمليات التصفية، وفرض السيطرة. في هذا السياق، كان أول مـن تـصدي لـذلك الاتجـاه، المشاركين الدائمين الذين كانوا يأتمنون الأشخاص موضع ثقتهم على حقـوق الملكيـة، ويدعمون الأقليات المتحدة داخل مجالس الإدارة التي تحولت إلى حصون منيعة، وذلك بعد أن بلغت تلك الملكيات المشتركة – وفقًا لأقوال المساهمين – ذروة جمودها.

انتشرت بعد ذلك المصطلحات الجديدة – مثل "نهايـة الملكيـات المـشتركة"، و"التعامل الكامل برأس المال العائم" – الخاصة برأس المـال التمـويلي (المـساهمين

والمستثمرين المؤسسين) الذي يُلزم رأس مال الشركات الصناعية بالخضوع لمتطلباته... وقبول الشروط الخاصة بوضعه تحت وصايته؛ ذلك الوضع الذي أدى إلى تجزئة "رأس المال" وتعرضه لصراعات داخلية. في عصر "التهديد الشيوعي"، اتحدت الجبهة الاجتماعية لتجميد تلك الصراعات، ثم عادت للظهور مرة أخرى بعد سقوط حائط برلين، وزوال "المعسكر المواجه". ولهذا، اتصفت التسعينيات بأنها سنوات عودة المساهمين، المُحالين إلى هامش الساحة طوال العقود الفوردية التي لم تعرف سوى الهيمنة التقنية، ونفوذ المديرين الأقوياء.

في منتصف التسعينيات لجأ المساهمون - من أجل إعادة فرض سيطرتهم الاقتصادية - إلى عامل الحسم الأخير المتمثل في التحول إلى نظام التحكم الرأسمالي للقضاء على نظام الملكية المشتركة الذي يعرقل نشاط المساهمة. ونظرًا لافتقار الولايات المتحدة لنظام التحرر الحتمي لحقوق الملكية، رفضت صناديق المعاشات الأمريكية عام ١٩٨٦ تأييد نظام الخصخصة الفرنسي الذي حصنه فيما بعد إدوارد بالادور بـ "النواة الصلبة" noyaux durs (الذي يهدف إلى تحويل الجزء الأكبر من الملكية إلى ملكية عامة) لحماية الشركات من العروض العامة التي تتحكم في الشركات التي استطاعت بالكاد العودة إلى السوق. في عام ١٩٩٣، أعلن المستثمرون المؤسسون، في أكبر البلدان تقدمًا في مجال المساهمات، معارضتهم بشدة لنظام بالادور عن الخصخصة، وأعلنوا أسباب رفضهم، ووجهوا له نقدًا أكثر حدة من النقد الذي تعرض له عام ١٩٨٦، فاتجه بالادور إلى الموجة الثانية للخصخصة التي حصنها بـ "النواة الصلبة"، عن طريق فرض مزيد من الحماية على رأس المال؛ إذ كان يهدف من تلك الإجراءات إلى حصول باريس على الشهادة العالمية في مجال تطوير وتحديث النظم المالية. وقد كانت تلك الحقبة بداية لعملية التفكك الكبير لنظام الملكية المشتركة، التي شارك فيها بشكل متناقض، الشركات المحمية، بدافع من كلود بيبار "رائد" الرأسمالية الفرنسية في تلك الحقبة، ورئيس مجموعة التأمين الدولية Axa، وأحد المستثمرين المؤسسين ذي المصلحة المباشرة.

غير أن البعض قد يرى أن عملية التحول شهدت تزايد سطوة رجل ينشد في الواقع الزيادة القوية لنصيبه في الرأس المال الفرنسي، على حساب نصيبه في مجال نشاطه الصناعي. كما شهدت تلك الحقبة على التوازي، الشغف بلعبة اقتناص الفرص الجديدة، المتمثلة في عمليات الدمج والاستحواذ. ولكي تتمكن عمليات التخالص الرأسمالية من إثبات وجودها، بدأت الرأسمالية الفرنسية منذ منتصف التسعينيات في التحول من نظام الرأسمالية الثابتة إلى نظام التعويم العام لحقوق الملكية، الملائم لنشاط المساهمات، وللعبة العروض العامة التي تتحكم في الشركات المسجلة بالبورصة؛ وهو التحول الذي تقبلت مخاطره كبرى الشركات الفرنسية لأن كلاً منها كانت مقتنعةً بأنها ستنجو أفضل من الشركات الأخرى، وهو توقع غير عقلاني، لأن الوضع كان سيسفر بطبيعة الحال عن بعض الشركات الخاسرة.

غير أن الأمر سيان، لأن هوس عملية الاندماج والاستحواذ أصاب الرأسماليين الفرنسيين كالحمى؛ حيث قفز حجم تلك العمليات العدائية في النصف الثاني من العقد، وبلغت ذروتها عام ١٩٩١ مع عرض الشراء العام لشركة توتال، والمعركة الضارية التي خاضها أكبر ثلاثة بنوك فرنسية: السوسيتيه جنرال، وبنك باريس الوطني، وباريباس. لقد أثبتت تلك المعارك – التي ظهرت على الملأ – أن الوقود المحرك لدوافع المكسب التي تطغى على الموظفين الرأسماليين لتعظيم الأرباح، يكمن في الغطرسة والمغالاة التي كانت تنمو في بيئة جديدة تستطيع داخلها الزعامة المتعلقة بقطاع من القطاعات، أو الزعامة الدولية أن تقدم عرضًا أو عرضين للتحكم في الشركات المساهمة في البورصة ، وبصورة أسرع بكثير من تجميع رأس المال الصناعي البطيء الذي يتم كل عشر سنوات. واستسلم معظم المديرين لوهم "التكالب" رغبة منهم في اللحاق بركب النخبة العالمية التي يُقاس نجاحها بحجم إحصائياتها المالية، والرقم الإجمالي الذي تحققه في مجال الأعمال. ومع احتمال موافقتهم لتمويل "لعبة المعارك" الرأسمالية، ارتفعت نسبة المديونية الناجمة عن بعض العمليات المجازفية إلى مستوى كان من المتعذر دعمه؛ الأمر الذي أجبر العاملين في مجموعة "أورانج" و "فيفاندي" على ضبط العمليات الحسابية، والاستمرار طوال العقد الأول من الألفية الثانية في "امتصاص" الخسائر الناجمة عن حمى الاستحواذ على القروض في التسعينيات.

في فرنسا كان جون ماري مسييه، يجسد الشخصية الجامعة لنقائص وانحرافات العولمة الليبرالية بأشكالها المختلفة، نظرًا للمسار الشخصي البارز الذي انتهجه في هذا المضمار. لقد لفت المراقب المالي الشاب الأنظار إليه عندما أعد بعض التقارير الإستراتيجية عن سياسة مارجريت تاتشر للخصخصة في بريطانيا، فكان من المنطقي أن ينضم إلى وزارة إدوارد بالادور عام ١٩٨٦ – كي ينتقل من المرحلة النظرية إلى المرحلة العملية – ثم أصبح مسئولاً عن المعاملات المصرفية في شركة "لازارد"، التي كانت تُعد في تلك الآونة مركز انطلاق المعاملات الرأسمالية الفرنسية. وفي عام ١٩٩٦، أصبح رئيسًا للشركة العامة للمياه خلفًا لجيه ديجواني. لقد كان جون ماري شبيهًا بالمضخة التي تضخ المال لكنه كان غير جذابٍ جسمانيًا، لأنه إذا كان عالم العلاقات مع عمداء البلدات، ورؤساء مجالس الإدارة مربحًا من الناحية المادية، إلا أنه يخلو بطريقة مرعبة، من البهاء والجاذبية الجسدية. لم يتوقف جون ماري عند هذا الحد، فبعد أن اجتاز الطريق ووصل إلى درب راعي الرأسمالية الفرنسية، أصبح يتحدث عن بريق الربح وتغيير نظام الربحية القديم عبر تشكيل فريق عالمي – على غرار فريق الرقص الأكروباتي Pole Dance – يحقق التحديث المالي على أحدث طراز. لقد استفاد جون ماري – الذي كان يفهم أمور عصره جيدًا – من تعاونه مع المتحكمين في عالم المعلوماتية، وأصبح يُلَقب ب J2M، اختصارًا للحروف الأولى من اسمه: "M" "M" "j" ؛ ثم أصبح يُلقَب بعد ذلك ب J4m بعد إضافة الحرفين "M"من مصطلح "Maitre du Monde" ، أي سيد العالم؛ وهو المصطلح الذي يعبر بوجه حق عن ثِقل مشروعاته. ثم تفاوض وديًا على صفقة بلاتوه مقدم البرامج ميشيل دروكيه، مع جوزيه بوفيه – الذي يهوى جمع المعلومات عن الإعلام والمؤسسات – الذي سبق وتفاوض له على وقف إنشاء محلات ماكدونالد في مدينة ميلو.

لقد آثر جون ماري – وفقًا لما تردد في تلك الآونة – الاستثمار في مجال "الطرق المعلوماتية السريعة"، على الاستثمار في شركات المياه؛ لأن في النصف

الثاني من التسعينيات، كان الإنترنت على أعتاب مرحلة جديدة يُحركها خداع بعض المتعهدين. ولم يتردد في الاندماج مع أعداد الشباب الغفيرة مخترعي مواقع "ستارت آب"، وانهمك هو الآخر في ابتكار موقعين للتسويق أون لاين: ال "زي زي" "ZZ"، و"أو أو" "OO". لقد تميزت تلك الحقبة بأنها عصر "الحضانات" (مجمع يضم شركات الكمبيوتر الصغيرة الناشئة)، ولقاء الثلاثاء (لقاء أسبوعي يجمع بين مصممي المواقع وممولي المشروعات)، والارتفاع الجنوني في أموال المساهمات. ولقد أدى التقاء الفئة "الناضجة" بفئة من عامة المجتمع – اللقاء الذي عُرف بلقاء الأجيال- إلى التطلع لإنشاء "المرآب" (شركات تصميم الأقراص المرنة والصلبة) على غرار مشروع وادي السيليكون؛ غير أن الأمر اقتصر على إنشاء متاجر الأثاث الحديث IKEA، والابتكارات المعمارية في شارع ريامور في باريس. تمكنت مخططات البيزنيس، التي عضدت نفسها بممارسات تماثل أوراق اليانصيب، من جمع أموال طائلة انطلاقًا من و"عود" أو "آمال مستقبلية" بعيدة المنال إلى حد كبير. غير أن شركات الاستثمار المبكر "بيزنيس أنجيل" قامت بمنح رءوس الأموال لمبتكري المواقع خوفًا من الانهيار المبكر لمخططات البيزنيس، ومن تقدم بيل جبيتس. ثم اتخذ هذا الهذيان نمطًا مذهبيًا، وشرع المتنبئون، في الاستبشار والتكهن بمرحلة "اقتصادية جديدة"، وعصر نمو سريع، وثابت وآمن، وخالٍ من الأزمات والتضخم، بفضل معجزة الابتكار التي لا تنتهي.

التحول الروسي، المعمل المفتوح لتجارب الليبرالية الحديثة

"إذا كان علينا أن نذكر حدثًا آخر بارزًا، بل ضخمة يميز عقد التسعينيات، فسوف نشير إلى تحول البلاد الاشتراكية نحو الرأسمالية، أي نحو حلم الأيديولوجيين الليبراليين؛ بل هو أكثر من حلم، إنه ساحة الأعمال. في حرب العمالقة ضد أرباب العمل، أصدر التاريخ حكمه الآتي: "الفائز هو ...". إنها المرة الأولى في التاريخ التي يحدث فيها تحول نحو الليبرالية بهذا الحجم الهائل. وبالطبع لم يتوان مهندسو السوق عن الانقضاض على الفرصة

التي شارك فيها الجميع دون استثناء. من جهة أخرى، كانت روسيا – المتخمة بالمشاكل المعقدة، والتدني الشامل– أول من سارع لطلب المساعدة من أولئك المهندسين. وأصبح التحول الذي تم برعاية صندوق النقد الدولي، ومؤسسة شيكاغو للاستشارات المالية، وشركة ماكينزي الرائدة في مجال استثمارات الأعمال، حقلاً مفتوحًا للتجارب التي يخوضها الاقتصاديون التقليديون الجدد، المتحمسون للفكر الجديد؛ فقد واتتهم فرصة حياتهم لينتقلوا من المرحلة التجريبية إلى المرحلة العملية على مستوى قارة أو ما يقرب من ذلك. لكن للأسف ! لم يُنفذ البروتوكول بصورة دقيقة كما تمنوا، ولم يتواءم كذلك مع النظريات الموضوعة. وذلك لأن أولئك المهندسين، الذين هبوا للاحتفال "بقدوم الحرية"، لم يكن في جعبتهم الفكرية سوى "العلوم الاقتصادية" التي اقتصرت على المفهوم القائل إن الرأسمالية تعتمد كلية على ركيزتين: الاندماج التام في الملكية الخاصة، والتنافس المحض، الخالي من العيوب. ووفقًا لتلك النظرية، فإن أية مؤسسة لا تعتد بهاتين الدعامتين، تُعد من المؤسسات المعيبة، والمعوقة لحرية العمل في السوق، والمتسببة في اضطراب آليات استقراره التلقائية، والمعرقلة لتحقيق توازناته المثالية؛ خلاصة القول، هي مؤسسة صارمة ويجب تقليصها بصورة حتمية. وتأتي الدولة على رأس تلك المؤسسات المعيبة، لأنها هي الهدف الأول لكل محاولات "التقليص"، حتى في البلاد الغربية. في بلاد الكتلة الشرقية، تنصهر الدولة في الحزب الحاكم، وتأخذ شكل الحكم الشمولي المسيطر على زمام الأمور والمتحكم فيها هنا وهناك. فلا مفر إذن من إسقاطها، لأن زوالها سوف يؤدي إلى تعزيز السوق الحر. وبعد تحديد موقع ومكان نشأة السوق، المرتبط بالتأكيد بخيار الإطاحة بالمؤسسة المعيبة، يضطر السوق للتعامل مع مافيا المعاملات السرية، والوسطاء البرجوازيين، والمعاملات البنكية عن بعد. لقد شملت حركة التغيرات الهائلة، جميع النخب السوفيتية القديمة، التي سارعت لتأييد الأقلية المحبذة للفكر الجديد. واتخذت الخصخصة الروسية – التي اعتقد الجميع أنها أروع ما حدث لاسترداد الحرية – أشكال السلب الجماعي للتاريخ وأوسعها انتشارًا، وفتحت الطريق أمام تحقيق الثروات السريعة. غير أن أبرز الأمور، وأخطرها على الإطلاق، كان انهيار الكوادر المؤسسية في الدولة، الناجم بالتبعية عن تفكك حزب الاتحاد السوفيتي الشيوعي الشرعي. إلا أن حزب الدولة سعى للحد من توجيه

اقتصاد روسيا نحو منهج وولرس (الذي يؤمن بالتأثير المباشر للمال على توازنات السوق) الذي كان المنظرون يتخيلون إمكانية تطبيقه، والتوجه به نحو التطبيق العملي على أرض الواقع. وأسفر هذا الوضع المضطرب، الذي استمر من ١٩٩١ حتى ١٩٩٩، عن شبه تقسيم الناتج القومي المحلي إلى قسمين، وانخفاض متوسط العمر خمس سنوات. وبلغت الفوضى ذروتها عام ١٩٩٨ أثناء الأزمة المالية، وعجز الدين العام الكلي. وفي ظل هذه الإحصائيات المشتعلة، لم يتمكن قط المسئولون الرئيسون من التباهي بإنجازاتهم".

فريدريك لوردون Frédéric Lordon

تستغرق عملية التصفية بعض الوقت – بعد استبعاد بريقها الأسطوري – لكشف "الشغف الحقيقي" لتلك العملية؛ وأصبح مصطلح "العرض العام الأولي" IPO (عرض سندات شركة للشراء لعامة الناس) هو شعار الدخول إلى البورصة، مع إيثار المساهمة في قطاع هامشي وهابط. وفي الوقت الذي كانت فيه بورصة نازدك في الولايات المتحدة تعمل على الحد من نشاطها المفرط، أصبحت فرنسا هي "السوق الجديد"، وأصبح مصطلح "العرض العام الأولي" الاسم التقني والعرض المواتي لهذا الانقلاب ! لأن بيع البيتزا في شارع ريامور بباريس ليس غاية في حد ذاته، لكنه يهدف إلى تحقيق الثراء؛ فجمع الثروة لابد أن يمر بسوق الأسهم، إذ يكفي كبداية، الحصول على عائد ضئيل بعد شراء حصة في سلسلة محلات بيلي للأثاث المكتبي من بيع منضدة فورمايكا أو رفين للكتب، كي يتحول فيما بعد هذا العائد إلى تل من الذهب عندما يحصد المبالغ الخارقة بعد المساهمة في البورصة، والسعي وراء "شغف الشروع في المساهمة"، الذي يقوم على منطق انتظار اللحظة المواتية للحصول على "الجائزة الكبرى".

"من الخطأ التخوف من "العولمة" أو الاعتقاد بأنها سبب الأزمات الحالية"

دانيال كوهين Daniel Cohen

إن الصلة التي تربط جون ماري مسييه – رئيس الشركة العامة للمياه، وشركة فيفاندي – ببعض المتهورين الأثرياء المستثمرين في محلات بيع الملابس الرياضية Oolavazzi ومجلات تسويق الملابس الداخلية النسائية Kelzoozoo، لم يكن الغرض منها سوى جمع الثروة من المساهمة؛ إذ كان يطمع أولئك الأثرياء في جمع ركام الآخرين الناتج عن المساهمة في البورصة، في حين تطلع جون ماري لتحقيق ثروة من العمولات التي اتخذت شكل شراء أو بيع الأسهم في البورصة؛ وفي نهاية المطاف فإن الجميع كان يتفانى للدخول إلى السوق، فأسفر هذا الشغف عن انفجار أسعار الأسهم. وهكذا، تحول سوق الأسهم – بكل أبعاده – إلى المغناطيس الذي يستقطب جميع الممارسات، ويبرز المحرك القوي لهذه العمليات المبالغ فيها، أي الجشع المحض. لقد حصل الجميع – باستثناء العاملين بالتأكيد – على نصيبهم من هذا التحول الكبير، لأن رأس مال الأسهم أصبح هو السلطة الآمرة، وانتهى مطاف أرباب الأعمال، بالخضوع لسلطان المساهمين... لأنهم تحولوا بدورهم إلى مساهمين. وفي وسط هذا العالم الساحر، كان الاشتراكيون أول من سارع إلى هذا السحر. ففي فرنسا، قام وزير المالية دومينيك ستروس كاين عام ١٩٩٨، بإعداد نظام ضريبي غاية في المرونة يكافئ الناجحين في بورصة الأسهم. وفي عهد ليونيل جوسبان تخطى حجم الخصخصة حدود آلان جوبيه، وشاركت شركة فرنسا تيليكوم – التي طالما وعدت الحكومة بالإبقاء على تبعيتها للدولة – في "جائزة اليانصيب"، وبدأت مبكرًا سباقها العظيم نحو الاندماج / الاستحواذ، ومرت بمراحل الديون، ثم الانهيار في البورصة، ثم إعادة الهيكلة غير المتأنية، ثم الإخفاقات؛ وعلى الرغم من هذا، ظلت تتمسك بالرغبة في المساهمة.

من مرحلة المساهمة إلى مرحلة العبث

إن وضع الشروط المجحفة الخاصة بالمساهمة، كان أحد إنجازات التسعينيات؛ تلك الشروط التي أفرزت نظام "البيع بسعر أعلى" (بيع أصول منخفضة بسعر أعلى من قيمتها) وهو المصطلح المقصود به تحقيق أعلى معدل ثراء للودائع المالية. كما شهدت التسعينيات منح أعلى نسبة ربحية تصل إلى ١٥%، وأبرز مثال على ذلك بنك

باريس الوطني الذي كان معدل فائدته يتراوح بين ٢% و ٣ % حتى خصخصته عام ١٩٩٣، العام الذي بدأ بعده الارتفاع المستمر لنسبة الفائدة حتـى بلغـت ١٧% عـام ١٩٩٩. لقد كان الغرض الأساسي "لأصحاب الأموال" هو تحقيق أكبر مكسب ممكـن، ووصل جشع المساهمين إلى مرحلة اللاعقلانية الاقتصادية؛ لأن الزيادة المستمرة فـي نسبة العائد، أدت إلى إحجام المشروعات الاستثمارية عن المساهمة، لأنها لا تـستطيع الوفاء بتلك النسبة من الأرباح. فتعرضت بالتبعية تلـك المـشروعات العـاجزة عـن الاستثمار، لضغوط المساهمين المطالبين باسترداد أموالهم "المعطلـة" نقـدًا، وأصـبح الوضع عبثيًا لأن المساهمين أنفسهم هم الذين أجبروا تلك المـشروعات علـى عـدم الاستثمار. ذلك هو الوضع الجديد لرأسمالية المساهمة الذي أجبر العمليات الاستثمارية على "البيع بالتخالص" (البيع مع خيار الاسترداد)؛ وهو نوع من أنواع إنماء البورصـة الذي يهدف أولاً إلى خفض الأسهم المتداولة، وثانيًا إلى رفع الربح على الأسهم، وثالثًا إلى رفع مؤشر البورصة. وانقلب وضع الرأسمالية وسار في الاتجاه المعاكس؛ فبـدلاً من أن يمول المساهمون مشروعات البورصة، أصبحت المشروعات هي التي تمـول المساهمين ! وانكمشت المشروعات الاستثمارية بسبب تطبيق معدل الفائـدة الجـامح، ونظام "البيع بالتخالص"، والأرباح الوسيطة. ودخل الاقتصاد بأكمله في مرحلة الاستثمار المنكمش بعد إحجام المشروعات الاستثمارية عن المـشاركة بـسبب معوقـات نظـام المساهمة. وأدى انخفاض الاستثمارات إلى انخفاض النمو وتقليص العمالـة. وهكـذا، اختلف عالم المساهمة الواقعي، عن عالم المعجزات ووعود نظام التداول الحر للأموال.

وعلى الجانب الآخر، اختلف وضع الملكيات العامة (مؤسسات الطاقة العامـة، والمواصلات، والضمان الاجتماعي) – التي وُجهَت إليها الانتقادات لفتـرات طويلـة، على الرغم من إثبات فعاليتها – مقارنة بالمؤسـسات التـي طبقـت نظـام "الـسوق" و"الخصخصة"، وأصرت على الاستمرار على الرغم من عثراتها الواضحة. تلك هـي السمة الظاهرة لنظام المساهمة الرأسمالي، التي إن لم تكن نجحت في إبـراز فـضائل النظام، لكنها تمكنت على الأقل من العصف بشغف "اقتناص الفرص"، وقلصت ثـراء زعمائها.

الأفق المشرق لليورو

اتسم الطرف الآخر من عقد التسعينيات، بتفاقم الاضطرابات المالية، وخفض الضرائب على عائد رأس المال، وترسيخ السياسات الاقتصادية التصحيحية التي تحقق صالح الدائنين الدوليين. وقد صادف هذا الوضع استحساناً كبيراً من الحكومات الاشتراكية الأوروبية؛ وهو ما يُعد الحدث الأهم في التسعينيات. على أية حال، لقد كان اليورو هدف هذا العقد مع توقيع اتفاقية ماستريخت عام ١٩٩٢. وإذا كان من المتوقع أن يكون عام ٢٠٠٢ هو عام التعامل الفعلي باليورو؛ إلا أن هذا لم يمنع من أن يكون عقد التسيعينيات بأكمله هو "المرحلة الانتقالية"، لأن الانتقال هو - في واقع الأمر- نوع من أنواع "التأهيل". فلكي "تثبت وجودك"، يجب أن تكون مؤهلاً لخفض العجز لأقل من ٣%، والديون لأقل من ٦٠%، ومنع التضخم، بالإضافة لبعض معايير "التحول" الأخرى التي يجب استيفاؤها. غير أن العقد اتجه سريعًا نحو المنحنى المرير للأزمة العقارية عام ١٩٩١، والأزمات النقدية عامي ١٩٩٢ ، و ١٩٩٣ التي تزامنت مع تراجع النمو، وانخفاض الإيرادات الضريبية، وارتفاع نسبة الفائدة؛ الأمر الذي أدى بالتبعية إلى "فقدان حظوة" أكثر العناصر تطرفاً في تطبيق تلك السياسة. لقد كان بيار بيريجوفوي - دون أدنى شك - أحد هؤلاء المتطرفين، ولم لا ! ألم يكن المتبني لسياسة "التنافس على الانكماش النقدي"؛ تلك السياسة التي نشأت في "منعطف" عام ١٩٨٣، واستمر في ترشيدها، فور عودته إلى السلطة عام ١٩٨٨، إلى أن أسفرت عن التعامل باليورو. لم تكن تلك السياسة سوى إعادة انتشار للسياسة التنافسية على المستوى القاري.

في بداية العقد، برع الاشتراكيون بالتأكيد في هذا المضمار ليس في فرنسا فحسب، بل في أوروبا كلها. ففي بروكسيل، أسهم جاك ديلور، رئيس اللجنة الأوروبية- بمساعدة أمين اللجنة باسكال لامي - في انتشار الاضطرابات المالية في أوروبا، بانحيازه للإعفاء الضريبي على رأس المال، ومنحه أسواق السندات الصفة الاعتبارية كهيئة عليا تملك حق المراقبة الدائمة للسياسات الاقتصادية الوطنية. كيف

لنا أن نندهش إذن من الظهور المدوي لميشيل روكار، الذي لم يتردد في التصريح بأن التشكيك في "تحرير الفرنك" (الاسم العرفي للتنافس علـى الانكمـاش النقـدي) فـي المناقشات العامة، يُعد نوعًا من الخيانة الوطنية؛ لأن تشكيك السوق في القرار الفرنسي الذي اتُخذ بالإجماع، سوف يثير ريبة المستثمرين، وسوف ندفع ثمنه غاليًا مـن نـسبة "أرباحنا". إن استقرار العملة، وحسن استغلالها في مجتمعنا، يتطلـب ألا ننتقـد، دون جدوى، سياسة الدولة الاقتصادية، لأنها اللبنة الأساسية لأقوالنا وأفعالنا على حد سواء، والقادرة على منع الإطاحة بأي فرد في المجتمع.

يجب إذن أن نضع نصب أعيننا أن هناك وجهًـا واحـدًا مؤيـدًا "للتأهيـل"، أو بالأحرى ثلاثة وجوه متمثلة في الحزب الاشتراكي، وجناحي حزب اليمين: التجمع من أجل الجمهورية، والاتحاد من أجل الديمقراطية الفرنسية؛ تلك الوجوه التي ظلـت ولا تزال منحازة تمامًا "للتأهيل"منذ مراحله الأولى. لقد بـدأ التأهيـل للتعامـل بـاليورو، ووصفه بالخيار الوحيد للاقتصاد الفرنسي، منذ بيريجوفوي عام ١٩٩٣، حتى جوسبان عام ١٩٩٧، مرورًا ببالادور، وجوبيه. لقد طبق جوبيه هذا التأهيـل بحـذافيره، ممـا أسفر عن ٣ ملايين عاطل ووزارة غاضبة؛ وتفاخر بكل وضوح بتطبيق نسبة ال ٣% لتبرير إصلاح نظام الضمان الاجتماعي، والكوادر الخاصة؛ وسبقه في ذلـك بـالادور عندما وجه ضربته الأولى في صيف ١٩٩٣ إلى المعاشـات بحجـة "العجـز"؛ أمـا جوسبان فقد استكمل المسيرة عام ١٩٩٧ عندما أعلن أثناء حملته لمدة خمـسة عـشر يومًا، عن ثلاثة التزامات: معادلة سلطة البنك المركزي (المستقل)، من خلال تـشكيل "حكومة اقتصادية" في منطقة اليورو؛ وعودة سعر الصرف إلى الحكومات، أو إجبـار البنك المركزي الأوروبي على عدم اتباع سياسة المبالغة في سعر اليورو؛ وإدراج بنـد النمو في وثيقة الاستقرار[٣]. تلك هي البدائل الثلاثة المتواضعة التي كانت تهدف إلـى تخفيف صرامة السياسة الاقتصادية الليبرالية الأوروبية. إننا لا نبالغ إذن عندما نقـول إن "التأهيل" كلفنا الكثير؛ فقد وصلت نسبة البطالة إلى ذروتها التاريخية ١٢,٤% عـام ١٩٩٧، وتأثر الاقتصاد الفرنسي كثيرًا في السنوات الأخيرة من التـسعينيات بـسبب

فقاعة الإنترنت و"نزوة نموها العابرة"، ولم يتمكن من استكمال خطـاه نحـو "طريـق الآلام" للتعامل باليورو.

على أية حال، إنها العولمة الليبرالية – بكل مظاهرها – التـي ترسـخت فـي جانبها الإقليمي الأوروبي، حيث لم تقتصر على المعاملات المالية، بل تمـادت حتـى توقيع "الوثيقة الموحدة"، ثم إقامة السوق الكبير للتجارة الحرة عام ١٩٩٣، الذي عـانى خلل أجهزة الخدمات العامة المتعلقة بالمهن المقننة، ومن انضمام دول وسـط أوروبـا ذات المستويات الاجتماعية المهملة.. إلخ. لقد أبرزت أيضًا اتفاقية ماستريخت ضـعف السياسات الاقتصادية الصارمة، المكبلة بالبنك المركـزي الأوروبـي؛ الـذي أصـبح الخضوع لسياسته الشرط الأساسي (وغير الكافي على الإطلاق) لتنال الـدول حظـوة الانضمام إلى الأسواق "التي تتمتع بالمصداقية"، كما يُطلق عليها.

ما الجدوى من كل ذلك؟ إنه بالطبع من أجل السلام والمحبة بين الشعوب ! تلك هي على الأقل المحصلة التي يمكن أن يؤكدها أي مراقب خارجي للمناقـشات العامـة حول أوروبا – وبصفة خاصة عن استفتاء ١٩٩٢ – التي بدأت تردد الأحاديث البلاغية، والثاقبة، والدقيقة، والمتنوعة مثل "أوروبا والحرب العالمية الثالثة"، و"من أجل أن تكون أوروبا أهلاً للتاريخ"، و"الصداقة الأوروبية"، و"أوروبا الموحدة أو الفوضى"؛ كل تلـك المصطلحات التي تذوب في المصطلح الجامع "أوروبا من أجل ..." . إنها مجموعة من التفاهات في أكثر من مائة وخمسين صفحة[٤]، تكفي لإدراك واقع المناقـشات العامـة، وتجميع "رحيق" تلك الوثائق في مفهوم واحد؛ ألا وهو أن مؤلفي تلك اللآلئ البلاغيـة يجب أن يخجلوا، ويتواروا عن الظهور مرة أخرى بعد التصريحات التي أدلوا بها مثل قول ميشيل سابان "أوروبا هي الحل الوحيد لمشكلة البطالة في المستقبل"، وقول ميشيل روكار "الحق يقال ما زلت لا أفهم لماذا يريد الليبراليـون أوروبـا الحاليـة هـذه !"، وقول بريس لالوند الأكثر حدة "إن أوروبا هي اللحم الذي يحمي جسدنا، إذا انتزعنـاه فسوف نتألم"، وأخيرًا قول برنار كوشنر "مع ماستريخت سوف نحقق الكثير"، وغيرها من الأقوال.

استمرت المناقشات، واستمر السيل المخيف من الحماقات ينتظر الفرصة المواتية للنهوض من سُباته، وقد واتته الفرصة الذهبية في الاستفتاء الدستوري الأوروبي عام ٢٠٠٥ الذي كانت نتائجه مماثلة لنتائج ١٩٩٢. وعلينا أن نعترف أن المشروع الأوروبي من المستحيل تحقيقه، حتى بالنسبة للمدافعين عنه، أو على الأقل بالنسبة للذين يصرون على الإعلان أنهم "في الجانب المعارض". إنه أمر مستحيل، لأن الاتحاد الأوروبي تطور بوصفه قارة تشكل جزءًا من العولمة الليبرالية، في حين اعتبرها المعارضون مشروعًا تاريخيًا إحلاليًا، أُعد بصورة جيدة لتغيير الملامح الحقيقية للتحول نحو سوق مشين للغاية. كيف نتحدث إذن عن التوافق على الرغم من وجود هذا التناقض بين جانبين متجاورين؟ إذا استعدنا الوضع بصورة واقعية، فإننا سوف ندرك أن أوروبا كان عليها الترحيب بالعولمة بطريقة مبهمة وخادعة، وإلا كانت ستختفي من المشهد. لقد كان ذلك هو البديل الذي اختاره فريق المهللين، المؤيد للعولمة بحكم وظيفته؛ والمفكرون، والاقتصاديون، ومختلف الخبراء المدركين جيدًا الخلل الناتج عن العولمة - التزايد المستمر في أعداد العاطلين الغفيرة، واتساع فجوة عدم المساواة، وضعف الرواتب - لكنهم غضوا البصر، طوعًا أو تأقلمًا، وبذلوا كل ما في وسعهم لتحريف الأسباب الحقيقية لهذا الخلل. فقد أكد بول كروجمان عام ١٩٩٦، أن العولمة بشقها الأوروبي غير آثمة، ثم غير رأيه بعد ذلك[٥]. غير أن الجميع اتفق على أن المشروع الجوهري المطلوب، يكمن في شيء آخر مغاير للعولمة.

ظل دانيال كوهين منذ عام ١٩٩٧ وحتى ٢٠٠٤ يندد "بأعداء العولمة"[٦] وكان يندهش من تزامن العالمين "الغني" و"الفقير"[٧]. يدخل هذا التنديد في إطار ما كان يُسمى "تحيب المعارضة"، لأنها كانت ترثي المردود - وفقًا لأقوال الأديب بوسويه- وتمدح المحفِز. لقد أراد دانيال أن ينفي عن نفسه فكرة أنه لا يتأثر بالمعاناة الاجتماعية؛ ألم يعرض صورة مؤثرة عن العاطلين الذين لا تهتم بهم العولمة، كنوع من التغطية على موقفه؟ هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد أشار بالتحديد إلى أن

العولمة وشقها الأوروبي غير مسئولين عن هذا البؤس. إنه موقف صعب لا يستطيع رجل الاقتصاد المتوافق مع عصره، أن يخرج منه بسهولة. ولهذا ألقى كوهين مسئولية هذا الوضع البائس على عاتق التقدم التقني، و"الثورة الصناعية الجديدة". لكن ليهنأ باله! لأننا ندرك جيدًا أن المطالبة بوقف "الابتكار" مطلب غير عقلاني تمامًا ولن يقبله أي عاقل في عصره.

يبرر كوهين حجته بأن تكنولوجيا المعلومات الحديثة تفضل تشغيل الخريجين الحاصلين على شهادات في "معالجة الرموز المشفرة". وإذا استرجعنا بعض العناوين القديمة، فسوف نندهش من الخليط الفكري لكتاب المقالات الافتتاحية الذن يستخدمون تعبيرات مثل: "الثورة الصناعية الجديدة"، و"تكنولوجيا طرق المعلوماتية السريعة"، و"معالجة الرموز المشفرة"؛ ذلك أن هذا الخليط لا يصلح لأن يكون "حساءً طازجًا"، ويصلح بالكاد لأن يكون "طعامًا مجففًا". إلا أن الطيور على أشكالها تقع، أليس كذلك؟ لأن معالجي الرموز يبحثون عن الصحبة المماثلة ليشكلوا معًا هذا "الاقتران الانتقائي"[٨]؛ أو بمعنى آخر، يتحد ذوو الكفاءات الذهنية مع النخب التي تحقق مكاسب هائلة، وينبذون الذين تخلفوا عن الثورة الصناعية. ذلك هو سبب البطالة، وعدم المساواة، وربما أيضًا يكون هو السبب في أن ابنتك خرساء ! وهو للأسف أحد الأسباب التي لا يمكن معالجتها، لأنه نتاج ثورة مثيرة ولا رجعة فيها... "ثورة صناعية" وتكنولوجية" يُحجم فيها المساهمون عن الاستثمار، ويعتصرون العاملين. لن يجرؤ أحد لفترة طويلة على التحدث عن الاضطرابات المالية التي وضعت السياسات الاقتصادية تحت وصايتها، وعرقلت انطلاقها المحتمل؛ وعن التجارة الحرة، والإغراق وآثاره الاجتماعية الدائمة. خلاصة القول لن يتحدث أحد عن العولمة أو أوروبا التي تطور جميع اتجاهات العولمة لصالحها الخاص.

عقد التسعينيات هو

بداية محنة أوروبا القاسية...

ما الجدوى من كل ذلك؟

إنه من أجل السلام والصداقة

بين الشعوب بكل تأكيد!

ذلك هو المنهج الذي اتبعه أهل الفكر طوال التسعينيات، ووطدوا أركانه بإنشاء مؤسسة سانت سيمون، قبل أن يقرر بيار روزانفالو التخلي عنهم بعد أن أدرك فجأة أن هذا المنهج سوف ينال من مصداقيته الفكرية. إلا أنه كان عليه الانتظار حتى عام ١٩٩٩... ذلك الانتظار الذي كان لا طائل منه، لأن المؤلف الجديد الذي أصدره "جمهورية الأفكار" – الذي تحول بعد عدة أعوام من صدوره إلى مجرد عمل مجازي بعد الاستغناء عن أرباب العمل الأكثر إزعاجًا – كان يركز على إنكار منهج أهل الفكر.

والحق يقال إن أولئك المفكرين جميعهم، إن لم ينحازوا بتلقائية لمزايا النظام العالمي، فإنهم على الأقل لم يساعدوا على تراجعه، واتجهوا نحو المؤسسات ذات النفوذ التي اعتبرتهم "ملكًا لها". لقد كان عقد التسعينيات أيضًا عقد تطور العلاقات بين كبار المفكرين، وأصحاب الثروات عبر عشرات الآلاف من القنوات الوسيطة، مثل المؤسسات متعددة الأسماء، والدوائر الاقتصادية المتداخلة مع الدوائر البنكية إلخ... لقد انضم الاقتصادي دانيال كوهين على سبيل المثال إلى وزارة ميشيل روكار من عام ١٩٨٨ حتى ١٩٩١، ثم عمل في وزارة دومينيك ستروس كاين عام ١٩٩٧، حيث التقى بماتيو بيجاس الذي أصبح بفضل صداقته له خبيرًا استشاريًا في شركة "لازار" التي تطابقت نظريتها عن "الاقتران الانتقائي"، مع اتجاهات ماتيو. في التسعينيات، شغل أيضًا إيلي كوهين – أحد المؤيدين للعولمة ولأوروبا الموحدة – منصب مستشار للعديد من مجالس الإدارة مثل، المؤشر الرئيس للبورصة الفرنسية، وشركة جنرال، وفرنسا تيليكوم. لقد كانت التسعينيات سنوات ضبابية تمنع الفكر الجريء من الإفصاح عن رأيه. ثم جاء عام ٢٠٠٠ ! ولحسن الحظ أنه جاء مبكرًا ليخطو أولى الخطوات التصحيحية، وأصعبها، ويعلن رفضه للأحاديث المسترسلة في وصف مزايا العولمة.

خط الصمود الموازي

على أية حال، كان يجب أن يكون هناك عنصر صلب تستند عليه المشاعر الشعبية لمقاومة تلك التفاهات، أو بالأحرى طوفان الحماقات؛ لأننا لا نبخس حق المجتمع إذا قلنا إنه يسخر من مرشديه ! وإذا كانت التسعينيات هي عصر الانضمام للعولمة، فإنها تُعد أيضًا حقبة الشروع في المقاومة أو العصيان - إذا استخدمنا تعبير يخلو من المغالاة - كرد فعل سريع وبراق سار بالتوازي مع تلك الحماقات. لقد تميزت التسعينيات كذلك بالتمسك بسياسة الرفض؛ لأنه من غير المجدي التأكيد على انعدام الصلة بين "السياسة" و"لعبة الأحزاب الحكومية"، التي باتت توافق على كل شيء؛ تلك الموافقة التي ظهرت بوادرها في حملة الاستفتاء على معاهدة ماستريخت، وترسخت بتأييدها للسياسات الاقتصادية على مدار عقد، قرر بصورة واضحة اللحاق بركب اللعبة الساخرة للتناوبات الانتخابية. غير أن هناك وجهًا آخر للعملة، أظهر استياء المجتمع؛ فإذا كان تمرير اتفاقية ماستريخت قد تم بصعوبة بالغة، فإن عمليات الاقتراع والمظاهرات الفئوية كانت تُعد أحد أشكال الرفض المتكرر لها. كما انتهت الانتخابات التشريعية عام ١٩٩٣، بالعودة الضعيفة "لليسار"، ودارت المنافسة على وقف التضخم، وتطبيق سياسة الإصلاح من خلال منظومة الرواتب، التي أيدها المتعاطفون مع الكسب المادي، وانتهت بالفشل والعنف. في عام ١٩٩٥، خرج بالادور من الوزارة بعد فشل مشروعه الخاص بالعقود المؤقتة للشباب "Semic "jeunes (CIP)"، وانتُخب شيراك على خلفية شعار "الفوارق الاجتماعية"، الذي يُعد تكرارًا لكلمات الليبرالية الحديثة؛ أي تكرارًا للهراوات التي كانت تهوي بها الليبرالية على الانتخابات. في ديسمبر ١٩٩٥، سار جوبيه على درب آلان، ولم يكترث برسائل "الفوارق الاجتماعية"، فشرع في تعديل مسار الضمان الاجتماعي، والكوادر الخاصة، بالتطبيق الحرفي لنسبة ال ٣% المنصوص عليها في اتفاقية ماستريخت، فواجه أكبر عملية إضراب منذ أحداث ١٩٦٨. وابتسم الحظ لجوبان بفضل تشريعية عام ١٩٩٧، واجتهاده لبدء حوار مع "اليسار"، ووعدِه بإعادة التفاوض على اتفاقية أمستردام، ورفضِه خصخصة شركة فرنسا تيليكوم. ونحن ندرك ما حدث بعد ذلك في أبريل

٢٠٠٢. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الساسة لشرح الأوضاع استشهادًا بالعلوم الاقتصادية – لحملنا على الاعتقاد أن الممارسات الانتخابية أصبحت متغيرة – فإن الأنظار كانت تُركز على الاعتراضات الشعبية المستمرة. إن المجتمع الفرنسي يرفض الليبرالية الحديثة، ولا يكف عن ترديد ذلك الرفض، كما أن أي محلل مبتدئ أصبح يدرك جيدًا أن التيار الليبرالي يخسر على مستوى الانتخابات، ويفوز في النقد الممنهج الموجه ضده، ويزداد الإصرار على رفضه في صناديق الاقتراع، لأنه لا يسعى أبدا لتطوير مبادئه.

بصفة عامة، انقشع الضباب سريعًا عن المجتمع الفرنسي، بعد أخذ عدة متغيرات في الاعتبار من بينها؛ أولاً، تحول الحزب المعروف "باليسار"، بتكوينه الاجتماعي والفكري، نحو "اليمين" بصورة جذرية؛ ثانيًا، انفصال المؤسسات السياسية عن الرأي العام لدرجة جعلتها قادرة على تحقيق أهدافها بصورة منفردة؛ ثالثًا، تشكيل النخب السياسية، والإدارية، والمالية لفئة مختارة ومميزة، وموحدة من أجل الحفاظ على مصالحها شبه المتجانسة؛ رابعًا، تكميم وسائل الإعلام الرأسمالية للرأي العام عبر إخضاعه لمتابعة التنافس الأعمى بين الأطراف الداعمة للعولمة، وهيمنة معدي البرامج الذين لا هم لهم سوى الانحياز للفئة المسيطرة عن طريق الندوات التي تستضيف الخبراء الكاذبين، والجامعيين المجندين إذا لم يحصلوا صراحة على الرشوة المطلوبة. لقد كان كل ذلك كفيلاً بأن يُحدث بعض التغيير الداخلي الهادئ؛ لكنه كان تغييرًا ساخنًا. ساخنًا لأي درجة؟ لم يحظ عقد التسعينيات قط بالفرصة المواتية التي تمكنه من توفير بعض السعرات الحرارية الإضافية؛ ولا يمكننا قياس درجة حرارته إلا من خلال القدرة على تأليف كتاب "العولمة الناجحة"، الذي اختفى مؤلفه من الحياة العامة. ولنقل إذن إن عقد التسعينيات "اجتهد" من أجل المستقبل، فقد أبرز الحقبة التي تراكمت فيها التوترات – التي بلغت ذروتها أثناء أزمة ٢٠٠٧ – ولا تعرف كيف ستخرج منها، هذا إنْ تمكنت من العثور على مخرج. لكننا أدركنا، على الأقل متى وأين ومن المسئول عن تدبيرها.

دانيال كوهين، "العولمة وأعداؤها"

"أثيرت الضجة منذ عدة أعوام حول لفظ "العولمة"؛ فالبعض يرى ضرورة قبول التحولات الجارية، والبعض الآخر يعتقد في ضرورة المقاومة للحفاظ على النظام الاجتماعي الذي دفع غاليًا ثمن القهر الذي تعرض له. كيف نميز الجانب الوهمي من الجانب الواقعي لهذه المخاوف؟ هل يمكننا الاعتقاد كلية أن التجارة مع الدول الفقيرة هي المتسببة في "فقرنا" ؟ على الرغم من أنها لا تُمثل سوى ٣% فقط من مجمل الثروات التي تنتجها الدول الأكثر غنى؟ بالطبع لا، وسوف نحاول توضيح ذلك. لا صحة على الإطلاق – أو ربما يكون هناك جانب من الصواب – للمخاوف التي تُحمِّل العولمة مسئولية الأزمات التي تتعرض لها الدول الغنية في العصر الحالي؛ كما أن نظام الحماية (حماية المنتجات الوطنية من المنافسة الأجنبية) الذي يطالب به أنصار الكولبرتيه الجدد (نظام اقتصادي وضعه الوزير الفرنسي كولبير ويعتبر مذهب التجاريين الجدد)، لا يصلح للتطبيق حاليًا (...). وقد يكون من الأفضل أن نعكس المنطق السائد عن العولمة، ونقول إنها لا تتسبب في ضعف سوق العمل الذي نلاحظه الآن؛، لكن العكس صحيح، فإن الميول التي تغلب علينا لتغيير المجرى الطبيعي للأمور، هي التي تفتح الآفاق أمام المجالات التي تتوطد فيها العولمة الآن، وتمدها بالمذاق المر الذي يدفعنا للفظها (...).

كما أن الفكرة القائلة إن "العولمة" قد تمنع دول الشمال (الغنية) من "الاستغلال الرزين للثروات، ومن المعاملات الهادئة"، يهيمن تدريجيًا على تصورات الدول الغنية. والتساؤل المطروح هو، كيف نستطيع أن نبدأ تعاملاتنا مع دول لا يتمتع فيها العاملون بأية حقوق اجتماعية؟ ألا تتعرض الدول الغنية في تجارتها مع البلاد الفقيرة لخطر التقهقر الحتمي، أي "لقانون السوق" الذي فرض نفسه في القرن التاسع عشر في الساعات الأولى للرأسمالية الأوروبية؟ لا نستطيع الجزم بالإجابة الصحيحة إلا إذا أدركنا مسبقًا السبب في فقر البلدان "الفقيرة"، والدور الخاص الذي يجب أن تلعبه الدول الغنية لمساعدة تلك البلدان لتحقيق الثراء."

دانيال كوهين، "غنى العالم، وفقر الأمم"، باريس، فلاماريون، ١٩٩٧، ص ١٤ – ١٨.

لوران موريك، "التسويق أون لاين، السوق الواعد"

"إن الكثير من الشركات تسهم في البورصة مدفوعة ليس بقدرتها المزعومة على تحقيق ثورة اقتصادية فحسب، إنما تلبية لطلب الأسواق المالية والتعاملات البنكية المتلهفة لنمط التسويق الجديد أون لاين. فالأسواق المالية ترى في هذا السوق مصدرًا للقيمة المضافة لا ينضب، والمعاملات المالية توفر من خلاله عمولات سخية. وهكذا، أصبح التسويق أون لاين، نوعًا من المنتجات المالية القادرة على تلبية احتياجات الجانبين. وبدأت عملية تأسيس الشركات برأس مال المخاطر مدفوعة بوهم الانضمام إلى البورصة؛ فحدث الانقلاب المذهل: بدلاً من أن تكون البورصة هي الجهة الممولة لتطوير تلك الشركات، أصبحت الشركات هي التي تمول البورصة من خلال زيادة المساهمة (...). لقد كان أريك أرشامبو أفضل من وصف عملية التسويق أون لاين الواعدة، والمتسببة في الفقاعة المالية. لقد كان أحد المشاركين في رأس مال المخاطر لوادي السيليكون، عبر شركة بنش مارك، ويتذكر جيدًا الجيل الجديد من المستثمرين المرتجلين، الذين كانوا يتوافدون على مكتبه. " لقد كنا نستقبل أشخاصًا يقولون لنا : "لقد تخليت عن العمل في مكتب استشارات مشهور، لأنني أعتقد أن الاستثمار في التسويق أون لاين أصبح من الأسواق الواعدة، التي لم يخضها الكثيرون حتى الآن، امنحني عشرة ملايين دولار لتحقيق هذا الهدف". وتكالب الجميع على تأسيس تلك الشركات، طلابًا، ومستشارين، وموظفين، في الولايات المتحدة وأوروبا على حد سواء، بعد انبهارهم بالمستقبل الواعد لذلك السوق.

يتميز سوق الإنترنت بطابعه الخاص؛ إذ يكفي إنشاء موقع ليبدأ المستثمر نشاطه. ولم تعد مزاولة هذا النشاط مقصورة على المجال العام، بل يستطيع أي شخص يمتلك جهاز كمبيوتر أن يبدأ مشروعه، ويتجنب التعقيدات الفنية والمالية التي تعوق انطلاقه، وتحد من فرص إنشائه. لقد أصبح الارتجال لإنشاء موقع تسويق أون لاين في نهاية التسعينيات، أسهل من تصنيع السيارة في بداية عهد هذه الصناعة في بداية القرن. لقد أسفرت فقاعة الإنترنت المالية عن الفقاعة الاقتصادية التي بدأت بالإنشاء المحموم لشركات مُبالَغ في تقدير قيمتها، ومتاحة فقط فور انضمامها إلى البورصة (...). وسعى أصحاب الشركات، بمساعدة برامج

الباور بوينت الملونة لشركة مايكروسوفت، إلى عقد الصفقات مع المستثمرين. لقد كانت تلك البرامج، هي المحرك الرئيس لفقاعة الإنترنت؛ لأنها توفر للمحللين وللمستثمرين – المغمورين بتلك المشروعات – عروضًا شاملة وحية عن المنتج، فيما يقرب من عشر صفحات؛ وهي وسيلة أسرع من خطة الأعمال التقليدية التي تقدم وصفًا مفصلاً عن المشروع وآفاقه المستقبلية. فالنصوص تحولت إلى شعارات، وجداول الأرقام البيانية إلى أشكال معادلة للأرقام. لقد شبه أحد الممولين لموقع فرنسي، هذه العروض بكتب الأطفال التي تحتوي على بضعة سطور في الصفحة، وعلى بعض المنحنيات المتجهة لأعلى... وعبر عن ذلك في سجل شركته بالعبارات الآتية: "أثناء الموجات الكبيرة، والواهمة للانضمام إلى البورصة، لم تكن القدرة على جذب المحلل أو المستثمر المؤسس للمشروع تتعدى خمسًا وأربعين دقيقة. لقد كان إذن نظام الباور بوينت، الأداة المثلى لتلخيص مشروعك، وعرضه على الذين يملكون خيوط مشروع المستقبل".

لوران موريياك، "انطلاق المستثمرين في الإنترنت، كيف قتل المال الاقتصاد الجديد"، باريس، كالمان ليفي، ٢٠٠٢، ص ٣٧ – ٣٩.

المراجع

1)Alain Minc, La mondilisation heureuse, Paris, plon,1997.

2)Robert Boyet,La mondialisation au delà des mythes, Paris, La Découverte,2000.

3)Telles sont les clauses que Jospin pendant sa campagne avait présentées comme condition sine qua non à la ratification du traité d'Amesterdam.

4)Le Bêtisier de Mastricht, présenté par Jean pierre Chevênement, Paris, Arléa,1997.

5)Paul Krugman, La mondilisation n'est pas coupable,Paris, La Découverte, 2000, 1996.

6)Daniel Cohen,La Mondialisation et ses ennemies,Paris, Grasset, 2004.

7)Daniel Cohen, Richesse du monde, pauvreté des nations, Flammarion, 1997.

8)Ibid.

التسلسل التاريخي للأحداث

كارول بينيتو و فرانسوا كوسيه

١٩٩٠

يناير: طرد ثلاث فتيات محجبات من مدرسة "راعي ليون" الثانوية. أثارت عدة حالات مشابهة منذ يونيو ١٩٨٩، جدلاً واسعًا في المجتمع الفرنسي حول مسألة ارتداء الحجاب.

٢١ يناير إلى ٢٥ مايو في الولايات المتحدة: تنظيم معرض "الفنانون الأفارقة المعاصرون، التراث المتغير" في دار متحف هارلم بنيويورك، وعرض تسعة أعمال لفنانين معاصرين.

٢٤ يناير: افتتح وزير الثقافة جاك لانج، المركز الوطني للرسوم المتحركة والرسم، في مدينة آنجولام.

٢٨ إلى ٢٩ يناير: أدان إيدوي بلينيل في مقال له بجريدة لوموند، دراسة عنصرية، ومعادية للسامية، ورجعية، للمدرس بيرنار نوتان بجامعة ليون. صدور أعمال عديدة، في العام نفسه، في فرنسا عن "أعراض فيشي"؛ منها "الفرنسيون في عام ١٩٤٠" للكاتب جون لويس كريميو؛ و"فيشي واليهود" للكاتبين مايكل ماروس وروبرت باكستون.

٣١ يناير في الاتحاد السوفيتي: افتتاح أول فرع لمحلات ماكدونالد في روسيا.

٥ فبراير إلى ٣ يونيو: نظم متحف مدينة أورساي معرض "أجزاء الجسد"؛ لتأمل جزء من الجسد.

١١ فبراير في جمهورية جنوب أفريقيا: إطلاق سراح نيلسون مانديلا، السجين منذ عام ١٩٦٢، ورئيس المؤتمر الإفريقي الوطني، والمدافع عن مصالح الأغلبية السوداء ضد الأقلية البيضاء.

١١ مارس في شيلي: تنازل أوجست بينوشيه عن السلطة، واستمراره قائدًا عامًا للقوات البرية.

١٤ مارس في الاتحاد السوفيتي: انتخب مجلس نواب الشعب، ميخائيل جورباتشوف رئيسًا للاتحاد السوفيتي، المؤسس مؤخرًا لتقليص دور الحزب الشيوعي. أعلنت ليتوانيا استقلالها يوم ١١ مارس، وتبعتها ليتونيا، وإيستونيا في شهر مايو. أعلنت بعد ذلك ثماني جمهوريات سيادتها الوطنية.

١٥ إلى ١٨ مارس: تنافس شديد داخل مؤتمر الحزب الاشتراكي المنعقد في مدينة راين بين التيار الحزبي وبعض رجاله.

مايو: أعلن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي عن ثلاثة معايير جديدة كمؤشر للتنمية البشرية: متوسط عمر المواليد، ومستوى التعليم، والدخل.

١٠ مايو: سلب ٣٤ مقبرة يهودية في كاربينتراس، وانتهاك رفات ما. يوم ١٤، اندلعت المظاهرات، التي ضمت ٢٠٠٠٠٠ شخص، في باريس وفي عدة مدن لاستنكار هذا العمل.

١٨ مايو: حطم مترو فرنسا السريع، الرقم القياسي في السرعة، على مقربة من مدينة فاندوم، ٥١٥,٣ كيلو متر/ ساعة.

١٠ يونيو: فوز اليوغوسلافية مونيكا سيليز، البالغة من العمر ستة عشر عامًا ونصف العام، بأول بطولة رولان جاروس لها.

١٢ يونيو في الجزائر: فازت جبهة السلام الإسلامية في الجولات الانتخابية الأولى، ب ٩٥٣ دائرة محلية من إجمالي ١٥٣٩، و٣٢ محافظة من إجمالي ٤٨.

٢١ يونيو إلى ١٠ سبتمبر: نظم مركز بومبيدو معرض "نظرة ماضية على آندي وورهول".

٢٧ يونيو إلى ٣٠ سبتمبر: رئاسة الفنان الإيطالي جيوفاني جارادنتي معرض البينالي رقم ٤٤. ضم الفريق الفرنسي ثلاثة معماريين: جون نوفيل، وكريستيان بورتزامبارك، وفيليب ستارك، الذين كُلفوا بإعداد ثلاثة تصاميم للجناح الفرنسي. ولأول مرة يشارك أحد الفنانين الأفارقة في المعرض.

١٣ يوليو: صدور قانون جايسو "لتجريم أي عمل عنصري، ومعادٍ للسامية، أو كاره للأجانب"، واعتباره جريمة ضد الإنسانية.

٢ أغسطس في الخليج الفارسي: غزو صدام حسين للكويت، واستخدام الرعايا الأجانب، في نهاية أغسطس، دروعًا بشرية في المواقع الإستراتيجية.

٣١ أغسطس: أصدر الكاتب فرانسوا ماسبيرو، والمصورة آناييك فرانتز، سجلاً مصورًا عن رحلتهم بالقطار السريع الإقليمي. في العام نفسه، صدرت الكتب الآتية: "رحلات قصيرة في البلد الشعبي" للكاتب جاك رانسيار، و"المعاملة الطيبة للفقراء" لفيليب ساسييه، و"عالم العمال الخاص؛ رجال ونساء الشمال" لأوليفييه شوارتز. لقد كان التركيز آنذاك على ظاهرتي "الفقر" و"الحرمان".

١١ سبتمبر في الولايات المتحدة: استخدم جورج بوش لأول مرة مصطلح "النظام العالمي الجديد" في خطابه أمام الكونجرس، لوصف عالم ما بعد الحرب الباردة، والمتجه نحو سياسة القطب الأوحد للولايات المتحدة.

١٤ سبتمبر في سويسرا: عرض أول فيلم لبيتر بروك "عاصفة شكسبير" في زيوريخ.

١٩ سبتمبر إلى ١٣ يناير ١٩٩١: تنظيم معرض "رحلات فن الرسم" بمركز بومبيدو، الذي ركز على الاهتمام المتزايد للفنانين لتحقيق التقارب بين التصوير، والسينما، والفيديو، في إطار الانتشار الموسع لفن الرسم.

٣ أكتوبر في ألمانيا: زوال جمهورية ألمانيا الديمقراطيـــة، وضـــم أراضـــيها لجمهورية ألمانيا الاتحادية.

٦ أكتوبر: ثورة المدينة السكنية العمالية في فول أون فـــان، داخـــل ضـــاحية ليونيز، بعد وفاة شاب معوق أثناء إحدى الحملات البوليسية. اندلعت المظاهرات لعـــدة أشهر متتالية في ضواحي أرجونتوي، وسارتروفيل، ومانت لا جولي... وأدرك الرأي العام أهمية "مشكلة الضواحي".

٧ أكتوبر إلى ١٥ يونيو ١٩٩١ في الولايات المتحدة: تنظيم معرض "الصعود والهبوط في الفن الحديث والفن الشعبي" لاستكشاف العلاقة بين الفن الحـــديث والفـــن الشعبي التجاري.

٨ نوفمبر: صدور العدد الأول للمجلة الأسبوعية "البريد الدولي" وتوزيعها فـــي الأكشاك بعد ترجمتها إلى الفرنسية.

٩ نوفمبر: قدم باتريك بوافر دارفور العرض الأول لبرنامجه التليفزيوني "حـــق المعرفة"، عن مجلة "التحقيقات" نصف السنوية.

١٦ نوفمبر: عرض مسرح دي سولاي في كارتوشيري دي فانسان، مـــسرحية "من إيفيجيني إلى أوليس لأوريبي" في إطار سلـــسلة المـــسرحيات للمخـــرج آريـــان مينوخين.

٢٢ نوفمبر في بريطانيا العظمى: استقالة رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر بعـــد رفضها تطبيق السياسة الأوروبية التي وافق عليها حزبها، وخلَفها جون ميجور.

٢٩ نوفمبر في الخليج الفارسي: أقر مجلس الأمن استخدام القوة لإجبار صدام حسين على الجلاء عن الكويت. وفي أول ديسمبر، أطلق صدام حسين ســـراح آخـــر مجموعة من الرهائن.

ديسمبر: صمم مصمم الأزياء جون بول جولتييه، ملابس عازفة الأورج إيفيـــت هورنر في العرض الذي قدمته في مقهى كازينو باريس.

٧ ديسمبر: قررت الندوة الوزارية إطلاق حملة "المقاهي الموسيقية" التي يحييها الشباب في الضواحي الفقيرة، واعتبارها أحد أماكن المصرح لهـا "بـالتجمع لـسماع الموسيقى".

٢١ ديسمبر: إغلاق آخر مناجم الفحم في شمال باليه- با- دي – كاليه.

بعض الوفيات: كيث هارينج (١٦ فبراير)، فيليب سوبولت (١٢ مارس)، جريتا جاربو (١٥ أبريل)، أندريه شاستيل (١٨ يوليو)، ميشيل ليريس (٣٠ سبتمبر)، دلفين سيريج (١٥ أكتوبر)، لويس ألتوسيه (٢٢ أكتوبر)، جاك ديمي (٢٧ أكتوبر)، روالد دحل (٢٣ نوفمبر).

جائزة نوبل للسلام: مايكل جورباتشوف.

جائزة نوبل للأدب: أوكتافيا باز.

جائزة بريتزكر: ألدو روسي.

جائزة جونكور: "حقول الشرف" للأديب جون رووا.

مهرجان كان: السعفة الذهبية: "البحار ولولا" لدافيد لينش؛ وجائزة التحكيم: مناصفة بين "تيلاي" لإدريسا كيدراجو، و"محفز الموت" لكوهاي أوجري.

جائزة الفلسفة الكبرى للأكاديمية الفرنسية: إيمانويل ليفيناس عن مجمل أعماله.

١٩٩١

يناير في الولايات المتحدة: نظم متحف باسيفيك آسيا في باساندا أول معرض شامل عن الفن الصيني المعاصر في الغرب بعنوان: "مختارات من الموجة الصينية الجديدة، وطلائع الفن في الثمانينيات".

٢ يناير: انطلقت لأول مرة خطة "فيجيبيرات" لمكافحة الإرهاب في إطار حرب الخليج.

١٠ يناير: إقرار القانون الخاص بالتدخين والكحوليات الذي حظر التدخين في الأماكن العامة، وحد من الدعاية للمشروبات الكحولية.

١٧ يناير في الخليج الفارسي: كثف التحالف الدولي "عاصفة الصحراء" من عمليات القصف لطرد العراقيين من الكويت. وشنت القوات البرية هجومًا من ٢٤ إلى ٢٨، وفرض الجيش رقابة صارمة على المشاهد الإعلامية التي تُبث عن الحرب، لأنها تخطت ما كان متوقعًا.

١٢ فبراير في الصين: الحكم بالسجن المشدد ١٥ عامًا على شين زيمينج، و وانج جانتاو عقب قضية المنشقين في"ربيع بكين".

٣ مارس في الولايات المتحدة: إيقاف رودني كينج، لتجاوز السرعة، والاعتداء عليه بالضرب بعد مقاومته لعملية الإيقاف. صور أحد الشهود من شرفته تلك الواقعة، واعتبر الفيلم أحد القرائن في القضية المعروضة على المحكمة.

٦ مارس في الولايات المتحدة: نشرت دار فينتاج بوكس كتاب بريت إيستون إيليس "السيكوباتية الأمريكية" التي تروي قصة باتريك باتمان، بائع الذهب بالنهار، والقاتل السيكوباتي بالليل. أثار العنف وإباحية الرواية ضجة، وتُرجمت إلى الفرنسية في العام التالي.

١٨ مارس: إدانة جون ماري لو بن لامتهانه "الجرائم ضد الإنسانية"، عندما وصف غرف الإعدام بالغاز بأنها تكرار لجزء " من تاريخ الحرب العالمية الثانية".

٢٥ مارس في سيراليون: شنت الجبهة الثورية المتحدة حربًا أهلية استمرت حتى عام ٢٠٠٢، عقب الاعتداء على قريتين في شرق البلاد.

١١ أبريل في الخليج الفارسي: قبول صدام حسين قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار، وانتهاء الحرب رسميًا.

١٢ أبريل: نشر ريجي ديبراي كتابه "محاضرات في علم الوسائط"، وهي دراسة تتناول الوسائل الإنسانية، والفنية، والمؤسسية التي تحول الأفكار إلى "قوى مادية" حقيقية.

٢٥ أبريل: نشرت الصحفية آن ماري كاستيريه، في مجلة "حدث الخميس"، مذكرة عن المركز الوطني لنقل الدم بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٨٥، ذكرت فيها أن المركز وزع أكياس دم ملوثة بفيروس الإيدز ، وبدأت بعد ذلك الحملة الإعلامية عن قضية الدم الملوث.

٣٠ أبريل: وضع رسوم جدارية لأول مرة على جدران محطة "لوفر- ريفولي" في باريس، لرسامي الجرافيك ستيم، وأوينو، وجاري.

مايو: تولى جون لوب بيفين، إعداد العدد الأول من "المجلة السوداء"؛ مجلة دولية ربع سنوية، متخصصة في الملامح الفنية الأفريقية المعاصرة.

١٥ مايو: تولى إيديث جريسون رئاسة الوزارء، كأول سيدة فرنسية في هذا المنصب.

٢١ مايو في الهند: اغتيال راجيف غاندي، الذي شغل منصب رئيس الوزراء من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٩.

١٢ يونيو في الاتحاد السوفيتي: انتخاب بوريس إلستين رئيسًا للفيدرالية الروسية. في اليوم نفسه، قرر الاستفتاء العودة لاسم المدينة القديم بيترسبورج، بدلاً من لينينجراد.

١٧ يونيو: افتتح فرانسوا ميتران المعرض الوطني في مبنى جو دي بوم، وهو عقار تاريخي شيده المهندس المعماري أنتوان سيتكو لعرض نماذج الفن الحديث المعاصر.

٢٤ يونيو: اكتشاف جثة جيسلان مارشال، وعبارة "عمر قتلني" مكتوبة على الحائط.

٢٥ يونيو في يوغوسلافيا: إعلان استقلال كرواتيا، وسلوفينيا. وبدأت الحرب في يوغوسلافيا الاتحادية.

٣٠ يونيو في جمهورية جنوب أفريقيا: إلغاء تشريع الفصل العنصري بصفة رسمية.

يوليو في الهند: عرضت الحكومة خطة تقشف مصحوبة ببرنامج مهم للاقتصاد الحر، وفتح القطاع الخاص للمستثمرين الأجانب.

٢٨ يوليو: فوز ميجيل إندورين بسباق فرنسا للدراجات، وتكرار تفوقه كل عام حتى ١٩٩٥.

٣١ يوليو في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي: وقع جورج بوش وميخائيل جورباتشوف معاهدة الحد من ترسانات الأسلحة النووية الإستراتيجية إلى الثلث.

٦ أغسطس في سويسرا: قدم تيم بيرنرز لي، اختراع الشبكة العنكبوتية إلى مختبر سيرن الفيزيائي.

١٩ إلى ٢١ أغسطس في الاتحاد السوفيتي: محاولة انقلاب من لجنة الدولة لحالة الطوارئ – لجنة أُعلنت ذاتيًا – لاستعادة مجد الاتحاد السوفيتي، وإلقاء القبض على الانقلابيين في ٢٢ أغسطس، وتعليق نشاط الحزب الشيوعي السوفيتي يوم ٢٣ أغسطس.

٣٠ أغسطس في الولايات المتحدة: فوز مايك باول في سباق القفز في بطولة العالم لألعاب القوى بطوكيو وتحقيق الرقم القياسي ٨,٩٥ متر، الذي لم يحطمه أحد من قبل.

٣ سبتمبر إلى ١٣ أكتوبر: في مدينة ليون، استعرض أول معرض بينالي للفن المعاصر "بعنوان "حب الفن"، مسيرة الإبداع في فرنسا.

٢٤ سبتمبر في الولايات المتحدة: صدر أول ألبوم غنائي لفرقة نيرفان بعنوان "سمالز لايك تين سبيريت". جمع الألبوم بين كلمات كورت كوبان الساخرة والمثيرة، وصوته الفريد والقوى، وموسيقى البانك والإيقاع العنيف لموسيقى الميتال، وحقق الألبوم نجاحًا منقطع النظير.

٣٠ أكتوبر إلى ٤ نوفمبر في الشرق الأوسط: انعقاد مؤتمر في مدريد كخطوة أولى من جانب المجتمع الدولي للتوصل لحل سلمي لمشكلة الشرق الأوسط، بحضور الوفدين الإسرائيلي والعربي الذي كان يضم وفدًا فلسطينيًا.

١٩ نوفمبر في المملكة المتحدة: صدور أول ألبوم غنائي لفرقة U2 بعنوان "آكتون بيبي"، الذي أُلف وسُجل جزء من أغانيه في ألمانيا. حقق الألبوم نجاحًا منقطع النظير في مجال الموسيقى الإلكترونية.

٢٠ نوفمبر في يوغوسلافيا: استولى الجيش الفيدرالي والوحدات شبه العسكرية، على مدينة فوكوفار الكرواتية بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وأُعدِم الرجال في سن القتال.

٨ ديسمبر في الاتحاد السوفيتي: بعد إعلان استقلال ١٣ دولة في العام نفسه، وقع رؤساء روسيا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا اتفاقًا لإنشاء تجمع الدول المستقلة، وأُعلن رسميًا يوم ٢٦ نهاية الاتحاد السوفيتي.

بعض الوفيات: سيرج جانسبورج (٢ مارس)، مارتا جراهام (١ أبريل)، أمادو هامباتي باع (١٥ مايو)، جون تينجلي (٣٠ أغسطس)، كلاوي باربي (٢٨ سبتمبر)، إيف مونتاد (٩ نوفمبر)، كلاوس كينسكي (٢٣ نوفمبر)، فريدي ماركوري (٢٤ نوفمبر)، بيرينيس آبوت (٩ ديسمبر).

جائزة نوبل للسلام: أونج سان سو كي.

جائزة نوبل للأدب: نادين جورديميه.

جائزة بريتزكر: روبرت فونتوري.

جائزة جونكور: بيار جومبسكو عن "بنات المحن"

مهرجان كان: السعفة الذهبية: لجويا وإيثان كوهين ؛ جائزة التحكيم الكبرى: جاك ريفيت عن "بستان الجوز".

جائزة الفلسفة الكبرى للأكاديمية الفرنسية: بول ريكور عن "كن كغيرك" ، وعن مجمل أعماله.

١٩٩٢

٢٠ يناير: تحطم طائرة من طراز A320، على جبل سان أوديل، ومقتل ٨٧ شخصًا.

٢٦ يناير إلى ٢٦ أبريل في الولايات المتحدة: أثار معرض متحف لوس أنجلوس للفن المعاصر بعنوان "تطريزات نسيجية: فن التسعينيات" جدلاً عن التحرر، والعنف ، والجنس الذي يطغى على المعروضات.

٢ فبراير في الجزائر: أعلنت اللجنة العليا للدولة حالة الطوارئ، وأُعلن في مارس حل الجبهة الإسلامية.

٨ إلى ٢٣ فبراير: تنظيم دورة الألعاب الأوليمبية في ألبرت فيل، وأعد حفل الافتتاح مصمم الرقص فيليب ديكوفليه.

٢١ فبراير في يوغوسلافيا السابقة: أنشأ مجلس الأمن القوة الدولية المكلفة باستعادة الأمن والتوصل لحل شامل للصراع. انتشرت تلك القوة في كرواتيا في بداية مهمتها، ثم تدخلت في البوسنة والهرسك عام ١٩٩٢، وفي مقدونيا عام ١٩٩٢.

٢ أبريل: تعيين بيار بيريجوفوي رئيسًا للوزراء.

٦ أبريل في يوغوسلافيا السابقة: حاصر جيش صرب البوسنة مدينة سراييفو. وفي الصيف، اكتُشفت "معسكرات" صرب البوسنة، التي تثبت عبارة "التطهير العرقي".

١٢ أبريل: افتتاح مدينة ملاهي ديزني لاند في مارن لا فاليه. وفي اليوم ذاتــه، توقفت أول قناة خاصة مجانية في فرنسا، عن البث.

٢٩ أبريل في أفغانستان: دخلت قوات القائــد مــسعود الإســلامية المعتدلــة، والظافرة مدينة كابول، ودخلت في مواجهات مع الحزب الأصولي لبشتوم جولبــودين حكمتيار المتمركز في الجنوب.

مايو في داكار: أبرز معرض بينالي الأول لفن داكار، عن عزمه إنتاج ونــشر فنه في القارة الأفريقية، والتأكيد على هوية فنانيه.

٥ مايو: انهيار منصة في ملعب فرياني لكــرة القــدم، ومقتــل ١٨ شخــصًا، وإصابة أكثر من ٢٠٠.

٢٣ مايو في إيطاليا: اغتيال القاضي جيفاني فالكون، المتخصص فــي قــضايا المافيا، في ضواحي باليرم.

٣٠ مايو: بدء البث المتزامن في فرنسا وألمانيا، لأول برامج قناة آرت الثقافية، الفرنسية / الألمانية.

٣ إلى ١٤ يونيو في البرازيل: اجتماع ١٣١ رئيس دولة في قمة الأرض فــي ريو لإقرار البرنامج رقم ٢١، الذي تضم قائمته ٢٥٠٠ توصية عمل للقــرن الحــادي والعشرين في صالح البيئة.

١٠ يونيو في اليابان: ابتكار اللعبة القتالية "فايتر اا: محارب العالم" ، بأسلوب كونسول السمعي، التي أبهرت مستخدميها برسوماتها التخطيطية، الملونة والتفــصيلية، ورسومها المتحركة الانسيابية، وسهولة استعمالها بواسطة ستة أزرار. حققــت اللعبــة بيع ملايين من الكونسول السمعي في العالم.

٢٩ يونيو في الجزائر: اغتيال الرئيس محمد بوضيف. بث رجــال المقاومــة التابعون للجماعة الإسلامية المسلحة، الرعب في بعض مناطق البلاد.

١ يوليو: تطبيق نظام رخصة القيادة وفقًا لنظام النقاط.

٢٥ يوليو إلى ٩ أغسطس في أسبانيا: إقامة الألعاب الأوليمبية في برشلونة، الأمر الذي يعني عودة أسبانيا إلى الساحة الدولية. كما شاركت لأول مرة، جمهورية جنوب أفريقيا التي كانت مستبعدة منذ ١٩٦٢ بسبب سياستها في الفصل العنصري.

سبتمبر في الولايات المتحدة: أطلق كالفين كلين، أول حملة دعاية له مع كيت موس، أيقونة النقاء الجنسي للمخنثين. بعد بضعة أيام أُلغيت الحملة المستفزة من قنوات التليفزيون.

٧ سبتمبر: افتتاح قاعة مناسبات في تولون بطاقة استيعابية تصل إلى ٨٨٧٥ مقعدًا. وتضاعفت تلك القاعات، في العقدين التاليين، في أرجاء فرنسا بطاقة استيعابية تبلغ ٦٠٠٠ مقعد لكل منها.

٢٠ سبتمبر: استفتاء على التصديق على اتفاقية ماستريخت بنسبة ٥١، ٥٠%؛ معاهدة إنشاء الاتحاد الأوروبي (بديلاً للجنة الأوروبية الاقتصادية).

٢٥ سبتمبر إلى ١٥ ديسمبر في الولايات المتحدة: تنظيم معرض "الوهم الكبير: روسيا والطلائع السوفيتية ١٩١٥ – ١٩٣٢"، الذي رُفض قبل ذلك بسبب الأحداث الدولية، في متحف سولومون جونجنهايم بنيويورك، مرورًا بفرانكفورت، وأمستردام.

٢٠ أكتوبر في الولايات المتحدة: صدور ألبوم مادونا "إروتيكا"، وفي اليوم التالي نشرت كتابها "الجنس".

٣ نوفمبر في الولايات المتحدة: انتخاب بيل كلينتون رئيسًا للجمهورية.

٢٥ نوفمبر: بدء عرض أولى حلقات برنامج "العدالة في فرنسا" – المقتبس من البرامج الأمريكية – الذي يلقي الضوء على مجرى العدالة داخل أروقة العدالة.

٩ ديسمبر في الصومال: بدء عملية "عودة الأمل"، بقوات تبلغ ٢٥٠٠٠ جندي أمريكي، وفقًا لقرار مجلس الأمن رقم ٧٩٤. وهو القرار الأول الذي ينص على إرسال قوة ذات أهداف إنسانية إلى دولة دون موافقتها.

١٧ ديسمبر في أمريكا الشمالية: توقيع الولايات المتحدة، والمكسيك، وكندا على اتفاقية التجارة الحرة التي دخلت حيز التنفيذ عام ١٩٩٤. جاءت الاتفاقية ردًا على إنشاء "الدرع الأوروبية" وفقًا لاتفاقية ماستريخت.

٢٩ ديسمبر في اليمن: تفجير يستهدف جنودًا أمريكيين في فندق بعدن، أسفر عن قتيلين؛ وهو أول اعتداء تعلن القاعدة مسئوليتها عنه.

بعض الوفيات: مارنا إيلينا فييرا دا سيلفا (٦ مارس)، إسحاق أزيموف (٦ أبريل)، أوليفييه مسيان (٢٧ أبريل)، فرنسيس بيكون (٢٨ أبريل)، مارلين ديتريتش (٦ مايو)، آرليتي (٢٣ يوليو)، ميشيل برجيه (٢ أغسطس)، جون كيج (١٢ أغسطس)، سيزر دوميلا (٣٠ ديسمبر).

جائزة نوبل للسلام: ريجوبرتا منشو توم.

جائزة نوبل للأدب: ديريك وولكوت.

جائزة بريتزكر: آلفارو سيزا.

جائزة جونكور: باتريك شاموازو عن "تكساكو"

مهرجان كان: السعفة الذهبية: بيل أوجست عن "النوايا الطيبة"؛ جائزة التحكيم الكبرى جياني أميليو عن "خطف الأطفال".

جائزة الفلسفة الكبرى للأكاديمية الفرنسية: جون لوك ماريون عن مجمل أعماله.

١٩٩٣

أول يناير في تشيكوسلوفاكيا: انقسام الدولة دون عنف إلى دولتين: جمهورية تشيك وسلوفاكيا، المعروف "بالانقسام المخملي". وبدء التطبيق الفعلي للسوق الأوروبية الموحدة.

٣ يناير في الولايات المتحدة / الاتحاد السوفيتي: نصت اتفاقية نزع السلاح النووي "ستارت اا" على التقليص الفعلي للأسلحة النووية الإستراتيجية.

فبراير: أصدرت دار نشر "سوي"، مؤلف "بؤس العالم"، تحت إشراف بيار بورديو؛ وهو تحقيق مختص في علم الاجتماع يكشف عن البؤس الاجتماعي المعاصر من خلال روايات معاصريه.

٢٦ فبراير في الولايات المتحدة: تفجير في برج التجارة العالمي، واتهام تنظيم القاعدة الإرهابي بارتكابه؛ وقد أسفر عن ستة قتلى وألف جريح.

أول مارس: تخطى الحد الرسمي للبطالة ثلاثة ملايين عاطل.

٢٨ مارس: المجلس المنبثق عن الانتخابات التشريعية، كان من أكثر المجالس انحيازًا لليمين في فرنسا منذ قرن. عين فرانسوا ميتران، إدوارد بالادور رئيسًا للوزراء، وكان ذلك ثاني دخول له إلى الوزارة.

١٩ أبريل في الولايات المتحدة: اقتحام مجمع طائفة "الدافيديين" (نسبة إلى مؤسس الطائفة دافيد قورش) في ضاحية وواكو، الذي أسفر عن مقتل ٨٦ شخصًا من بينهم "المسيح" رئيس الطائفة.

٢٠ أبريل: فوز فريق برونو بيرون للملاحة البحرية بكأس جول فيرن. لقد كان أول فريق ينجح في الطواف حول العالم في أقل من ٨٠ يومًا.

٢٦ أبريل: قامت شركة فرانس تيليكوم، خلفًا لشركة ستراسبورج، بالتسويق للتليفون المحمول " Bi – pop"، في باريس وليل، ونظرًا لتكلفته العالية، وارتفاع سعره تراجعت الشركة عن بيعه نهائيًا في عام ١٩٩٧.

أول مايو: انتحار بيار بيرجوفوي من على حافة قناة نيرفان. ذكرت الصحف معلومات عن قرض ثار حوله الجدل، وافق عليه روجر باتريس بيلات، صديق الرئيس الغني.

٨ مايو: افتتاح معرض "مربع الفن"، الذي نظمه نورمان فوستر.

١٣ إلى ١٥ مايو: إريك سميث، المعروف "بالرجل القنبلة" احتجز فصلاً في حضانة نوي سور سان كرهائن. سارع نيكولاي ساركوزي، عمدة المدينة، بالوصول إلى مبنى الحضانة، وأصدر أوامره باقتحام مقر الرهائن، وأسفرت "الغارة" عن قتل إريك سميث.

٢٢ مايو: أعلن لاعبو كرة القدم في فريق فالونسيان، عن عرض لقبول رشوة مقابل التخاذل في المباراة ضد أوليمبيك مارسيليا، الفريق الفائز في المباراة؛ وبدأت قضية "VA – Om" .

٢٢ إلى ٢٨ مايو في كمبوديا: إجراء الانتخابات التشريعية تحت إشراف الأمم المتحدة، كخطوة مهمة لاستعادة السلام. انتخبت الجمعية التأسيسية، الأمير سيهانوك رئيسًا للدولة.

٢٤ مايو: أعلنت إريتريا استقلالها، عقب استفتاء ٢٣ أبريل، الذي حصل على تأييد ٩٩,٨% من الأصوات.

٢٥ مايو: شكل مجلس الأمن المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، لملاحقة المسئولين عن الانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان على أراضي يوغوسلافيا السابقة منذ يناير ١٩٩١.

٨ يونيو: اغتيال رينيه بوسكيه، الأمين العام الأسبق لشرطة فيشي والمتورط في جرائم ضد الإنسانية، على يد أحد المختلين عقليًا والمتعطش للظهور الإعلامي، كريستيان ديدييه الذي سارع بعقد مؤتمر صحفي عن الحادثة.

٢٣ يونيو إلى ١٠ أكتوبر: تنظيم معرض البينالي الخامس والأربعين الذي نظمه الناقد الفني الإيطالي آشيل بونيتو أوليفا بعنوان "الجهات الأربع الأصلية للفن"؛ وهو المعرض الذي تأجل تنظيمه حتى عام ١٩٩٥ ليواكب العيد المئوي لهذه الاحتفالية.

يوليو في كوبا: بعد انتهاء الحرب الباردة، بلغت الأزمة الاقتصادية ذروتها، وأعلن فيدل كاسترو التداول الحر للدولار.

٥ يوليو في بريطانيا العظمى: أصدرت المغنية بيجورك ألبومها الغنائي الأول المنفرد "بداية".

١٤ يوليو في بلجيكا: تعديل الدستور البلجيكي لتصبح بلجيكا دولة فيدرالية.

٢٢ يوليو: صدور قانون لتعديل حق الحصول على الجنسية. وكان من أهم شروطه أن يكون الشخص مولودًا في فرنسا ومقيما بها، لإثبات الجدية وحق الحصول على الجنسية الفرنسية.

سبتمبر في الولايات المتحدة: وضعت إدارة كلينتون القواعد الواجب اتباعها في "نظام الطرق المعلوماتية السريعة" الذي يتيح للجميع حق الحصول على المعلومة. وأصبحت الشبكة العنكبوتية متاحة على نطاق أوسع بفضل مواقع التصفح، "موزاييك" (١٩٩٣)، و"نيتسكاب" (١٩٩٥)، و"إنترنت إكسبلورر" (١٩٩٥).

١٠ سبتمبر في الولايات المتحدة: عرض مسلسل "ملفات x" بطولة كريس كارتر، وجيليان أندرسون، ودافيد دوشوفني، على قناة فوكس تي في لأول مرة؛ الذي يروي تحقيقات عملاء المخابرات الأمريكية في القضايا الخارقة، والتي تبرز الحالات المهمة لانتهاك نظام الدولة، والمصالح السرية. بدأ عرض المسلسل في فرنسا في يونيو ١٩٩٤.

١٣ سبتمبر في الولايات المتحدة: عقب مفاوضات سرية بالتبادل في أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، وقع الطرفان في واشنطن، على إعلان مبادئ ينص على انسحاب تدريجي من الأراضي المحتلة في الضفة الغربية وغزة. وتصافح إسحاق رابين وياسر عرفات في لقاء تاريخي جمع بينهما.

٢٣ سبتمبر إلى ٤ أكتوبر في روسيا: أعلن الرئيس بوريس يلتسين، حل مجلس الدوما. اعتصم النواب الشيوعيون، والمحافظون المتطرفون داخل البرلمان

حتى اقتحام الجيش الروسي للمقر. أسفر هذا التمرد عن ١٨٠ قتيلاً، وفي ١٢ ديسمبر، أُقِر دستور روسيا الاتحادية بعد الاستفتاء عليه.

أكتوبر: أسس بعض النقابيين، والجمعيات المناضلة، والباحثين، جمعية النضال ضد البطالة والعمل المؤقت المعروفة ب AC.

٢ أكتوبر: تنظيم أول حفل راقص على الموسيقى الآلية في بيرسي، جمع بين راقصين ومتزلجين،، وتوالت بعد ذلك الحفلات حتى عام ١٩٩٨.

٣ – ٤ أكتوبر في الصومال: أسفرت معركة مقديشيو عن مئات الضحايا، وقتل ١٨ جنديًا أمريكيًا وجندي ماليزي من قوات حفظ السلام، وأُذيعت صور جثثهم التي سُحلت في الشوارع على العالم أجمع. أوضحت تلك المعركة فشل عملية "عودة الأمل".

١٤ نوفمبر في الصين: أقرت الجمعية العامة الثالثة للجنة المركزية الرابعة عشرة للحزب الشيوعي، "اقتصاد السوق الاشتراكي"، الذي يخول للحكومة حق التدخل في السياسة الاقتصادية بصفة أساسية، عبر مختلف الوسائل الاقتصادية.

١٨ نوفمبر: افتتح فرانسوا ميتران جناح ريشيليو في متحف اللوفر، في الذكرى المئوية الثانية للمتحف. وهكذا، أصبح اللوفر الكبير، أكبر متحف في العالم.

٣٠ نوفمبر إلى ٢٣ مايو ١٩٩٥: تواصل تنظيم معرض "بروس نيومان" على التوالي في مدريد، ومينابوليس، ولوس أنجلوس، وواشنطن ، ونيويورك.

١٥ ديسمبر في أيرلندا: أقر رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور، ونظيره الأيرلندي ألبرت رينولد حق تقرير المصير للأيرلنديين الشماليين، وانطلقت عملية السلام.

٢٠ ديسمبر: بعد صدور تقرير جون ماتيوللي عن "المعوقات الهيكلية للعمل" المعلن في ٤ أغسطس السابق، صدر قانون التعاقد للشباب أقل من ٢٦عامًا، بأجر يوازي ٨٠% من الأجر المقرر في العقود المؤقتة السابقة ، وذلك بعد سلسلة من

الاحتجاجات، التي أجبرت الحكومة في ٣٠ مارس ١٩٩٤، على إلغاء قانون عقود الشباب المؤقتة السابقة.

بعض الوفيات: ديزي جيليسبي (٦ يناير)، رودلف نوريف (٦ يناير)، أودري هيبورن (٢٠ يناير)، سيريل كولار (٥ مارس)، ليو فيري (١٤ يوليو)، ألفريد مانسييه (١ أغسطس)، فيديريكو فلليني (٣١ أكتوبر)، آشيل زافاتا (١٦ نوفمبر)، أنتوني بورجس (٢٥ نوفمبر)، بابلو إسكوبار (٢ ديسمبر)، فرانك زابا (٤ ديسمبر).

جائزة نوبل للسلام: نيلسون مانديلا، وفريدريك ويليام دي كليرك.

جائزة نوبل للأدب: توني موريسون.

جائزة بريتزكر: فوميهيكو ماكي.

جائزة جونكور: أمين معلوف عن "صخرة طانيوس".

مهرجان كان: السعفة الذهبية: مناصفة بين جان كابيو عن "درس البيانو"، وشين كيج عن "وداعًا خليلتي" ؛ جائزة التحكيم الكبرى: ويم وندرز عن "البعيد والقريب".

جائزة الفلسفة الكبرى للأكاديمية الفرنسية: إيزابيل ستيجنرز عن مجمل أعمالها.

١٩٩٤

أول يناير في المكسيك: اقتحم آلاف من المتمردين "الزاباتيست"، مدينة سان كريستوبال دي لاس كازاس (شياباس)، وكان على رأس المطالب التي تقدم بها زعيمهم، نائب القائد ماركوس، المطالب الاجتماعية والأهلية، فنال تأييدًا إعلاميًا، وجذب انتباه المجتمع العالمي لهذه المنطقة السياحية التي تتعرض لأزمة اقتصادية واجتماعية شديدة.

١٦ ينـــاير: اعترضت أعداد كبيـــرة تتـــراوح بـــين ٣٠٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠٠ شخص على قانون وزير التعليم ألفريد فالو لإصلاح التعليم، الذي يميــز بـــين التعلـــيم الخاص والعام.

٥ فبراير في يوغوسلافيا السابقة: انفجار قنبلة في سوق ماركـــال بـــسرايفو المحاصرة، وأسفر عن ٦٨ قتيلاً ومائة جريح. وعلـــى الـــرغم مـــن مـــصدر القنبلـــة المجهول، فقد اضطر الجيش الصربي – بضغط من حلف شمال الأطلنطـــي – إلـــى سحب الأسلحة الثقيلة من محيط سرايفو.

١٢ إلى ٢٧ فبراير في النرويج: تنظيم الألعاب الأوليمبية الـــشتوية فـــي ليلهـــامر، وذلك للمرة الأولى بالتناوب مع الألعاب الصيفية التي أُقيمت قبل ذلك بسنتين.

٢٥ فبراير في الشرق الأوسط: قتل مستعمر يهودي ٢٩ فلسطينيًا مـــن بيـــنهم تسعة أطفال، أثناء صلاتهم في ضريح البطارقة في الجليل، الحـــادث الـــذي أدى إلـــى تباطؤ المفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية. يوم ٦ أبريل ردت حمـــاس علـــى تلـــك الحادثة بعملية انتقامية أسفرت عن ثمانية قتلى، وهي أول عملية انتحارية ضد المدنيين اليهود.

أبريل: طرحت شركة رينو في الأسواق السيارة توينجو، بأربعة ألوان.

٦ أبريل في رواندا: اغتيال الرئيس جوفينال هاباريمانا، بعـــد الاعتـــداء علـــى طائرته. وبدأت على الفور ميليشيات "المتحدين للقتـــال" الإبـــادة العرقيـــة الممنهجـــة للتوتسي وللمعارضين الهوتو، بمساندة القوات المسلحة الرواندية.

٧ أبريل: نجحت أولى فعاليات رابطة مكافحة الإيدز، التي تهدف لجمع الأموال وتوعية الشعب بمرض الإيدز؛ تبرع أكثر من ١,٤ مليون شـــخص ب ٤٥,٧ مليـــون يورو. ولأول مرة تعرض قنوات التليفزيون الست الحدث في الوقت نفسه لمـــدة ســـت ساعات متواصلة.

١٩ أبريل: الحكم بالسجن المؤبد على بول توفييه، زعيم ميليشيات ليون المحتلة، وهو أول فرنسي يُدان بجرائم ضد الإنسانية.

٢١ أبريل: لجأت حكومة بالادور إلى "استطلاع وطني لرأي الشباب" عن أداء الحكومة، عبر إرسال الأسئلة بالبريد، وكان الرد مخيبًا للآمال الاجتماعية والإعلامية بإجماع ١,٥ مليون شاب من بين ٩ ملايين شاب تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين.

٢٦ إلى ٢٨ أبريل في جمهورية جنوب أفريقيا: انتخاب نيلسون مانديلا رئيسًا للبلاد بعد إجراء أول انتخابات متعددة الأعراق.

أول مايو: وفاة متسابق السيارات آرتون سينا في سباق فورميلا 1 البرازيلي بعد تعرضه لحادث أثناء مسابقة الجائزة الكبرى في سان مارتين.

٦ مايو في فرنسا / وبريطانيا العظمى: افتتحت الملكة إليزابيث الثانية والرئيس فرانسوا ميتران رسميًا أول نفق تحت المانش، الذي كان من أهم أحداث نهاية القرن، وقام بتنفيذه أكثر من ١٢٠٠٠ مهندس وفني وعامل مؤهل، بتكلفة إجمالية تقدر ب ٧٥ مليار فرنك.

١٠ مايو في إيطاليا: تقلد سيلفي بيرلسكوني للمرة الأولى منصب رئيس المجلس.

١١ مايو إلى ٤ سبتمبر: افتتح معرض ريتشارد أرتشوراجر المبنى الجديد من تصميم جون نوفل لمؤسسة كارتييه، في ٢٦١ شارع راسبيل بباريس.

١٧ يونيو في الولايات المتحدة: التصوير المباشر بالكاميرات لمطاردة شرطة لوس أنجلوس لاعب كرة القدم الأمريكي سيمبسون المتهم بجريمتي قتل. أثارت وسائل الإعلام الحادثة قبل القبض على المتهم ومحاكمته.

٢٢ يونيو في رواندا: موافقة الأمم المتحدة على إرسال قوة إنسانية، المعروفة "بعملية الفيروز"، لحماية المدنيين، والإشراف على توزيع المساعدات الإنسانية. غير أن هذا لم يمنع الهجرة الجماعية نحو جوما في زائير في منتصف شهر يوليو، للهرب من القوات الرواندية.

١ و ٢٩ يوليو: صدور ثلاثة قوانين خاصة بأخلاقيات المهن الطبية، تؤكد على المبادئ الأساسية لحماية الإنسان، وتحدد القواعد المنظمة لتقديم المساعدة الطبية لراغبي الإنجاب، والحمل المجهري، وتحمي الشخص الموافق على إجراء أبحاث طبية.

أول يوليو في الشرق الأوسط: عودة ياسر عرفات إلى الأراضي الفلسطينية بعد سبعة وعشرين عامًا في المنفى، وتأسيسه السلطة الفلسطينية، كحكومة مستقلة.

١٤ يوليو: عرض لموكب من جنود الجيش الأوروبي في الشانزليزيه، رمزًا للعلاقات التي تربط بين فرنسا وألمانيا.

٤ أغسطس: صدور قانون وزير الثقافة جاك توربون الخاص باستخدام اللغة الفرنسية، لحماية التراث اللغوي الفرنسي.

١٤ أغسطس في السودان: اختطاف شرطة مراقبة الطرق الفرنسية للإرهابي كارلوس، دون الحصول على إذن بتسليمه، وبموافقة الحكومة السودانية. وبدأت محاكمة كارلوس في ديسمبر ١٩٩٧.

١٢ سبتمبر: عقب صدور كتاب بيار بيان "الشباب الفرنسي: فرانسوا ميتران ١٩٣٤ – ١٩٤٧" رد الرئيس على الهواء مباشرة عبر قناة France 2، وعرض مسألة تجنيده أثناء الحرب العالمية الثانية. ظهرت كذلك في العام نفسه دراسة إريك كونان، وهنري روسو التي أثارت الجدل "فيشي: ماض لا يُنسى".

١٩ إلى ٢٢ سبتمبر في الولايات المتحدة: عرض أولى حلقات المسلسل "طوارئ" (الذي عُرض في فرنسا في ٢٧ يونيو ١٩٩٦)، وبعدها بعدة أيام، عُرض مسلسل "الأصدقاء"، الذي عُرض في فرنسا في ١٦ أبريل ١٩٩٦.

٢٢ سبتمبر في سويسرا: افتتاح معرض الفن الحديث والمعاصر (مامكو) في جنيف، الذي يعرض نموذجًا جديدًا للعرض المتنوع من حيث المساحات ومعلقات الدعاية، الخاصة بمجموعة المعروضات ذات الخلفية المتميزة.

أكتوبر في أفغانستان: سيطرت جماعة طالبان (طلاب علم ديني) على مدينة قندهار، وتحولها إلى قوة سياسية وعسكرية ذات شأن.

٥ أكتوبر في سويسرا: العثور على ٤٨ جثة لأتباع "عبدة الشمس" دون معرفة ما إذا كانت الوفاة ناتجة عن انتحار أم قتل. والعثور على خمس جثث أخرى في كندا يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٩٥، و١٦ حالة أخرى مشابهة، وخمس حالات أخرى يوم ٢٢ مارس ١٩٩٧.

١٠ أكتوبر في هاييتي: استقالة القادة العسكريين، بعد تعهد الولايات المتحدة بالهدنة، وعودة الرئيس جون برتران أريستيد إلى البلاد يوم ١٥ أكتوبر.

٣ نوفمبر: أعلنت مجلة باري ماتش عن وجود مازارين بينجو،الابنة الكبرى لفرانسوا ميتران.

ديسمبر في المكسيك: منح صندوق النقد الدولي ١٧,٨ مليار دولار قرضًا عاجلاً للمكسيك لمواجهة الأزمة المالية. وعلى الرغم من هذا، فقد امتدت الأزمة إلى "البلاد الواعدة".

١١ ديسمبر في الشيشان: دخول الجيش الروسي إلى البلاد، وبدء القصف المكثف لمدينة جروزني يوم ١٩، قبل اقتحامها يوم ٢٨.

١٤ ديسمبر في الصين: افتتحت السلطات موقع بناء سد الممرات الثلاثة، ليصبح أكبر سد مائي في العالم، يتطلب بناؤه، غمر ما يقرب من عشرين مدينة بالمياه، ونقل أكثر من ١,٥ مليون شخص.

١٨ ديسمبر: اكتشف خبراء المغارات، كهف شوفيه، ومنحوتاته الصخرية القديمة التي تعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام. استحوذت جمعية حق المستأجر على مبنيين شاغرين في سانت جرمان لإيواء أكثر من ١٢٦ شخصًا مشردًا، وأبرزت وسائل الإعلام هذا الخبر الهائل على نطاق واسع.

٢٨ ديسمبر: اختطفت الجبهة الإسلامية للجزائر، طائرة تابعة لشركة إير فرانس، في طريقها من الجزائر إلى فرنسا، وسيطرت قوة التدخل والشرطة الوطنية على الموقف بعد إعدام الإرهابيين لعدة رهائن.

٣١ ديسمبر: تفعيل اتفاقية السوق المشتركة "ميركوسور" التي تضم الأرجنتين، والبرازيل، وباراجواي، وأوروجواي.

بعض الوفيات: جون لويس بارو (٢٢ يناير)، بيار بول (٣١ يناير)، يان بيات (٢٥ فبراير)، شارل بوكوسكي (٩ مارس)، أوجين يونسكو (٢٨ مارس)، روبرت دوانو (١ أبريل)، كورت كوبان (٥ أبريل)، جون كارميه (٢٠ أبريل)، ريتشارد نيكسون (٢٢ أبريل)، آرتون سينا (١ مايو)، جاكي كينيدي (١٦ مايو)، مادلين رينو (٢٣ سبتمبر)، بيرت لانكستر (٢٠ أكتوبر)، جي ديبور (٣٠ نوفمبر).

جائزة نوبل للسلام: ياسر عرفات، وشيمون بيريز، وإسحاق رابين.

جائزة نوبل للأدب: كنزبارو أو

جائزة بريتزكر: كريستيان دي بورتزامبارك.

جائزة جونكور: ديدييه فان كاولرت عن "الرحيل البسيط".

مهرجان كان: السعفة الذهبي:، كينتي تارانتينو عن "نبض الخيال"؛ جائزة التحكيم الكبرى: مناصفة بين نيكيتا ميخالكوف عن "الشمس الخادعة"، وزانج يمو عن "الحياة".

جائزة الفلسفة الكبرى للأكاديمية الفرنسية: جيل دي لوز عن مجمل أعماله.

١٩٩٥

يناير: نشر فرانسوا كوسيه كتابه "ماضي الوهم؛ دراسة عن الفكر الشيوعي في القرن العشرين"، لتحليل "الوهم الشيوعي" و "أسطورة الاتحاد السوفيتي".

أول يناير: بعد توقيع ١١٢ دولة على جولة أوروجواي في ١٥ أبريـــل ١٩٩٤، تحولت منظمة التجارة إلى اتفاقية الجات. وثار الجدل حول المفهوم الثقافي الاستثنائي. في اليوم نفسه، انضمت النمسا وفنلندا والسويد إلى الاتحاد الأوروبـــي، الـــذي تحـــول بدوره إلى مجموعة الدول الخمس عشرة.

١٢ يناير: افتتاح مدينة الموسيقى وقاعتها الموســيقية، قبـــل افتتـــاح متحـــف الموسيقى في يناير ١٩٩٧. صمم المبنيين كريستيان بورتزمبارك.

١٧ يناير في اليابان: وقع زلزال في مدينة كوبه ومنطقتها، أسفر عن أكثر من ٦٤٠٠ قتيل.

٢٧ يناير: في ذكرى العيد الخمسين لتحرير مدينة أوشفيتز، ارتدت عارضـــات الأزياء البيجامات، وحلقن رءوسهن في العرض الذي قدمتـــه مـــصممة الأزيـــاء راي كاواكوبو عن الملابس المماثلة لأزياء الرجال؛ فاضطرت إلى الاعتذار عـــن تـــصرفها بعد ردود الفعل الغاضبة من الجمهور.

١٦ فبراير: افتتح معمل أبحاث متاحف فرنسا مبناه الجديد المنخفض ١٢ متـــرًا عن سطح الأرض، من تصميم المهندسين المعماريين جيروم برونيه وإريك ســـونييه، في متحف اللوفر.

٢ مارس في بريطانيا العظمى: القبض على سمـــسار بنـــك "بـــارينج بـــرازر" الهارب، نيك ليزون في مطار فرانكفورت. أفلس البنك بعد عمليات اختلاسه، واكتشف الرأي العام النفوذ المفرط لبعض " التجاريين".

٢٠ مارس في اليابان: وقوع خمسة اعتداءات بغاز السارين على مترو طوكيو ، ارتكبتها طائفة "أوم شنريكيو" وأسفرت الواقعة عن أكثـــر مـــن ١٢ قتـــيلاً و ٥٠٠٠ جريح. كما أصدر فون ترييه و توماس فينتربرج كتابًا بعنوان "نذر العفة" عن حركـــة "العقيدة ٩٥" للتصوير السينمائي، الرافضة للخدع السينمائية، والإضاءة غير الطبيعيـــة، وأسلوب ما بعد الحداثة للتزامن الصوتي والتصويري، وأساليب كثيرة غيرها.

٢٦ مارس في الاتحاد الأوروبي: تطبيق سبع دول لاتفاقية شنجن (ألمانيا، وبلجيكا، وأسبانيا، وفرنسا، ولوكسومبورج، وهولندا، والبرتغال)، التي تنص على حرية الخدمات وانتقال الأفراد بين دول الاتفاقية.

٢٨ مارس: صدور الألبوم الغنائي "باريس تحت القنابل" لفرقة الراب الموسيقية "إن تي إم". وكان المقصود "بالقنابل" مصممي رسومات الجرافيك الجدارية. كشف كذلك تيار الهيب هوب في الألبوم عن عنف الشرطة، وتناول أحداث الساعة السياسية. في عام ١٩٩٦، أُدينت الفرقة الموسيقية "بسب وقذف مسئولي السلطة السياسية". وانقسم الرأي العام تجاه القضية، وثار الجدل حول إدانة فرقة موسيقية تعبر بكلمات أغنياتها عن وجهة نظرها في الأحداث التي تقع في الضواحي.

٣٠ مارس: افتتح فرانسوا ميتران المكتبة التي تحمل اسمه في باريس، التي صممها المهندس المعماري دومينيك بيرو على شكل أربعة كتب مفتوحة، ولم تستقبل جمهور القراء إلا في نهاية عام ١٩٩٦.

٣٠ مارس إلى ٢٩ أكتوبر في روسيا: عرض المعرض بعنوان "استرداد الكنوز: روائع الفن التعبيري وروائع فرنسية أخرى محفوظة في متحف التراث الداخلي"، أربع وسبعون قطعة نسيج ألماني استولى عليها الجيش الأحمر السوفيتي من النازيين، تُعرض معظمها للمرة الأولى. تساءلت الأوساط الثقافية عن الضرورة التي تستوجب عرض الأعمال الفنية التي صدرت في الحروب؟

١٩ أبريل في الولايات المتحدة: فجر المتطرف اليميني تيموثي ماك فيش قنبلة أسفل المبنى الفيدرالي، أسفرت عن ١٦٨ قتيلاً وأكثر من ٦٠٠ مصاب. كانت تلك الحادثة من أهم "الاعتداءات التي ارتكبها مواطن " على الأراضي الأمريكية.

٢٧ أبريل في الولايات المتحدة: بدأ تطبيق النظام العالمي لتمركز الأقمار الصناعية، بواسطة ٢٨ قمرًا صناعيًا تدور حول الكرة الأرضية. توافر النظام في بدايته للتطبيقات التكنولوجية العسكرية ، ثم أُتيح بعد ذلك للاستخدامات المدنية.

٧ مايو: فوز جاك شيراك في الانتخابات الرئاسية بأغلبية ٥٢,٦٤% على منافسه ليونيل جوسبان. وفي ١٧ مايو أصبح آلان جوبيه رئيسًا للوزارة.

٢٦ مايو في يوغوسلافيا السابقة: ردًا على الغارات الجوية التي شنها حلف شمال الأطلنطي، أسرت قوات صربيا البوسنة مئات من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، واستخدمتهم دروعًا بشرية.

٣١ مايو: عرض فيلم "الحقد" لماتيو كازوفيتز في السينما. وعلى غرار فيلم جون فرانسوا ريشيه "الحالة الواقعية" الذي أُخرج أيضًا عام ١٩٩٥، ألقى الفيلم الضوء على الواقع الاجتماعي / السياسي للضواحي كشريك كامل في الوضع الاجتماعي.

أول يونيو في زائير: تفشي وباء فيروس إيبولا، ووفاة ١٦٤ شخصًا منذ بداية العام. وصلت نسبة الوفيات في نهاية الوباء إلى ٢٥٠ حالة.

١١ إلى ١٨ يونيو: فوز الجبهة الوطنية للمرة الأولى بانتخابات المحليات في أورانج، وماريجان، وتولون.

١٢ يونيو إلى ١٥ أكتوبر: إقامة معرض بينالي فينيسيا السادس والأربعين، احتفالاً بالذكرى المئوية للمعرض، برئاسة الفرنسي جون كلير الذي ألقى كلمة عن موضوع "الهوية الذاتية والغيرية"، وأُسند تنظيم الجناح الفرنسي إلى سيزار.

١٣ يونيو: أعلن الرئيس جاك شيراك استئناف التجارب النووية على جزيرتي موروروا، وفانجاتوفا في المحيط الهادي، وأُجريت بالفعل ست تجارب حتى ٢٧ يناير ١٩٩٦.

١٧ يونيو في ألمانيا: قام كريستو بكسوة مبنى الرايخ الألماني في برلين بنسيج فضي كثيف، وظل المبنى بالفعل على هذا الحال لمدة خمسة عشر يومًا.

٢٤ يونيو: ضمت مسيرة يوم الشواذ العالمي الباريسية أكثر من ٦٠٠٠٠ متظاهر، أي ضعف العام السابق. امتدت الحركة إلى المحافظات في راين ومارسيليا وتولوز ونانت ومونبولييه. واتسعت التغطية الإعلامية، وانفصل الأيديولوجيون عن الحركة.

٢٩ يونيو في مجال الفضاء: ربط المكـوك الفـضائي أطلانتـيس بالمحطـة الروسية "مير".

٤ يوليو: أصدر عمدة مدينة روشيل قرارًا يقضي بحظر التسول فـي المدينـة؛ وتبعه بعض نظرائه لمنع هذه الظاهرة بعيدًا عن مقتضيات مناصبهم السياسية. احتلت ظاهرة التسول وعدم الأمان بعد ذلك مساحة كبيرة في وسائل الإعلام.

١١ يوليو في يوغوسلافيا السابقة: توغل قوات صـرب البوسـنة فـي بلـدة سيريبرينكا الواقعة تحت حماية الأمم المتحدة، وقتل أكثر من ٨٠٠٠ شخص.

١٦ يوليو: إقرار جاك شيراك بمسئولية الدولة الفرنسية عن إجلاء اليهود مـن البلاد أثناء الحرب العالمية الثانية.

٢٥ يوليو: انفجار قنبلة في محطة سانت ميشيل للقطار الـسريع ارتكبتـه الجبهـة الإسلامية الجزائرية، أسفر عن ثمانية قتلى ومائة جريح؛ وهو أول وأكبر حادث قتـل فـي سلسلة الاعتداءات الثمانية التي هزت فرنسا في الفترة من يوليو إلى أكتوبر.

٢٤ أغسطس: طرحت شركة مايكروسوفت نظام ويندوز ٩٥.

٢٧ سبتمبر: تعنيف المجلس الأعلى للإعلام السمعي / المرئي لقناة التليفزيـون TF1على برنامج "اوزون" لباتريك سيباستيان، الذي قام خلاله مقلد الشخصيات بتقليـد صوت جون ماري لوبان مرددًا بعض الجمل العنصرية، التي أطلقت ضحكات رئـيس الجبهة الوطنية.

٢٨ سبتمبر في الشرق الأوسط: توقيع إسحاق رابين وياسـر عرفـات علـى اتفاقية أوسلو ٢ التي تنص على تحقيق الاسـتقلال الـذاتي للفلـسطينيين والانـسحاب تدريجيًا من بعض الأراضي المحتلة.

١٦ أكتوبر في الولايات المتحدة: ضمت المسيرة المليونية مان مارش ما يقرب من ٨٠٠٠٠ فرد لجذب انتباه السياسيين على الوضع الاجتماعي / الاقتصادي للأفارقة الأمريكان.

٤ نوفمبر في الشرق الأوسط: اغتيال رئيس الوزراء إسحاق رابين علـــى يـــد شاب إسرائيلي متطرف، وتباطؤ عملية السلام.

١٥ نوفمبر: أعلن آلان جوبيه، وسط مناخ اجتماعي متوتر (إضرابات يومية في شهري أكتوبر ونوفمبر) عن خطتة في الإصلاح التي تـــشمل المعاشـــات والـــضمان الاجتماعي. عمت المظاهرات والإضرابات مدن فرنسا جميعها حتـــى نهايـــة العـــام، فاضطر جوبان لإلغاء الجزء الخاص بالمعاش التقاعدي في شهر يناير.

٥ ديسمبر: أعادت فرنسا تشكيل مجلس الوزراء واللجنة العسكرية لحلف شمال الأطلنطي.

١٤ ديسمبر في يوغوسلافيا السابقة: توقيـــع رؤســـاء البوســـنة، وكرواتيـــا، وصربيا على اتفاقية دايتون للسلام.

٢٤ ديسمبر في تركيا: فوز حزب الرفاه الإسلامي بالانتخابات التشريعية.

بعض الوفيات: دينيس فايول (٢٤ مارس)، إميل سيوران (٢٠ يونيـــو)، بيـــار شيفر (١٩ أغسطس)، جون لوك لاجارس (٣٠ سبتمبر)، جيل دي لوز (٤ نـــوفمبر)، لويس ماي (٢٣ نوفمبر)، ليون زيترون (٢٥ نوفمبر).

جائزة نوبل للسلام: جوزيف روبلات، ومحاضرو مؤتمر بوغواش عن العلـــوم وعالم الأعمال.

جائزة نوبل للأدب: سيموس هيني.

جائزة بريتزكر: تاداو آندو.

جائزة جونكور: أندريه ماكين عن "الوصية الفرنسية".

مهرجان كان: السعفة الذهبية: أمير كوستاريكا عن "أندرجراوند". جائزة التحكيم الكبرى: ثيو أنجليبولوس عن "نظرة يوليسيس".

١٩٩٦

٩ فبراير إلى ١٢ مايو: نظم متحف جوجنهام بنيويورك المعرض الأول عن الفن التجريدي بعنوان "الفن التجريدي في القرن العشرين: المجازفة، والحرية، والنظام"، كاتجاه متواصل طوال القرن العشرين.

١٠ فبراير في الولايات المتحدة: واجه جاري كاسباروف، بطل العالم في الشطرنج، ديب بلو، مبرمج الكمبيوتر بشركة آي بي إم ، وفاز في المباراة التالية عام ١٩٩٧، كانت النتيجة غامضة.

١٢ فبراير: حكمت اللجنة الاجتماعية لأساقفة فرنسا، "بضرورة" ارتداء الواقي الذكري للوقاية من مرض الإيدز. ظهرت في السنة التالية نتائج العلاجات المبهرة، في فترة التجارب، التي أحيت الآمال الكبيرة.

٢١ فبراير: افتتاح البيت الأوروبي للتصوير الفوتوغرافي في باريس.

٨ إلى ٢٠ مارس: أزمة الصواريخ بين الصين وتايوان. مع اقتراب الانتخابات الرئاسية في تايوان، قامت الصين بمناورات حربية مهمة، وأطلقت صواريخ بعرض الجزر التايوانية، فأرسلت الولايات المتحدة حاملتي طائرات إلى المنطقة.

١٢ مارس في كندا: أصدرت سيلين ديون الألبوم الغنائي "فولينج إينتو يو"، الذي حقق أكبر مبيعات في قائمة الألبومات الموسيقية العشرين الأكثر مبيعًا.

٢٠ مارس في بريطانيا العظمى: أعلن وزير الصحة للشعب أن "الالتهاب السحائي للماشية" ينتقل للإنسان في صورة مرضية جديدة تُعرف بكروتزفيلد جاكوب. وبدأت أزمة "جنون البقر"، التي دفعت العديد من الدول الأوروبية إلى حظر استيراد الماشية.

١٦ أبريل في جمهورية جنوب أفريقيا: بدأت لجنة "الحقيقة والمصالحة" جلسات الاستماع برئاسة القاضي ديمون توتو. من أبرز مهام اللجنة، إدارة الوضع السياسي والقضائي السابق للبلاد لتحقيق المصالحة والوحدة الوطنية.

١٨ أبريل: إعلان خطاب تأييد بيار رئيس القساوسة لروجر جارودي على الملأ. عند استدعاء العضو السابق البارز في الحزب الشيوعي الفرنسي للشهادة في شهر يناير، نفى التهم الموجهة إليه، لكنه أدين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية في فبراير ١٩٩٨.

٢١ مايو في الجزائر: صدور بيان بإعدام الرهبان الفرنسيين السبعة لدير لاتراب، المختطفين قبل شهرين في تيبحيرين. وفي محاولة للتلاعب بالرأي العام الدولي، لم تعلن أية جهة مسئوليتها عن الحادث ، سواء من الإرهابيين الإسلاميين، أو جهاز المخابرات الجزائرية.

٥ يوليو في المملكة المتحدة: الإعلان في أدنبورج عن ميلاد النعجة دوللي، أول حيوان ثديي يُستنسخ من خلية حيوانية ناضجة، ونفوقها في عام ٢٠٠٣ بعد إصابتها بالشيخوخة المبكرة. مهدت هذه العملية الطريق للأبحاث الجينية العلاجية.

١٩ يوليو إلى ٤ أغسطس في الولايات المتحدة: بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوي للألعاب الأوليمبية، استضافت أطلانطا، مدينة كوكاكولا وقناة سي إن إن، الألعاب الأوليمبية الصيفية. وانتهى الاحتفال الأمريكي العظيم بمحاولة تفجير قنبلة في ٢٧ يوليو.

٢٣ أغسطس: نجاح قوات حفظ النظام في إجلاء ٣٠٠ شخص لا يحملون بطاقات إثبات هوية – من بينهم ستة مضربين عن الطعام من أجل الجوع – من كنيسة سانت برنار بباريس. اندلعت مظاهرات المؤيدين للأفارقة داخل وخارج الكنيسة.

سبتمبر: صدور جريدة "لومانيتيه"، أول صحيفة يومية إلكترونية فرنسية. سبقها في ذلك، مجلة "ليبيراسيون"، التي أنشأت موقعها الإلكتروني على "الويب" عام ١٩٩٥، و"لوموند" عام ١٩٩٦.

أول أكتوبر في سويسرا: أطلق سبعة قضاة أوروبيين نداء من جنيف، لإنشاء فضاء قضائي أوروبي يكفل لهم حرية محاربة الفساد الدولي وغسيل الأموال.

١٨ أكتوبر: تعديل أرقام التليفونات من ثمانية إلى عشرة أرقام.

٢٠ أكتوبر في بلجيكا: انطلاق "المسيرة البيضاء" التي ضمت ٥٠٠٠٠٠ فرد من أجل مساندة عائلات ضحايا المنحرف جنسيًا مارك ديترو، وحجب الثقة عن المؤسسات المسئولة. ارتدى المتظاهرون الملابس البيضاء، والتزموا الصمت للتعبيرعن رأيهم.

٢ نوفمبر في ألمانيا: افتتاح متحف الفن المعاصر عن فن هامبورج بانهوف في برلين، وأطلق عليه اسم فور جيجنورت إشارة للمؤسسة التي أغلقها النازيون عام ١٩٣٧، المخصصة لفن ذلك العصر.

٣ ديسمبر في فرنسا: اعتداء على محطة القطار السريع بمحطة بورت روايال أسفر عن ٤ قتلى و١٧٠ جريحًا، ونُسب للجبهة الإسلامية الجزائرية مثل حادثة عام ١٩٩٥.

١٩ ديسمبر إلى ٧ أبريل ١٩٩٧: اهتمام معرض "واجهة التاريخ: ١٩٣٣ – ١٩٩٦" في مركز بومبيدو، بوجهة نظر الفنان المعاصر عن الأحداث السياسية المهمة.

بعض الوفيات: فيليكس جونزاليز تور (٦ يناير)، ديوان هانسون (٦ يناير)، فرانسوا ميتران (٨ يناير)، رومان سيليويز (٢١ يناير)، مارجريت دوراس (٣ مارس)، ليو ماليه (٣ مارس)، كريستوف كيلويسكي (١٣ مارس)، روبرت هرسنت (٢١ أبريل)، جون ماري ريفيار (٢٣ أبريل)، سول باس (٢٥ أبريل)، إيلا فيتزجيرالد (١٥ يونيو)، مدام سولاي (٢٧ أكتوبر)، مارسيل كارنيه (٣١ أكتوبر)، جورج دوبي (٣ نوفمبر)، دان فلافين (٢٩ نوفمبر)، مارسيلو ماستروياني (١٩ ديسمبر).

جائزة نوبل للسلام: كارلوس فيليب كزيمينيس بيلو، وجوزيه راموس هورتا.

جائزة نوبل للأدب: ويسلاوا شيمبورسكا.

جائزة بريتزكر: رافائيل مونوي.

جائزة جونكور: باسكال روزيه عن "الصائد رقم صفر".

مهرجان كان: السعفة الذهبية: مايك ليبخ عن "أسرار وأكاذيب"؛ جائزة التحكيم الكبرى: لارس فون ترييه عن "كسر الأمواج".

جائزة الفلسفة الكبرى للأكاديمية الفرنسية: رونيه جيرار عن مجمل أعماله.

١٩٩٧

يناير في كوريا الجنوبية: اندلاع أكبر مظاهرات وإضرابات شهدتها البلاد، بعد تبني الجمعية الوطنية في ٢٦ ديسمبر إجراءات تقشف اجتماعي.

١٢ فبراير: أعلن آلان جوبيه حظر استخدام البذور المهجنة في زراعة الذرة. وفي ٨ أبريل، أعلن البرلمان الأوروبي وقف تجارة الذرة المهجنة لحين إثبات صلاحيتها كمنتج غير ضار بالصحة.

٢٢ فبراير: تظاهر أكثر من ١٠٠٠٠٠ شخص في باريس اعتراضًا على مشروع قانون عن الهجرة يقضي بسحب جوازات السفر والإقامات، واستبدالها بأخرى مدون عليها بيانات وبصمة الأجانب، حتى المطالبين بإقامة ليوم واحد. عُرض "قانون دوبريه" للاستفتاء في ٢٤ أبريل.

٢٦ فبراير في سويسرا: إنشاء صندوق ضحايا العنف النازي ضد اليهود المحتاجين للمساعدة، بتمويل من البنوك والأوساط الاقتصادية، وبإدارة المجلس الفيدرالي.

٢٦ فبراير في بلجيكا: أعلنت مؤسسة رينو إغلاق فرعها في مدينة فيلفورد فاندلع حشد النقابات الأوروبية لأول مرة.

٢٨ مارس: صدور قرار الأمم المتحدة رقم ١١٠١، لإرسال قوات متعددة الجنسيات إلى ألبانيا.

٢١ أبريل: أعلن الرئيس جاك شيراك حل الجمعية الوطنية ودعا إلى انتخابات تشريعية، فاز بها حزب اليسار، وعُين ليونيل جوسبان رئيسًا للوزراء.

٢ مايو في المملكة المتحدة: انتخاب توني بلير رئيسًا للوزراء، لينهي بذلك ثمانية عشر عامًا من حكم المحافظين.

١٣ مايو: طرحت شركة آي بي إم مدونة الكمبيوتر المحمول ثينك باد ٣٨٠ التي تحتوي على القرص المضغوط CD- ROM ، وقرص صلب، وقارئة أسطوانات؛ الأمر الذي سهل على المستخدم عملية فصل وحدة برمجية لاستخدام أخرى.

٢٣ مايو في إيران: انتخاب الإصلاحي محمد خاتمي رئيسًا للجمهورية الإسلامية، فأحيا الأمل في مزيد من الحريات المدنية، وتحسين وضع المرأة.

٢٨ مايو في جمهورية الكونغو الديمقراطية: بعد الاستيلاء على كينشاسا، تغير اسم زائير. ونصب لوران ديزيريه كابيلا نفسه رئيسًا للبلاد، لينهي سلطة موبوتو الحاكمة منذ عام ١٩٦٥.

١٥ يونيو إلى ٩ نوفمبر: إقامة المعرض البينالي السابع والأربعين، بعنوان "المستقبل، والحاضر، والماضي"، برئاسة الناقد جيرمانو سيلان. عُهِد إلى فابريس هايبر بالجناح الفرنسي الذي يحمل اسم "ماء الذهب".

١٦ يونيو في المملكة المتحدة: طرح الألبوم الغنائي " أوكيه كمبيوتر"، الذي أبرز فرقة "راديوهيد" كأفضل فرقة مبتكرة في التسعينيات.

١٦ – ١٧ يونيو في الاتحاد الأوروبي: توصل المجلس الأوروبي في أمستردام إلى توافق الرأي حول إنشاء وثيقة عن الاستقرار والنمو (تتضمن معايير عجز الموازنة الأقل أو المعادل ٣% من إجمالي الناتج المحلي؛ والدين العام الأقل أو المعادل ٦٠%)؛ واتخاذ قرارات تتعلق بالنمو والعمل، والتقدم.

٢١ يونيو إلى ٢٦ سبتمبر في ألمانيا: تنظيم معرض الفن الحديث والمعاصر بمدينة كاسل بعنوان " نظرة مرجعية على المستقبل". دافعت مديرة المعرض الفنانة كاترين دافيد عن مجلة "ريتروسبيكتيف" التي تنقد الخمسين عامًا الأخيرة المبشرة بالمستقبل.

٢٦ يونيو في المملكة المتحدة: كتب رولينج الجزء الأول "هاري بوتيه"من مسلسل "لا ساجا".

٢٦ يونيو إلى ٩ سبتمبر في الولايات المتحدة: إقامة معرض الفن الحديث في نيويورك عن رسامي الجداريات "جون كورين، وإليزابيث بيتون، ولوك تويمانز"، الذي يُمثّل عودة فن الجداريات إلى الساحة الدولية. كما عرض المعرض عمل المصورة "سيندي شيرمان: فيلم البطولة الجماعية لا يزال موجودًا"، وهو عمل منفرد ومهم لمصورة تبلغ من العمر ٤٣ عامًا.

أول يوليو في الصين: إقامة الاحتفالات الصاخبة بمناسبة تنازل المملكة المتحدة عن هونج كونج وتسليمها للصين.

٢ يوليو في تايلاند: قرر بنك تايلاند المركزي تعويم عملته، بعد المضاربات على عملة الباهت. وبدأت الأزمة الاقتصادية والمالية التي امتدت إلى دول جنوب شرق آسيا، وتدريجيًا إلى اليابان وروسيا.

٤ يوليو في الفضاء: هبوط العربة المتجولة على كوكب المريخ، واستقرارها على سطحه لاكتشاف أرضه وصخوره، وللتعرف بصورة أفضل على مكونات وجيولوجيا الكوكب.

١٣ يوليو في أسبانيا: تظاهر ستة ملايين شخص ضد حزب إيتا عقب اغتيال الشاب مايكل أنجل بلانكو، مستشار محليات مدينة إرما في أسبانيا.

٣١ أغسطس: وفاة الأميرة ديانا، أميرة ويلز في حادث سيارة بباريس.

١٥ سبتمبر في الولايات المتحدة: قرر لاري بيج وسيرجي برين، تحديد مجال محرك البحث لموقعهما الإلكتروني جوجل دوت كوم.

٢٦ سبتمبر في إيطاليا: ضرب زلزال مدينة أسيزي، ودمر جزءًا من الرسومات الجدارية لجيوتو وسيمابو في الكاتدرائية الكاثوليكية سانت فرانسوا.

أكتوبر: افتتاح مركز التدريب على الفنون المعاصرة داخل مبنى أعاد ترميمه المهندس المعماري برنار سومي.

٨ أكتوبر: بدء محاكمة موريس بابون، سكرتير عام مقاطعة جيروند أثناء الاحتلال، وإدانته في شهر أبريل بجرائم ضد الإنسانية.

١٦ أكتوبر إلى ٩ نوفمبر: عرضت قاعة "لا فييات" لأول مرة مجموعة الأعمال الثقافية الحضرية التي تعبر عن الفنون التعبيرية الجديدة للضواحي والأحياء الفقيرة: رقص الهيب هوب، والموسيقى، والمسرح.

١٧ أكتوبر في أسبانيا: افتتاح متحف جوجنهام دي بيلباو من تصميم المهندس المعماري فرانك جيري، وهو أحدث أعمال "كوكبة جوجنهام" التي تجمع هويات قوية حول مجموعة واحدة (نيويورك، وفينيسيا، وبيلباو).

١٨ أكتوبر في سويسرا: افتتاح مبنى بيلر، من تصميم المهندس المعماري رينزو بيانو، بالقرب من بازل وعرض المجموعة الشخصية لتاجر التحف إرنست بيلر، بالإضافة لبعض المعروضات الأخرى.

٢٨ أكتوبر: تعديل قانون الخدمة الوطنية، بوقف الاستدعاء للخدمة العسكرية، واستبداله "بالدعوة ليوم من أجل التأهيل للدفاع"، ليشمل الفتيات.

١١ نوفمبر: أقر بالإجماع المؤتمر العام التاسع والعشرون لليونسكو، الإعلان العالمي عن نوع الجنس وحقوق الإنسان. إنه أول نص قانوني دولي عن أخلاقيات البيولوجيا .

١٧ نوفمبر في مصر: اغتيال ٦٢ شخصًا في الأقصر من بينهم ٥٨ سائحًا أجنبيًا على يد فدائي إسلامي، ولا تزال الآثار المترتبة على ذلك الاعتداء مستمرة.

ديسمبر: نشر إيجناسيو رامونيه، مدير جريدة "لوموند" الشهرية، مقالاً افتتاحيًا بعنوان "نزع سلاح الأسواق"، دعا فيه إلى إنشاء رابطة لمساعدة المواطنين لمواجهة الضريبة التي فرضها توبان.

١١ ديسمبر في اليابان: توقيع ١٨٣ دولة على بروتوكول كيوتو لتحديد أهداف ومهلة الحد من انبعاثات الغاز في الدول الصناعية، ووضع الآليات المرنة التي تشمل أسواق منح التصاريح التي يمكن التفاوض معها.

١٩ ديسمبر في الولايات المتحدة: عرض فيلم تايتانيك لجيمس كاميرون في السينما (٧ يناير في فرنسا)، وهو ثاني أكبر نجاح لشركة الإنتاج السينمائي بوكس أوفيس العالمية.

بعض الوفيات: أندريه فرانكين (٥ يناير)، مارتين كيينبرجر (٧ مارس)، نتوريوس بيج (٩ مارس)، فيكتور فاسيريلي (١٥ مارس)، ويليم دي كونينج (١٩ مارس)، آلان جينسبرج (٥ أبريل)، جاك إيف كوستو (٢٥ يونيو)، فرانسوا فوريه (١٠ يوليو)، جياني فيرساش (١٥ يوليو)، دورا مار (١٦ يوليو)، ويليام بوروج (٢ أغسطس)، جان كالمون (٤ أغسطس)، ألدو روسي (٣ سبتمبر)، الأم تيريزا (٥ سبتمبر)، روي ليشتنستين (٢٩ سبتمبر)، جورج مارشيه (١٦ نوفمبر)، باربرا (٢٥ نوفمبر).

جائزة نوبل للسلام: جوي ويليامز عن الحملة الدولية عن الألغام الأرضية.

جائزة نوبل للأدب: داريو فو.

جائزة بريتزكر: سفيري فين.

جائزة جونكور: رامبو عن معركة باتريك.

مهرجان كان: السعفة الذهبية: مناصفة بين شوهي إيمامورا عن "الربقة"، وعباس كياروستامي عن "طعم الكريز"؛ جائزة التحكيم الكبرى: آتوم إيجويان عن "الغد الجميل"؛ وجائزة المهرجان في العيد الخمسين للمهرجان يوسف شاهين عن "المصير".

١٩٩٨

١٦ يناير: أصدرت الفرقة الموسيقية "إير" ألبومها الغنائي "مون سافاري".

٢٨ يناير: افتتاح استاد فرنسا في سانت دينيس، من تصميم أربعة مهندسين معماريين: ميشيل مكاري، وإيميرك زوبلينا، وميشيل ريجيمبال، وكلود كوستانتيني، بسعة ٨٠٠٠٠ متفرج.

٦ فبراير: اغتيال كلود إيرينياك، حاكم مقاطعة كورسيكا، في مدينة أجاكسيو. أثبتت التحقيقات تورط أحد الفدائيين المستقلين في الاعتداء.

٧ إلى ٢٢ فبراير في اليابان: إقامة الألعاب الأوليمبية الشتوية في ناجانو، وإدراج التزحلق على الجليد و الكيرلنج في برنامج الأوليمبيات.

أول مارس في ماليزيا: إتمام بناء البرجين التوأمين في كوالامبور من تصميم المهندس المعماري الأرجنتيني سيزار بيلي، كأعلى مبنيين في العالم حتى عام ٢٠٠٤.

٢٠ مارس: في ختام انتخابات الأقاليم والمقاطعات، انتُخب أربعة رؤساء للمنطقة اليمنى بتأييد من الجبهة الوطنية، على الرغم من اعتراض الرئيس جاك شيراك.

١٠ أبريل في المملكة المتحدة / أيرلندا: توقيع اتفاقية السلام المعروفة "بالجمعة المقدسة" بين الحكومتين البريطانية والأيرلندية، ومعظم القوى السياسية لأيرلندا الشمالية، التي تنص على الحكم الذاتي لسكان أيرلندا الشمالية، وإنشاء مؤسسات مستقلة، ونزع سلاح المقاطعة.

٣٠ أبريل: صدور ألبوم "كلوندستينو" لمانو شاو، الذي يجمع بين الموسيقى اللاتينية، والريجا، والراب، والتكنو، وأنماط أخرى.

٤ مايو: تشييد بناية عامة وتخصيصها للنهوض بثقافة الكاناك، وافتتاح مركز ثقافي من تصميم رينزو بيانو في نوميا بإقليم كاليدونيا الجديدة. يوم ٥ مايو، توقيع الاتفاقية التي تنص على نقل بعض الاختصاصات من فرنسا إلى كاليدونيا الجديدة وإجراء استفتاء على الحكم الذاتي للإقليم.

٦ مايو: اندلاع الحرب بين أثيوبيا وإريتريا، التي أسفرت عن ٨٠٠٠٠٠ قتيل في عامين.

١١ إلى ١٣ مايو في الهند: إجراء خمس تجارب نووية، وردت باكستان بسلسلة من التجارب من ٢٨ إلى ٣٠ مايو. أعرب المجتمع الدولي عن قلقه إزاء الوضع.

أول يونيو: إنشاء البنك المركزي الأوروبي، ومقره فرانكفورت.

١٣ يونيو: حدد قانون أوبري مدة العمل الأسبوعية ب ٣٥ ساعة، على أن يبدأ تنفيذه في أول يناير ٢٠٠٠ في المؤسسات التي تضم أكثر من ٢٠ عاملاً، ويُطبق على سائر المؤسسات في يناير ٢٠٠١.

١٢ يوليو: فوز فريق كرة القدم " البلو" في استاد فرنسا ٣ - صفر على فريق البرازيل، الذي لم يُهزم من قبل. عمت مظاهر الفرح البلاد بفوز الفريق الذي يضم "السود والبيض والفرنسيين من أصل عربي"، ويعبر في آن واحد عن التنوع والوحدة التي تُميز فرنسا، والتي لا نعرف إذا كانت تعبر عن واقع فعلي في فرنسا، أم هي ضجة إعلامية عن الحدث؟

١٧ يوليو في إيطاليا: توقيع ١٢٠ دولة على اتفاقية إنشاء المحكمة الجنائية الدولية، ورفض ٧ دول (الولايات المتحدة، والهند، والصين، وإسرائيل، وفيتنام، والبحرين، وقطر)، وامتناع ٢١ دولة (البلاد العربية بصفة أساسية). أوقفت إدارة سباق الدراجات فريق فستينا، لضبط معالج الفريق بكمية كبيرة من المنشطات. لقد كان

الفريق من أقوى فرق العالم، وكان يضم المتسابق ريتشارد فيرينكي (الذي أكد تناوله للمنشطات "بمحض إرادته"). كانت هذه الواقعة من كبرى فضائح تاريخ سباق الدراجات، واهتزت صورة الفريق لدى الجمهور.

٧ **أغسطس في كينيا وتنزانيا:** وقوع انفجارين وتدمير السفارات الأمريكية، وسقوط ٢٥٠ قتيلاً وآلاف الجرحى. أعلن الجيش الإسلامي لتحرير الأماكن المقدسة، أحد أجنحة القاعدة، مسئوليته عن الحادث.

١٧ **أغسطس في الولايات المتحدة:** اعترف الرئيس بيل كلينتون، بعد عدة شهور من الإنكار، بـ"علاقته الآثمة" مع مونيكا ليفنسكي. فتحت تلك الواقعة الطريق أمام الكونجرس في ١٩ ديسمبر، لاتخاذ إجراء يكفل عزل الرئيس للحلف الزور، وانتهى الأمر بتبرئة الرئيس في ٥ فبراير ١٩٩٩. تبرز هذه الواقعة قوة الإعلام في المجتمع الأمريكي.

٢٤ **أغسطس:** أصدرت دار نشر فلاماريون مؤلف ميشيل هولبيك "الجزئيات الأساسية". ثار الجدل الكثيف بين الرافضين للعمل لعدائه للمرأة وافتقاره للأسلوب السليم؛ والمؤيدين له لأنه يعبر عن التدهور الذي أصاب الحداثة والعالم الغربي.

٢ **سبتمبر في تنزانيا:** أدانت المحكمة الدولية، الخاصة بمذابح رواندا، جون بول أكايسو، العمدة السابق لمدينة تابا (المدينة التي شهدت مذابح ٢٠٠٠ توتسي من أبريل إلى يونيو ١٩٩٤) بالإبادة الجماعية؛ وهو أول حكم من نوعه بعد تعريف جريمة الإبادة الجماعية في اتفاقية ١٩٤٨.

٢٣ **سبتمبر:** أنجز البروفيسور دوبرنار أول رسم جداري بارز عن اليد ، عن النيوزيلاندي كلينت هالام. إنه انتصار تقني، لأن العمل لا يعبر عن يده إنما عن يد شخص آخر، وفشلت هذه التجربة من الناحية السيكولوجية بعد ذلك بعامين. في كوسوفو، قرر مجلس الأمن الوقف الفوري لإطلاق النار، بعد أن قامت القوات الصربية في فصل الصيف بعمليات تطهير عرقي، وتهجير أكثر من ٢٥٠٠٠٠ شخص في غضون بضعة أسابيع.

٩ أكتوبر: أصدرت دار نشر جاليمار كتاب جون لوك جودار "تاريخ السينما"، وهى النسخة المطبوعة عن التصوير السينمائي الذي أُنجز هذا العام. إن هذا العمل الفلسفي/ الفني الذي أُعد بطريقة قص ولصق النصوص الاستشهادية، على غرار "متحف الخيال" لأندريه مالرو، يُعد الصدى الصوتي للتاريخ بواسطة السينما.

٢٣ أكتوبر في الشرق الأوسط: وقع ياسر عرفات وبنيامين نتنياهو اتفاقًا في واي بلانتيشن يقضي بنقل ١٣ % إضافية من الضفة الغربية إلى السلطة الفلسطينية.

٥ نوفمبر: أحيا رئيس الوزراء ليونيل جوسبان في كارون أسين، ذكرى الجنود الثائرين في عام ١٩١٧.

٦ نوفمبر ١٩٩٨ إلى ٤ ديسمبر ١٩٩٩ في الولايات المتحدة: نظم متحف الفن الحديث في نيويورك معرضًا عن موريزيو كاتيلان، يركز على وجه بيكاسو. كان في استقبال زوار المعرض، أحد الممثلين المرتدين قناعًا عليه رسم لبيكاسو.

بعض الوفيات: هارون تازيف (٢ فبراير)، ألبرتو سارتوريس (١٠ مارس)، وولف فوستيل (٣ أبريل)، بول بوت (١٥ أبريل)، جون فرانسوا ليوتار (٢١ أبريل)، فرانك سيناترا (١٨ مايو)، إريك تابارلي (١٣ يونيو)، لوسيو كوستا (١٣ يونيو)، نينو فيرير (١٣ أغسطس)، أكيرا كوروساوا (٦ سبتمبر)، جون كلود فورست (٣٠ ديسمبر).

جائزة نوبل للسلام: جون هوم، ودافيد ترامبل.

جائزة نوبل للأدب: جوزيه ساراماجو.

جائزة بيرتزكر: رينزو بيانو.

جائزة جونكور: بول كوستانت عن "الثقة من أجل الثقة".

مهرجان كان: السعفة الذهبية: ثيو أنجلوبولوس عن "الخلود ويوم واحد"؛ جائزة التحكيم الكبرى: روبرتو بنيجني عن "الحياة جميلة".

جائزة الفلسفة الكبرى للأكاديمية الفرنسية: أدولف جيشيه عن مجمل أعماله.

١٩٩٩

أول يناير في الاتحاد الأوروبي: أصبح اليورو العملة الرسمية لإحدى عشرة دولة من الناحية النظرية فقط؛ وبدأ التداول الفعلي لعملاته المعدنية والورقية في عام ٢٠٠٢.

١٣ يناير إلى ١٨ أبريل: نظم متحف باريس للفن الحديث معرضًا كبيرًا بعنوان "مارك روثكو"، وهو أول معرض في فرنسا يتناول أعمال الفنان منذ ١٩٧٢.

٢٤ يناير: انقسام داخل الجبهة الوطنية بين أنصار جون ماري لوبان، ومؤيدي برونو ميجريه، الذين أنشأوا الجبهة الوطنية، ثم أطلقوا عليها فيما بعد الحركة الوطنية الجمهورية.

٢٧ يناير: أجرت حاملة الطائرات النووية شارل ديجول أولى تجاربها البحرية.

٣٠ يناير: فتح متحف اليهود، دون مقتنيات، أبوابه للزوار في برلين. صمم هذا المبنى الجديد الرائع المهندس المعماري دانيال ليبسكايند. وفي عام ٢٠٠١، أفتُتح رسميًا المتحف بعد إضافة المجموعات الفنية.

٩ فبراير: عقب فضيحة الدم الملوث، بدأت محاكمة رئيس الحكومة الأسبق لوران فابيسوس، والوزراء السابقين جورجينا ديفوا، وإدموند هيرفيه، أمام محكمة العدل. في ١٠ مارس، أُطلِق سراح لوران فابيوس وجورجينا ديفوا، وأُدين إدموند هرفيه. في العام نفسه، نشر أوليفييه بود دراسة بعنوان "الدم الملوث: دراسة نقدية عن الإجرام ومسئولية الحكومات"، شكك فيها في كفاءة القضاة في تقييم الأداء الوزاري.

١٥ فبراير في كينيا: ألقت قوات المخابرات السرية التركية القبض على عبدالله أصلان، رئيس حزب العمال الكردستاني.

١٥ مارس في الاتحاد الأوروبي: الاستقالة الجماعية لأعضاء لجنة "سانتيه"، لاتهامهم بالفساد، وسوء الإدارة، ومحاباة الأقارب في التعيين بالوظائف.

٢٠ مارس إلى ١٥ يونيو: عرض ٦٨ قطعة منحوته لعثمان سو على جسر الفنون في باريس.

٢٤ إلى ٢٦ مارس في فرنسا / إيطاليا: اشتعال حريق في مركبة مبردة نصف مقطورة، داخل نفق مون بلون، وأسفر الحادث عن ٣٩ قتيلاً ومن بينهم ٣٧ حالة وفاة اختناقًا.

٢٤ مارس إلى ١٠ يونيو في كوسوفو: بعد فشل مفاوضات رومبوييه في فبراير بين ممثلي الألبان، والصرب، وحلف شمال الأطلنطي؛ وعقب الاعتداءات الصربية على المدنيين في كوسوفو، شن حلف شمال الأطلنطي عملية القوى المتحالفة ضد جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية.

١أبريل في كندا: إعلان الاستقلال الذاتي لأراضي إقليم نونافت، وإسناد إدارتها لأهالي النونويت.

١٩ أبريل في ألمانيا: احتراق كوخ من القش في كورسيكا، وأثبتت التحقيقات تورط بونيه حاكم المدينة، ومخالفته لمنح تصريح البناء، وحُكِم عليه بالسجن لمدة عام.

٢٠ أبريل في الولايات المتحدة: انتحار أحد الطلاب الكولومبيين بالمدرسة الثانوية في كلورادوا بعد إطلاقه النار على زملائه وقتل ١٣ طالبًا.

٢٥ أبريل في الصين: احتجاج ١٠٠٠٠ من أتباع جماعة فالون غونغ الروحانية أمام مقر الحكومة في بكين اعتراضًا على اعتقال بعض من ممارسي طقوس الجماعة. قامت قوات الأمن بردع المظاهرة بصورة عنيفة، وحلت الدولة الجماعة في ٢٢ يوليو، وسجنت أعضاءها المقيمين في الصين.

مايو إلى يوليو في الهند / باكستان: أسفر الصراع الدائر في إقليم كارجيل عن ١٠٠٠ قتيل.

٢٤ مايو في يوغوسلافيا السابقة: أدان المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، الرئيس ميلوسوفيك "لارتكابه جرائم ضد الإنسانية وانتهاك قوانين وأعراف الحرب". إنها المرة الأولى التي يُتهم فيها رئيس دولة أثناء فترة رئاسته، من قبل هيئة قضائية تأسست على المستوى الدولي.

أول يونيو في الولايات المتحدة: إنشاء أول موقع لشبكة "نابستر"، يسمح بالتداول أون لاين للألبومات الموسيقية بنظام المشاركة مع الغير.

١٣ يونيو إلى ٧ نوفمبر: تنظيم البينالي رقم ٤٨ لفينيسيا، برئاسة هارالد سيزمان بعنوان "بينالي أبرتو يفوق الكل". أُسند الجناح الفرنسي إلى هوانج يونج وجون بيار برتران.

٢٣ يونيو: أعلنت الحكومة عن إجراءات لتحقيق الديمقراطية الثقافية، وذلك بالتصريح للجمهور بالدخول مجاناً للمتاحف والأماكن الأثرية الوطنية، مرة شهريًا يوم الأحد، وبصفة دائمة لمن هم أقل من ١٨ عامًا.

٨ يوليو: صدور قانون دستوري يقضي بالمساواة بين المرأة والرجل في فترات الولاية بالانتخاب، وفي المناصب الانتخابية.

٩ يوليو في إيران: القمع العنيف لمظاهرات طلابية، دعا فيها الطلاب، الذين لم يعاصروا سوى الثورة الإسلامية، إلى الإصلاح السياسي.

٢٧ يوليو: إنشاء نظام صحي شامل يكفل العلاج المجاني للمرضى الأكثر فقراً.

٣٠ يوليو في المغرب: بعد وفاة الملك الحسن الثاني، انتهج محمد السادس، بعد تنصيبه ملكًا على البلاد، مسارًا أكثر تحررية فقام بإعفاء وزير الداخلية إدريس بصري من منصبه، وصرح بعودة المعارض التاريخي إبراهيم سرفاتي إلى البلاد.

أغسطس في روسيا: الاتهامات باختلاس أموال المساعدات الدولية، باءت بالفشل، واختفت أكثر من ١٣٨ مليار دولار مهربة من روسيا في الفترة من ١٩٩٣ إلى ١٩٩٨.

١١ أغسطس: كسوف كلي وواضح للشمس.

٣٠ أغسطس في تيمور الشرقية: مشاركة أكثر من ٩٨,٦% في الاستفتاء على الاستقلال الذاتي، على الرغم من الممارسات العنيفة من جانب الموالين للإندونيسيين. صوت ٧٨,٦% لصالح الاستقلال، وأغتيل مئات الأشخاص وفر البعض الآخر إلى الخارج. في ٢٠ سبتمبر، أرسلت الأمم المتحدة قوة دولية لحفظ السلام في تيمور الشرقية، التي حصلت على استقلالها عام ٢٠٠٢.

٥ سبتمبر في الشيشان: هاجم الطيران الروسي جروزني، وبدأت الحرب في الشيشان للمرة الثانية. توافد اللاجئون على جمهورية إنغوشيتيا، التي استغاثت بالمفوضية العليا لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة. في أول أكتوبر توغلت القوات الروسية داخل الأراضي الشيشانية، ورفضت روسيا أي تدخل خارجي، باستثناء المساعدات الإنسانية.

٨ سبتمبر: أعادت مؤسسة ميشلان الهيكلة الإدارية لكيانها، واستغنت عن ٧٥٠٠ عامل في أوروبا، وذلك على الرغم من إعلانها عن تحقيق أرباح تصل إلى ٢٠% في الربع المالي الأول. أصبحت تلك المؤسسة تجسد فيما بعد، مصطلح "الاستغناء الجماعي".

١٦ سبتمبر في الجزائر: إقرار قانون الوفاق المدني الذي اقترحه الرئيس الجديد عبد العزيز بوتفليقة بعد الاستفتاء عليه، والعفو العام عن الإرهابيين الإسلاميين.

١٢ أكتوبر: وفقًا لتقديرات الأمم المتحدة، تعدى التعداد السكاني للكرة الأرضية حدود الستة مليارات نسمة.

١٥ نوفمبر: أقر القانون "وثيقة التضامن المدني"، التي تعترف بحق المعاشرة لشخصين من جنس واحد أو مختلفين جنسيًا. أثار هذا التشريع الاعتراضات الحادة والاستنكار الشديد لأنه سيؤدي إلى التدمير العاجل للمجتمع.

٣٠ نوفمبر إلى ٣ ديسمبر في الولايات المتحدة: فشل المؤتمر الوزاري الثالث لمنظمة التجارة العالمية بسبب الخلافات بين الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، واعتراضات دول الجنوب غير الراضية، والتعبئة من جانب الجمعيات الأهلية ومؤسسات المجتمع المدني. ثارت المظاهرات على هامش القمة، وهي أول مظاهرات معادية للعولمة تبرزها بقوة وسائل الإعلام.

١٢ ديسمبر: غرق ناقلة البترول إريكا وتلوث جزء من ساحل الأطلنطي.

١٥ – ١٦ ديسمبر في ألمانيا: اجتماع منتدى دراسة التمويل العالمي لمجموعة العشرين، للمرة الأولى في برلين بعد الأزمات الاقتصادية الآسيوية والروسية. حثت مجموعة السبع، مجموعة العشرين على ضم السبع دول الصناعية الأكثر تقدمًا إلى اجتماعاتها، والاتحاد الأوروبي، واثنتي عشرة دولة واعدة (جمهورية جنوب أفريقيا، والمملكة العربية السعودية، والأرجنتين، وأستراليا، والبرازيل، والصين، وكوريا الجنوبية، والهند، وأندونيسيا، والمكسيك، وروسيا، وتركيا).

٢٠ ديسمبر في الصين: بعد تنازل البرتغال عن ماكاو للصين، أصبحت المدينة المنطقة الإدارية الثانية الخاصة للصين بعد هونج كونج.

٢٦ و ٢٨ ديسمبر: اجتاحت فرنسا عاصفتان، وتعرضت لإعصاري لوثر، ومارتين. أسفرت التقلبات الجوية عن مصرع ٩٢ شخصًا، وما يقرب من ٢٠٠٠ جريح، وانقطاع الكهرباء عن ٣,٥ مليون منزل. تعدت الخسائر ١٠٠ مليار فرنك.

بعض الوفيات: ميشيل بتروسياني (٦ يناير)، ستانلي كوبريك (٧ مارس)، يهودي منوحيم (١٢ مارس)، إيلي كاكو (١٠ يونيو)، برنار بوفيه (٤ أكتوبر)، أماليا رودريج (٦ أكتوبر)، ناتالي ساروت (١٩ أكتوبر)، روجر فريزون روش (١٦ ديسمبر)، روبرت بريسون (١٨ ديسمبر).

جائزة نوبل للسلام: أطباء بلا حدود.

جائزة نوبل للأدب: جونتر جراس.

جائزة بريكتزر: سير نورمان فوستر.

جائزة جونكور: جون إكنوز عن "سأرحل".

مهرجان كان: السعفة الذهبية: جون بيار، و لوك داردن عن "روزيتا"؛ جائزة التحكيم الكبرى: برونو ديمون عن "الإنسانية".

جائزة الفلسفة الكبرى للأكاديمية الفرنسية: بيار هادوا عن مجمل أعماله.

٢٠٠٠

أول يناير: انطلاقًا من المؤتمر الذي نظمه فرانسوا جاكوب بعنوان "ما هي الحياة؟"، وضعت جامعة "المعارف الشاملة" برنامجها السنوي، بحيث يكون بمثابة موسوعة حية تنظم ٣٦٦ مؤتمرًا، موزعة على أيام سنة ٢٠٠٠، أي مؤتمر كل يوم، لتُشكل كلها المعبر للقرن الحادي والعشرين. في مدينة نانت، جدد المركز الوطني للفنون، المصانع القديمة التي تتميز ببنية معمارية ثقافية وحولها إلى متاحف. واتسعت أنشطة المركز لتشمل الفنون التشكيلية، والمسرح، والرقص، والسيرك، والموسيقى، والأدب، والفلسفة، والفن المعماري، وفن الطبخ. فتح مركز بومبيدو، بعد تجديده، أبوابه للجمهور من ١٣ يناير إلى ١٧ أبريل، وبدأ نشاطه بتنظيم معرض بعنوان "لمحة سريعة عن الزمن" لعرض مختلف العصور، والأنظمة.

٥ يناير: افتتاح "حورا"، أول هايبر ماركت فرنسي لتوصيل الطلبات للمنازل، ضمن سلسلة محلات "كورا" للبيع بالجملة.

٢ فبراير: إخراج أول فيلم ديجيتال رسوم متحركة في باريس، بعنوان "حكاية لعبة ٢"، وطرحه للجمهور الأوروبي.

٤ فبراير في النمسا: تشكيل أول حكومة تحالف مع حـزب جـورج حيـدر، الجناح اليميني للحزب السياسي الشعبي المعروف بعدائه للسامية، وكـره الأجانـب. اعترض المجتمع الدولي على هذا التحالف، وفرضت الأربع عـشرة دولـة أعـضاء الاتحاد الأوروبي العقوبات الدبلوماسية عليه.

٧ فبراير: أصدرت البعثة البينية الوزارية المناهضة للطوائف، تقريـرًا يهـاجم بعض المنظمات، من بينها طائفة "كنيسة الممارسات البشرية الطبيعة".

٩ فبراير في تركيا: أعلن رسميًا حزب العمال الكردستاني وقف الكفاح المسلح، وفتح الحوار مع السلطات التركية.

١٩ مارس في السنغال: فوز عبده لاي ويد في الانتخابـات الرئاسـية، وبـدء مرحلة جديدة – الأولى من نوعها – لترسيخ الديمقراطية في السنغال.

٢٦ مارس في روسيا: انتخاب فلاديمير بوتين رئيسًا للبلاد من الجولة الأولى، بعد استقالة بوريس يلتسين، الرئيس بالإنابة.

٢٩ مارس: طرح اتحاد الغرف السينمائية، بطاقة "باقة بـلا حـدود" لحـضور العروض السينمائية دون حد أقصى، مقابل اشتراك شهري.

٤ أبريل: انفجار "فقاعة الإنترنت"، نتيجة المـضاربات فـي البورصـة علـى قطاعي الكمبيوتر والاتصالات. بدأت أزمة الانهيارات المالية في بورصة نيويـورك، وامتد تأثيرها إلى بورصات الدول جميعها، وإلى القطاع الاقتصادي بأكملـه. أبـرزت تلك الأزمة حدود "الاقتصاد الجديد"، المتكالب على عائد الربح أكثر من اهتمامه بالنمو السريع.

١٣ أبريل: افتتاح جناح الدورات بمتحـف اللـوفر الـذي صـممه المهنـدس المعماري جون ميشيل ويلموت على مساحة ١٤٠٠ م٤؛ وتخصيص الـدورة الأولـى للفنون البدائية للشعوب الأفريقية، والمحيطية، ووسط أمريكا.

١٧ أبريل: قدمت البعثة المختصة بدراسة نهب اليهود في فرنسا تقريرها، الذي أوصت فيه بإنشاء مؤسسة تذكارية لضحايا الإبادة الجماعية، وتنميتها من خلال مخصصاتها المالية؛ ودفع معاشات لأيتام اليهود النازحين من فرنسا؛ وإنشاء لجنة لتعويض ضحايا السلب والنهب.

١٢ مايو في بريطانيا العظمى: عرض متحف "تيت" للفن المعاصر بلندن، القطع الفنية داخل محطة كهربائية معطلة أعاد تصميمها هيرزوس، و دي مورن وفقًا لتسلسل موضوعي وليس زمنيًا.

يونيو: بعد عقدين من اضطراب الأسواق بسبب تزايد التنافسات الضرائبية، أعدت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، قائمة تحتوي على الدول التي تتمتع بشرائح ضرائبية منخفضة مقارنة بالضرائب المفروضة في دول المنظمة.

١٣ إلى ١٥ يونيو في كوريا الشمالية / وكوريا الجنوبية: سفر رئيس كوريا الجنوبية كيم داي جونج إلى بيونج يانج، لمقابلة نظيره كيم جونج إيل، رئيس كوريا الشمالية، وصدور إعلان مشترك يفتح للمرة الأولى آفاق توحيد الكوريتين.

٢٠ يونيو: ثار الجدل العام حول التعذيب أثناء حرب الجزائر، بعد أن نشرت جريدة لوموند شهادة أحد مناضلي جبهة التحرير الوطنية المعذبين عام ١٩٥٧. أعلن الجنرال ماسو أسفه على الملأ لممارسة التعذيب أثناء هذه الأحداث؛ في حين قدم الجنرال أوساريس – غير آسفٍ على ما حدث – في شهر ديسمبر المبررات التي دفعت جيش فرنسا لهذه الممارسات.

٢٣ يونيو في بنين: توقيع اتفاقيات كوتونو للتعاون بين الاتحاد الأوروبي، والدول الأفريقية، ودول الكاريبي والهادي لمدة عشرين عامًا، من أجل الحد من الفقر ودمج تلك الدول في الاقتصاد العالمي، مع احترام أهدافها في التنمية المستدامة.

٢٥ يوليو: اصطدام طائرة كونكورد تابعة للخطوط الجوية الفرنسية، بعامود معدني على ممر الإقلاع بمطار شارل ديجول، ومصرع ١١٣ شخصًا.

١٢ أغسطس في روسيا: غرق الغواصة "كورسك" في بحر بارنتس، وعلى متنها ١١٨ بحارًا وضابطًا. تأثر الرأي العام الدولي، في حين خففت السلطات الروسية من وطأة الحادث.

١٥ سبتمبر إلى ١ أكتوبر في أستراليا: إدراج رياضات التايكوندو والترياتلون رسميًا في الألعاب الأوليمبية في سيدني. نال السباح الغيني إريك موسمباني إعجاب الجمهور لفوزه بسباق ال ١٠٠ متر سباحة حرة ؛ لأنها كانت المرة الأولى التي يتسابق فيها في حوض سباحة أوليمبي، لافتقار غينيا لمثل تلك الأحواض.

٢١ سبتمبر: في مقابلة تليفزيونية على قناة f3، وعلى خلفية التشكك في التمويل السري لحزب التجمع من أجل الجمهورية، استعار الرئيس جاك شيراك مصطلح "أكادابرا"، من أرتور رامبو الذي يعني الطقوس السحرية، والذي أصبح من المصطلحات الدارجة.

٢٨ سبتمبر في الشرق الأوسط: بعد فشل قمة كامب دافيد ٢، دخل أريل شارون ساحة المسجد الأقصى في القدس، فاندلعت الانتفاضة الثانية في الأراضي الفلسطينية بسبب استفزازات شارون.

٢ أكتوبر: صدور قانون دستوري يقضي بتقليص مدة الرئاسة الفرنسية إلى خمس سنوات، بعد الاستفتاء عليه.

١٠ نوفمبر: افتتاح المتحف الدولي للفنون المتواضعة الذي أسسه الفنانان إرفيه دي روزا، وبرنار بيلوك، وصممه المعماري باتريك بوشان في مدينة سات. ضم المعرض الأعمال الشعبية المعاصرة، ودافع عن الانفتاح الفني والتنوع الثقافي.

١٧ نوفمبر: حكمت محكمة النقض، في قضية الطفل المعاق نيكول بيروش بحقه في الحصول على تعويض، للضرر الواقع عليه عند ولادته. أثار هذا الحكم الجدل، خاصة بعد استخدام المحكمة في منطوق حكمها عبارة "التضرر من الإعاقة عند الولادة".

أول ديسمبر: منح جائزة مارسيل دي شان، التي تُمنح للمرة الأولـى، لتومـاس هيرشورن. ابتكرت رابطة النشر الدولي للفن الفرنسي هذه الجائزة لمنحها للفنان الـذي يمثل جيله، ويعمل في مجال الفنون التشكيلية والمرئية.

١١ ديسمبر: اتفاق المجلس الأوروبي في نيس على تعديل مؤسساته لتتواءم مع المهام الموكلة إليها بعد تزايد أعضاء الاتحاد الأوروبي.

١٨ ديسمبر في الولايات المتحدة: بعد التشكك لأكثر مـن شـهر فـي نتـائج انتخابات ٧ نوفمبر، انتخبت لجنة كبار الناخبين، الجمهوري جورج دبليو بوش رئيـسًا للبلاد.

بعض الوفيات: جون كلود إيزو (٢٦ يناير)، كلـود أوتـون لارا (٥ فبرايـر)، روجر فاديم (١١ فبراير)، شارل شولز (١٢ فبراير)، لولـو فيـراري (٥ مـارس)، باربرا كارتلاند (٢١ مايو)، فريديريك دارد (٦ يونيو)، فيتوريو جاسمان (٢٩ يونيـو)، كلود سوتيه (٢٢ يوليو)، ديديه درليش (٤ أغسطس)، سير أليك جينيس (٥أغـسطس)، فرانسيس لو بلج (٢٧ سبتمبر)، تيودور مونود (٢٢ نوفمبر).

جائزة نوبل للسلام: كيم داي جونج.

جائزة نوبل للأدب: جاو زينجانج .

جائزة بيرتكزر: ريم كولهاس.

جائزة جونكور: جون جاك شول عن "الممثلة إنغريد كافن"

مهرجان كان: السعفة الذهبية: لارس فون ترييه عن "الـرقص فـي الظـلام"؛ جائزة التحكيم الكبرى: يانج وين عن "أشباح على أعتاب الباب".

جائزة الفلـسفة الكبـرى للأكاديميـة الفرنـسية: جوسـتاف تيبـون عـن مجمل أعماله.

ببليوجرافيا مختارة

Anormalement éclectique, cette bibliographie très sélective mêle dans un désordre volontaire – microcosme d'époque – des récits historiques ou plus littéraires sur la période, des œuvres majeures parues alors dans le champ de la littérature et des sciences humaines, et des livres emblématiques – pour leur succès commercial, leur réception agitée, ou l'émergence d'un auteur notable. Elle reprend en outre les références principales de chaque article du volume, et comprend un titre de chaque contributeur. La grande majorité de ces textes ont été écrits au cours des années 1990.

Ackbar Abbas, *Hong Kong, Culture and the Politics of Disappearance*, Minneapolis, University of Minnesota Press, 1997

Pierre Alféri, *Kub Or*, Paris, P.O.L, 1994

Bruno Amable, Rémi Barré et Robert Boyer, *Les Systèmes d'innovation à l'ère de la globalisation*, Paris, Économica, 1997

Perry Anderson, « Renewals », *New Left Review*, n° 1 (nouvelle série), janvier-février 2000

Arjun Appadurai, *Après le colonialisme. Les conséquences culturelles de la globalisation*, Paris, Payot, 2005 [1996] (tr. fr. Françoise Bouillot)

Michka Assayas, *Exhibition*, Paris, « L'Arpenteur »/ Gallimard, 2002

Atlantic Monthly, dossier spécial « The new intellectuals » (mars 1995)

Alain Badiou, *Le Siècle*, Paris, Le Seuil, 2005

—, *Petit manuel d'inesthétique*, Paris, Le Seuil, 1998

Antoine de Baecque et Thierry Jousse, *Le Retour du cinéma*, Paris, Hachette, 1996

Jean Baudrillard, *La guerre du Golfe n'a pas eu lieu*, Paris, Galilée, 1991

—, *Le Crime parfait*, Paris, Galilée, 1995

—, *Le Complot de l'art*, Paris, Sens & Tonka, 1997

Ulrich Beck, *La Société du risque. Sur la voie d'une autre modernité*, Paris, Aubier, 2001 [1986] (tr. fr. Laure Bernardi)

Frédéric Beigbeder, *L'amour dure trois ans*, Paris, Grasset, 1997

François Bégaudeau, *Deux singes ou ma vie politique*, Paris, Verticales, 2013

Hakim Bey, *TAZ. Zone autonome temporaire*, Paris, L'Éclat, 1997 [1991]

Claire Bishop, « Antagonism and relational aesthetics », *October*, n° 110, automne 2004

Maurice Blanchot, *L'Instant de ma mort*, Fontfroide-le-Haut, Fata Morgana, 1994

Roberto Bolano, *La Littérature nazie en Amérique*, Paris, Christian Bourgois, 2003 [1996] (tr. fr. Robert Amutio)

Luc Boltanski et Ève Chiapello, *Le Nouvel Esprit du capitalisme*, Paris, Gallimard/NRF Essais, 1999

Pierre Bourdieu (dir.), *La Misère du monde*, Paris, Le Seuil, 1993

—, *Sur la télévision*, Paris, Raisons d'agir, 1996

—, *La Domination masculine*, Paris, Le Seuil, 1998

Nicolas Bourriaud, *Esthétique relationnelle*, Dijon, Les Presses du réel, 1998

Robert Boyer (dir.), *La Mondialisation au-delà des mythes*, Paris, La Découverte, 2000

Sébastien Broca, *Utopie du logiciel libre. Du bricolage informatique à la réinvention sociale*, Lyon, Le Passager clandestin, 2013

Tina Brown, *The Diana Chronicles*, Londres, Anchor Books, 2007

Emmanuel Burdeau, *La Passion de Tony Soprano*, Paris, Capricci, 2010

Judith Butler, *Trouble dans le genre. Le féminisme et la subversion de l'identité*, Paris, La Découverte, 2006 [1990] (tr. fr. Cynthia Kraus)

Judith Butler, Ernesto Laclau et Slavoj Zizek, *Contingency, Hegemony, Solidarity. Contemporary Dialogues on the Left*, New York et Londres, Verso, 2000

Olivier Cadiot, *Futur, ancien, fugitif*, Paris, P.O.L, 1993

Louis Calaferte, *La Mécanique des femmes*, Paris, « L'Arpenteur »/Gallimard, 1992

Robert Castel, *Les Métamorphoses de la question sociale*, Paris, Fayard, 1995

Patrick Chamoiseau, *Texaco*, Paris, Gallimard, 1992

Gilles Châtelet, *Vivre et penser comme des porcs. De l'incitation à l'envie et à l'ennui dans les démocraties-marchés*, Paris, Exils, 1998

Jean-Pierre Chevènement (présenté par), *Le Bêtisier de Maastricht*, Paris, Arléa, 1997

Noam Chomsky, *Terrorizing the Neighborhood. American Foreign Policy in the Post-Cold War Era*, Stirling, AK Press, 1991

Jean Clair, *La Responsabilité de l'artiste*, Paris, Gallimard, 1997
J. M. Coetzee, *Disgrâce*, Paris, Le Seuil, 2001 [1999] (tr. fr. Catherine Lauga du Plessis)
Daniel Cohen, *Richesse du monde, pauvreté des nations*, Paris, Flammarion, 1997
André Comte-Sponville, *Petit traité des grandes vertus*, Paris, PUF, 1995
Éric Conan et Henry Rousso, *Vichy, un passé qui ne passe pas*, Paris, Fayard, 1994
Anne Coppel et Olivier Doubre, *Drogues : sortir de l'impasse*, Paris, La Découverte, 2012
Douglas Coupland, *Génération X*, Paris, 10/18, 2004 [1991] (tr. fr. Léon Mercadet)
Douglas Crimp, *Melancolia and Moralism. Essays on AIDS and Queer Politics*, Cambridge, MIT Press, 2002
François Cusset, *La Décennie. Le grand cauchemar des années 1980*, Paris, La Découverte, 2006
Dalaï-Lama (avec Howard Cutler), *L'Art du bonheur*, Paris, Robert Laffont, 1999
Serge Daney, *L'exercice a été profitable, Monsieur*, Paris, P.O.L, 1993
—, *Devant la recrudescence des vols de sacs à main. Cinéma, télévision, information (1988-1991)*, Lyon, Éditions Aléas, 1993
—, *La Maison cinéma et le monde. Tome 3. Les Années* Libé *(la suite)*, Paris, P.O.L, 2012
Guy Debord, *« Cette mauvaise réputation... »*, Paris, Gallimard, 1993
Daniel Defert, « Les métaphores de la finitude », *in Cancer, Sida et Société*, éditions C. Jasmin, Paris, Éditions sociales françaises, 1993
Gilles Deleuze, « Post-scriptum sur les sociétés de contrôle », *L'Autre Journal*, n° 1, mai 1990
Gilles Deleuze et Félix Guattari, *Qu'est-ce que la philosophie ?*, Paris, Minuit, 1991
Philippe Delerm, *La Première Gorgée de bière et autres plaisirs minuscules*, Paris, « L'Arpenteur »/Gallimard, 1997
Thomas Deltombe, *L'Islam imaginaire. La construction médiatique de l'islamophobie en France*, Paris, La Découverte, 2005
Département des études et de la prospective (ministère de la Culture), *Les Pratiques culturelles des Français, 1973-1989*, Paris, La Découverte-La Documentation française, 1990
Jacques Derrida, *Spectres de Marx*, Paris, Galilée, 1993
—, *Force de loi*, Paris, Galilée, 1994
—, *Politique de l'amitié*, Paris, Galilée, 1994
— (avec Bernard Stiegler), *Échographies – de la télévision*, Paris, Galilée, 1997
Virginie Despentes, *Baise-moi*, Paris, Florent Massot, 1993
Marguerite Duras, *Écrire*, Paris, P.O.L, 1993
—, *C'est tout*, Paris, P.O.L, 1995
Guillaume Dustan, *Dans ma chambre*, Paris, P.O.L, 1996
—, *Je sors ce soir*, Paris, P.O.L, 1997
—, *Plus fort que moi*, Paris, P.O.L, 1998
Bret Easton Ellis, *American Psycho*, Paris, Salvy éditeur, 1992 [1991] (tr. fr. Alain defossé)
—, *Glamorama*, Paris, Robert Laffont, 2000 [1998] (tr. fr. Pierre Guglielmina)
Jean Echenoz, *Je m'en vais*, Paris, Minuit, 1999
James Ellroy, *LA Confidential*, Paris, Rivages, 1998 [1994] (tr. fr. Freddy Michalski)
François Ewald et Denis Kessler, « Les noces du risque et de la politique », *Le Débat*, n° 109, mars-avril 2000
Helen Fielding, *Le Journal de Bridget Jones*, Paris, Albin Michel, 1998 [1996] (tr. fr. Arlette Stroumza)
Sébastien Fontenelle, *La France des mouchards : enquête sur la délation*, Paris, L'Harmattan, 2000
Viviane Forrester, *L'Horreur économique*, Paris, Fayard, 1996
Michel Foucault, *Dits et écrits, 1954-1988*, 4 volumes, Paris, Gallimard, 1994
—, *« Il faut défendre la société ». Cours au Collège de France, 1975-1976*, Paris, Gallimard-EHESS-Le Seuil, 1997
—, *Histoire de la sexualité 1. La Volonté de savoir*, Paris, Gallimard, 1976
Al Franken, *Rush Limbaugh Is a Big Fat Idiot*, New York, Delacorte, 1996
Bernard Friot, *Puissances du salariat*, Paris, La Dispute, 1998
Francis Fukuyama, *La Fin de l'histoire et le Dernier Homme*, Paris, Flammarion, 1992 [1992] (tr. fr. Denis-Armand Canal)
François Furet, *Le Passé d'une illusion. Essai sur l'idée communiste au XXe siècle*, Paris, Calmann-Lévy, 1995
Jostein Gaarder, *Le Monde de Sophie*, Paris, Le Seuil, 1995 [1991] (tr. fr. Hélène Hervieu et Martine Lafon)
Eduardo Galeano, *Le Football ombre et lumière*, Paris, Climats, 1998 [1995] (tr. fr. Jean-Marie Saint-Lu)
Tristan Garcia, *Faber. Le destructeur*, Paris, Gallimard, 2013
Henry Louis Gates et Cornel West, *The Future of the Race*, New York, Alfred A. Knopf, 1996
Anthony Giddens et Tony Blair, *La Troisième Voie. Le renouveau de la social-démocratie*, préface de Jacques Delors, Paris, Le Seuil, 2002 [1998]
Todd Gitlin, *The Twilight of Common Dreams. Why America is Wracked by Culture Wars*, New York, Henry Holt, 1996
Jean-Luc Godard, *Histoire(s) du cinéma*, 4 tomes, Paris, Gallimard-Gaumont, 1998
Philip Gourevitch, *Nous avons le plaisir de vous informer que, demain, nous serons tués avec nos familles*, Paris, Denoël, 1999 [1998] (tr. fr. Philippe Delamare)

John Gray, *Les hommes viennent de Mars, les femmes viennent de Vénus*, Montréal, Éditions Logiques, 1994 [1992]
Chris Hables Gray *et al.* (dir.), *The Cyborg Handbook*, New York, Routledge, 1995
Jean Guisnel, *Guerres dans le cyberespace. Services secrets et Internet*, Paris, La Découverte, 1995
Serge Halimi, *Les Nouveaux Chiens de garde*, Paris, Raisons d'agir, 1997
Donna Haraway, *Manifeste cyborg et autres essais. Sciences – fictions – féminismes*, Paris, Exils, 2007 [1985] (tr. fr. Laurence Allard, Delphine Gardey et Nathalie Magnan)
John Holloway, *Changer le monde sans prendre le pouvoir. Le sens de la révolution aujourd'hui*, Paris, Syllepse, 2008 (tr. fr. Sylvie Bosserelle)
Michel Houellebecq, *Extension du domaine de la lutte*, Paris, Maurice Nadeau, 1994
——, *Les Particules élémentaires*, Paris, Flammarion, 1998
Wang Hui, *The End of Revolution. China and the Limits of Modernity*, New York et Londres, Verso, 2010
Human Rights Watch, *Aucun témoin ne doit survivre. Le génocide au Rwanda*, Paris, Karthala, 1999
Samuel P. Huntington, *Le Choc des civilisations*, Paris, Odile Jacob, 1997 [1996] (tr. fr. Jean-Luc Fidel, Geneviève Joublin, Patrice Jorland et Jean-Jacques Pédussaud)
Fredric Jameson, *Le Postmodernisme, ou la logique culturelle du capitalisme tardif*, Paris, Presses de l'ENSBA, 2011 [1991] (tr. fr. Florence Nevoltry)
——, *The Cultural Turn. Selected Writings on the Postmodern, 1983-1998*, New York et Londres, Verso, 1998
Dominique Janicaud, *Le Tournant théologique de la phénoménologie française*, Paris, L'Éclat, 1991
Martin Jay, « The uncanny nineties », *Salmagundi*, n° 108, automne 1995
Mehdi Belhaj Kacem, *1993*, Auch, Tristram, 1994
Robert Kagan, *La Puissance et la Faiblesse*, Paris, Plon, 2003
Razmig Keucheyan, *Hémisphère gauche. Une cartographie des nouvelles pensées critiques*, Paris, La Découverte/« Zones », 2010
Joe Klein, *The Natural. The Misunderstood Presidency of Bill Clinton*, Philadelphie, Coronet Books, 2003
Rem Koolhaas, *New York délire. Un manifeste rétroactif pour Manhattan*, Paris, Parenthèse, 2002 [1997] (tr. fr. Catherine Collet)
—— (avec Bruce Mau), *S, M, L, XL*, New York, The Monacelli Press, 1998
Arthur et Marilouise Kroker, *Digital Delirium*, New York, St Martin's Press, 1997
Ray Kurzweil, *The Age of Intelligent Machines*, Cambridge, MIT Press, 1990
Bruno Latour, *Nous n'avons jamais été modernes. Essai d'anthropologie symétrique*, Paris, La Découverte, 1991
Jérôme Latta et Rémi Belot (dir.), *Les Cahiers du football. De foot et d'eau fraîche*, Paris, Solar, 2012
Teresa de Lauretis (dir.), « Queer theory. Lesbian and gay sexualities », numéro spécial de la revue *Differences. A Journal of Feminist Cultural Studies*, vol. 2, 1991
Les études gay et lesbiennes, colloque du Centre Georges-Pompidou, 23 et 27 juin 1997, Paris, Éditions du Centre Pompidou, 1998
Didier Lestrade, *Act Up, une histoire*, Paris, Denoël, 2000
Pierre Lévy, *L'Intelligence collective. Pour une anthropologie du cyberespace*, Paris, La Découverte, 1997
Rush Limbaugh, *The Way Things Ought to Be*, New York, Pocket Books, 1992
Frédéric Lordon, *Les Quadratures de la politique économique. Les infortunes de la vertu*, Paris, Albin Michel, 1997
Janet Lowe, *Oprah Winfrey Speaks. Insights from the World's Most Influential Voice*, New York, Wiley, 2000
Andreï Makine, *Le Testament français*, Paris, Mercure de France, 1995
Nelson Mandela, *L'Apartheid, précédé d'une lettre de Breyten Breytenbach*, Paris, Minuit, 1965
Sous-commandant Marcos, *Ya Basta ! Les insurgés zapatistes racontent un an de révolte au Chiapas*, Paris, Dagorno, 1994 (tr. fr. Anatole Muchnik et Marina Urquidi)
Sous-commandant Marcos et Paco Ignacio Taibo II, *Des morts qui dérangent*, Paris, Rivages, 2006 (tr. fr. René Solis)
Greil Marcus, *Lipstick Traces. Une histoire secrète du vingtième siècle*, Paris, Allia, 1998 [1990] (tr. fr. Guillaume Godard)
Laurent Mauriac, *Les Flingueurs du Net. Comment la finance a tué la nouvelle économie*, Paris, Calmann-Lévy, 2002
Wendy McElroy, *XXX. A Woman's Guide to Pornography*, New York, St Martin's Press, 1995
Yves Michaud, *La Crise de l'art contemporain*, Paris, Presses universitaires de France, 1997
Alain Minc, *La Mondialisation heureuse*, Paris, Plon, 1997
Aquilino Morelle, *La Défaite de la santé publique*, Paris, Flammarion, 1996
Toni Morrison, *Paradis*, Paris, Christian Bourgois, 1994 [1994] (tr. fr. Jean Guiloineau)
Andrew Morton, *Monica's Story*, New York, St Martin's Press, 1999
Haruki Murakami, *La Fin des temps*, Paris, Le Seuil, 1992 [1985] (tr. fr. Corinne Atlan)
Antonio Negri et Michael Hardt, *Empire*, Paris, Exils, 2000 [2000] (tr. fr. Denis-Armand Canal)
Amélie Nothomb, *Hygiène de l'assassin*, Paris, Albin Michel, 1992

Michael Ondaatje, *Le Patient anglais*, Paris, L'Olivier-Le Seuil, 1997 [1992] (tr. fr. Marie-Odile Fortier-Masek)
André Orléan, *Le Pouvoir de la finance*, Paris, Odile Jacob, 1999
Chuck Palahniuk, *Fight Club*, Paris, Gallimard, 1999 [1996] (tr. fr. Freddy Michalski)
Orham Pamuk, *Le Livre noir*, Paris, « Folio » / Gallimard, 1995 [1990] (tr. fr. Münevver Andaç)
Philippe Parreno, *Speech Bubbles*, Dijon, Les presses du réel, 2001
Pierre Péan, *Une jeunesse française. François Mitterrand, 1934-1947*, Paris, Fayard, 1994
Philippe Pignarre, *Le Grand Secret de l'industrie pharmaceutique*, Paris, La Découverte/poche, 2004
Beatriz Preciado, *Manifeste contra-sexuel*, Paris, Balland, 2000 (tr. fr. Marie-Hélène Bourcier)
John Rajchman (dir.), *The Identity in Question*, Londres et New York, Routledge, 1995
Ignacio Ramonet, « Désarmer les marchés », *Le Monde diplomatique*, décembre 1997
Jacques Rancière, *La Mésentente*, Paris, Galilée, 1995
Matthieu Rémy, *Camaraderie*, Paris, L'Olivier, 2013
Revue de littérature générale, 95/1 « La mécanique lyrique » et 96/2 « digest », 1995 et 1996, Paris, P.O.L
Jeremy Rifkin, *La Fin du travail*, Paris, La découverte, 1996 [1995] (tr. fr. Pierre Rouve)
—, *L'Âge de l'accès. La vérité sur la nouvelle économie*, Paris, La Découverte, 2000 [2000] (tr. fr. Marc Saint-Upéry)
Kristin Ross, *Rouler plus vite, laver plus blanc. Modernisation de la France et décolonisation au tournant des années 1960*, Paris, Flammarion, 2006 [1995] (tr. fr. Sylvie Durastanti)
J. K. Rowling, *Harry Potter à l'école des sorciers*, Paris, Gallimard, 1998 [1997] (tr. fr. Jean-François Ménard)
Arundhati Roy, *Le Dieu des petits riens*, Paris, Folio/ Gallimard, 2000 [1997] (tr. fr. Claude Demanuelli)
Edward W. Said, *Culture et impérialisme*, Paris, Fayard, 2000 [1993] (tr. fr. Paul Chemla)
André Schiffrin, *L'Édition sans éditeurs*, Paris, la Fabrique, 1999
Bernhard Schlink, *Le Liseur*, Paris, Gallimard, 1996 [1995] (tr. fr. Bernard Lortholary)
W. G. Sebald, *Vertiges*, Paris, Gallimard, 2003 [1990] (tr. fr. Patrick Charbonneau)
Eve Kosofsky Sedgwick, *Épistémologie du placard*, Paris, Éditions Amsterdam, 2008 [1990] (tr. fr. Maxime Cervulle)
Société Perpendiculaire, *Rapport d'activité 1985-2000*, Paris, Images Modernes, 2002
Alan Sokal et Jean Bricmont, *Impostures intellectuelles*, Paris, Odile Jacob, 1997
Gayatri Chakravorty Spivak, *A Critique of Postcolonial Reason. Towards a History of the Vanishing Present*, Cambridge, Harvard University Press, 1999
Michael Sprinker (dir.), *Ghostly Demarcations. A Symposium on Jacques Derrida*, Londres, Verso, 1999
Zeev Sternhell, *Ni droite ni gauche. L'idéologie fasciste en France*, Paris, Fayard, 2000 [1983]
Allucquere Rosanne Stone, *The War of Desire and Technology at the Close of the Mechanical Age*, Cambridge, MIT Press, 1996
Gérard Théry, *Rapport au Premier ministre : les autoroutes de l'information*, Paris, La Documentation française, 1994
Pacôme Thiellement, *Pop Yoga*, Paris, Sonatine, 2013
Alvin et Heidi Toffler, *Guerre et contre-guerre : survivre à l'aube du XXIe siècle*, Paris, Fayard, 1994 [1993]
Camille de Toledo, *Archimondain, jolipunk*, Paris, Calmann-Lévy, 2002
Claude-Marie Trémois, *Les Enfants de la liberté. Le jeune cinéma français des années 90*, Paris, Le Seuil, 1997
Mathieu Triclot, *Philosophie des jeux vidéo*, Paris, La Découverte / « Zones », 2013
Fred Turner, *Aux sources des utopies numériques. De la contre-culture à la cyberculture*, Paris, C & F éditions, 2012
Raoul Vaneigem, *Lettre de Staline à ses enfants enfin réconciliés de l'Est et de l'Ouest*, Lagrasse, Verdier, 1992
Paul Virilio, *L'Insécurité du territoire*, Paris, Galilée, 1993
David Foster Wallace, *Infinite Jest*, New York, Abacus Books, 1996
Frédéric Worms, *La Philosophie en France au XXe siècle. Moments*, Paris, Gallimard, 2009
Slavoj Zizek, *Enjoy Your Symptom ! Jacques Lacan in Hollywood And Out*, New York et Londres, Routledge, 1992
—, *Le sujet qui fâche. Le centre absent de l'ontologie politique*, Paris, Flammarion, 2007 [1999] (tr. fr. Stathis Kouvélakis)

المؤلفون في سطور:

ميخا أساياس: كاتب ومؤرخ لموسيقى الروك. متخصص في الكتابة عن المعارض (جائزة دي ماجو)Deux Magots 2003. نشر مجموعة من النصوص النقدية بعنوان " في أحد الأماكن المنعزلة "In a lonely place" في دار نشر لو مو إيه لو راست Le Mot et le reste . أشرف على المعجم الجديد للروك الصادر عن دار نشر روبير لافون Robert Laffont (سلسلة الكتب) عام ٢٠١٤.

إيمانويل بوردو: ناقد سينمائي، يكتب على موقع ميديا بارت الإلكتروني، ويشرف على سلسلة دراسات عن السينما في دار نشر لي بريري أوردينار Les prairies ordinaires، ومؤلف كتاب عن المخرج السينمائي فينسنت مانيللي (دار نشر كابريسي Capricci٢٠١١).

فرانسوا كوسيه: أستاذ الدراسات الأمريكية بجامعة باريس غرب نونتار، ومدير فرع دار نشر ليفر دي فرانس Livre de France بنيويورك، وباحث في التاريخ الفكري والسياسي. آخر مؤلفاته "بعيدًا عن كسوف العالم" A L'abri du déclin du monde(دار نشر بي. أو. إل POL). ٢٠١٢.

أوليفييه دوبر: مترجم من اللغة الإيطالية، وصحفي بجريدة بوليتيس Politis الأسبوعية، ويشرف على باب "أفكار/ مناقشات/ دراسات". نشر العديد من المقالات عن الإيدز، والصحة العامة، وتعاطي المخدرات. آخر مؤلفاته "المخدرات: الخروج من المأزق. تجربة الوسائل البديلة لمنع التعاطي" "Drogues: sortir de l'impasse. Expérimenter des alternatives à la prohibition" بالاشتراك مع آن كوبل (دار نشر لا ديكوفارت La Découverte ٢٠١٢).

رازميك كوشيان: مدرس علم الاجتماع بجامعة باريس/ سوربون، ومؤلف كتاب "نصف الكرة اليساري: خريطة الأفكار النقدية الجديدة" "Hémisphère gauche.

"Une cartographie des nouvelles pensées critiques (دار نـشر زون لا ديكوفـارت Zone/ La Découverte، الطبعة الأولى ٢٠١٠، الطبعة الثانية ٢٠١٤، ومؤلف كتـاب "الطبيعة ساحة معركة. دراسة عن علم البيئة الـسياسي" La nature est un champ de bataille. Essai d'écologie politique." (دار نشر زون لا ديكوفارت ٢٠١٤).

جزافييه دي لابورت: منتج في قناة فرنسا الثقافية، ومقدم برنـامج "موقـع دي لاتوال" place de la toile المخصص للثقافات الرقمية، ويعرض يوميًـا الـساعة 8,45 صباحًا على الإنترنت أخبار المجتمع والتكنولوجيا الجديدة. أعد بالاشتراك مـع جـاد لينجارد كتابًا عن الفيلسوف برنار هنري ليفي بعنوان "الخير والشر عند برنار هنـري ليفي" BA. BA du BHL (دار نشر لا ديكوفارت الطبعة الأولى ٢٠٠٥، الطبعة الثانيـة ٢٠١١). عضو لجنة التحرير بمجلة فاكارم Vacarme.

جيروم لاتا: متخصص في علم الاجتماع، ومؤسس موقع "تقارير كرة القدم" عام ١٩٩٧ التي طُبعت ونُشرت شهريًا في الفترة بين عام ٢٠٠٣ وعـام ٢٠٠٩. رئـيس تحرير مجلة نظرات Regards منذ يناير ٢٠١٤.

فريدريك لوردون: مدير معمل سـيرن للأبحـاث، ومؤلـف كتـاب " مجتمـع المـؤثرات فـي بنيـة الـشهوات" Socété des affects. Pour un structuralisme des passions، وكتاب "سوء الإدارة: عملة أوروبية وسـيادة ديمقراطيـة" La malfaçon. Monnaie européenne et souveraineté démocratique. (دار نـشر لـي ليـان ٢٠١٤ Les Liens).

ستيفاني موادون: ناقدة فنية ومندوبة معارض، وعضو جمعيـة كونـسورتيوم، وعضو المركز الفني المعاصر بديجون. رئيسة قسم دراسات ماستر الفنـون المرئيـة بمدرسة كانتونال للفن بلوران، ورئيسة تحرير مجلـة فـروج Frog. آخـر مؤلفاتهـا "الصخور السوداء" Les roches noires ضمن الدراسة الوافية عن جون لوك فيرنـا (دار نشر فلاماريون ٢٠١٤).

بياتريس بريسيادو: فيلسوفة وناشطة في مجال الشذوذ الجنسي، ومديرة برنامج الدراسات المستقلة بمتحف الفن المعاصر ببرشـلونة، ومـديرة مـشروع سـوماتيكا Somatica بمتحف الملكة صوفيا بمدريد. من بين مؤلفاتهـا: كتـاب "بيـان منـاهض

للجنس" Manifeste contra sexuel (دار نشر بالان Balland ٢٠٠٠) وكتــاب "الــسلعة المستعملة: الجنس، المخدرات، والسياسة البيولوجية" Testo junkie. Sexe, drogues et biopolitique(دار نــشر جراســيه Grasset ٢٠٠٨) ، وكتــاب "نمــوذج الإباحيــة" Pronotopie (دار نشر كليما/ فلاماريون Climats / Flammarion جائزة ساد ٢٠١١).

ماتيو ريمي: مدرس اللغة والأدب بجامعة لــورين. تتنــاول أبحاثــه عرضًــا للمجتمع الاستهلاكي في مجال الأدب والثقافة المضادة، وثقافة البوب. آخــر مؤلفاتــه مجموعة القصص القصيرة "الرفقــة" Camaraderie (دار نــشر لوليفييــه L'Olivier ٢٠١٣).

شارلوت لاكوست: مدرس اللغة والأدب الفرنــسي بجامعــة لــورين، وباحثــة بالمحور المتعلق بنصوص البراكسيس بالمركز الإعلامي لأبحاث الاتــصالات واللغــة والفن والثقافة. مؤلفة كتاب " إغــواءات الجــلاد. رفــض الــضحايا" Séduction du barreau. Négation des victimes(دار نشر ٢٠١٠ PUF).

ماتيو تريكوليه: مدرس الفلــسفة بجامعــة التكنولوجيــا ببيلفــورت. تتنــاول أبحاثه علم التحكم الأتوماتيكي، وتاريخ علم الحاسوب، ومفهــوم المعلوماتيــة. آخــر مؤلفاتــه " فلــسفة ألعــاب الفيــديو" Philosophie des jeux vidéo (دار نــشر زون لاديكوفارت ٢٠١١).

سيباستيان فونتونــال: صحفي وآخر مؤلفاته "المنصب المرهق. محاولة مؤلمة" .poste stressante, une enterprise en souffrance (دار نشر لوسوي ٢٠١٣).

جون مارك ماناش: صحفي متخصص في التحقيقات على مواقع الإنترنت منــذ ١٩٩٩؛ المسئول عن مدونة صحيفة لوموند؛ والمشارك في إعــداد الفــيلم الوثــائقي " التاريخ المضاد للإنترنت" لقناة آرتي. آخر مؤلفاته "في بلد كاندي: تحقيق تجار أســلحة المراقبــة الرقمية" Au pays de Candy. Enquête sur les marchands d'armes de surveillance numérique (دار نشر ٢٠١٢ OWNI).

المترجمة في سطور:

د. ناهد عبد الحميد إبراهيم

* أستاذ الترجمة بقسم اللغة الفرنسية – كلية الألسن، جامعة عين شمس، والعميدة السابقة للكلية.

* حاصلة على سعفة فارس من وزارة التعليم الوطني الفرنسية، وعلى جائزة عين شمس التقديرية لنشاطها في مجالي الثقافة والترجمة.

* **إعداد قاموس** الحكم والأمثال والتعبيرات المجازية – وحدة رفاعة للتنمية اللغوية والترجمة كلية الألسن.

* **ترجمت العديد من الكتب منها:**

- رواية دورا بروديه / دار نشر صفصافة.
- رواية السماء تُمطر عصافير / دار نشر صفصافة.
- الصداع النصفي / الهيئة العامة للكتاب.
- آلام الظهر / وحدة رفاعة للتنمية اللغوية والترجمة، كلية الألسن.
- البحث الجنائي، المركز الإفريقي لبحوث ودراسات منع الجريمة.
- الاشتراك في ترجمة الجزء الأول من كتاب "الإرهاب الغربي" لروجيه جارودي / دار نشر الشروق.

* لها العديد من الدراسات والبحوث المنشورة في دوريات عربية وأجنبية في مجالي الترجمة واللسانيات.

المراجعة فى سطور:

د. رشا صالح

حاصلة على دكتوراه فى الأدب المقارن والنقد الأدبى من جامعة السوربون. أستاذ الأدب المقارن والنقد الأدبى المساعد بكلية الآداب، جامعة حلوان. لها عدة أبحاث وترجمات عن الفرنسية.

ي شيباس. وتعرضت رواندا
ى مكان. وأضاءت نيرفانا شعلة
م. وأيقظت الإضرابات الكبيرة
غلوائهم اعتقادًا في هزيمة
ا ظهر زمن آخر مختلف، انبثق
ط برلين، وانهيار البرجين في
ع عدد من الوجوه البارزة، التي
هذا الكتاب الذي يسرد للمرة
من القرن العشرين. إن الحقبة
جة لكتاب يجمع بين الثقافة
مفاجئة والمناطق المستقلة

تصميم الغلاف: مها أبو طالب

فرانسوا كوسيه

تاريخ نقدي لعقد التسعينيات

3203

المركز القومى للترجمة

تاريخ (نقدي

من نهاية ك



إشراف

فرانسوا كوسيه

3203